٢٢٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

قام الطالب بإجراء التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة،،،

المشرف	مناقش	مناقش
د/ علي محمد عودة الغامدي	د/عبدالله سعيد الغامدي	د/محمد حسب الله

١٤١٤/١٢/٢٧

يوصي المجلس بمنح الدرجة بتقدير ممتاز
١٤١٥/١١/١١

مملكة حماة في العصر الأيوبي

(٥٧٤هـ/١١٧٨م - ٦٩٨هـ/١٢٩٩م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد

الطالب / متعب حسين القثامي

إشراف

الأستاذ الدكتور/علي محمد عودة الغامدي

١٤١٣هـ / ١٩٩٣م

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة:- مملكة حماة في العصر الأيوبي "٥٧٤ — ٦٩٨هـ /١١٧٨ — ١٢٩٩م

الدرجة العلمية: ماجستير

الطالب: متعب حسين القثامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. فقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وستة فصول وخاتمة. الفصل الأول عنوانه:"قيام مملكة حماة"وحمل الفصل الثاني عنوان" مملكة حماة في عهد المنصور الأول محمد" والفصل الثالث " مملكة حماة بين الأخوين الناصر قلج أرسلان والمظفر الثاني وعنوان الفصل الرابع " مملكة حماة زمن المنصور الثاني والفصل الخامس " نهاية مملكة حماة" والفصل السادس والاخير تناول مظاهر التطور الحضاري في مملكة حماة خلال العصر الأيوبي .

ولقد توصل البحث الى نتائج مهمة منها.

١- الموقع الاستراتيجي والمهم الذي احتلته حماة خلال الفتره موضع الدراسة حيث كانت ثغرا من ثغور الاسلام في بلاد الشام.

٢- الدور الجهادي الضخم الذي قام به ملوك حماة من بني أيوب ضد الصليبيين والمغول والأرمن

٣- ابراز الاسباب التي جعلت مملكة حماة الأيوبية قائمة تحت ظل الدولة المملوكية مايقارب نصف قرن من الزمان

٤- أسباب سقوط مملكة حماة الأيوبيه وفي مقدمتها انتفاء الصفة الثغرية عنها ، والخلاف بين افراد الأسرة الأيوبيه على تولي الحكم بها.

٥- مدى التطور الذي تمتعت به حماة في شتى نواحي الحضارة على أيدي ملوكها الأيوبيين حتى غدت من عواصم الدولة الاسلاميه .

الطالب :- متعب حسين القثامي

المشرف على الرسالة:- د علي محمد عودة الغامدي

٢٨/١٢/١٤١٤هـ

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

٢٨/١٢/١٤١٤هـ

د عابد محمد السفياني

شكر وتقدير

إلى أمي العزيزة ،

إلى أبي الفاضل ،

إلى أساتذتي في مختلف مراحل التعليم

التي مررت بها ،

إلى كل من مدّ لي يد العون والمساعدة

وشجعني حتى تمكنت من إخراج هذا البحث

إلى حيز الوجود ،

إلى هؤلاء جميعاً

أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان ،،،

متعب حسين القثامي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله وحده وكفى ، والصلاة والسلام على رسوله الذي اصطفى ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واقتفى .

وبعـــــد :

تعتبر مملكة حماة ذات أهمية استراتيجية ، في جهاد الصليبيين خلال العصر الأيوبي ، ولا سيما أنها كانت تواجه قلاع الإسبتارية ، الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لجيوش الصليبيين .

وقد قام المظفر تقي الدين عمر –الذي أقطعه عمه صلاح الدين حماة– بدور بارزٍ في جهاد الصليبيين ، زمن عمه صلاح الدين ، وكان من أبرز قادته ، وكان عمه صلاح الدين يعتبره رجل المهمات الصعبة ، وسيظهر ذلك الدور خلال الحديث عنه .

وكانت مملكة حماة من الممالك الأيوبية الهامة بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، فالمعروف عن الدولة الأيوبية أنه كان يوجد فيها سلطان واحد، وعدة ممالك ، يدين ملوكها بالولاء للسلطان .

وكان لمملكة حماة دور كبير في العلاقات الداخلية بين الممالك الأيوبية منذ وفاة السلطان صلاح الدين ، وحتى غزو المغول بلاد الشام ، وسيقوم البحث بإبراز ذلك الدور .

ويضاف إلى هذا أن مملكة حماة هي المملكة الوحيدة بين الممالك الأيوبية التي نجت من السقوط أمام غزو المغول ، كما أنها هي المملكة الأيوبية الوحيدة التي ظلت قائمة من سنة ٦٥٨هـ ـ ٦٩٨ هـ ، داخل سلطنة المماليك،

وسـوف يشـرح البحـث الأسـباب التـي جعلـت هـذه المملكـة تبقى حتى سنة ٦٩٨ هـ .

كما قامت مملكة حماة بدور قيادي ، في الجهاد ضد المغول والأرمن . ولا سيمـا الأرمن الذين تحـالفوا مع المغـول ، بهدف القضـاء على الإسـلام والمسلمين ، فقد قاد المنصور الثاني الجيش الإسلامي الذي غزا بلاد الأرمن ، زمن السلطان الظاهر بيبرس ، كما أسهمت مملكة حماة بجهود أخرى ضد الأرمن زمن المظفر الثالث .

كما أن لمملكة حماة دوراً هاماً في تطور النواحي الحضارية في بلاد الشام ، خلال العصر الأيوبي ، ولا سيما فيما يتعلق بالحياة العلمية .

وأود أنْ أشير هنا إلى أنني بعد أن حصلت على إفادة ، من فرع مركز الملك فيصل للدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى ، بأن هذا الموضـوع لم يسبق له أنْ نُوقش في جامعات المملكة أو خارجها، حسب المعلومات المتوفرة لدى المركز ، توكلت على الله ، وبدأت في جمع مادة البحث ، وبعد أنْ قطعت فيـها شـوطاً طويلاً ، وقع بين يدي كتـاب ، يقع في مـائتين واثنتين وثلاثين صفحة ، ويحمل عنوان " مملكة حماة الأيوبية " ومؤلفه الأستاذ : أحمد غسان سبانو ، وهو من منشورات دار قتيبة بدمشق، وتاريخ نشره سنة ١٩٨٤م . فتوقفت قليلاً عن جمع مادة بحثي ، ريثما أتفحص هذا الكتاب ، لأعرف هل سأتي في هذا الموضوع بجديد ؟ أم أن الكتاب المذكور أعطى الموضوع حقه من الدراسـة والتـحليل . وبعـد أنْ تأملتُ الكتـاب ملياً ، وجـدت أنّ لديّ من المعلومات ما يضيف شيئاً جديداً وقيّماً للموضوع ، كما أنّ منها ما يكمل نقصاً ، ويصحح خطأً . وسأورد بعضاً من ذلك فيمايلي على سبيل المثال لا الحصر :

– الصفحات من ١٩ إلى ٣٢ – في الكتاب المذكور – تتحدث عن حماة من العصور القديمة حتى عصر الأتابكة ، وهذا خارج عن نطاق البحث .

- الفصل الأول والثاني وجزء من الثالث يشغل في الكتاب الصفحات من ٣٣ إلى ٦٠ ، وهو يقابل الفصل الأول من بحثي هذا الذي يضم تسعاً وثمانين صفحة . وإليك بعضاً من المعلومات التي لم يشر إليها مؤلف الكتاب إطلاقاً ، أو أنه أشار إليها بشكل مقتضب جداً :

* دور المظفر تقي الدين عمر في معركة قرون حماة ضد الزنكيين وأنصارهم .

* تعيين ناصر الدين بن خمارتكين والياً على حماة .

* سبب إعدام السلطان صلاح الدين لأسرى الصليبيين بعد مهاجمتهم حماة .

* دور المظفر تقي الدين عمر في معركة الرملة الشهيرة ضد الصليبيين .

* أسباب ثورة الحمويين ضد المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م .

* دور المظفر تقي الدين في مهاجمة الصليبيين في طبرية وبيسان، ومهاجمة الزنكيين في الموصل ، والاستيلاء على الرّها ، وحرّان ، والرّقة ، وسنجار .

* فترة نيابة المظفر تقي الدين عمر في مصر ، وأعماله هناك ، واتهامه بالتخطيط للاستقلال بها .

* دور المظفر تقي الدين عمر في فتح القدس ، وأعماله بها ، ودوره في معارك عكّا ضد الصليبيين .

* توجه المظفر تقي الدين عمر إلى مناطق شرق الفرات ، وأعماله العسكرية ، ونتائج ذلك على الموقف مع الصليبيين في بلاد الشام ، وموقف كل

من الخلافة العباسية ، والسلطان صلاح الدين من تلك التحركات العسكرية.

– فترة حكم المنصور الأول محمد ، شغلت في الكتاب المذكور ما يقارب العشر صفحات (٦٠ – ٧١) ، وهي تشكل الفصل الثاني من بحثي ، ويربو عدد صفحاته على ستين صفحة ، ومن الإضافات الجديدة التى أضفتها إليه :

* الحوادث التي رافقت اعتلاء المنصور الأول لعرش حماة ، وخلافه مع السلطان صلاح ، الدين وأثر ذلك على الوضع مع الصليبيين .

* موقف مملكة حماة من الحرب الأهلية بين أبناء صلاح الدين ، ونتائج ذلك .

* استيلاء المنصور الأول على بارين : أسبابه ، ونتائجه .

* دور المنصور الأول في المعارك التي خاضها الأيوبيون في مناطق شرق الفرات .

* علاقة المنصور الأول بأبناء السلطان العادل بعد وفاته .

* أثر وفاة المنصور الأول على مملكة حماة ، وقضية مبايعة المظفر الثاني بولاية العهد .

– فترة حكم الناصر قلج ، والمظفر الثاني ، وهي تشغل في كتاب "مملكة حماة الأيوبية " الصفحات من ٧١ إلى ٨٤ ، وهي تقابل الفصل الثالث في بحثي ، والذي تبلغ عدد صفحاته تسع وسبعون صفحة. ومن النقاط التي أضفتها في هذا الفصل مايلي :

* مؤامرة تنصيب الناصر قلج ملكاً على حماة .

* محاولات المظفر الثاني محمود استعادة حقه في مملكة حماة .

* النتائج المهمة والخطيرة التى أسفر عنها منع المعظم عيسى من الاستيلاء على حماة .

* سياسة الناصر قلج الداخلية في حماة ، خاصة العسف والظلم الذي مارسه .

* الأتاوة المالية التي فرضها الصليبيون على حماة بعد ضم المظفر الثاني لبارين .

* الحجج التي ساقها المظفر الثاني لسبب انسحابه من حلف الأشرف المضاد للكامل ، ووساطة الحلبيين – متمثلة في ابن شداد – لإعادة المظفر إلى الحلف .

* مساندة المظفر الثاني للصالح أيوب عند دخوله دمشق ، ودوره في إقناع الجواد يونس بالخروج من دمشق وتلافي الفتنة التي كان يمكن أن تحصل من جرّاء ذلك .

* خطة المظفر الثاني الفاشلة لإنقاذ دمشق .

* دوره في إطلاق سراح الصالح أيوب ، وعلاقته بالخوارزمية .

* العلاقة بين المظفر الثاني والصالح أيوب بعد نجاح الأخير في الاستيلاء على مصر .

* المجلس الذي ساعدالمظفر الثاني في إدارة شؤون مملكته بعد عجزه ومرضه .

– فترة حكم المنصور الثاني ، وتشغل في الكتاب الصفحات من ٨٤ إلى ٩٢ ، وهي تقابل في بحثي هذا الفصل الرابع ، وعدد صفحاته ٩٢ صفحة وهو غني بالمعلومات الجديدة ، وأذكر منها :

* علاقة المنصور الثاني ببقية الممالك الأيوبية التي عاصرها (حلب ،

ودمشق ، وحمص ، والمعظم تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين بمصر).

* تزويج فارس الدين أقطاي بابنة الملك المظفر الثاني ، والنتائج التي ترتبت على ذلك .

* حادثة قتل رسل المغول بحماة ، ونتائجها .

* دور الأشرف موسى صاحب حمص في هدم أسوار حماة ، عندما عينه هولاكو والياً على بلاد الشام .

* قيادة المنصور الثاني لجيش الشام في معركة عين جالوت ، ودوره في تلك المعركة .

* موقف المنصور الثاني من تمرد سنجر الحلبي على سلطة الظاهر بيبرس .

* مهاجمة المغول لحماة ، ودور صاحبها في معركة حمص الأولى ضد المغول .

* إقطاع الظاهر بيبرس بلاد الإسماعيلية للمنصور الثاني .

* اشتراك العسكر الحموي في صد هجمات الأرمن على شمال الشام سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م .

* مهاجمة العسكر الحموي – بقيادة المنصور الثاني – لأنطاكية .

* غزوة المنصور الثاني لبلاد الأرمن بأدقّ تفاصيلها ، مع ذكر نتائجها .

* علاقة المنصور الثاني ببلاد الأسماعيلية زمن السلطان الظاهر بيبرس .

* إسناد قيادة الجيش الحموي إلى الطواشي شجاع الدين مرشد.

* العلاقات المتغيرة بين المنصور الثاني ، والسلطان الظاهر بيبرس .

* دور المنصور الثاني في معركة الأبلستين .

* موقفه من تمرد سنقر الأشقر على السلطان المنصور قلاوون .

* مهاجمة المغول لحماة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م . ودور الجاسوس المسلم الذي دخل حماة ، ودور المنصور في معركة حمص الثانية ضد المغول .

* علاقة المنصور الثاني بالسلطان قلاوون وابنه الصالح علي .

– فترة حكم المظفر الثالث ، وتشغل في الكتاب المذكور حوالي سبع صفحات فقط (٩٢ – ٩٩) ، وهي تقابل عندي في البحث الفصل الخامس وتقارب صفحاته ٤٠ صفحة ، ومن النقاط التي أضفتها مايلي :

* دور المظفر الثالث في فتح حصن المرقب . وكذلك فتح طرابلس وغيرها من الفتوحات التي تمت في عهد السلطان قلاوون .

* دور القوات الحموية في فتح قلعة الروم .

* تزكية لاجين للمظفر الثالث ، وحضه للسلطان قلاوون على إقرار المظفر خلفاً لوالده في حكم حماة .

* أسباب سقوط مملكة حماة .

هذه بعضُ النقاط التي أضافها البحث إلى هذا الموضوع ، وهي كثيرة وسيوضحها البحث بالتفصيل . علماً بأنّ الموضوعات التي أشرت إليها (من استيلاء السلطان صلاح الدين على حماة إلى وفاة المظفر الثالث وانتهاء حكم الأسرة التقوية بحماة) تشغل الفصول الأول والثاني والثالث ، من كتاب "مملكة حماة الأيوبية" . أما الفصول من الرابع إلى السادس ، فهي تتناول فترة النيابة في حماة ، وحكم أبي الفداء إسماعيل ، وابنه الأفضل

ناصر الدين ، وهي صلب الكتاب ، ومادته الرئيسية . وشغلت ما يربو على أربعين صفحة منه ، وهي – كما تعلمون – خارجة عن نطاق بحثي هذا ، فهو ينتهي بسقوط مملكة حماة سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩م . وهي السنة نفسها التي تبدأ منها فترة النيابة ، وتليها فترتا حكم الملك المؤيد أبي الفداء إسماعيل ، وابنه الأفضل ناصر الدين وتستمر حتى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م . كما لا يفوتني أن أذكر أن المؤلف لم يورد ترجمات لمعظم – إن لم يكن كل – الأعلام التي ورد ذكرها في متن البحث ، ولا تعاريف للأماكن والمصطلحات الواردة فيه .

ولقد اعتمدت في بحثي على مصادر كثيرة ومتنوعة ، وحاولت – بقدر ما وفقني الله ، وبقدر ما استطعت – أن أعتمد على المصادر الأولية لكل فترة من فترات البحث . ويأتي في مقدمة تلك المصادر كتاب " الكامل في التاريخ لابن الأثير " لصاحبه عز الدين علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ – ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ – ١٢٣٣م) ، وهو مؤرخ أصيل ، وصاحب فكر ناقد(١) وكتابه هذا جاء جامعاً لحوادث العالم الاسلامي في عصره ، وأفاد البحث عند دراسة الوضع في الدولة الأيوبية إثر وفاة السلطان صلاح الدين، والحرب الأهلية التي اندلعت بين أبنائه ، ويهمنا هنا موقف مملكة حماة منها . فابن الأثير معاصر لكل هذه الحوادث وكان شاهد عيان عليها .

ومن مصادر البحث المهمة كتاب " كنز الدرر وجامع الغرر " لمصنفه (أبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) وهو من أمراء المماليك ومن أصحاب المناصب في الدولة المملوكية ، وكتابه مقسم إلى تسعة أجزاء ، وأفاد البحث من جزئين من كتابه . وهما الجزء السابع وعنوانه

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٢ .

"الدر المطلوب في أخبار بني أيوب" . والجزء الثامن وعنوانه " الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية " وهذا الجزء الأخير بالغ الأهمية ، خاصة عند الحديث عن دور مملكة حماة في القضايا التي وقعت في فترة حكم السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل ، فابن أيبك هنا يكون شاهد عيان ، إضافة إلى علاقته الوثيقة بكبار المسؤولين في الدولة خلال هذه الفترة ، مما يتيح له الاطلاع على خفايا الأمور .

كما أفاد البحث من الجزء الموجود من كتاب " مضمار الحقائق وسر الخلائق " ومؤلف هذا الكتاب هو الملك المنصور محمد الأول بن المظفر تقي الدين عمر ، بن شاهنشاه ، وأفاد البحث في دراسة الفترة التي سبقت تولي المظفر تقي الدين عمر عرش حماة ، وحتى قبيل معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . ودور المظفر الأول تقي الدين عمر السياسي والحربي خلال هذه الفترة ، بما في ذلك نيابته في مصر ، ثم عزله عنها .

ومن مصادر البحث المهمة كذلك مؤلفات ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ، " ٦٣١هـ/١٢٣٣م - ٦٨٤هـ/١٢٨٥م") وكان المذكور من المقربين للناصر يوسف آخر ملوك الدولة الأيوبية في دمشق وحلب ، وقد أفاد البحث من كتابيه " الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " ، وهو يجمع بين الجغرافيا والتاريخ ، وأفاد البحث كثيراً عند دراسة الموقف في بلاد الشام عشية دخول المغول إليها ، وأورد معلومة في غاية الأهمية عن مقتل رسل المغول في حماة ، وقد قام هو نفسه بوساطة بين مملكة حماة والمغول . وكتابه الثاني الذي أفاد منه البحث " تاريخ الظاهر بيبرس " وهو لا يزال مخطوطاً ، وأفاد كثيراً في دراسة العلاقة بين المنصور الثاني صاحب حماة ، والسلطان الظاهر بيبرس ، كما أفاد في إبراز الدور الجهادي لمملكة حماة زمن السلطان الظاهر بيبرس ، ضد المغول ، والصليبيين، والأرمن .

ومن مصادر البحث المهمة كتاب " التاريخ المنصوري " ومؤلفه : محمد بن نظيف الحموي ، المتوفى بعد سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، وهو عبارة عن ملخص لكتاب آخر كبير للمؤلف نفسه سماه " الكشف والبيان في حوادث الزمان " لكنه لا يزال مفقوداً – مع الأسف – ، وأهمية التاريخ المنصوري تأتي في دراسة الوضع في بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين ، والعلاقات بين الممالك الأيوبية في هذه الفترة(١)، كما أنه تناول الحوادث التي دارت في حماة في عهود ثلاثة من ملوكها وهم : المنصور الأول محمد ، والناصر قلج أرسلان ، والمظفر الثاني محمود، حيث أورد معلومات نافعة وجديدة في هذا الإطار .

على أن أهم مصادر البحث على الإطلاق تلك التي سطرتها يد المؤرخ الكبير ، والعالم الجليل ابن واصل (محمد بن سالم بن واصل ، ٦٠٤هـ/١٢٠٨م – ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) ، وقد عاصر ابن واصل عدداً من ملوك الأسرة التقوية الحاكمة بحماة ، ثم انتقل إلى مصر حيث رأى عن كثب كيف انتهت الدولة الأيوبية هناك ، وكيف قامت وريثتها الدولة المملوكية ، وكان من المقربين للسلطان الظاهر بيبرس ، وكان سفيره إلى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة منفرد بن فردريك الثاني(٢).

وكان كتابه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " مصدري الأول والمعوّل عليه في بحثي هذا ، ومعظم أجزاء الكتاب محققة ومطبوعة ، وقد جاء في خمسة أجزاء ينتهي الجزء الخامس منها بحوادث سنة ٦٤٤ هـ ، ويهمّنا فيه الأجزاء من الثاني إلى الخامس ، وفي الجزء الثاني ينقل ابن واصل عن

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤-١٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨ – ١٩ .

مصادر مفقودة ، مما يعطي كتاباته قيمة كبيرة(١). لكن ابتداءً من الجزء الثالث وحتى نهاية الكتاب فإن ابن واصل شاهد عيان ، ليس هذا وحسب ، بل أنه شارك في صنع الحوادث ، ولأنه حموي ، وقضى نصف عمره – تقريباً – في حماة ، فقد أورد عن تاريخها معلومات لا تحصى ، وكلها أولية ، وفي غاية الأهمية ، وقد يسر الله لي الاطلاع على الجزء الذي لا يزال مخطوطاً وهو يتناول الحوادث حتى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م – وذيل عليه أحد تلاميذ ابن واصل ويدعى " علي بن عبدالرحيم بن أحمد الحموي " – إلى حوادث سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م(٢). ومعلوماته أيضاً في غاية الأهمية خاصة عن علاقة المنصور الثاني بالصالح أيوب ، ثم ابنه المعظم تورانشاه وكذلك عن علاقة المنصور مع سلاطين الدولة المملوكية .

ولا يفوتني أن أشير إلى أنني قد استفدت من كتاب ابن واصل الآخر والمسمى " التاريخ الصالحي " وقد قدمه ابن واصل للصالح أيوب ، وأفاد في إلقاء مزيد من الضوء على الحرب الأهلية الثانية بين الأيوبيين . والكتاب مخطوط ، وكنت قد طالعت نسخة مصورة منه في مكتبة أستاذي الدكتور علي محمد الغامدي .

ومن مصادر البحث المهمة كتب الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت ٦٥٥ هـ/١٢٦٧م) ومن كتبه التي أفادت البحث " الروضتين في أخبار الدولتين " ، خاصة في بيان دور المظفر تقي الدين عمر السياسي والحربي زمن عمه السلطان صلاح الدين . وكذلك في الحوادث التي رافقت اعتلاء المنصور الثاني لعرش حماة خلفاً لوالده . وكتابه

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٩-٢٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١، مقدمة المحقق، صفحة "ص".

الآخر " ذيل الروضتين " المعروف بتراجم رجال القرنين السادس والسابع . وقد أفاد في دراسة الفترة الواقعة بين سنتي ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣م – ٦٦٠هـ/١٢٦١م وفي ذكر تراجم بعض الأعلام التي عاصرت هذه الفترة . كما أنني اعتمدت على كتاب آخر لأبي شامة هو " نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية " وهو مخطوط . وأفاد في دراسة العلاقة بين المعظم عيسى صاحب دمشق ، وجلال الدين الخوارزمي سلطان الدولة الخوارزمية ، وذلك بعد هجمات المعظم عيسى على حماة .

ومن مصادر البحث الأولية كتب أبي الفداء الملك المؤيد إسماعيل بن الأفضل علي ، صاحب حماة . المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١ م . وعلى رأسها كتابه القيم " المختصر في أخبار البشر " وأفاد البحث في دراسة حوادث الفصل الخامس . وهي فترة تولي المظفر الثالث حكم حماة ، فكان ابن عمه أبو الفداء ملازماً له في معظم الأوقات ، واشترك معه في حروبه ، وأورد وصفاً دقيقاً لتلك الحروب ، قلما يذكرها أحد غيره ، كما أنه عاصر سقوط الدولة الأيوبية في حماة ، وكان شاهد عيان عليها . كما أفاد البحث من كتابه الآخر "تقويم البلدان " في التعريف بالأماكن الواردة في متن البحث .

ومن أهم مصادر البحث أيضاً كتاب " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " ومؤلفه الأمير ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار مملوك السلطان قلاوون . المتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م . ويهمنا من الكتاب الجزء التاسع فهو يغطي الفترة من سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م إلى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ، وتأتي أهميته من كون مؤلفه من كبار الأمراء المماليك ، والذين تبوّؤا أعلى المناصب ، واطلّعوا على أسرار الدولة . ومنذ عصر السلطان قلاوون ومن جاء بعده وحتى سقوط الدولة الأيوبية في حماة ، يقف كتاب " زبدة الفكرة " على رأس قائمة مصادر هذه الفترة ، وأكثرها شمولية ودقة .

وأفاد البحث كثيراً من كتب الأصفهاني : عماد الدين أبي عبدالله الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني ، المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م . خاصة في كتاباته التي عاصرها ، وشارك في وقائعها ، ويأتي في مقدمتها كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " وأفاد البحث كثيراً في إلقاء الضوء على دور المظفر تقي الدين عمر ، وابنه المنصور محمد ، في عهد السلطان صلاح الدين. ومعلوماته في هذه الفترة قيمة ومفيدة ، كما أن كتابه الآخر " البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان " يتناول الوضع في بلاد الشام بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، والحرب الأهلية بين أبنائه ، وموقف مملكة حماة منها . كما وردت به معلومات قيمة عن الخلاف الذي نشب بين المنصور الأول والسلطان صلاح الدين ، بعد وفاة المظفر الأول مباشرة .

وكذلك أفاد البحث من كتاب الفتح بن علي البنداري، ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م " سنا البرق الشامي " وهو اختصار لكتاب " البرق الشامي" لمؤلفه العماد الأصفهاني . والكتاب الأخير مفقود ، وهذه أهمية كتاب سنا البرق ، وقد أفاد البحث في دراسة مواقف المظفر الأول تقي الدين عمر ، منذ ظهوره على مسرح الحوادث وحتى فتح بيت المقدس .

ومن المصادر المهمة للبحث كتاب " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" خاصة الجزء الثامن منه ، ومؤلفه شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي ، المتوفى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ، فمعلومات هذا الجزء كتبها المؤلف بصفته شاهد عيان ، وقد أفادت البحث في دراسة الوضع في حماة في عهد المنصور الأول محمد وابنيه الناصر قلج والمظفر الثاني محمود ، ومواقف حماة في عهد هؤلاء الملوك من القضايا والحوادث التي شهدتها بلاد الشام ومصر .

وقد ذيل على كتاب مرآة الزمان مؤلف آخر هو اليونيني : قطب الدين

موسى بن محمد اليونيني ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م . وقد أفاد البحث من كتابه " ذيل مرآة الزمان " وخاصة في دراسة مملكة حماة في عصر المنصور الثاني محمد وابنه المظفر ، إذ أنّ اليونيني معاصر لفترة - لا بأس بها - من حكم المنصور الثاني ، وكل فترة حكم خليفته المظفر الثالث. ومعلوماته شاملة ، وبعضها جديد ومفيد .

وأفاد البحث أيضاً من كتابيّ ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ، " معجم البلدان " و " معجم الأدباء " المعروف باسم إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، فالأول لا تخفى أهميته في التعريف بالمواضع التي وردت في البحث ، كما أن الثاني حوى ترجمات أصيلة لأدباء من حماة ، أفادت البحث في فصله السادس الذي تناول النواحي الحضارية .

ومن مصادر البحث المهمة جداً كتاب " جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين المصرية " ومؤلفه كان حياً سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م . والكتاب مخطوط . وتأتي أهميته في أن مؤلفه عاصر بعض الحوادث التي كتب عنها خاصة منذ قيام دولة المماليك ، وأفاد البحث من كتاباته عن هذه الفترة . كما أفاد في دراسة الحرب الأهلية الثانية بين الأيوبيين وموقف مملكة حماة منها ، وعصر المنصور الثاني محمد ، وعلاقته ببقايا الأيوبيين ثم المماليك ، ودوره في حركات الجهاد زمن السلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس .

وأفاد البحث أيضاً من كتاب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٣هـ /١٣٣٢م " نهاية الأرب في فنون الأدب " خاصة جزؤه الحادي والثلاثين ، والذي تناول أواخر حكم المنصور الثاني ، وحكم المظفر الثالث ، وسقوط مملكة حماة الأيوبية ، والمؤلف معاصر لهذه الحوادث وشاهد عيان على وقوعها .

ومن المصادر المتأخرة قليلاً ، والتي أفادت البحث كتاب تاريخ ابن الفرات ، لمؤلفه " ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م " وهو مكون من عدة أجزاء . أهمها الجزء السادس – وهو لا يزال مخطوطاً – وتكمن أهميته في أنه استقى معلوماته من كتاب مفقود هو " الكشف والبيان في حوادث الزمان " لابن نظيف الحموي ، وكان ابن نظيف معاصراً للحوادث التي يكتب عنها ، وأفاد البحث كثيراً من هذا الجزء في دراسة أوضاع مملكة حماة في عصر ملكها المظفر الثاني ، منذ قدومه من مصر ونجاحه في استعادة حقه في عرش حماة ، ودوره في جهاد الصليبيين، ومساندة السلطان الكامل ضد سلاجقة الروم ، وأخيراً دوره في الحرب الأهلية الثانية بين الأيوبيين . ومعلوماته عن هذه الفترة قيمة ، ولها أهميتها.

ومن مصادر البحث الأولية ، ومادته الرئيسية مؤلفات القاضي محي الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبدالله بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م . وكان المذكور كاتب الإنشاء في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثم السلطان قلاوون . كما عاصر جزءاً من فترة حكم الأشرف خليل . وله كتابان أفادا البحث كثيراً . الأول " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " وأفاد في دراسة علاقة المنصور الثاني بالسلطان الظاهر بيبرس ، ودوره في جهاد المغول والصليبيين والأرمن . وكتابه الثاني " تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور " وهو في سيرة السلطان قلاوون ، وأفاد منه البحث في دراسة علاقة المنصور الثاني محمد ، وابنه المظفر الثالث بالسلطان قلاوون .

ومن المصادر المهمة ولكنها جاءت في وقت متأخر نسبياً كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك " ومؤلفه " أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م" ، وهو مؤرخ امتاز بالدقة في إيراد الحقائق ، والاعتماد على مصادر

ووثائق لا تزال أصولها مفقودة(١) . وقد أفاد هذا الكتاب القيم البحث في كافة فصوله .

كما اعتمد البحث على مصادر من نوع التراجم ، منها كتاب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " لمؤلفه موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة الشهير بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م ، وقد ضم كتابه تراجم للعديد من أطباء حماة في الفترة موضع الدراسة ، وأفاد منه البحث في فصله السادس ، في الفقرة الخاصة بالناحية الطبية .

وفضلاً عن هذه المصادر التي أشرت إليها فقد أفاد البحث من مصادر أخرى جمة ، بعضها مخطوط ، والبعض الآخر مطبوع ، كما أفاد البحث من العديد من المراجع الحديثة ، خاصة المترجمة منها . وجميعها مثبتة في حواشي البحث ، وفي قائمة المصادر والمراجع .

ويضم البحث مقدمة ، وستة فصول . تناولت المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ، وبعضاً من النقاط التي استدرك بها البحث على كتابٍ صدر في هذا الموضوع ، وجاءت هذه النقاط على سبيل المثال ، كما تناولت أيضاً دراسة نقدية لبعضِ أهم مصادر البحث ، وتناول الفصل الأول بالدراسة والتحليل موقع حماة ، وحدودها وأهمية ذلك الموقع ، والأجناس والقبائل التي تقطن حماة ، ثم انتقل لشرح كيفية دخول حماة تحت ظل السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكيف تمسك هذا الأخير بها ، ودافع عنها ضد مناوئيه وأعدائه من الزنكيين والصليبيين ، ثم إسناد حكمها لأمراء من قبله ، ثم ناقش الفصل بعد ذلك تعيين المظفر تقي الدين عمر ملكاً على حماة ، متناولاً

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٥ .

بالدراسة أسباب هذا التعيين ، وحجم السلطات الممنوحة له . وأخيراً تناول البحث بالتفصيل نور المظفر تقي الدين عمر السياسي والحربي زمن عمه صلاح الدين ، ابتداءً من ظهوره لأول مرة على ساحة التاريخ عندما كان جندياً في الجيش الذي بعثه نور الدين زنكي إلى مصر ، بقيادة أسد الدين شيركوه ، ومروراً بدوره في مقاومة الهجوم الصليبي على دمياط سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م ؛ وفي ضم السلطان صلاح الدين بلاد الشام لدولته بعد وفاة نور الدين زنكي ، وفي معارك الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، واستعادة بيت المقدس ، وصدّ الحملة الصليبية الثالثة ، وكذلك تولى نيابة مصر ثم عزله عنها وأسباب ذلك ، وانتهاءً بحركاته العسكرية في مناطق شرق الفرات ، ونتائج ذلك ، وانعكاساته على الموقف في بلاد الشام التي تشهد صراعاً بين الصليبيين والمسلمين .

أما الفصل الثاني الذي يحمل عنوان (مملكة حماة في عهد المنصور الأول محمد)، فقد ناقش في البداية كيفية اعتلاء المنصور عرش حماة ، خلفاً لوالده ، رغم أنه لم يكن ولياً للعهد من قبل . وشروطه التي بعث بها إلى السلطان صلاح الدين ، وتفجر الخلاف بين الرجلين ، واتهام المنصور بالتمرد، واقتطاع بعض المناطق التي كانت إقطاعاً لوالده ، وانعكاس ذلك الخلاف على الموقف في بلاد الشام بين المسلمين بقيادة صلاح الدين ، والصليبيين بقيادة ملك انجلترا ريتشرد قلب الأسد ، ثم دور العادل – أخي صلاح الدين – في رأب الصدع بين المنصور والسلطان ، وإقرار الأول على مملكة حماة وتوابعها ، وانتزاع باقي المناطق منه . وناقش أيضاً الدور الذي لعبته حماة أثناء اندلاع الحرب الأهلية (الأولى) بين أبناء صلاح الدين ، وكيف أن ملكها المنصور اتخذ مواقف متنوعة من أطراف النزاع ، بما يتناسب مع مصلحة مملكته ، حتى استطاع في النهاية أن يحافظ عليها من السقوط ، وينجح في إخراجها من دوامة الحرب بمكاسب عديدة . ثم ألقى الضوء على الدور الجهادي لمملكة حماة

زمن المنصور الأول ، وحضوره لصلح الرملة المشهور ، ومقاومته الضارية لفرسان الاسبتارية والداوية نواحي بارين ، ومشاركته للسلطان العادل في هجماته على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ، وكان آخر الأدوار الجهادية لملكة حماة زمن المنصور الأول هو إرساله لابنيه المظفر محمود ، والناصر قلج أرسلان ، على رأس نجدتين من حماة ، الأولى قادها المظفر إلى مصر ، ليشارك السلطان الكامل مقاومته للحملة الصليبية الخامسة ، والثانية تولى قيادتها الناصر قلج أرسلان ، وانضمت إلى المعظم عيسى صاحب دمشق ، الذي يهاجم المراكز الصليبية في بلاد الشام .

وأخيراً ناقش الفصل أثر وفاة المنصور الأول على مملكة حماة ، وهو موضوع له حساسيته ، فقد فقدت حماة بموته ملكاً حكيماً ، بعيد النظر ، استطاع أن ينقذ مملكته ، ويجنبها ويلاتٍ كثيرة ، وقبل وفاته عقد البيعة بولاية العهد لابنه الأكبر المظفر محمود .

أما الفصل الثالث وعنوانه (مملكة حماة بين الأخوين الناصر قلج أرسلان والمظفر الثاني) فقد شرح بالتفصيل المؤامرة التي حاكها كبار المسؤولين في حماة والتي انتهت بتولي الناصر قلج أرسلان الحكم ، وإقصاء أخيه وولي العهد المظفر الثاني محمود والذي كان في مصر عند السلطان الكامل – كما أسلفنا – ، ثم تحدث عن محاولات المظفر في استعادة حقه في الحكم ، واستقراره بمصر ، وتربصه بأخيه الناصر ومساعديه .

وتناول الفصل أيضاً أطماع المعظم عيسى بحماة ، ومحاولته الاستيلاء عليها وانتزاعها من الناصر قلج ، ومعارضة الكامل والأشرف لأطماع أخيهما المعظم في حماة ، وما نتج عن ذلك من نتائج خطيرة ، من جملتها دخول عناصر غير أيوبية بل وغير إسلامية في الصراع بين الأيوبيين كالخوارزميين والصليبيين .

وتطرق الفصل إلى دراسة سياسة الناصر قلج أرسلان التعسفية في حماة . كما شرح بالتفصيل كيفية استعادة المظفر الثاني لحقه المغتصب في عرش حماة ، ومساندة الكامل له في ذلك ، والتي تجلت في اتفاق غزة المشهور الذي أعاد رسم خارطة الدولة الأيوبية كلها .

ثم تناول الفصل بالدراسة والتحليل سياسة المظفر الثاني الاصلاحية في مملكته ، وجهاده ضد الصليبيين ، واشتراكه مع الأيوبيين في محاربة سلاجقة الروم . وأخيراً بيّن الفصل موقف المظفر الثاني من الحرب الأهلية (الثانية) بين الأيوبيين ، وكيف أنه كاد أن يفقد مملكته بسبب عداوته للمجاهد صاحب حمص ، والحلبيين ، واختياره الوقوف ضدهم مع الكامل أولاً ، ثم مع ابنه الصالح أيوب ، كما أشار الفصل إلى علاقة المظفر الثاني بالخلافة العباسية .

وجاء الفصل الرابع تحت عنوان (مملكة حماة زمن المنصور الثاني) وفي بدايته ألقى الضوء على إدارة شؤون حماة من قبل المجلس الذي شكله المظفر الثاني قبل وفاته ، وبلوغ المنصور الثاني سن الرشد ، واستقلاله بشؤون إدارة مملكته ، وعلاقته ببقايا الأيوبيين ، وموقفه من محاولة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، استعادة مصر من المماليك ، ثم تناول الفصل بالتفصيل علاقة المنصور الثاني بالمماليك ابتداءً بالمعز أيبك وشجر الدر ، ومروراً بفارس الدين أقطاي ، والمظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، وابنه السعيد بركة خان ، وانتهاءً بالسلطان قلاوون . وموقفه من الثورات التي قامت في بلاد الشام ضد السلطة المركزية في القاهرة ، وكيف أنه استطاع المحافظة على مملكته حتى غدت المملكة الأيوبية الوحيدة التي لا تزال قائمة في ظل الدولة المملوكية ، كما تناول الفصل بالشرح والمناقشة الدور الجهادي لمملكة حماة زمن المماليك ، ضد الصليبيين ، والمغول ، والأرمن ، وهو دور له قيمته

وتأثيره، ونتائجه المهمة . وتحدث الفصل كذلك عن علاقته ببلاد الإسماعيلية .

أما الفصل الخامس وعنوانه (نهاية مملكة حماة) فقد تحدث في البداية عن الملك المظفر الثالث وعلاقته بسلاطين المماليك الذين عاصرهم ، ودوره في المعارك التي خاضوها ضد الصليبيين والأرمن ، حيث شارك في تحرير طرابلس وعكا وقلعة الروم وغيرها ، كما غزا بلاد الأرمن . وتناول الفصل بالتفصيل العوامل التي أدت إلى انهيار مملكة حماة ، ودور المماليك في إضعاف مملكة حماة مما أدى إلى سقوطها ، وأخيراً تناول الفصل بالدراسة الأيام الأخيرة للدولة الأيوبية في حماة ، من مرض المظفر الثالث ، ووفاته واختلاف أبناء عمه فيمن يخلفه إلى إسناد المماليك نيابة حماة للأمير قراسنقر ، وإسدال الستار على مملكة حماة الأيوبية بعد أن عمرّت أكثر من قرن من الزمان .

أما الفصل السادس وعنوانه (أهم مظاهر التطور الحضاري في مملكة حماة خلال العصر الأيوبي) فقد درس الحياة العلمية في حماة ، وبين الدور الذي لعبه ملوكها في ازدهار الحركة الفكرية بها ، وكذلك أثر موقعها ومعاصرتها للمراكز العلمية في بلاد الشام ومصر في تطور الحياة العلمية بها. كما تناول مدارس حماة خلال هذه الفترة ، وكيفية التدريس فيها ، وتعرض الفصل لدراسة مظاهر التطور الحضاري بحماة من خلال استعراض العلوم التي كانت سائدة بها ، وأهم العلماء الذين برعوا في هذه العلوم . وابتدأ الحديث عن ذلك بعلوم الشريعة ، ثم علوم العربية (النحو واللغة والشعر والأدب والخطابة) والدور الذي اسهم به كبار العلماء في هذا المجال كأبي اليمن الكندي ، وابن مالك ، والصاحب شرف الدين شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصاري ، وخطيب حماة ، ثم تحدث الفصل عن الفلسفة وإسهامات مشاهير علمائها الذين سكنوا حماة كسيف الدين الآمدي ، والتجيبي .

ثـم تناول الفصل بالدراسـة العلـوم الطبيـعيـة (الطب والصـيدلة) حيث تحدث عن كيفية بناء المستشفيات ، ودورها ، وتراجم لأشـهر الأطباء الحمويين . وتناولت الدراسات الطبيعية مجالي الرياضيات والفلك والهندسة ، ودور بعض العلماء مثل علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف .

وناقش الفصل الحالة الاقتصادية في حماة ، ووضع التجارة بها ، كما تطرق إلى مجال الزراعة ، والصناعة ، والناحية العمرانية وطريقة بناء القصور والدور والقلاع والحمامات .

واحـتوى البـحث على خاتمة توضح أهم النتائج التي توصل إليها . ومجموعة من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث الواردة في فصوله .

ووجب عليّ في خـتـام هـذه المقـدمـة أن أتقـدم بجـزيل الشكر وعظيم الامـتنان إلى أسـتـاذي الدكتـور علي مـحـمـد عـودة الغامـدي –المشـرف على الرسالة– والذي كان له –بعد الله– الفضل الأكبر في إخراج هذا البحث حيث لم يتوان في إسداء النصح والتوجيه إليّ ، وقد بذل معي في ذلك جهداً مضنياً وكـان طوال مـراحل البـحث مـثـالاً للمـوجـه المخلص ، والأب الحنون ، كمـا لا يفوتني أن أنوّه بقيمة المصادر التي وفرها لي وأتاح لي فرصة الإطلاع عليها وكانت كلها من المصادر الأولية للبحث . والله أسأل أن يجزيه عنيّ وعن طلابه خير الجزاء ، وأن يمده بعونه وتوفيقه .

ومـن الله أسـتـمـد العـون ، وأرجـو التـوفـيق ، إنه سـمـيع ، قـريب ، مجيب ،،،

١

الفصل الأول
قيام مملكة حماة
(٥٧٤ هـ/١١٧٨م - ٥٨٧ هـ/١١٩١م)

* موقع حماة وأهميته في العصر الأيوبي .
* خضوع حماة للسلطان صلاح الدين الأيوبي .
* صلاح الدين واقطاع حماة لإبن أخيه المظفرتقي الدين عمر .
* دور المظفر تقي الدين عمر السياسي والحربي
  زمن السلطان صلاح الدين .

٢

موقع حماة وأهميته في العصر الأيوبي

تقع مدينة حماة في وسط بلاد الشام ، وتبعد عن دمشق حوالي ٢٠٩كم، وعن حمص(١) ٥٨ كم ، وعن حلب(٢) ١٤٣كم . وترتفع عن سطح البحر ما بين ٢٧٠(٣) و ٣٠٨(٤)مترا وهي – حسب تقسيم الأقاليم الجغرافية – تقع ضمن الإقليم الرابع ، وهو أفضل الأقاليم السبعة(٥) من حيث صحة الهواء ، وعذوبة الماء، إضافة إلى كونه الإقليم المتوسط بين أقاليم الأرض(٦).

ويمر بحماة نهر العاصي ، ويعرف أيضا بالأرند والأرنط والمقلوب، لأنه بعكس أنهار الشام(٧)، حيث يجري من الجنوب إلى الشمال ، أما منبعه

---

(١) حمص : مدينة قديمة ، تقع جنوب حماة وهي إحدى قواعد الشام. أبوالفداء : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ابن الملك الأفضل علي ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢) تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٢) حلب : بلدة عظيمة من قواعد الشام ، تقع على الطريق بين العراق والشام ، وتشتهر بحصانتها . أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٣) أحمد غسان سبانو : مملكة حماة الأيوبية ، دمشق ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٣ .

(٤) أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، شرحه وعلق عليه : الحاج قدري الكيلاني ، حماة ، الطبعة الثانية ، ص ١١٦.

(٥) قسم الجغرافيون العالم إلى سبعة أقاليم ، وهي الأقاليم المسكونة ، وتمتد من الشرق إلى الغرب طولاً ، ومن الجنوب إلى الشمال عرضاً وهي مختلفة عن بعضها في الطول والعرض، وليس بينها حدود طبيعية بل خطوط وهمية ليسهل بواسطتها معرفة حدود الأماكن ومواقعها . القزويني (زكريا بن محمد بن محمد ، ت ٦٨٢ هـ /١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م ، ص ١٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٧) ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ج١، ص ٢٩٠.

هو فمن نواحي بعلبك (١) ، في موضع يسمى اللبوة ، حيث يخترق بحيرة قدس(٢) بالقرب من حمص ، ويجري في غرب حمص ، ومنها إلى الرستن(٣)، ويدخل حماة من غربها . ويجري بمحاذاة مساكن المدينة ، فيحيط بها من الشرق وجزءٍ من الشمال(٤) . ثم يواصل سيره إلى شيزر(٥) ومنها إلى أفامية(٦) ثم يتجاوزها إلى انطاكية(٧) ويمر في جهتها الغربية ثم يصب في البحر المتوسط .

وحماة مدينة قديمة ، ويقال أنها سميت بهذا الاسم لنزول الحماني – وهو كنعان – وإليه تنسب(٨) . ولقد ورد ذكرها في الإسرائيليات وكتب

---

(١) بعلبك : بلدة قديمة من أعمال دمشق ، لها قلعة حصينة، وتبعد عن دمشق ثمانية عشر ميلاً . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٢) بحيرة قدس هي بحيرة حمص وتسمى اليوم بحيرة قطينة . ابن نظيف (محمد بن علي بن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) تحقيق : أبو العيد دودو، دمشق ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٥٢ ، حاشية رقم ٣.

(٣) الرستن : بلدة صغيرة على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حمص وحماة ، ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي . ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩م) معجم البلدان ، بيروت : ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ج٣ ، ص ٤٣ .

(٤) ابن العديم : بغية الطلب ، ج١، ص ٢٩٠. أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٥) شيزر : بلدة تبعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من حماة ، يحيط بها نهر العاصي من ثلاث جهات ، وهي قسمان : قسم واقع ضمن القلعة على رابية وهو " البلد " وقسم على نهر العاصي وهو" المدينة ". انظر : ابن منقذ (أسامة بن منقذ الكناني) "كتاب الإعتبار تحقيق : فيليب حتي ، د.ف. القاهرة ، ص : ت ، ث ، من مقدمة المحقق .

(٦) أفامية : ويقال لها : " فامية " بدون ألف ، وهي مدينة قديمة على مرتفع من الأرض ، ولها بحيرة . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٧) انطاكية : بلدة كبيرة لها سور عظيم وقلعة ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧.

(٨) الحماني بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ابن العديم: بغية الطلب ، ج١ ، ص ١٥٠ .

اليونانيين ، ويقال أن اسمها بالعبرانية " حاموتا " وباليونانية " أبيفانيا"(١).

وحماة – في الفترة موضع الدراسة – تقع في وادٍ كبير وعميق ، وأرضها حمراء اللون ، وهي إلى الاستدارة أقرب منها إلى الامتداد(٢). وتتكون من جزأين لكل منهما سور ، ويعرف الجزء الغربي منها بالسوق الأعلى ، والشرقي بالسوق بالأسفل، والقلعة بينهما ، وفي كل جزء جامع مستقل تقام فيه الخطبة(٣).

ولقد اختلف المؤرخون والرحالة في وصفهم لحماة . فمثلاً يقول الرحالة ابن جبير – الذي زارها في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م – في وصفه لها " مدينة شهيرة ... غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة ، وديارها مركومة ، لا يهش البصر إليها ... فتجد حسنها كامناً فيها"(٤).

وهناك من يصفها بأنها مدينة حسنة ، كثيرة الخضرة ، وتتوفر بها مرافق الحياة الأساسية كالحمامات والأسواق والمدارس(٥).

---

(١) ابن الشحنة الصغير : (محمد بن محمد بن محمد الحلبي، المعروف بابن الشحنة الصغير ت: ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم: عبدالله محمد الدرويش ، سورية : ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٢٦٨ ؛ الدبيساوي (محمد بن محمد ، ت : ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٦ م) الزهر الزاهر في الدلالة على قدرة العزيز القاهر ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم : ١١٩٦ ، عن نسخة مكتبة شستربتي بايرلندة، دبلن ، رقم: ٤٣٦٨ ، ورقة : ٢٨٠ ب .

(٢) ابن فضل الله العمري = (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ، ت :٧٤٩ هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج٢ " دولة المماليك الأولى " تحقيق : دوروتياكر أفولسكي ، المركز الاسلامي للبحوث ، بيروت ، ص ١٩٧ ؛ ابن الشحنة الصغير : الدر المنتخب ، ص ٢٩٦ .

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ، ص ١٤٩ .

(٤) ابن جبير :(أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ، ت : ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك ، المعروف برحلة ابن جبير ، لجنة تحقيق التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م ، ص ٢٠٦ .

(٥) ابن العديم: بغية الطلب ، ج١، ص ١٤٩؛ ابن الشحنة الصغير : الدر المنتخب ص ٢٦٨ .

ولعل سبب التباين في وصفها بين الفريقين التطور الذي شهدته حماة في ظل حكامها من بني أيوب ، وسنستعرض – إن شاء الله – في فصل قادم التطور في حماة في الفترة موضع الدراسة(١).

وتتعاقب على حماة فصول السنة الأربعة ، ففي الربيع يعتدل الجو ، وتزهو البساتين بأنواع كثيرة من الزهور ، وفي الصيف ترتفع درجة الحرارة، ويذوب الثلج ، ولا يمكن ادخاره بها إلى الصيف المقبل كما هي الحال في معظم مناطق الشام . لذلك يضطر أهلها إلى جلبه من المناطق المجاورة(٢). كما تنتشر في هذا الفصل أمراض العيون ، نظراً لحرارة الجو وتشبعه بالغبار. وفي فصل الخريف تسوء حالة الجو ، وتكثر إصابة الأهالي بالحمى المتقطعة . وعندما يحل الشتاء يشتد البرد ، وتغطي الثلوج المناطق المرتفعة ، ومع ذلك فهذا الفصل من أقل الفصول أمراضاً ، والهواء فيه خفيف قليل الرطوبة(٣).

وفي حماة عدد من الجبال أشهرها : قرون حماة(٤)، وهما جبلان يقعان إلى الشمال منها على بعد ٧ كم ، وفي الوقت الحاضر يعرف الكبير منهما بجبل " زين العابدين " ، والصغير بجبل " كفراع " وسُمّيا قرون حماة لأن قاصد حماة – خاصة من جهتي الجنوب والشمال – يستدل برؤيتهما

---

(١) انظر مايلي الفصل السادس من هذا البحث .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج٢ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ .

(٣) أحمد الصابوني ، تاريخ حماة ، ص ١١٧ .

(٤) بعض الباحثين قال عن قرون حماة : إنها مدينة كبيرة بسوريا على جانب نهر العاصي وتتولى الدفاع عنها قلعة حصينة ، وهو خطأ لا شك فيه . انظر : وفاء محمد علي : قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، القاهرة . الطبعة الأولى : ١٤٠٧ هـ ص ٩٤ ، حاشية رقم ٣٩٢ .

على اقترابه منها(١). وإلى الشرق منها جبل كبير يُعرف بكيسون ، وفي جنوبيها وعلى بعد ١٥ كم جبل معرين أو " الأربعين " ويصل ارتفاعه إلى ٦٩٤ متراً . أما في الغرب فتوجد سلسلة جبلية عالية تتخللها المياه وتعرف بسلسلة جبال البهرا(٢).

وبالرغم من مرور نهر العاصي بحماة إلاّ أن أهلها لا ينتفعون به إلاّ في سقي البساتين ، أما في شربهم فيعتمدون على مياه الآبار أكثر من اعتمادهم على مياه النهر وسبب ذلك تراكم الأقذار والجيف وحتى المياه المتسربة من المراحيض والحمامات إلى مياه النهر(٣).

ومملكة حماة – في الفترة التي تتناولها الدراسة – لم تكن ذات حدود ثابتة ودقيقة ، فمساحتها تزيد وتنقص حسب الظروف السياسية(٤) . وسيتضح ذلك – إن شاء الله – في ثنايا البحث ، ولكننا نشير هنا إلى حدود مملكة حماة التي كانت عليها في معظم هذه الفترة . فمن الشرق تحدها " سلمية(٥) ، وبادية الشام ، ومن الشمال : المعرة(٦) ، وشـيزر ، ومن الغرب :

---

(١) ابن الشحنة الصغير: الدر المنتخب ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٨٨ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٠ .

(٢) أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٨٨ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية، ص ٤٠.

(٣) أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٧ .

(٤) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤١ .

(٥) سلمية : بلدة على حافة بادية الشام ، بناها أحد أحفاد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وغالب أهلها من بني هاشم ، وتكثر فيها البساتين . أبو الفداء : تقويم البلدان، ص ٢٦٥ .

(٦) المعرة : وهما معرتان ، معرة مصرين ، ومعرة النعمان ، والأخيرة هي المقصودة هنا ، وهي مدينة جليلة عامرة ، أرضها خصبة ، وتكثر بها المحاصيل الزراعية. أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

مصياف(١) ، وجبل الكلبية ، ومن الجنوب : الرستن . وحول حماة مروج واسعة ، وبراري فسيحة ، تكثر فيها الطيور والوحوش ، لذلك اتخذها الحمويون أماكن للصيد والتنزه (٢).

ومجتمع مملكة حماة يتكون من أجناس متعددة ، من عرب ، وتركمان ، وأكراد ، ومن العرب تسكنها قبائل بني عبد الدار من جهينة ، وشداد من الأنصار ، ومن بني الحسين بن علي ، ومن قبيلتي تنوخ وبهراء اليمنيتين(٣).

وسبق أن ذكرنا أن حماة تقع ضمن الإقليم الرابع ، وأهل هذا الإقليم تتراوح ألوان بشرتهم بين السواد والبياض(٤).

ولقد احتلت حماة مكانة متميزة في عهد الحروب الصليبية ، وذلك بسبب موقعها الجغرافي ، فهي قريبة من حصن الأكراد(٥). وهو من معاقل

---

(١) مصياف : بلدة تقع على جبال مرتفعة ، وتبعد عن حماة بما يعادل مسافة ثمان ساعات من المشي ، أو مسيرة يوم كامل. أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، ج٢ ، ص ١٩٧.

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ، ص ١٥٠.

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٥٦ .

(٥) حصن الأكراد ، ويسمى أيضاً " قلعة الحصن " وبالفرنجية " Crac " أو حصن الاسبتارية " Crac del Opital "، وهي قلعة وقرية في شعاب جبال النصيرية (وادي النضارة) في وسط سورية ، وهي فوق ربوة مرتفعة بمقدار ٢١٠٠ قدم ، وتحيط بها من جميع جهاتها مدرجات متوسطة الانحدار . ويحيط بالقلعة سوران ، الخارجي منهما يحوي عدداً من الشرفات الدفاعية ومقوّاة بحصون بارزة نصف دائرية ، ويحرس البوابة الثانوية الصغيرة (في الواجهة الشمالية) حصنان بارزان ملاصقان لها تماماً . أما واجهتها الشرقية فإضافة إلى ما تتمتع به من حماية طبيعية فإن بها ثلاثة حصون بارزة مستطيلة الشكل تساعد في حمايتها .

وبنيت هذه القلعة في حدود سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣١م ، وشغلتها حامية عسكرية كردية ، وبالتالي نسبة إليها . واستولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩م ، =

الصليبيين في الشام ، وتجاور حماة معاقل الاسماعيلية(١) في جبال بلاد الشام ، وخاصة مركز قيادتهم ، مصياف . ونتج عن ذلك علاقات مباشرة بين مملكة حماة والإسماعيلية .

=== وأصبحت قاعدة للإسبتارية منذ سنة ٥٢٧ هـ / ١١٤٢ م . فولفغانغ مولّر - فينر : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد جلاد ، دار الفكر ، ص ٧٦ - ٧٧ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام " هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة " الاسكندرية ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٣٥ ، حاشية " ١ " .

(١) الاسماعيلية: فرقة شيعية ، تثبت الإمامة في اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م ، ولهم ألقاب أخرى منها : الباطنية - لقولهم أن لكل ظاهر باطناً - ومنها: القرامطة ، والتعليمية،والملحدة لأنهم مزجوا أفكارهم ببعض أفكار اليونان . ومن أشهر قادة الإسماعيلية الحسن بن الصباح الحميري ، الذي كان يقيم بالري ، فاضطر إلى الخروج منها بعد ان اتهمه واليهابالاتصال بدعاة الفاطميين الذين كانوا يبثون الدعوة الاسماعيلية في المنطقة، فخرج إلى مصر، واتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م - ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م)الذي زوده بأسرار الدعوة الاسماعيلية، وزوده أيضاً بمبلغ كبير من المال ، وطلب منه العودة إلى بلاد فارس ، ونشر الدعوة هناك ، فعاد إليها ، ومرّ في طريق عودته بالشام ، وبلاد الجزيرة ، والعراق ، كما زار أيضاً بلاد ما وراء النهر، وأخذ يبث الدعوة في كل بلد يدخله ، واستقر به المقام في قلعة تسمى " ألموت "(ترجمتها بالعربية عش العقاب ، وهي قلعة حصينة بنواحي قزوين) وهناك أظهرالحسن الزهد ، والتقشف ، ،واستطاع بذكائه استمالة عدد كبير من أهل ألموت. وكان الحاكم بالقلعة علوياً ، فاستجاب لهذه الدعوة وآمن بها ، وكان يجتمع بالحسن في القلعة وعندما كثرأتباع هذا الأخير استبد بحكم القلعة ، وسيطرعلى مقاليد الأمور بها، وطرد الحاكم السابق منها ، وجعلها عاصمة له ولأتباعه ، ولم يفتر في بث الدعوة - بواسطة أتباعه - في المناطق المجاورة فانتشرت دعوته وشملت أقاليم متعددة منها فارس وخراسان والشام وحتى الهند ، وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م، انقسمت الدعوة الاسماعيلية إلى قسمين : المستعلية ويجعلون الإمامة في المستعلي الابن الاصغر للمستنصر ، والنزارية يجعلون الإمامة في نزار الإبن الأكبر للمستنصر . وكان الحسن بن الصباح من زعماء النزارية " وعرفوا أيضاً بالحشيشية " ربما لتعاطي بعضهم نبات الحشيش المخدر عند مزاولة بعض مهامهم وتميزت هذه الفرقة بدقة التنظيم ، والسرية التامة ، والطاعة العمياء للقيادة العليا. وتنقسم الفرقة إلى عدة مراتب أعلاها مرتبة " شيخ الجبل " وهي تمثل القيادة العليا . ومن أشهر المراتب مرتبة " الفداوية " وهي المكلفة بتنفيذ الاغتيالات ، ===

ونظراً لأهمية موقع حماة فقد حرصت كل القوى السياسية التى ظهرت في بلاد الشام على ضمها إلى ممتلكاتها ، وحينما نجح صلاح الدين في الاستيلاء عليها اهتم بأمرها ، واعتبرها ثغراً من ثغور دولته في مواجهة الصليبيين(١).

= والتصفية الجسدية للخصوم . وعندما توفي الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤م كان أتباعه بالآلاف . ويسيطرون على مئات القلاع والحصون ، على مساحة شملت عدة أقاليم . وقد ظهرت الإسماعيلية كقوة مؤثرة في بلاد الشام منذ سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م ، عندما استطاع بعض أتباع الحسن بن الصباح من الاستيلاء على مناطق جبلية يصعب اقتحامها وكان مركزها قلعة بانياس وشكلوا بذلك دويلة قوية . ولقد اشترك الاسماعيليون في بلاد الشام في صنع الحوادث السياسية والعسكرية ، وناصبوا الصليبيين – وكذلك المسلمين السنة – العداء في هذه المنطقة . وتلاشى نفوذهم في الشام بعد هجمات قوية ومتلاحقة تعرضوا لها من قبل المماليك . أما اسماعيلية فارس فقد حطمها المغول إبان غزوهم لها سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م. الشهرستاني :(أبو الفتح محمد بن عبد الكريمت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م). الملل والنحل تحقيق : عبد العزيز الوكيل ، بيروت ، ص ١٩١ – ١٩٨ ؛ محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٩٦٧م ، ج٤ ، ص ٢٦٨ – ٢٧٩؛ فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة : كمال اليازجي ، بيروت . الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ م ، ج٢ ، ق ٤ ، ص ٢٤٦ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي مكتبة الطالب الجامعي ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٢٢٧ ، حاشية رقم ٢ ؛ احسان الهي ظهير : الاسماعيلية تاريخ وعقاءدلاهور ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م، ص ١٥٣ – ١٥٨.

(١) ابن شاهنشاه : (الملك محمد بن تقي الدين عمربن شاهنشاه الأيوبي ت ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م) مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة : ١٩٦٨م ، ص ٤ .

١٠

خضوع حماة للسلطان صلاح الدين الأيوبي

كان الوضع الداخلي في مصر قد استقر لصلاح الدين الأيوبي ولا سيما بعد وفاة نور الدين زنكي سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م ، الذي تركت وفاته فراغاً هائلاً خاصة في بلاد الشام والجزيرة(١). واستبد كل أمير بإقطاعه ، بل وطمع كل منهم بممتلكات جاره . وتنفس الصليبيون الصعداء برحيل نور الدين الذي وضعهم بين شقي الرحى بعد ضمه لمصر ، وإن كانت عيونهم لا تزال تراقب تحركات صلاح الدين ، إذ كان هو الشخصية الوحيدة الأكثر جدارة لوراثة مملكة نور الدين ، والقادر على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين .

لذلك ، وفور ظهور بوادر الشقاق في الشام والجزيرة - إثر وفاة نور الدين - اتجهت الأنظار إلى مصر ، حيث يقيم صلاح الدين الذي كان يرى أحقيته بخلافة سيده نور الدين على ممتلكاته ، وفي الوصاية على ابنه الصالح اسماعيل(٢)، الذي كان طفلاً لا يستطيع تحمل أعباء الحكم(٣).

---

(١) الجزيرة هي البلاد الواقعة بين نهري دجلة والفرات ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٣ .

(٢) الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن نور الدين زنكي ، عهد له أبوه بالملك عند وفاته سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، وعمره إحدى عشرة سنة ، ونقل من دمشق إلى حلب ، وتقلصت مملكته حتى غدت قاصرة على حلب ، توفي في رجب سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م ، وعمره دون العشرين . ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ، ت : ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، ج٥ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابن واصل :(جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت : ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، طبعة : ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م، ج٢ ص٧ ؛ سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٠، ص ٤٠.

وخرج صلاح الدين من مصر بعدد قليل من جنوده متوجهاً إلى الشام ، ووصل إلى دمشق في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٢ م واستقبله أمراؤها بالترحاب (١).

واستناب في دمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين(٢). وخرج إلى حمص فاستولى على المدينة وامتنعت عليه القلعة، فوكل بها من يحاصرها . وسار إلى حماة ، وكانت هي وحمص وبارين(٣)وسلمية إقطاعاً لأحد أمراء نور الدين زنكي ، ويدعى فخر الدين مسعود بن الزعفراني ، ولقد اتصف هذا الأمير بالظلم والعسف ، فكرهه الناس ، فلم يستطع المقام بينهم ، واختار الإقامة في حصن بارين . ووزع نوابه في بقية المناطق التابعة له(٤).

وعند اقتراب صلاح الدين من حماة ، خيم في منطقة الرستن ، فخرج إلى لقائه نائب ابن الزعفراني في حماة المدعو (جُرْديك)(٥) فاجتمع به ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٠ .

(٢) سيف الاسلام طغتكين بن أيوب استنابه أخوه صلاح الدين عنه في دمشق فترة قصيرة ثم بعثه إلى اليمن فاستولى عليها، وحكمها ما يقارب الأربعة عشر عاماً ، وتوفي بها في شهر شوال سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٦م ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ؛ المنذري :(أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، ت : ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشار عواد معروف ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ج١ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠؛ الذهبي :(شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان ، ت : ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ج ٢١ ، ص ٣٣٣.

(٣) بارين : بلدة صغيرة من أعمال حماة إلى الجنوب الغربي منها ، على بعد مرحلة منها ، وأقام الصليبيون حصناً بها سنة بضع وثمانين وأربعمائة . والعامة تطلق عليها بعرين وهو خطأ . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٤٥٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢.

(٥) الأمير عز الدين جرديك "جورديك" من مماليك نور الدين زنكي ، لذلك يلقب بالنوري ، اشترك في حملات شيركوه على مصر ، وساهم مع صلاح الدين في اعدام الوزير شاور . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٢ ، حاشية رقم ٣ ، =

ودارت بينهما مفاوضات لكنها لم تسفر عن نتيجة ، فعاد جرديك إلى حماة ، ولم يحاول صلاح الدين منعه من التوجه إليها ، لكنه تحرك في أثره بكامل قواته ، وتمكن من دخول المدينة دون مقاومة تذكر . إلا أن القلعة لم تستسلم إذ تحصن فيها جرديك وأعلن عصيانه(١). ويبدو أن أهالي حماة ضاقوا ذرعاً بحاكمهم ابن الزعفراني ونوابه لذلك لم يقاموا قوات صلاح الدين الذي لم يشأ اقتحام القلعة مع أن باستطاعته فعل ذلك لكثرة قواته إذا ما قورنت بالعساكر المتحصنين داخل القلعة إضافة إلى ضعف حصانة القلعة خلال هذه الفترة(٢). كما لا ننسى وقوف أهالي حماة موقف المتفرج من هذا الصراع .

ولقد فضل صلاح الدين سلوك سبيل المفاوضات ، ونجح في اقناع جرديك بأنه ما جاء من مصر إلاّ ليحافظ على مملكة الملك الصالح إسماعيل ، وطلب منه الذهاب إلى حلب ليكون رسولاً منه إلى زعمائها يدعوهم إلى وحدة الكلمة ، وإطلاق أبناء الداية(٣) المحتجزين في قلعة حلب ، والخضوع لسلطة

= ابن العماد الحنبلي (أبو القاسم عبد الحي بن العماد الحنبلي ت : ١٠٨٩ هـ/١٧٧٥م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٣١٦ .

(١) ابن الأثير : (عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ت : ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، بيروت : ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ؛ ج ١١ ، ص ٤١٨؛ أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ابن إبراهيم المقدسي الشافعي ، ت : ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م) الروضتين ، في أخبار الدولتين، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن نصر الله الحنبلي : (أحمد بن ابراهيم بن نصر الله ، ت : ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، ص ٨٥ – ٨٦ ؛ النويري : (شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب النويري ، ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : محمد عبد الهادي شعيرة ، ١٤١٠ هـ ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٥ .

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ، ص ١٤٩ .

(٣) أبناء الداية ثلاثة وهم : شمس الدين علي ، وحسن ، وعثمان ، من كبار الأمراء النورية اعتقلهم سعد الدين كمشتكين في حلب ، وسجنهم بالقلعة ، وتحكم في البلد بعدهم . ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٨ .

الملك الصالح ، والاستعداد لقتال الصليبيين ، لتحقيق أمنية نور الدين زنكي ، بل أمنية جميع المسلمين في تحريربلاد الاسلام ، وتطهيرها من رجس الصليبيين . واستجاب جرديك لطلب السلطان ، وخرج إلى حلب ، واستخلف بقلعة حماة أخاً له . وليثبت السلطان حسن نيته ، تعهد بعدم مهاجمة القلعة في فترة غياب جرديك عنها ، حتى يعرف جواب زعماء حلب على رسالته . وفور وصول جرديك إلى حلب اعتقله سعد الدين كمشتكين(١) كبير الأمراء بها . واتهمه بالخيانة وأودعه السجن مع أبناء الداية ، ولم يكتف بذلك بل أنزل به أصنافاً من العذاب . ولما وصلت أنباء ذلك إلى السلطان بعث إلى أخي جرديك يخبره بما حدث ، فما كان منه إلاّ أن تنازل عن القلعة للسلطان ، وفتح له أبوابها ، وبذلك دخلت حماة ضمن دولة صلاح الدين ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥٧٠ هـ / ديسمبر ١١٧٤م.(٢)

---

(١) الامير سعد الدين كمشتكين ، من مقدمي الأمراء النورية ، سيطر على حلب بعد قبضه على أبناء الداية ، وأحضر الملك الصالح نور الدين من دمشق بعد وفاة والده وأدخله معه إلى حلب ليتقوى به ، لكن الملك الصالح غضب عليه ودس له من اغتاله سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧م ، ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٤١٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٦٣ .

(٢) البنداري :(الفتح بن علي البنداري ت : ٦٤٣ هـ/١٢٤٥م) سنا البرق الشامي، اختصار الفتح بن علي من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق : فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي بمصر ؛ ١٩٧٩م ، ص ٨٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٧ ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج١ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد ، ت : ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م ، ج ٣ ، ص ٢٠ -٢١؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ ؛ أبو الفداء :(الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ابن الملك المفضل علي ، ت : ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، ج٣ ، ص ٥٦ - ٥٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة : ١٩٨٦م ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ .

ولم يتأخر السلطان عن المضي إلى حلب ، حيث فرض عليها الحصار، وما أن شعر الملك الصالح اسماعيل وأمراؤه بثقل الحصار ، حتى استقر رأيهم على مراسلة الإسماعيلية ، ليخلصوهم – بطريقتهم المشهورة وهي الإغتيال – من السلطان صلاح الدين . غير أن هذه المكيدة افتضح أمرها وتم إحباطها في مهدها . وحينئذ لجأ حكام حلب إلى الاتصال بالصليبيين واتفقوا معهم على مهاجمة المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان . فسارت قوة من الصليبيين وهاجمت حمص(١). فألفى السلطان نفسه يقاتل على جبهتين ، وفي هذا تشتيت لقواته ، فقرر فك الحصار عن حلب والتفرغ لصد الهجوم الصليبي عن حمص ، فتحرك بقواته إليها ، وعندما سمع الصليبيون بقدومه تراجعوا إلى طرابلس(٢) ، زاعمين أنهم نجحوا فيما اتفقوا عليه مع الحلبيين وهو إرغام السلطان على فك حصاره لحلب(٣).

أما السلطان فقد واصل سيره إلى حمص – وكانت المدينة قد خضعت له كما ذكرنا سابقاً – فهاجم قلعتها – وكانت لا تزال متمردة عليه – فانتزعها من حاميتها ، ثم سار إلى بعلبك فاستولى عليها.(٤)

---

(١) هناك من يرى أن الصليبيين هاجموا حماة مراراً بالاتفاق مع الزنكيين في هذه الفترة لإشغال بال صلاح الدين ، وتخفيف ضغطه عليهم ، انظر أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٠ ولم يرد في المصادر التي اطلعت عليها ما يؤيد هذا الرأي .

(٢) طرابلس : مدينة على ساحل البحر ، وتعتبر من سواحل حمص ، بينها وبين دمشق تسعون ميلاً ، استولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩م ، واستعادها المسلمون سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م وخربوها وعمرو على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها. أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٤) ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت : ٦٣٢ هـ/١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ط/١٩٦٤م ، ص ٥٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٤٢٠ ؛أبو شامة: الروضتين ج١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١ – ٣٢ .

وأثناء انشغال السلطان بالاستيلاء على قلعة حمص و بعلبك ، استغل الملك الصالح الفرصة ، واستنجد بابن عمه سيف الدين غازي(١) صاحب الموصل(٢)، وأوضح له الخطر الداهم الذي يهدد أملاك العائلة الزنكية في الشام والجزيرة ، والمتمثل في وجود صلاح الدين في الشام . وطلب منه العون والمساندة لتشكيل قوة مشتركة يكون في مقدورها الصمود في وجه هذا الخطر، بل واجتثاثه من جذوره . ولقد أدرك صاحب الموصل جدية الأمر ، فجهز جيشاً بقيادة أخيه عز الدين مسعود(٣) ، وبمعاونة قائد يدعى عزالدين أحمد الزلفندار ، وأمرهم بالتوجه إلى حلب ونجدة ابن عمه الملك الصالح اسماعيل(٤).

ووصل جيش الموصل إلى حلب ، واستُقبل بالحفاوة والترحاب ولم يمكث بها طويلاً بل خرج منها في صحبة جيشها ، وقصدوا جميعاً حماة ،

---

(١) سيف الدين غازي بن مودود زنكي ، صاحب الموصل ، كان عاقلاً عفيفاً ، حكم الموصل عشر سنوات وثلاثة أشهر ، وتوفي سنة : ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م ، وهو في حدود الثلاثين من عمره . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ .

(٢) الموصل : عاصمة الجزيرة الفراتية ، مدينة عظيمة ، وهي باب العراق ومفتاح فارس ، وقاعدة من قواعد المسلمين ، يمر بها نهر دجلة . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٥ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٣) عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، أبو الفتح ، وأبو المظفر ، استولى على الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م كما استولى على حلب بعهد من صاحبها الملك الصالح بعد وفاته سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠م ، أيضاً . قاوم صلاح الدين في الموصل عدة مرات ، توفي سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٣ ؛ ابن كثير: (أبو الفداء ، الحافظ بن كثير الدمشقي ، ت : ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م) البداية والنهاية ، تحقيق : أحمد أبو ملحم ، علي عطوي ، فؤاد السيد ، مهدي ناصر الدين ، علي عبد الستار ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ج ١٢ ، ص ٣١٠.

التي يتولى إدارة شؤنها الأمير علي بن أبي الفوارس نيابة عن صلاح الدين . وحاصر المهاجمون حماة حصاراً شديداً ، وكانوا يودّون الاستيلاء عليها قبل أن يخف صلاح الدين بجيشه لنجدتها . لكن أمنيتهم لم تتحقق إذ أظهرت حماة صموداً قوياً ، حتى وصل صلاح الدين مسرعاً بجيشه ، الذي كان قليلاً بالمقارنة مع جيوش خصومه . وعندما بلغ خبر قدومه إلى عز الدين مسعود ، تخلى عن حصار حماة ، وانسحب إلى القرب من شيزر(١).

وبعث عز الدين مسعود برسالة إلى النائب بحماة علي بن أبي الفوارس ، يطلب منه التوسط بينه وبين صلاح الدين زاعماً أن هدفه توحيد الكلمة وحقن دماء المسلمين ، وقام ابن أبي الفوارس بعرض هذه المقترحات على صلاح الدين وناشده بإلحاح أن يقبلها " وتلطف في ذلك غاية التلطف"(٢).

ولقد عُرف عن صلاح الدين التقوى والورع ، وإيثار الصلح لذلك لم يتردد في الموافقة على عرض الصلح .

وبناء على هذه الموافقة ، جاء الوفد الزنكي ليتفاوض مع السلطان على شروط الصلح ، وضم الوفد شخصيتين بارزتين هما : سعد الدين كمشتكين، وصالح بن أبي العجمي(٣). وعرض الوفد على السلطان شروطه، المتضمنة الاعتراف الكامل من السلطان صلاح الدين بالتبعية للملك الصالح اسماعيل، واستعادة ما صادره السلطان من أموال وممتلكات في المناطق التي استولى عليها ، والتنازل عن كل المناطق التي احتلها في الشام ، ما عدا

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢.

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ وانظر أيضاً : أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ٢٤٩.

(٣) صالح بن أبي العجمي من كبار الأمراء النورية ، وكان منافساً لسعد الدين كمشتكين في حكومة حلب ، اغتالته الاسماعيلية سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م. واتهم كمشتكين بتدبير مؤامرة اغتياله . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

دمشق ، حيث تبقى بحوزته ، على أن يكون نائباً بها عن الملك الصالح إسماعيل وليس له حرية التصرف فيها .(١)

وهذا يعني هدم الكيان السياسي الذي شرع السلطان في بنائه في بلاد الشام ، وتجريده من معظم ممتلكاته بما فيها مدينة حماة ذات الموقع المهم في مواجهة الصليبيين .

وكم كانت دهشة الوفد الزنكي كبيرة ، عندما وافق السلطان على هذه الشروط، دون الاعتراض على أيٍّ منها !.

واعتقد الوفد الزنكي أن موافقة السلطان – الغير متوقعة – على شروط الصلح ، ناتجة عن ضعف موقفه . وزاد من قوة اعتقادهم رؤيتهم لقلة جيش السلطان(٢) – وربما كانت معرفة حجم قوات السلطان إحدى مهمات الوفد – وبناءً على هذا الاعتقاد أرادوا فرض شرط جديد ، ليجعلوا السلطان أمام خيارين لا ثالث لهما . إما أن يوافق عليه – كما فعل مع سابقيه – وفي هذا زيادة في إضعافه . أو أن يرفضه – وهذه أمنيتهم – فيكون مبرراً كافياً لإعلان الحرب عليه ، هذه الحرب التي ظنوا أنهم قادرون على كسبها، ليتخلصوا وإلى الأبد من خطره الذي يهددهم صباح مساء .

وتمثل الشرط الجديد في طلبهم أن يتنازل السلطان عن الرحبة.(٣) لكن السلطان – الذي كسب الرأي العام بموافقته على الشروط السابقة ،

---

(١) البنداري: سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٤٢١ ؛ أبو شامة : الروضتين : ج١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٢ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ .

(٣) الرحبة : مدينة على الفرات ، وهي من ديار بكر، ولها قلعة على تل ترابي . أبو الفداء تقويم البلدان ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٤ – ٣٥ . الدبيساوي: الزهر الزاهر ، ورقة : ٢٩١ ب .

وظهوره بمظهر القائد المسلم الذي يفضل التنازل عن أجزاء من مملكته في سبيل حقن دماء المسلمين وتوحيد كلمتهم(١) - رفض الموافقة على هذا الشرط، محتجاً بأن الرحبة إقطاع لابن عمه ناصر الدين(٢) بن شيركوه ، منذ زمن نور الدين زنكي ، ولم تكن من ضمن المناطق التي استولى عليها بعد قدومه من مصر.(٣)

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ملح وهو : كيف وافق السلطان على التنازل عن مملكته التي أقامها في الشام في هذه الفترة ، واكتفى بدمشق مع التبعية للملك الصالح إسماعيل ولم يوافق على التنازل عن الرحبة ؟ علماً بأنه يدرك بأن نتيجة رفضه تعني الحرب مع خصومه .

وإذا أردنا استقصاء سبب ذلك فإننا نجد عدة أسباب لا سبباً واحداً.

أولها : إن الرحبة إقطاع تفضل به نور الدين زنكي على أسد الدين شيركوه وبعد وفاته أصبح ابنه ناصر الدين وريثاً له في إقطاعه .

ثانيها : لم يشأ السلطان إحلال الشقاق في البيت الأيوبي ، في وقت هو فيه أحوج ما يكون لتوحيد الكلمة وتنظيم الصف ، لأن انتزاع الرحبة من ابن عمه سيغضبه ، مما يفقد السلطان أحد أنصاره المقربين اليه، وربما استغل خصومه هذه الفرصة .

ثالثها : ربما كان قبول السلطان للشروط السابقة قبولاً مؤقتاً أراد

---

(١) وفاء محمد على : قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، ص ٩٤ .

(٢) الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، ملك الرحبة بعد وفاة والده سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، واقطعه صلاح الدين حمص ، وتوفي بها سنة ٥٨١ هـ /١١٨٥م ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

به كسب الوقت إلى حين وصول الإمدادات التي بعث يطلبها من أخيه العادل في مصر(١).

رابعها : إن موافقة السلطان صلاح الدين على الشروط الأولى لا تعني ضعفه ، وأن سعيه لحقن دماء المسلمين ليس دليلاً على تناقص قوته . فهو لا يزال في مركز جيد وبإمكانه رفض طلب خصومه ، والإصرار على عدم التنازل عن الرحبة حتى وإن كان ذلك سيؤدي إلى اندلاع الحرب بين الطرفين .

ولما رفض صلاح الدين الموافقة على الشرط الإضافي عاد الوفد الزنكي إلى معسكره ، بعد فشل مهمته ، ولكنه عاد موقناً بضعف قوات صلاح الدين وإمكانية إلحاق الهزيمة به . وما أن علم عز الدين مسعود بضعف قوات صلاح الدين حتى أصدر أوامره إلى جنوده بالاستعداد الفوري لخوض المعركة(٢).

أما في الجانب الآخر فكان صلاح الدين يخشى المواجهة ، ويتردد في خوض معركة هو الطرف الأضعف فيها ، فأخذ يماطل الزنكيين ويسوفهم بينما هم يعزمون كل يوم على شن الهجوم عليه لكنه " يبطل عزمهم بمراسلة يفتعلها"(٣) على أمل أن تصله النجدة التي طلبها من مصر والتي وصلت بالفعل إلى دمشق(٤).

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، أبو الفداء: المختصر ، ج٣ ، ص ٥٧.

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ إبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٠.

وعند سماع الزنكيين نبأ وصول هذه النجدة إلى دمشق هجموا على قوات صلاح الدين عند قرون حماة ليحولوا بينه وبين الاستفادة من تلك النجدة، فلم يجد صلاح الدين بداً من مواجهة أعدائه ، وكان جيشه يتكون من فرقة واحدة ، وهو دليل على قلة عدده ، وأظهر صلاح الدين صبراً وشجاعة فائقة ، واستمر القتال عنيفاً ، وتحرج موقف صلاح الدين وأخذ جيشه في التراخي ساعة بعد ساعة . وفجأة وصل إلى ساحة المعركة المدد القادم من مصر يتزعمه عشرة من الأمراء منهم : شهاب الدين الحارمي – خال صلاح الدين ، وتقي الدين محمود عمر ، وعز الدين فرخشاه(١) ابني أخيه ، فانفرجت بمقدمهم كربة السلطان وسُرَّ بهم (٢)، ولسان حاله يردد البيت القائل :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت ، وكنت أظنها لا تفرج

وعلى الفور شكل المدد القادم ميمنة وميسرة اندفعتا إلى ساحة المعركة فحققتا عنصر المفاجأة – وهو عنصر كان ولا يزال من أكبر العناصر المؤثرة في مجريات الحروب – وارتبك الجيش الزنكي ، وانفرط عقد نظامه فولى منهزماً لا يلوي على شيء ، وأسرع المنهزمون إلى حلب وتحصنوا بها(٣).

---

(١) الملك عز الدين فرخشاه " فروخشاه " يكنى بأبي سعيد ، بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب استنابه عمه صلاح الدين على دمشق ، وأقطعه بعلبك ، وكان كبير الثقة به والاعتماد عليه . توفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م . ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٤ ؛ ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ج ٦ ، ص ٦٣.

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٢.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٢٣ .

ولم يتتبع صلاح الدين آثار المنهزمين ، واكتفى بالاستيلاء على ما تركوه من غنائم (١).

ولقد كان للمدد القادم من مصر الدور الأكبر في انتصار السلطان صلاح الدين في هذه المعركة ، التي عرفت بمعركة " قرون حماة ". وقد قام تقي الدين عمر – أحد زعماء المدد – بدور مهم في هذه المعركة وأظهر شجاعة نادرة . وقد امتدحه الكاتب العماد الأصفهاني(٢) بقصيدة تشيد بدوره فيها(٣).

ونتجت عن معركة قرون حماة التي وقعت في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠ هـ /١١٧٥م نتائج عديدة ، منها زحف صلاح الدين بجيشه إلى حلب ومحاصرتها للمرة الثانية، ولم يتخل عن حصارها إلا بعد اعتراف الزنكيين له بالسلطة فيما استولى عليه من مناطق ببلاد الشام وزادوه كفرطاب(٤)، والمعرة ، وتعهدوا بعدم الوقوف في وجهه شريطة ألاّ يتوسع ملكه

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٠ ؛ ابن أبي الدم :(أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الحموي ، ت : ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م) ؛ التاريخ المظفري صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم : ١١٣١، عن نسخة مكتبة خدا بخش بالهند برقم ٢٨٦٩ ، لوحة ٢٩٥؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

(٢) القاضي والوزير عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م ، كان كاتباً للإنشاء في عهد نور الدين ثم انضم إلى صلاح الدين وكان كاتباً له ووزيراً ، وله كتب ورسائل مشهورة . توفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٧ – ١٥٢ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١، ص ٣٤٥ – ٣٥٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣، ومن أبيات هذه القصيدة :

أوما اتقيتم حين رعتم سربه فيه تقي الدين ذاك الأروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر أركان ملك الشام حين تضعضعا

(٤) كفر طاب : بلدة صغيرة من جند حمص على الطريق بين المعرة وشيزر . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

في المستقبل على حسابهم(١).

وانسحب صلاح الدين من أمام أسوار حلب ، وعاد إلى حماة حيث وافته رسل الخليفة المستضيء(٢) تحمل له التقليد بولايات مصر واليمن وما بحوزته من بلاد الشام ، وما سيضمه من أملاك جديدة في المستقبل(٣).

وتقليد الخليفة اعتراف منه بشرعية ضم صلاح الدين لما استولى عليه من مناطق الشام بما فيها حماة ، وشجع هذا الاعتراف صلاح الدين على توسيع رقعة مملكته ، فتحرك من حماة إلى بارين واستولى عليها بعد حصار قصير، وذلك في شهر شوال سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م(٤) وبقيت بأيدي نوابه حتى سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨م ، حين أقطعها للأمير شمس الدين بن المقدم(٥)

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٨ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ المقريزي : (أحمد بن علي المقريزي ، ت : ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة . الطبعة الثانية ، ١٩٥٦م ، ج١ ، ق ١ ، ص ٥٩ .

(٢) المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد الخليفة العباسي ، تولى الخلافة بعد أبيه سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠م توفي سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م؛ السيوطي :(جلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر ، ت : ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ص ٤٠٩ – ٤١٣ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٨٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٢٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤ ؛ الذهبي : (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٧٤ م) . دول الاسلام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة : ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٥) الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، من كبار الأمراء النورية ثم الصلاحية ، تولى نيابة بعض المناطق مثل دمشق وبعلبك وأعطى عدة إقطاعات، تولى إمرة الحج الشامي سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م ، وقتل في منى بعد فتنة بين حجاج الشام والعراق ، وحزن صلاح الدين لوفاته . ابن الأثير : الكامل ، ج١١، ص ٢١٢، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ – ٢٥٢ .

تعويضاً له عن بعلبك التي انتزعها منه السلطان في هذه السنة.(١)

وبعد أن رتب أحوال بارين ، عاد صلاح الدين إلى حماة ، حيث أجرى تغييراً مهماً في إدارتها ، تمثل في عزل الأمير علي بن أبي الفوارس عن نيابتها ، وإقطاعها لخاله الأمير شهاب الدين الحارمي.(٢)

ولم تذكر المصادر سبب هذا التغيير إلاّ أن هناك من يرى أن الضغوط التي تعرض لها صلاح الدين من قبل الزنكيين والصليبيين هي سبب هذا التغيير ، إضافة إلى ثقته الكبيرة بخاله شهاب الدين الحارمي.(٣)

وإنني إذ أتفق مع ما جاء في الشق الثاني من هذا الرأي وهو المتعلق بثقة صلاح الدين بخاله والتي تفوق بكثير ثقته بنائبه على حماة ، إلاّ أن الشق الأول من الرأي السالف الذكر الذي يتحدث عن ضغوط زنكية وصليبية على حماة بحاجة إلى نقاش . فعلي ابن أبي الفوارس تولى النيابة في حماة مدة قصيرة لا تتجاوز الستة أشهر ، ابتدأت في جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م(٤)، وانتهت في شوال من السنة نفسها(٥). وخلال هذه المدة لم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٣٩٦ ؛ ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م) التاريخ الصالحي ، مخطوطة ، نسخة مصورة بمكتبة د. علي الغامدي . ورقة ١٩٩ أ ؛ العليمي (مجير الدين بن عبدالرحمن العليمي المقدسي ، ت : ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) التاريخ المعتبر في أنباء من عبر ، نسخة مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، برقم ١٣٧٥ ، عن نسخة جامعة برنستون " مجموعة يهوذا " رقم ٢٢٦٣ ، ج١ ، ورقة ٧٠ أ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٢٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأوربية ، ص ٤٠ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٤ . وقد ذكر أحمد غسان في كتابه ، مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٤ ، أن حماة أُقطعت لشهاب الدين الحارمي في شوال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، والصحيح هو ما أثبتناه .

تتعرض حماة لأي هجوم صليبي ، وعندما فرض الزنكيون عليها الحصار ، صمدت أمامهم ، وكان للنائب بها دور في صمودها .

وأرى أن من العناصر المهمة في هذه النقطة أنّ صلاح الدين أقطع حماة لخاله شهاب الدين ولم يعينه بها نائباً كما كان ابن أبي الفوارس . وهناك فرق بين الاقطاع والنيابة(١). فكأنّ صلاح الدين كان يضع في حسابه أن تعيينه لإبن أبي الفوارس سيكون مؤقتاً ،ريثما يصل خاله شهاب الدين من مصر ، فَيُقْطِعُهُ حماة باعتبارها اقطاعاً يليق به .

وبينما كان صلاح الدين ينظم شئون المناطق التي استولى عليها ، كان الزنكيون يخططون للثأر من هزيمتهم في قرون حماة ، فجاء سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل بجيشه وبصحبته أميري حصن كيفا(٢) وماردين(٣)وهما من الأراتقة(٤) فدخل حلب حيث انضم إليه جيشها وفلول

---

(١) أحدث صلاح الدين اقطاعاً مختلفاً في بعض نواحيه عن الاقطاع الزنكي . فقد تشابه الاقطاعان في كونهما يمنحان مقابل الخدمات الحربية التي يقوم بها المقطع . وتميز الاقطاع الأيوبي بأنه لم يكن اقطاعاً وراثياً ، ولا يمنح المقطع أي سيادة على أراضي الاقطاع ، وليس له إلاّمجرد الحق في أن يجمع لنفسه وجنده مبلغاً معيناً من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التي كان ملزماً بأدائها . عبدالله سعيد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ وانظر أيضاً : سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت، ١٩٧٧م ص ١٤٢ - ١٤٧ ؛ إبراهيم طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط ، القاهرة ١٣٨٨ هـ؛ طلال العصيمي : الاقطاع الحربي في العصر الأيوبي،رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م .

(٢) حصن كيفا : مدينة من ديار بكر على نهر دجلة بين جزيرة ابن عمر وميافارقين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) ماردين : حصن من بلاد الجزيرة به قلعة حصينة مبنية على جبل يضرب بحصانتها المثل . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) الأراتقة : ينسبون إلى أرتق بن اكسك التركماني . كان من مماليك السلطان ملك شاه السلجوقي واشترك معه في حروبه ضد البيزنطيين ، وقرامطة البحرين ، =

جيشه السابق وخرج بالجميع وعسكر بتل السلطان.(١)

أما صلاح الدين فإنه عند سماعه بهذه التحركات الزنكية قام بترتيب قواته وترك أثقاله بحماة ، وخرج إلى تل السلطان حيث التقى مع خصومه في معركة قوية في أحد أيام شهر شوال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، وحقق صلاح الدين انتصاراً جديداً على الجيش الزنكي الذي فرّ أفراده إلى حلب وتحصنوا بها.(٢)

ومن الملاحظ أن حماة كانت مركزاً لتحركات صلاح الدين أثناء حروبه مع الزنكيين في هذه الفترة ، كما كانت هدفاً دائماً لخصومه الزنكيين(٣).

واستثمر السلطان صلاح الدين انتصاره في تل السلطان باحتلال عدة مناطق منها بزاغا(٤)، ومنبج(٥) ، وعزاز(٦) التي تعرض أثناء حصاره

== ثم في بلاد الشام . وأقطعه تاج الدولة تتش القدس سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، وتوفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م . وطُرد أبناؤه من القدس إلى بلاد الجزيرة . حيث أقاموا لهم عدة إمارات هناك . عماد الدين خليل : الامارات الأرتقية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م . بيروت ، ص ٥٧ – ٨٧ .

(١) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة على طريق دمشق وتنزل به القوافل . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢ .

(٢) (ابن أبي الهيجاء ، ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) . تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، نسخة مصورة على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١٠٥٨ ، عن نسخة المكتبة الأحمدية بتونس رقم ٤٩١٥ ورقة ١٧٥ أ – ب ، البنداري : سنا البرق ، ص٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨ – ٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٧ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٩١ – ٩٢ ، وقد خلط كثيراً بين معركتي قرون حماة وتل السلطان .

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ص ٣٩ .

(٤) بزاغا : ضيعة من أعمال جند قنسرين ، شمال شرق حلب وعلى بعد مرحلة منها. أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٥) منبج : مدينة قديمة من جند قنسرين على أطراف بادية الشام . أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٧١ .

(٦) عزاز : وربما قيلت بالألف " اعزاز " بليدة شمالي حلب بينهما مسافة يوم . ==

لها لمحاولة اغتيال خطيرة قام بها بعض الاسماعيلية . وقد ساهم ابن أبي الفوارس في إحباط هذه المحاولة.(١)

وعند احتلال صلاح الدين لعزاز أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر في أواخر سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م(٢). ويبدو أن صلاح الدين قصد إشغال بال الزنكيين في حلب فاختار ابن أخيه ليكون حاكماً لعزاز القريبة منهم .

وبعد ترتيب أوضاع عزاز ، زحف صلاح الدين إلى حلب وحاصرها لكنه تخلى عنها بعد صلح عقده مع صاحبها الملك الصالح إسماعيل ، وتنازل بموجبه صلاح الدين عن عزاز، بعد أن طلبتها منه ابنة صغيرة لسيده نور الدين زنكي أثناء مفاوضات الصلح(٣).

وبعد أن اطمأن صلاح الدين على جبهته مع الزنكيين ، اتجه إلى معاقل الإسماعيلية ، للانتقام منهم بعد محاولتهم لاغتياله . فحاصر معقلهم مصياف سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، وأغارت قواته على مناطقهم الأخرى وعاثت فيها ، ولم يرفع صلاح الدين الحصار عن مصياف إلاّ بعد تدخل خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة .(٤)

وبعد الانتهاء من معاقبة الاسماعيلية ،عاد صلاح الدين بجيشه إلى

== أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٨.

(١) ومحاولة الاغتيال قام بها أربعة من طائفة الاسماعيلية كانوا قد اختفوا بين الجنود وتزينوا بزيهم . وتمكن أحدهم من ضرب السلطان على رأسه ووجهه وزصيب ببعض الجروح ، وتمكن أصحاب السلطان من قتل المهاجمين .
البنداري : سنا البرق ، ص ١٠٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٤٥.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) تاريخ ابن أبي الهيجا ، ج١ ، ورقة ١٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص ٤٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٣٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢١٥ .

حماة حيث التقى فيها بأخيه المعظم توران شاه(٢) وتوجها معاً إلى دمشق ، فتولى توران شاه نيابتها ، فيما غادرها صلاح الدين متوجهاً إلى مصر(٢).

وكان الصليبيون يراقبون باهتمام تحركات صلاح الدين في بلاد الشام رغم الهدنة القائمة بين الطرفين منذ سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م ، والتي كان من بنودها السماح للصليبيين في الشام بتقديم المساندة لأي حملة صليبية قادمة بعد الفشل في اقناع تلك الحملة بوجود هدنة بينهم وبين المسلمين(٣).

وقد شكل هذا البند ثغرةً استغلها الصليبيون لمهاجمة المناطق الاسلامية ، عندما وصلت إلى الشام حملة جديدة بقيادة فيليب الألزاسي(٤)، أو " اقلندس " (٥) وقد وصفه الاصفهاني بأنه " كند كبير يقال له كند أفكنت"(٦) وانضم إليه صليبيو الشام ليقوموا بهجوم ضد مناطق إسلامية.(٧)

---

(١) الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الأخ الأكبر للسلطان صلاح الدين ، وكان السلطان يحترمه ، غزا بلاد النوبة سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م . وعين له نواباً بها وعاد إلى الشام سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦م ، واستنابه السلطان بدمشق سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م ، ثم في بعلبك ، وأقطعه الاسكندرية سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨م، وتوفي بها بعد سنتين . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٣٠٦ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٥٣ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ١٠٩ ،أبو شامة :الروضتين ، ج٢ ص ٢٦١– ٢٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٤٨ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ١٣٥ – ١٣٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨١.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٥٩١ ؛ سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ، بيروت : ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ص ٣٦٣ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٦) البنداري : سنا البرق ، ص ١٣٥ .

(٧) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

واختار الصليبيون مدينة حماة لتكون هدفاً لهم دفعهم إلى ذلك أسباب عدة : فصلاح الدين مقيم في مصر بمعظم جيشه.(١) وشهاب الدين الحارمي – صاحب حماة – مريض على فراش الموت وهو عاجز عن تنظيم الدفاع عنها.(٢) فيما الملك المعظم توران شاه غارق في لهوه وملذاته بدمشق وهو لا يملك من القوة ما يستطيع به تقديم المساعدة لحماة(٣). كما أن حماة كانت قريبة جداً من المناطق الخاضعة للصليبيين ، واستيلاؤهم عليها يحقق لهم فصل شمال الشام عن جنوبه، الأمر الذي يتيح لهم ضرب كل من القسمين على حدة . وأوردت بعض المصادر سبباً إضافياً دفع الصليبيين لمهاجمة حماة ، وهو استغلالهم لهزيمة صلاح الدين في موقعة الرملة المشهورة.(٤) ولقد جانب الصواب أصحاب هذا الرأي ، فالصليبيون هاجموا حماة في

---

(١) العليمي : (مجير الدين بن عبد الرحمن العليمي ، المقدسي ، ت : ٩٢٨ هـ/ ١٥٢١م) كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، رقم ١٢٠٦ ، عن نسخة المتحف البريطاني ، رقم ١٥٤٤ورقة ١٠٨ ب ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٧٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٣١٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٦٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

(٤) الرملة : بلدة بفلسطين بنيت في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٦٦-٩٩هـ / ٧١٤ – ٧١٧ م) وهي في سهل من الأرض بينها وبين القدس مسيرة يوم . وتعتبر قصبة فلسطين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٧٦ ب . الجـزري : (محمد بن محمد بن محمد الجزري، ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) تاريخ الجزري ، صورة بمكتبة الحرم المكي ، برقم ٣١٣٧، عن نسخة مكتبة عارف حكمت ، ورقة ١٩٩ أ ؛ العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا ورقة ١٠٨ ب ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٨٧ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد ، بيروت ، ج ٣ ، ص ٦٤ ؛ ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) تتمة المختصر في أخبار البشر " تاريخ ابن الوردي " تحقيق : أحمد رفعت البدراوي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٩٤ – ٩٥ .

شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م ، بينما وقعت معركة الرملة في شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها.(١)

ومهما يكن من أمر فإن القوات الصليبية حاصرت حماة أربعة أيام(٢). شنت خلالها عدة هجمات عنيفة ، تمكن المهاجمون في بعضها من التوغل داخل بعض أحياء المدينة وطرقاتها . لكن المسلمين قاوموا الهجمات ببسالة ، وتواصل القتال بين الطرفين ليلاً ونهاراً . وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين ،إثر نجاحهم في اخراج المعتدين من الأحياء التي توغلوا فيها(٣). ولعبت فرقة عسكرية يقودها سيف الدين المشطوب(٤) دوراً مهماً في صمود

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ١٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٥٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٩٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٤ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ص ٢٧٥ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢١٨ ، المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٦٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٩٥ ، على أنّ هناك مصادر ذكرت أن الصليبيين حاصروا حماة أربعة أشهر ، والصحيح هو ما أثبتناه ، ويبدو أنّ سبب هذا الخلط محاصرة الصليبيين لحارم لمدة أربعة أشهر بعد انسحابهم من منطقةحماة مباشرة ، ومن هذه المصادر التي خلطت بين الأمرين : ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ١٩٩ ب – ٢٠٠ أ ؛ تاريخ الجزيري ، ورقة ١٩٩ أ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ٨٧ : العبر ، ج ٣ ، ص ٦٤ ؛ الحريري (أحمد بن علي بن أحمد) الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، تحقيق : مهدي رزق الله ، الاسكندرية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

(٤) الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب ، لشطبة كانت بوجهه ، ووصف بأنه ملك الأكراد الهكارية لطاعتهم له . اشترك في حملات أسد الدين شيركوه على مصر . وكان يعرف بالأمير الكبير ، بحيث إذا أطلق هذا اللقب عُرف أن المقصود به المشطوب، ولقد ساهم في الجهاد ضد الصليبيين ، ولعب دوراً مهماً في الصراع حول عكا . أقطعه صلاح الدين نابلس وتوفي بها ، وقيل في القدس ، سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ . تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ٢٠٠ ب ؛ مؤلف مجهول ، انسان العيون في مشاهير سادس القرون ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١٣١٠ ، عن نسخة مكتبة جامعة بغداد للدراسات العليا رقم ٢٤٨ ، لوحة ٧٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ص ١٨٢ – ١٨٤ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١، ص ٢٢٩.

حماة ، فقد تمكنت هذه الفرقة من دخول حماة قبيل فرض الحصار عليها(١) . ولقد شجع صمود حماة تدفق المجاهدين إليها من المناطق المجاورة.(٢)

وعندما كثرت الإصابات في الصليبيين وتبين لهم فشل هجومهم انسحبوا مخلفين وراءهم ما يقارب الألف قتيل ، وأعداداً أخرى من الأسرى والمصابين(٣).

وبعد رحيل الصليبيين عن حماة ، توفي صاحبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، فأصبحت حماة بدون حاكم(٤).

ولقد أدرك صلاح الدين العواقب الوخيمة المترتبة على سقوط حماة في أيدي الصليبيين ، لذلك نظم صفوفه ، وخرج من مصر قاصداً بلاد الشام بعد مرور شهرين فقط على هزيمته في الرملة ، ليذب عن حماة ويثبت لأعدائه أن الهزيمة رغم قساوتها لن تمنعه عن السعي الجاد للمحافظة على أملاكه . وقد وصل إلى الشام وعسكر بالقرب من حمص(٥).

أما الصليبيون فقد تشجعوا كثيراً بعد انتصارهم في الرملة ، ولاحظوا اهتمام صلاح الدين الكبير بحماة فقرروا تكرار محاولة احتلالها مستغلين العدد القليل الذي تتكون منه حاميتها (٦). كما استغلوا فرصة وفاة صاحبها شهاب الدين الحارمي وعدم وجود من يخلفه في منصبه ، فتقدمت جموعهم إليها ، لكن حاميتها تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم وبذل قائد الحامية ناصر الدين بن(٧) خمارتكين جهداً كبيراً في إحباط

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ورقة ١٧٧ أ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ١٣٦ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ٦٠ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص ٦٥ .

(٦) البنداري : سنا البرق ، ص ١٥٥وذكر أن عدد رجال الحامية مائة رجل فقط .

(٧) الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين أقره صلاح الدين على حصن أبي قبيس خلفاً لوالده ، وكان والده الأمير ناصح الدين – وقيل ناصر الدين – خمارتكين فكان من أمراء صلاح الدين ، وبيده حصن أبي قبيس وقد استشهد على أيدي الاسماعيلية=

الهجوم الصليبي ، ويبدو أن خطته – التي استطاع بواسطتها هزيمة الصليبيين – كانت تعتمد على نصب الكمائن ، أو ما نسميه في وقتنا الحاضر بحرب العصابات ، حيث " أخذ عليهم المضايق ، وصوب إليهم البوايق ، فوقعوا في فخاخه "(١) ولقد فوجيء الصليبيون بقوة المقاومة فانهزموا مخلفين وراءهم عددا من القتلى والأسرى(٢).

أما ناصر الدين خمارتكين فقد ساق الأسرى إلى حيث يقيم صلاح الدين خارج حمص ، وأُستقبل في المعسكر بالحفاوة والترحاب . وأما الأسرى فقد أصدر صلاح الدين أمراً بإعدامهم بعد أن ثبت أنهم من طائفتي الداوية(٣) والاسبتارية(٤) وهما ألدّ الصليبيين عداوة للمسلمين .

سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بعد أن كشف أمرهم وهم في طريقهم لمحاولة اغتيال صلاح الدين بمعسكره خارج حلب . تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ورقة ١٧٤ أ، أبو شامة : الرضتين ج١، ص ٢٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ١٥٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٤٥٠ .

(٣) الداوية : طائفة من فرسان الهيكل " المعبد" " Templers " أسسها الفرنسي هيو باينز (Hughde Payens) . ومنحه بلدوين الأول ملك بيت المقدس ساحة المسجد الأقصى مقراً لطائفته سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م ، وكانت أولى مهام هذه الطائفة التي نشأت على أساس حربي – حراسة الطريق بين يافا وبيت المقدس ، وتطورت مع الأيام حتى غدت تسيطر على كثير من القلاع والحصون في بلاد الشام ، وقليقية ، وأسهمت في جميع الحملات والاعتداءات الصليبية على بلاد المسلمين ، وكانت خاضعة للبابوية مباشرة التي أوقفت عليها ممتلكات وضياعاً كثيرة في غرب أوربا مما جعلها مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام ، وكان شعار هذه الطائفة الصليب الأحمر ، علي الغامدي : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قليقية . مستلة من كتاب بحوث تاريخية ، (١ – ٢) ، الجمعية التاريخية السعودية ١٤١١هـ/١٩٩١ م . ص ٣١٩ حاشية رقم ١٥ .

(٤) الاسبتارية: فرقة من الفرسان الصليبيين بدأت كجمعية للاعتناء بالمرضى، ثم انتمت إلى البابوية ، ونذر أفرادها أنفسهم لقتال المسلمين وبدأت أعمالهم الحربية سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م وكانت إحدى دعامتي استمرار الحكم الصليبي في أرض المسلمين ، علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢١٧ ، حاشية رقم ٤ .

صلاح الدين واقطاع حماة لإبن أخيه المظفر تقي الدين عمر

قبل الحديث عن اقطاع حماة لتقي الدين عمر يجدر بنا إلقاء الضوء على نشأته ومعرفة شيء عن بداية حياته .

هو الملك المظفر أبو سعيد تقي الدين عمر(١) ، ولد سنة ٥٣٤ هـ /١١٣٦م(٢). وليس معروفاً على وجه الدقة مكان ولادته . ولكن من المرجح أنه وُلد في بلاد الشام حيث كانت تقيم أسرته(٣).

أما أبوه فهو الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب . وهو أخو صلاح الدين وأكبر أبناء نجم الدين أيوب وقد استشهد على أبواب دمشق، عند قيام الصليبيين بهجومهم المشهور عليها زمن الحملة الصليبية

---

(١) انظر ترجمته في العماد الأصفهاني (عماد الدين أبو عبدالله بن صفي الدين الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني ت : ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) خريدة القصر وجريدة العصر "بداية قسم شعراء الشام" تحقيق شكري فيصل ، دمشق : ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ص ٨٠ - ٨٥ ؛ المنذري : التكملة ، ج١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٠٢ ؛ العبر، ج ٣ ، ص ٩٤ ؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ؛ السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، ج ٧ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٧ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ ؛ خير الدين الزركلي : الأعلام ، بيروت ١٩٨٦م ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة : ٣٥٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣، ص٤٥٧.

(٣) ذكر خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام ، ج ٥ ، ص ٤٧ ؛ أنه ولد في الفيوم ، وهو أمر مستبعد لأن مصر في ذلك الوقت كانت تحت حكم الفاطميين ، بينما أسرة نجم الدين أيوب تقيم في بلاد الشام في خدمة آل زنكي .

الثانية سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م(١). وخلّف شاهنشاه ولدين هما: عز الدين فرخشاه، وتقي الدين عمر، وابنة واحدة اسمها عذراء وقد توفيت سنة ٥٩٣ هـ /١١٩٦م، وهي التي بنت المدرسة العذراوية بدمشق(٢).

وتلقى تقي الدين عمر الحديث والعلوم الشرعية عن شيخين جليلين هما : الحافظ السلفي(٣) وأبو طاهر إسماعيل بن عوف(٤) . وقد التقى بهما

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٣٨؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص ٤٥٢-٤٥٣ ؛ الذهبي (شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م) تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م؛ الطبقة الثانية والستون، ص ٣٤٢؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٤١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب، ص ٤٩ ؛ الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي، ت ١٢٠٥ هـ/ ١٧٨٩ م) ترويح القلوب بذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٤٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص ٤٥٢ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٤١؛ النعيمي (عبد القادر بن محمد الدمشقي ت ٩٧٨ هـ/١٥٧٠ م) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق : ابراهيم شمس الدين، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠ م، ج١، ص ٢٨٣ .

(٣) أحمد بن محمد بن سلفه، صدر الدين، أبو طاهر السلفي، حافظ مكثر ولد سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، وأصله من أصبهان، بُنيت له مدرسة في الاسكندرية، وأقام فيها، ألّف عدداً من الكتب، وتوفي بالاسكندرية سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م . أبو شامة:الروضتين ج٢، ص ١٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٥؛ الذهبي : أعلام النبلاء، ج٢١، ص ٥ ؛ العبر، ج٣، ص ٧١ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص ٣٢-٤١ ؛ الأسنوي (جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، ت ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م) طبقات الشافعية، تحقيق : كمال يوسف الجوت، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص ٣٣٩؛ ابن قنفد القسنطيني (أحمد بن حسين بن الخطيب المعروف بابن قنفد، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الوفيات، تحقيق : عادل نويهض، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ؛ ابن قاضي شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن قاضي شهبة الدمشقي، ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨ م)، طبقات الشافعية، تحقيق : الحافظ عبد العليم خان، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، المجلد الأول، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ الزركلي : الأعلام، ج١، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤) الفقيه أبو طاهر إسماعيل بن عوف الزهري، شيخ الاسكندرية في زمانه، توفي سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م، وعمره ست وتسعون سنة ؛ الذهبي : أعلام النبلاء، ج٢١، ص ١٥٧.

في الاسكندرية(١).

واشترك تقي الدين عمر في مهمات كثيرة مع عمه صلاح الدين قبل اقطاعه حماة(٢).

رأينا كيف أن حماة أمست بدون حاكم بعد وفاة صاحبها شهاب الدين الحارمي ، وكيف تولى قائد حاميتها ناصر الدين بن خمارتكين مسئولية الدفاع عنها عند تعرضها للهجوم الصليبي الثاني ، ولقد ذكر أحد الباحثين أن صلاح الدين أسند ولاية حماة لإبن خمارتكين لبضعة أشهر ثم انتزعها منه(٣).

و مهما يكن من أمر فإن صلاح الدين لم يكن ليترك حماة بدون حاكم وهي التي كانت هدفاً دائماً للصليبيين . فقام باقطاعها لابن أخيه تقي الدين عمر سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨م(٤) وتلقب بالملك المظفر ، وقيل إن عمه زاده على

---

(١) الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٠٢ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٧ ، ص ٢٤٢ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٤٥ .

(٢) انظر مايلي ص ٣٧ - ٨٩ .

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٧ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٣ ؛أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

حماة المعرة ومنبج(١) ، وأفامية وقلعة نجم(٢).

ولم يقرر صلاح الدين اقطاع حماة لابن أخيه الملك المظفر إلاّ بعد تفكير عميق ، إذ أن حماة كانت ثغراً من ثغور المسلمين في مواجهة الصليبين، وهي بحاجة إلى ملك متمرس في الحروب ، محبٍ للجهاد ، مخلصٍ للبيت الأيوبي ، وقد توفرت هذه الميزات في تقي الدين عمر مما دفع السلطان لإقطاعه إياها(٣).

وكانت من أولى المهمات التي أنيطت بصاحب حماة الجديد مراقبة الصليبيين ورصد تحركاتهم خاصة في أنطاكية(٤).

وكانت عملية اقطاع حماة للمظفر تقي الدين عمر جزءاً من عملية تنظيم وتحصين واسعة قام بها صلاح الدين لمواجهة خطط الصليبيين الهادفة

---

(١) ذكر ابن شداد في كتابه "سيرة صلاح الدين" ص ١٧٣ أن منبج ظلت تابعة لحلب حتى سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م ونقلها عنه أيضاً أبو شامة : الروضتين ج٢ ، ص ٧١ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٠ ب ، الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص ٦٥ ؛ تاريخ الجزري ، ورقة ١٩٩ ب ؛ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ، ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق : سعيد عاشور ، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٨٨ . وأضاف أن صلاح الدين أقطع تقي الدين عمر بالاضافة إلى حماة والمعرة منطقة البقاعين [والبقاعان هما : البقاع اللبعلبكي نسبة إلى بعلبك ، والبقاع العزيزي نسبة إلى العزيز عكس الذليل ، أو نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين] انظر الجوهر الثمين ، ص ٢٨٨ ، حاشية رقم ٢ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ١٦٣. وقلعة نجم ، قلعة حصينة على جبل ، مطلة على الفرات ، ولها جسر تعبره القوافل بين حران والشام ، وهي قريبة من منبج . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٩١ .

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٨ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ج٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٧٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦١ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٧ ؛ عبدالله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، ص ١٠٥.

إلى تشتيت قواته على طول حدوده المشتركة معهم.(١)

وعندما بعث صلاح الدين ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى حماة أرسل معه سيف الدين المشطوب ، وشمس الدين بن المقدم ، وأوكل بالأول مسئولية الدفاع عن نواحي بعلبك(٢) ، بينما تولى الثاني إدارة شئون حصن بارين وكفرطاب وبعض القرى التابعة للمعرة ، على أن يكون كلا الأميرين تابعين للملك المظفر المقيم بحماة.(٣)

وحينما اقترب الملك المظفر ومرافقوه من حماة ، خرج أهل البلد للترحيب به(٤) ، فدخل حماة وبعث نوابه إلى بقية المناطق التابعة له(٥).

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ ؛ السيد الباز العريني . الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧م ، ص ٨٥ ، أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٤٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٧٤ ؛ابن كثير: البداية والنهاية ،ج ١٢، ص ٣٢٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص١٦٣؛

• وذكر ابن أيبك أن المظفر تقي الدين عمر نازل طرابلس سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، والتقى مع صاحبها في معركة قوية واستشهد فيها أميران كبيران هما سيف الدين غازي بن المشطوب ، وشمس الدين بن المقدم . وهذه الرواية غير صحيحة على الإطلاق . انظر: ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : سعيد عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م ، ص ٥٦ .

(٤) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٦٠ .

(٥) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٠ ب ؛ الذهبي: العبر ، ج٣ ، ص ٦٥ .

دور المظفر تقي الدين عمر السياسي والحربي زمن السلطان صلاح الدين

ما من شك أن المظفر تقي الدين عمر ساهم بقدر كبير في معظم الحوادث السياسية والعسكرية التي عاصرها والمتعلقة بقيام الدولة الأيوبية وحركة الجهاد الضخمة التي قامت بها ضد الصليبيين .

ومن المرجح إشتراك المظفر تقي الدين عمر في حملات أسد الدين شيركوه(١) على مصر ، أو على الأقل في الحملة الأخيرة منها . فقد اشترك مع شهاب الدين الحارمي في قيادة الفرقة العسكرية التي أرسلها صلاح الدين للدفاع عن دمياط(٢) سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩م عندما تعرضت لهجوم مشترك قام به الصليبيون والبيزنطيون ، وقد ساهمت هذه الفرقة في صمود دمياط ومقاومتها للحصار الذي فرض عليها حتى اضطر المهاجمون إلى فك الحصار عنها(٣).

ويبدو أن المظفر تقي الدين عمر قد عاد إلى بلاد الشام بعد زوال الخطر عن دمياط ، وبقي هناك حتى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٣ م فجاء مع باقي

---

(١) أسد الدين شيركوه الملك المنصور بن شاذي بن مروان . نشأ بتكريت وقدم الشام مع أخيه نجم الدين أيوب ، خدم نور الدين زنكي وصار من أكبر أمرائه وقائداً لجيشه ، وكان بطلاً شجاعاً ، غزا مصر ثلاث مرات ، واستقر فيها بعد الحملة الأخيرة ، وقضى على الوزير شاور وأصبح وزيراً للعاضد الفاطمي ولم يهنأ بمنصبه هذا أكثر من ثلاثة أشهر حيث وافته المنية في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م . الذهبي : أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص ٥٨٧ - ٥٨٩ ؛ العبر ، ج٣ ، ص ٤٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢١١ .

(٢) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ورشيد . على زاوية بين بحر الروم المالح والنيل ، وهي ثغر من ثغور الإسلام . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٥ .

(٣) ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٧٣ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ،ج٦، ص٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٥٦٠ ؛ الأيوبيون والمماليك ، ص ٢٣- ٢٤ ؛ قدري القلعجي : صلاح الدين الأيوبي ، دار الكتاب العربي، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

أفـراد البـيت الأيوبي تلبـيـة للدعـوة التي تلقـوها من صـلاح الدين سـنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م بعـد أن أصبح رجل مـصـر الأول . ومـا أن وصلت الأسـرة الأيوبية إلى مصر حتى قام صلاح الدين باقطاع أفرادهـا – ومن بينهم تقي الدين عمر – اقطاعات عديدة(١).

ولقد رافق التغييرات التي حـدثت في مصـر في هذه الفتـرة –والتي تمثلت في اسـقـاط الدولة الفـاطمـيـة وانفـراد صـلاح الدين بالزعـامـة – اضطرابات داخلية منها امتناع بعض القبائل عن أداء الزكاة ، وتفاقم خطر قطاع الطرق الذي أضعف من تدفق البضائع إلى الأسواق . فاضطر صلاح الدين إلى الخروج بجيشه من القاهرة إلى الاسكندرية ، وهناك عقد اجتماعاً مع كبار القادة تقرر في نهايته ارسال فرقة عسكرية يزيد عدد أفرادها على الخمسـمـائة رجل ويتولى قيادتها تقي الدين عمر ، إلى إقليم برقة (٢) في محـاولة لضمـه إلى مصـر للإفادة من مـحاصيل ذلك الإقليم في توفير المؤن الغذائية لجيش صلاح الدين(٣).

ويبـدو أن هذا القـرار لم ينفـذ بسـبب الخـلاف الذي بدأ يظهـر بين صـلاح الدين ونور الدين زنكي ، والذي دفع صلاح الدين لعقد اجتمـاع مع كبار قادة جيشه لمناقشة هذه القضية . وسأل صلاح الدين المجتمعين عن رأيهم في القضيـة ، فالتـزم الجميـع الصمت ، حتى انبرى تقي الدين عمر ليعلن – بحماسة الشباب – أنه يقترح مواجهة نور الدين بالقوة العسكرية إذا

---

(١) ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ،ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦م) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بيروت القسم الأول ص ٩٣ .

(٢) برقة : إقليم كبير بين الاسـكندرية وأفريقية ، يضم عدة مـدن ، وبها فواكه كثيرة ، وخيرات واسعة . ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٣٨٨ – ٣٨٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٨ .

أراد إخراجهم من مصر ، لكن نجم الدين أيوب (١) عارض هذا الإقتراح ، ونهر حفيده تقي الدين . وانفض الاجتماع دون اتخاذ أي قرار ، ثم اجتمع نجم الدين بولده صلاح الدين ووبخهُ على طريقته التي أدار بها الاجتماع وأخبره بأن هناك من الحاضرين من يميل إلى نور الدين فيجب عدم التصريح أمامهم بنيته لمقاومة نور الدين ، حتى لا تصل الأخبار بذلك إلى نور الدين فيتحرك لحربهم(٢).

وبعد وفاة نور الدين زنكي ، ونجاح صلاح الدين في ضم بعض مناطق الشام إلى مملكته ،عاد صلاح الدين إلى مصر وبرفقته بعض الأمراء منهم تقي الدين عمر ، ومكث في مصر حتى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م فخرج بجيشه لغزو بعض المناطق الصليبية فتوغل بقواته حتى وصل عسقلان(٣) وحاصر بها بلدوين الرابع (٤) ملك بيت المقدس(٥) ، وشجعه ذلك على زيادة

---

(١) نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان – والد الملوك – جاء من تكريت إلى الشام وتولى نيابة بعلبك لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين . وكان من رجال العالم عقلاً وحكمة . توفي بمصر سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧١م . ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م ودفن بها . الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٠ ، ص ٥٨٩ – ٥٩٠ .

(٢) ابن الأثير: الكامل ، ج١١ ، ص ٣٧٢ ؛ ابن الأثير : (عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق: عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ٨١ ، العبر ، ج٣ ، ص ٤٩ – ٥٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٨ ؛ تاريخ الجزري ، ورقة ١٩٤ ب ؛ المقريزي : السلوك ج١ ، ق ١ ، ص ٤٦ ؛ سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ٣١ ؛ ويذكر ابن شداد في " سيرة صلاح الدين " ص ٤٧ ، رواية مخالفة جداً لهذه الرواية . كما شكك أحد الباحثين في صحة الرواية التي ذكرناها . انظر قدري القلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٣) عسقلان : بلد على ساحل البحر تبعد عن غزة اثنا عشر ميلاً وعن الرملة ثمانية عشر ميلاً وهي من ثغور الاسلام . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٤) بلدوين الرابع بن عموري الأول ملك بيت المقدس خلف والده في الحكم سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م تميز بمواهب عالية ، وتوفي سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥م؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٥٧٩ .

(٥) بيت المقدس : أشهر مدن فلسطين ، استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م.=

التوغل في الأراضي الخاضعة للصليبيين حتى وصل الرملة ، وهناك فوجيء بهجوم صليبي صاعق في الأيام الأولى من جمادى الآخرة سنة ٥٧٣هـ/نوفمبر ١١٧٧ م ، وأسفر ذلك عن هزيمة كبيرة لصلاح الدين ، بل كانت " أفدح هزيمة في حياته "(١) . وعدها ابن شداد كسراً أصاب المسلمين لم يجبره إلاّ انتصارهم في حطين(٢).

ولقد أشادت المصادر ببسالة تقي الدين في هذه المعركة حيث قدم فيها تضحيات جسيمة ، فباشر القتال بنفسه ودافع عن عمه صلاح الدين ، وفقد فيها عدداً من أصحابه ، منهم ابنه أحمد الذي كان من أحسن الشباب حيث أمره والده تقي الدين بالحملة على الصليبيين فحمل عليهم وقاتلهم قتالاً شديداً وأثر فيهم تأثيراً بالغاً وعاد إلى والده سالماً ، فأمره أبوه بالعودة ثانية فعاد يقاتلهم فوقع شهيداً(٣). وهذا دليل على مدى اقدام تقي الدين وحبه للجهاد في سبيل الله فلم يظن بابنه فلذة كبده من أن يمضي شهيداً في سبيل الله ، بل هو الذي دفعه إلى طريق الشهادة ، وهذا المثل الفريد في التضحية يعيد إلى الأذهان ما كان يفعله صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وما يقدمونه من تضحيات في سبيل إعلاء كلمة الله .

وبعد هزيمته في الرملة أعاد صلاح الدين تنظيم جيشه وقدم إلى

= أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(١) رنسي . سميل : الحروب الصليبية ، ترجمة سامي هاشم ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٣٦.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٣ ؛ وانظر أيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية ،ج١٢، ص ٣١٧ ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٩٣ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ١٩٩ ب ؛ تاريخ الجزري ، ورقة ١٩٩ أ ؛ البنداري: سنا البرق ، ص ١٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ٥٩ – ٦٠ ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص ٦٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢، ص ٣١٧ – ٣١٨ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٧٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨، ص ٣٩٣ .

الشام ، لإنقاذ حماة من الخطر الصليبي المحدق بها . وقام باقطاعها لابن أخيه تقي الدين عمر ، وبينما كان صلاح الدين في الشام جاءه رسل قلج أرسلان الثاني(١) سلطان سلاجقة الروم يطلبون منه التنازل عن حصن رعبان(٢) ، بحجة أنه من أملاك السلاجقة ، وقد أخذه منهم نور الدين زنكي ويجب الآن إعادته لحوزتهم ، ولكن صلاح الدين رفض التنازل عن حصن رعبان(٣).

فاستغل قلج أرسلان الثاني انشغال صلاح الدين بالإستعداد لخوض معركة مع الصليبيين ، واستولى على حصن رعبان ، فعهد صلاح الدين إلى المظفر تقي الدين عمر باستعادة الحصن . وبينما كان صلاح الدين مشتبكاً مع الصليبيين في معركة مرج عيون في أوائل سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م كان تقي الدين عمر يخوض معركة أخرى ضد سلاجقة الروم .(٤)

ومُني الجيش السلجوقي الذي فاق عدده وعدته جيش المظفر تقي الدين بهزيمة خاطفة وسريعة (٥). وقد اعتمد تقي الدين على عنصر المفاجأة ، حيث نجح في ادخال قواته إلى

---

(١) السلطان عز الدين قلج أرسلان الثاني بن السلطان مسعود، توفي بقونية سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ، بعد حكم استمر زهاء ثلاثين عاماً ، وكان محباً للعدل عارفاً بالسياسة . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٤١١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ٦١ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢١١ – ٢١٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤، ص ٢٩٥ .

(٢) حصن رعبان : مدينة صغيرة قديمة ، وقلعة تحت جبل بين حلب وسميساط . ابن العديم : بغية الطلب ، ج١ ، ص ٢٥٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥١ – ٥٢ . ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين استولى على هذه المدينة سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م.

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٧ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٩ .

(٤) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق ، ص ١٨-١٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٢٣.

(٥) البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٩ – ١٠ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦١ .

معسكر الجيش السلجوقي بعد أن قسمها إلى مجموعات صغيرة ومع كل مجموعة كوسات (١) ، وطلب منهم الاختباء بين جنود السلاجقة حتى إذا أعطاهم إشارة البدء . انقضت كل مجموعة على من يليها من الجنود وهي تضرب كوساتها . وبالفعل تفاجأ جنود السلاجقة ، وانزعجوا عند سماعهم أصوات الكوسات ، وأصابهم الاضطراب ، فانهزم معظمهم ، وسقط بعضهم قتيلاً وأسر آخرون ، وساعد على نجاح هذه الخطة عدم وجود حراسة على معسكر السلاجقة وقد كان معظمهم يغط في نومه لأن العملية تم تنفيذها ليلاً(٢) ، وكان تقي الدين دائم الافتخار بهذا النصر الذي حققه.(٣)

أما الصليبيون فأدركوا خطورة صلاح الدين وأخذوا في تحصين بلادهم فأنشئوا لذلك حصناً منيعاً قرب مخاضة بيت الأحزان(٤) في سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨م ، فاستطاعوا بواسطته قطع طرق التجارة الاسلامية في المنطقة(٥).

---

(١) الكوسات : صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير ، يُدَقُّ بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص ويسمى من يقوم بهذه العملية " كوسي " . القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندي ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) صبح الأعشى في صناعة الانشا ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ج ٣ ، ص ٥٤٤ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) ابن شاهنشاه : المضمار ، ص ١٨ – ١٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٩ – ١٠ ؛تاريخ الجزري ، ورقة ١٩٩ ب ؛ الذهبي : العبر ، ج٣ ، ص ٦٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٨ ، تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ورقة ٧٧ب ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٩؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦١ .

(٤) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل يقال أنه كان مسكناً ليعقوب عليه السلام . ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥١٩ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ ، الباز العريني : الأيوبيون ، ص ٥٨ .

وأستشار صلاح الدين أصحابه في أمر هذا الحصن فأشاروا عليه بإعطاء الصليبيين ما يطلبون من مال مقابل هدمهم للحصن ، لكن تقي الدين عمر كان له رأي مختلف فهو يفضل مهاجمة الحصن بالقوة العسكرية ومن ثم تدميره.(١)

وتبنى صلاح الدين اقتراح تقي الدين عمر فاستدعى القوات من كافة أجزاء مملكته ، فجاءت إلى دمشق وكان من بينها جيش حماة بقيادة ملكها المظفر تقي الدين عمر.(٢)

وتحركت الجيوش الاسلامية قاصدة حصن بيت الأحزان ، وطوقته من كل جانب ، وأخذت في قذفه بالمنجنيقات(٣). وأراد صلاح الدين اختبار قوة المدافعين عن الحصن ، فأمر قواته بالهجوم عليه ، وخلال هذا الهجوم تمكن تقي الدين عمر من الإستيلاء على جزء من الحصن ، وقضى الليل مع فرقته في حراسة ما استولوا عليه خوفاً من هجوم صليبي مضاد.(٤) وقد تواصل الهجوم الإسلامي على الحصن واستمر أسبوعين سقط بعدهما الحصن في أيدي المسلمين في ربيع الآخر سنة ٥٧٥ هـ / اغسطس ١١٧٩م ، فأمر

---

(١) ابن شاهنشاه:مضمار الحقائق ص ٢٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ .

(٢) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق ، ص ٣٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٩ .

(٣) المنجنيقات : جمع منجنيق ، وهو آلة حربية ، مصنوعة من الخشب غالباً ، ولها كفة توضع فيها الحجارة المراد قذفها على المكان المحاصر ، ويمكن بواسطتها تحطيم الأسوار وغيرها من التحصينات . وللمنجنيق عدة أنواع منها : العربي ، والتركي، والفرنجي الطرسوسي (مرضي بن علي بن مرضي ، ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م) تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، تحقيق : كلود كاهين ، ص ١٦ .

(٤) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق ، ص ٢٧ – ٢٨ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ١٦٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١ .

صلاح الدين بهدمه فغدى أثراً بعد عين(١) .

وأثناء هذه الغزوة ، أصيب عدد من أفراد الجيش الاسلامي بالمرض، وكان من بين المصابين تقي الدين عمر ، وذلك بسبب حرارة الجو وتشبعه بِنَتَنْ القتلى(٢). وبعد شفائه من مرضه عاد تقي الدين إلى حماة ليتفقد قلعتها التي كان منشغلاً في بنائها عندما جاءته رسل صلاح الدين تستشيره في موضوع حصن بيت الأحزان.(٣)

وقد قام صلاح الدين نفسه بزيارة لحماة سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م(٤). ثم عاد إلى دمشق وقد عزم على التوجه إلى مصر ، فجاءه تقي الدين وودعه متمنياً له سفراً سعيداً ، وحث صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين على الاهتمام بحماة وتنظيم أمورها .(٥)

وعندما كان صلاح الدين في مصر وافته الأخبار بوفاة الصالح اسماعيل صاحب حلب ، (٥٧٧ هـ /١١٨١ م) فبعث إلى تقي الدين يأمره بأخذ الحيطة والحذر، والمسير إلى منبج لمنع عز الدين مسعود صاحب الموصل من عبور الفرات والوصول إلى حلب ، كما طلب من نائبه في دمشق عز الدين

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٢٦ –٣٠ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ١٥٨–١٧١؛ أبو شامة: الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥ – ١١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٠ – ٨٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ – ٣٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ١ ، ص ٦٩؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٩٦ ؛ وقد أخطأ ابن الأثير بقوله أن تقي الدين عمر لم يشترك في الاستيلاء على حصن بيت الأحزان لانشغاله بمعركة رعبان . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٨ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ١٧٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن شتهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٢٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٩ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٢، ص ٣٢٦.

(٥) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٥٢ .

فرخشاه إرسال المدد إلى تقي الدين ، وكتب أيضاً إلى سعد الدين(١) بن معين الدين أنر – صاحب الراوندان(٢) – يأمره بمرافقة تقي الدين إلى منبج والعمل تحت قيادته.(٣)

وصل تقي الدين بقواته إلى منبج ، فيما أقبل عز الدين مسعود من الموصل قاصداً حلب، واختار عبور الفرات من جهة البيرة(٤)، وكاد تقي الدين أن يهجم عليه لحظة عبوره مستغلاً قلة عدد جيشه(٥). لكنه تراجع عن فكرة الهجوم واضطر إلى العودة على وجه السرعة لعاصمة ملكه حماة لاخماد حركة تمرد قامت ضده هناك ، رفع خلالها المتمردون شعار آل زنكي.(٦)

ويحيل البعض أسباب هذا التمرد إلى اشتياق الحمويين لعودة الحكم الزنكي.(٧) والراجح أن عز الدين مسعود كان له دور في إثارة الاضطراب في

---

(٦) الأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر من كبار الأمراء النورية ثم الصلاحية، وتزوج الست ربيعة خاتون أخت صلاح الدين ، كما كانت أخته عصمت الدين خاتون زوجةً لنور الدين وبعد وفاته تزوجها صلاح الدين ، وتوفي سعد الدين سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥م ، إثر جرح أصابه في حصار ميافارقين ، ابن كثير : البداية والنهايج ، ج ١٢ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

(٢) الراوندان : قلعة حصينة على جبل شمال غربي حلب على مرحلتين منها . أبو الفداء: تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص ١٠٦؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

(٤) البيرة : قلعة حصينة على جبل مطل على الفرات . ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن شداد ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،ج٣، تحقيق : يحيى عبارة ، ص ١٢٠ .

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٤٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٤ ؛ التاريخ الباهر ، ص ١٨٢ ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٠ .

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٠١ .

حماة ليجبر تقي الدين عمر على الانسحاب من منبج والانشغال بما يحدث في حماة فيما يعبر هو الفرات بكل أمان . لذلك دسّ بعض عملائه ليثيروا الفتنة داخل حماة ، وقد تمكن تقي الدين من قمع التمرد في وقت قصير مما يدلل على قلة المشتركين فيه وضعفهم ، وهذا يزكي الرأي الذي ذكرناه .

ويذكر بعض الباحثين أن تقي الدين عمر بعث رسالة إلى عز الدين مسعود بعد دخوله حلب عرض عليه فيها تبعيته وخضوعه ، لكن عز الدين مسعود رفض هذا العرض.(١) غير أنه لا يوجد دليل على حدوث شيء من هذا القبيل . فوجود عز الدين مسعود بحلب لا يشكل خطراً كبيراً على الوجود الأيوبي بحماة . كما أن التنافس بين الأسرتين الزنكية والأيوبية يحتم على تقي الدين عدم الرضا بالتبعية لآل زنكي .

وكان صلاح الدين يراقب ما يحدث في الشام ، فدفعته التطورات الأخيرة إلى القدوم فوصل دمشق في أوائل سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ ، ووصلته أنباء عن حشود صليبية في منطقتي طبرية وبيسان (٢) فاستدعى قواته ونظمها ، ثم أغار على طبرية التي تحصن بها الصليبيون ، فقرر مهاجمة بيسان لاخراج الصليبيين من طبرية ، ولما تناهى إلى أسماع الصليبيين أن بيسان تتعرض للهجوم أخذتهم العزة بالإثم وخرجوا من طبرية براجلهم وفارسهم ، وكان هذا هدف صلاح الدين الذي أعاد تنظيم جيشه وجعل تقي الدين قائداً للميمنة ، واندلعت المعركة بين الطرفين ، وكانت الميمنة الإسلامية في وادٍ ضيق أعاق كثيراً من حركتها لكن قائدها تقي الدين قادها

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة : د. السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ٧٠٠ .

(٢) بيسان : مدينة صغيرة على الجانب الغربي من الغور ، إلى الجنوب من طبرية، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

بحنكة فأدت دورها في المعركة ، وقد تقهقر الصليبيون بغير نظام إلى حصن كوكب (١).

ثم عادت القوات الاسلامية إلى بلدانها ، فيما عاد صلاح الدين إلى دمشق ثم خرج منها قاصداً حلب، ومرّ في طريقه على حماة وأقام بها يومين أوصى خلالهما ملكها تقي الدين بزيادة الاهتمام بها.(٢) وعندما غادرها اصطحب معه ملكها تقي الدين عمر.(٣) ورأى أن يهاجم الموصل قبل حلب باعتبارها عاصمة الزنكيين وفي طريقه إليها استولى على الرها(٤)، كما خضعت له حران(٥) ، والرقة(٦) ، ومناطق عديدة أخرى(٧) . ووجد صلاح الدين نفسه أمام الموصل ، فأوعز إلى جيشه بمحاصرتها، وكانت ناحيتها الشرقية من نصيب المظفر تقي الدين عمر(٨). ودارت على أسوارها معارك عنيفة أظهر خلالها تقي الدين عمر شجاعة فائقة.(٩)

---

(١) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ص ٩٥-٩٦؛ ابن الأثير: الكامل ، ج١١، ص٤٨١؛ وحصن كوكب قلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٩٤ .

(٢) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٠٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ١١٦.

(٤) الرها : مدينة كبيرة في الجهة الشمالية الشرقية من الفرات . ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق١ ، ص ٨٣ – ٨٦ .

(٥) حران : قصبة ديار مضر . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٦.

(٦) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات وهي من بلاد الجزيرة . ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٧) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠١، أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٣٠ – ٣٢ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢، ص ١٥٧ – ١٥٨ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٧٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٠٠ – ١٠٢ .

(٨) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١، ورقة ١٧٩ أ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠٤، أبوشامة: الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٩) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠٥ .

ولما لاحظ تقي الدين أن الحصار ومحاولات الهجوم المتكررة عاجزة عن تحقيق أي نجاح ، أشار على عمه صلاح الدين أن يضرب البلد بالمنجنيق ، ووافق عمه – بعد تردد – على رأيه ، ونصب المنجنيق وبدأ يلقي حجارته على البلد. ورد أهل الموصل على ذلك بأن نصبوا داخل البلد تسع منجنيقات ، كما قاموا بهجوم خاطف استطاعوا خلاله الاستيلاء على المنجنيق الذي أقامه السلطان.(١)

وعندما رأى صلاح الدين صعوبة الاستيلاء على الموصل ، تخلى عن حصارها ، وسار إلى سنجار(٢) وجعل تقي الدين عمر في مقدمة جيشه ، حيث التقى بنجدة جاءت من الموصل لمساعدة سنجار ، فأوقع بها وأسر قادتها(٣) . وتقدم صلاح الدين إلى سنجار واستولى عليها وأقطعها تقي الدين عمر(٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٦ ؛ ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن اهرون الطبيب الملطيّ المعروف بابن العبري ، ت ٦٦٠ هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص ٣٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٠١ .

(٢) سنجار : مدينة من ديار ربيعة إلى الغرب من الموصل ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٧٩ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان . ج ٥ ، ص ٢٠٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

بعد نجاح هذه الأعمال العسكرية عاد المظفر تقي الدين عمر إلى حماة(١). فيما اختار صلاح الدين حران ليستريح فيها بعض الوقت(٢)، فأراد الزنكيون إستغلال الفرصة، والانقضاض على صلاح الدين الذي كان يقيم معه في حران عدد قليل من جنوده ، وكوّنوا لذلك حلفاً قوياً مع أنصارهم الأراتقة، فلما سمع صلاح الدين بذلك بعث إلى أطراف دولته يطلب المدد ، فكان أول الواصلين جيش حماة بقيادة ملكها تقي الدين عمر ، الذي أشار على عمه صلاح الدين بالتقدم لمواجهة الزنكيين ، الذين تفرقت كلمتهم بمجرد نهوض صلاح الدين للقائهم(٣).

أما صلاح الدين فقد عبر الفرات عائداً إلى الشام، وتوجه على الفور إلى حلب وحاصرها بشدة حتى رضي صاحبها - عماد الدين زنكي -(٤) بالتنازل عنها مقابل حصوله على سنجار(٥).

ويتضح من رواية صاحب المضمار أن صلاح الدين قد وعد تقي الدين عمر بسنجار وبعض مناطق شرق الفرات قبيل حصارهم لحلب ، وهي المناطق التي طالب بها عماد الدين زنكي تعويضاً له عن حلب ، لذلك عندما جاء

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠٦ ؛ ابن شاهنشاه : المضمار ، ص ١١٢؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٤ .

(٢) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٧٩ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٠٩ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢، ص ٣٣؛ ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق ، ص ١١٢؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٤.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣٣؛ عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية ، ص ١٤٦ .

(٤) عماد االدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ،المعروف بصاحب سنجار ، توفي سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م. ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٥) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ٨٠ / ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٥٩ - ٦٠ ، البنداري : سنا البرق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

حسام الدين طمان(١) – وزير عماد الدين زنكي – ليتفاوض مع صلاح الدين بشأن تسليم حلب ، قصد أولاً خيمة تقي الدين عمر ، واصطحبه معه لمقابلة صلاح الدين الذي رفض في البداية عملية المقايضة بحجة أنه وعد تقي الدين بمناطق شرق الفرات ، لكن تقي الدين عمر شجع عمه صلاح الدين على قبول المقايضة قائلاً : " يا مولانا امض هذا الأمر فإنما غرضنا صلاح البيت "(٢) .

ووافق صلاح الدين على المقايضة ، وتسلم حلب ، وليس لدينا دليل يؤيد الرأي القائل إن تقي الدين عمر طلب حلب من عمه صلاح الدين وأن طلبه قوبل بالرفض(٣). وإنما الثابت أن صلاح الدين وعد تقي الدين بإعطائه حلب وأعمالها(٤).

وعندما كان صلاح الدين في حلب ، وصلته كتب من أهل حارم(٥) يستدعونه ليتسلم بلدهم ، فبعث إليهم فرقة عسكرية بقيادة تقي الدين عمر ، واستطاعت هذه الفرقة القاء القبض على والي حارم، لكن حاميتها تحصنت بالقلعة ورفضت تسليمها حتى يحضر صلاح الدين بنفسه فجاء من حلب

---

(١) الأمير حسام الدين طمان بن غازي ، من جبل سلور بحلب ، وزير عماد الدين ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، اعطاه صلاح الدين الرقة ، واشترك في الجهاد ضد الصليبيين ، وتوفي سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وهو مرابط مع الجيش الاسلامي في مقابلة الحشود الصليبية المحاصرة لعكا . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٠، ١٩٤ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج١٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٤٢ – ١٤٣.

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٥١ .

(٤) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٤٣ .

(٥) حارم : بلدة من أعمال حلب إلى الغرب منها على بعد مرحلتين . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

وتسلمها(١).

وبعد أن اطمأن صلاح الدين على الوضع في حلب ، عين ابنه الظاهر غازي ملكاً عليها(٢) . ولم يصدر عن تقي الدين عمر ما يدل على غضبه من تصرف عمه ، بل عاد إلى حماة وأخذ يستعد لاستقبال عمه صلاح الدين الذي زاره بحماة وتفقدها ، وأُعجب بحصانة قلعتها ، كما أشاد بجهود تقي الدين في حفظ الأمن ونشر العدل بها(٣). ثم غادرها مصطحباً معه ملكها تقي الدين عمر وابنه المنصور محمد(٤).

وسار صلاح الدين بجيشه لقتال الصليبيين حيث هاجم بيسان ، وأخذ ما وجده بها وأشعل النار في أطرافها، لكنه لم يشتبك مع الصليبيين في معركة كبيرة(٥).

وفي شهر رجب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م، سار صلاح الدين لمهاجمة قلعة الكرك الحصينة(٦) وخرج بصحبته المظفر تقي الدين عمر ، وابنه المنصور محمد . ووافاهم على الكرك العادل – أخو السلطان صلاح الدين – ومعه جيش مصر . ولما أيقن صلاح الدين صعوبة الاستيلاء على الكرك تخلى عن حصاره وعاد إلى دمشق(١).

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٤٥ – ٤٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١، ص ٨١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٠٨ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣١ ؛ ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٥١ .

(٤) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٥١ .

(٥) ابن شاهنشاه:مضمار الحقائق ، ص ١٥١–١٥٣ ابن واصل:مفرج الكروب، ج٢ ص ١٤٨–١٥١.

(٦) الكرك : بلد مشهور ، على أطراف الشام من جهة الحجاز ، بينه وبين الشوبك ثلاث مراحل، وله قلعة تعد من معاقل الشام التي لا ترام ، حيث يقع البلد والقلعة على قمة جبل ، تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك ، والقلعة تحمي البلد من جهته الجنوبية ، وهي الجهة الوحيدة التي يمكن الوصول منها إلى البلد. وبنيت ==

لكن حدث أثناء هذه الغزوة تغيير مهم تمثل في تعيين العادل حاكماً لحلب ، وتولى الحكم في مصر بدلاً عنه تقي الدين عمر(٢). ولنا أن نتساءل لماذا اختار صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين – دون غيره – ليكون نائباً عنه في مصر ؟ لقد جاء هذا الاختيار بناءً على عدة اعتبارات في مقدمتها اقتراح القاضي الفاضل(٣) بأن تسند ولاية مصر إلى تقي الدين عمر(٤). كما أن الشجاعة والحنكة وتوفر الخبرة التي اتصف بها تقي الدين من الاعتبارات التي أخذ بها صلاح الدين عندما كان يبحث عن بديل لأخيه العادل في حكم مصر . ولا يخفى على أحد أهمية مصر خلال هذه الحقبة ، وكونها هدفاً دائماً

= القلعة على مصطبتين تفصلهما عن البلد قناة عميقة ، وكان يحيط بالبلد سور يحف به ويتماشى مع حواف الصخور . وقد احتلها الصليبيون في حملاتهم الأولى ، وربما في عهد الملك بلدوين الأول . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧؛ فلولفغانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية : ص ٥٥ .

(١) ابن شاهنشاه : المضمار ، ص ١٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٥١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٨ .

(٢) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٨١ ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٤ ؛ البنداري : سنا البرق ص ٢٣٣؛ ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق، ص ١٥٤؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢ ، ص ٥١ – ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٥٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٣ ، ص ٧٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٧١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢ ، ص ٣٣٦ ؛ اليافعي (عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني، ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان ، بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٠ ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ١٠٨ .

(٣) القاضي الفاضل محي الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي الشامي، الكاتب ، صاحب ديوان الإنشاء في عهد صلاح الدين مولده سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م . وانتهت إليه براعة الترسل وبلاغة الانشاء . توفي سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م . المنذري : التكملة ، ج١ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٨ – ١٦٣ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٣٨ – ٣٤٤ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

للصليبيين . وبسبب تفرد تقي الدين عمر بالميزات التي جعلته المرشح الأول لتولي النيابة في مصر لم يجد صلاح الدين بداً من إسناد الأمر إليه(١).

ولم يشأ صلاح الدين أن يجعل تقي الدين عمر نائباً عنه في مصر دون أن يكون له بها اقطاعاً يليق به ، فاقطعه مناطق البحيرة(٢) ، والفيوم(٣) ، وقاي وقايات(٤) ، وبوش(٥) ، ثم أخذ منه بوش وعوضه عنها بسمنّود(٦) ، والواحات(٧) ، وفوة(٨) . والمزاحمتين(٩) ، وحوف رمسيس(١٠)، وكان له في كل شهر على الاسكندرية مبلغ ألف وخمسمائة دينار(١١)، وجعل كل هذا

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٢) البحيرة : منطقة بنواحي الاسكندرية ، تشتمل على قرى كثيرة ولها دخل واسع . ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٥١ .

(٣) الفيوم : كورة جنوب غرب الفسطاط ، بها حمامات وأسواق ومدارس . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١١٤ - ١١٥.

(٤) القايات : بالمنيا الحالية ، ومركزها مغاغة ، على حافة الصحراء الغربية ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٢ ، حاشية ١.

(٥) بوش : مدينة بنواحي الصعيد الأدنى على الضفة الغربية وهي في بني سويف الحالية. ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٠٨ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ، ق ١ ، ص ٨٢ ، حاشية رقم ١ .

(٦) سمنود : بلدة قريبة من دمياط على ضفة النيل ، بينها وبين المحلة ميلان . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٧) الواحات : مناطق ثلاث في غرب مصر ، من جهة الصعيد . ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٨) فوة : بليدة قريبة من رشيد على ضفاف النيل . ياقوت : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٨٠.

(٩) المزاحمتين : منطقة تشمل ما جاور قناة الاسكندرية من جهة الشمال إلى البحر ، ولها توابع في البر الشرقي . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١، ص ٩١، حاشية رقم ٢ .

(١٠) حوف رمسيس : موضع بالقرب من البحيرة . المقريزي ، ج١ ، ق ١ ، ص ٩١ ، حاشية رقم ٣.

(١١) ابن شاهنشاه:مضمار الحقائق ص١٥٤-١٥٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٥٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٥٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٩١ .

اقطاعاً خاصاً له(١).

ومن الجدير بالذكر أن تقي الدين عمر لم يتنازل عن حماة عندما طلب منه صلاح الدين ذلك قبل توجهه إلى مصر ليتولى نيابتها(٢). فهو لم يرض أن تكون نيابته في مصر واقطاعه بعض مناطقها ثمناً لتخليه عن حماه.

ولما توجه المظفر تقي الدين عمر إلى مصر ،كان معه ابنه المنصور محمد ، واستناب عنه بحماة ناصر الدين بن خمارتكين(٣). وكان محل ثقته اضافة إلى معرفته السابقة بشئون حماة.

وعندما وصل تقي الدين عمر إلى مصر وجد بها سيف الإسلام طغتكين - أخا السلطان صلاح الدين - وكان غاضباً من تصرفات أخيه صلاح الدين الذي لم يعيّنه نائباً بمصر . فما كان من صلاح الدين إلا أن عينه ملكا على اليمن وبعثه إليها.(٤)

ولم يخف على السلطان صلاح الدين ما يتميز به المظفر تقي الدين عمر من حماسة ، تدفعه إلى التسرع في بعض الأحيان. لذلك بعث معه

---

(١) طلال العصيمي : الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي ، ص ٩٦ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٦ . إلا أن كلمة " حمص " وردت خطأ في النص . إذ قال : " سأله أن ينزل عن حمص فأبى " .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٧٦ .

(٤) الأصفهاني (القاضي عماد الدين أبو عبدالله بن صفي الدين الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني ، ت :٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان .وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ هـ إلى سنة ٦٣٥ هـ ، على المخطوطة نفسها. نسخة مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨ ؛ عن نسخة مكتبة أحمد الثالث باستنبول برقم ٢٩٥٩ ورقة ١٢٤ ب ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢، ص ٥٣.

مستشاره القاضي الفاضل وأوصاه بملازمته وإسداء النصح له(١).

وبعد مضي ما يقرب من عام على تعيينه نائباً بمصر ، خرج المظفر تقي الدين عمر بقواته ليشترك مع عمه صلاح الدين في حصار الكرك(٢). كما اشترك معه في الهجوم على نابلس(٣) وسبسطية(٤) وجنين(٥) . وعاد إلى مصر في شعبان سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م.(٦)

وكان المظفر تقي الدين عمر عندما خرج من مصر قد عين بها نائباً عنه قيل إنه ابنه المنصور محمد(٧) ، وهو الأرجح لأنه ودع أباه عندما خرج إلى الكرك وعاد إلى القاهرة ومعه ناظر الدواوين ابن شكر(٨)، وقيل بل

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٥٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٤١ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٥٧ – ١٥٨ ؛ المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٨٣ – ٨٥ .

(٣) نابلس : مدينة مشهورة في فلسطين ، بينها وبين القدس عشرة فراسخ .ياقوت :معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

(٤) سبسطية : بلدة من أعمال نابلس بينها وبين القدس يومان . ياقوت : المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

(٥) جنين : بلدة صغيرة بين نابلس وبيسان . ياقوت : المصدر السابق ، ج٢، ص ٢٠٢.

(٦) ابن شاهنشاه : المضمار ، ص ١٨٩ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٤٦ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢ ، ص ٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٧) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ١٩١ ، رغم أنه عند حديثه عن غزوة الكرك هذه يتحدث وكأنه مشارك فيها فيقول : "فبينا نحن مقيمون في حصارهم ..." ص ١٨٩.

(٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٨ .

ولعله صفي الدين عبدالله بن علي الشيبي المعروف بابن شكر . ولد سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م . وكان وزيراً للملك العادل فغضب عليه ونفاه إلى آمد ، ولم يعد منها إلا بعد وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨م . وكان قدومه بطلب من الكامل بن العادل . وتوفي سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٢٥م . المنذري : التكملة ، ج ٣ ، ص ١٥٧ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١١٨؛ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) فوات الوفيات والذيل عليها، =

استتاب شخصاً يدعى ابن السلار (١).

وقد استصحب المظفر تقي الدين عمر معه أهل العادل وخزائنه وكل ما بقي له في مصر. وسلمهم لأصحاب العادل بالكرك(٢) . وجعل بعض الباحثين ذلك دليلاً على وجود خطط عند المظفر للاستقلال بمصر(٣) . وأرى أن لهذا سببين آخرين يستحقان الذكر وهما :

الأول : أنّ صلاح الدين نفسه طلب من أخيه العادل نقل أهله وأمواله من مصر إلى الشام بعد أن أخذ منه مصر وأعطاه حلب(٤) ، لكن يبدو أن بعض أهل العادل تخلفوا في مصر حتى هذا التاريخ .

الثاني : كانت طرق المواصلات بين الشام ومصر مهددةً دوماً من قطاع الطرق الصليبيين . فإذا أراد أهل العادل التوجه إلى الشام فلا بد أن ترافقهم فرقة من الجيش لحراستهم حتى يبلغوا مأمنهم وإلاّ فإنهم سيكونون غنيمة ثمينة للصليبيين ولا سيما أنهم من الأسرة الأيوبية . فكان خروجهم مع جيش مصر المتجه إلى الكرك فرصة طيبة لهم يصلوا من خلالها إلى الشام بأمان .

وبعد الانتهاء من غزوة الكرك عاد المظفر تقي الدين عمر إلى مصر ومعه وصية صلاح الدين التي تتضمن إسناد حكم مصر لابنه العزيز عثمان بكفالة ابن عمه المظفر . وتضمنت الوصية أيضاً إسناد حكم الشام للأفضل

= تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٦ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ، ص ١٠٠ .

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣، ص ٧٨.

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٥٢ .

(٤) ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٠٨ .

ابن صلاح الدين تحت كفالة عمه العادل ، على أن يستمر الكافلان بإدارة شئون ما بأيديهما من مناطق حتى يبلغ المكفولان السن التي تؤهلهما للاستقلال بالحكم . ويبقى للكافلين اقطاعهما بعد انتهاء مدة الكفالة . وفي حالة وفاة أحد الكافلين يقوم الآخر مقامه (١). وكانت هذه الوصية أول مشاريع تقسيم دولة صلاح الدين بين أهله . ولم يُبْدِ المظفر تقي الدين عمر أي امتعاضٍ من هذه الوصية بل أعلنها وقرئت على أسماع الناس بالقاهرة.(٢)

وخلال عامي ٥٨٠ هـ/١١٨٤م ، و ٥٨١ هـ / ١١٨٥م ، قام تقي الدين عمر ببعض الأعمال داخل مصر ، وصفت بأنها أعمال برٍّ مشهورة(٣). فقد كان يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة ليقف على أحوال البلد بنفسه . فأشرف على ابتداء العمل في بناء سور القاهرة ، وكان شديد الحماس له واشترك معه كثير من أهالي القاهرة في البناء.(٤)

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٨٥ ، المقريزي (أحمد بن علي المقريزي ، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) الخطط المعروف باسم " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ السيد الباز العريني : الأيوبيون ، ص ١١٤ ؛ وعند ابن خلدون أن المظفر تقي الدين عمر كافلاً للأفضل في مصر ، والعادل كافلاً للعزيز في حلب . انظر ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م) تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت ، مجلد : ٥ ، ق ٣ ، ص ٦٦٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٥ .

(٣) الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٤٥ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩٠ .

ومن الأعمال التي قام بها المظفر تقي الدين عمر في مصر اخماد فتنة كادت أن تشتعل بين الحنابلة(١) والأشاعرة(٢) ، بعد خلاف وقع بينهما عند مناقشة إحدى المسائل(٣).

أما في بلاد الشام فقد كان صلاح الدين ماضياً في توسيع رقعة دولته ، فخرج من دمشق قاصداً الموصل ومرّ في طريقه على حماة وجعلها معسكراً لجيشه حتى دخلت سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، حيث واصل مسيره إلى الموصل(٤) . وقد استقبل ناصر الدين بن خمارتكين - نائب المظفر الأول تقي الدين عمر في حماة - صلاح الدين وأقام الضيافة له(٥).

---

(١) الحنابلة أتباع الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ/٨٥٥م ، ومذهبه مشهور ، وهو أحد مذاهب أهل السنة والجماعة . الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ١١ ، ص ١٧٧ - ٣٥٨.

(٢) الأشاعرة : أصحاب أبي الحسن علي بن اسمعيل الأشعري المنتسب إلى أبي موسى الأشعري صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم . وتوفي أبو الحسن سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م. والأشاعرة فرقة من الصفاتية الذين هم جماعة من السلف تكلموا في صفات الله جلّ وعلا فسُموا بالصفاتية ، وقد صنف أبو الحسن الأشعري عدة كتب اعتمدها أتباعه من بعده . الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ٩٢ - ١٠٣، وانظر أيضاً :ابن أحمد حكمي (الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، ت ١٣٣٧ هـ/ ١٩٥٧م) معارج القبول بشرح سلم الأصول إلى معالم الوصول ، تحقيق : عمر محمود أبو عمر، الدمام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، مجلد : ١ ، ص ٣٧٧ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٩٠ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٦ ؛ ابن شاهنشاه : المضمار ، ص ٢٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٥) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٦ .

ونجح صلاح الدين في الاستيلاء على ميافارقين(١) وبعث إلى المظفر تقي الدين - نائبه بمصر - يبشره بذلك(٢).

وبعد عودته من مهاجمة الموصل ، مرض صلاح الدين وتوقف في حران ، فجاءه أخوه العادل وعندما رأى تدهور حالته الصحية أشار عليه بأن يوصي . فرد عليه السلطان بأنه ليس خائفاً على الدولة - إذا وافته المنية - ما دام فيها أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وقصد بأبي بكر أخاه العادل وهذه كنيته ، وبعمر المظفر تقي الدين ، وبعثمان ابنه العزيز ، وبعلي ابنه الأفضل . وكان هذا تأكيداً للوصية السابقة(٣) . ودليلاً جديداً على ثقة صلاح الدين بابن أخيه المظفر .

وبعد شفاء صلاح الدين عاد إلى دمشق في ربيع الأول سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، وبعد شهرين وصلته رسالة من المظفر تقي الدين عمر نائبه على مصر يشكو فيها من تصرفات الأفضل بن صلاح الدين حيث كان يوفرّ الحماية لكل من أراد المظفر معاقبته . واعتبر المظفر هذه التصرفات

---

(١) ميافارقين : عاصمة ديار بكر مدينة مشهورة حصينة ، ومساحتها أقل من مساحة حماة . القزويني : آثار البلاد ، ص ٥٦٥ ؛ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٦ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٢٢٢.

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٦٩ ؛ ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٢٢٧ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج٢ ، ص ٦٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٣٣٧ .

تدخلاً في عمله(١).

وتوافقت الشكوى المذكورة مع رغبة صلاح الدين في نقل ابنه الأفضل إلى الشام وتعيينه ملكاً عليها ، ونقل ابنه العزيز إلى مصر ليتولى حكمها ، لذلك طلب من ابنه الأفضل القدوم بأهله وحاشيته إلى الشام ، ونفذ الأفضل طلب والده وجاء بأهله إلى دمشق(٢).

وبعد وصول الأفضل إلى دمشق بعث صلاح الدين رسالة إلى المظفر تقي الدين عمر يخبره أن باستطاعته القيام بعمله في مصر دون تدخل من أحد(٣).

ويظن البعض أنّ اخراج الأفضل من مصر كان سبباً لعزل المظفر عنها فيما بعد(٤) . وقد فات هؤلاء أن صلاح الدين مال إلى تعيين ابنه العزيز ملكاً لمصر وابنه الأفضل ملكاً للشام منذ مدة .

وعلى كل حال لم يمض شهر على إخراج الأفضل من مصر حتى صدر قرار بعزل المظفر تقي الدين عمر عن النيابة في مصر وذلك في جمادى

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٠ ؛ المقريزي :السلوك ج١ ، ق ١ ، ص ٩١ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ؛ العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر ... ورقة ١٠٩ أ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٧٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

الآخرة سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م.(١)

وكان قرار عزل المظفر تنفيذاً عملياً لخطة التقسيم التي وضعها صلاح الدين منذ مدة . مع تعديل طفيف وهو تعيين العادل كافلاً للعزيز بمصر بدلاً من المظفر كما كان مقرراً ، لأن العزيز كان يميل إلى عمه العادل وهو الذي طلب من والده تعيينه كافلاً له(٢) ، وبهذا ينتهي دور المظفر تقي الدين في مصر .

ولم يفت صلاح الدين أن يأخذ رأي مستشاره القاضي الفاضل الذي أيد فكرة عزل المظفر تقي الدين عن نيابة مصر ، واسنادها للعزيز بكفالة عمه العادل(٣).

وهناك من يتهم المظفر تقي الدين عمر بالنزوع نحو الاستقلال بمصر عندما كان صلاح الدين مريضاً بحران(٤) .

ويعزو ابن الأثير سبب عزل المظفر تقي الدين عمر عن مصر إلى نصيحة تلقاها صلاح الدين من أحد وزرائه حثه فيها على عدم ترك المظفر

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧١ – ٧٢ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٧٩ .

(٣) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ورقة ١٨٥ أ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٤٠ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠ – ٣١.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٣ ؛ تاريخ ابن الجزري ، ورقة ٢٠٦ أ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ج ٢١ ، ص ٢٠٢ ؛ العبر ، ج٣، ص ٩٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٦٦٦ ؛ النعيمي : الدارس ، ج١،ص١٦٤؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٨٩ .

نائباً في مصر والعادل ملكاً لحلب بينما أبناء صلاح الدين لا حكم لهم ، وبناءً على هذه النصيحة أعطيت مصر للعزيز بن صلاح الدين ، وحلب لأخيه الظاهر كما أوصى صلاح الدين بأن تكون السلطة العليا من بعده في الدولة الأيوبية لابنه الأفضل علي(١).

وعندما بلغ المظفر تقي الدين نبأ عزله أخذه الغضب ، وأمر قواته باقامة معسكر لها خارج القاهرة ، وأعلن عن عزمه على التوجه إلى بلاد المغرب(٢) . وكان أفراد الجيش المصري يحبون المظفر لشجاعته ، وبذله الأموال الطائلة لهم فسارعوا لتنفيذ أوامره.(٣)

ويبدو أن المظفر تقي الدين عمر فوجيء بقرار عزله وكان ذلك سبباً لغضبه . وقد اختار التوجه إلى المغرب لكونه قريب من مصر ولا زال خارجاً عن نفوذ الدولة الأيوبية ، وقد سبق للمظفر أن بعث مملوكه قراقوش(٤)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج١١، ص ٥٢٣ – ٥٢٥ ، وانظر أيضاً . ابن العديم : زبدة الحلب، ج٣، ص ٨٤ – ٨٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٧١ – ١٧٣ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٨٢ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠ – ٣١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١١٦ – ١١٨.

(٢) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١، ورقة ١٨٥ أ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٠ ؛ أبوشامة: الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨١.

(٤) شرف الدين قراقوش التقوي ، مملوك المظفر تقي الدين عمر ، قاد حملات عسكرية على بلاد المغرب بين عامي ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢م – ٥٨٢ هـ/١١٨٦م ، ونجح في الاستيلاء على عدة مدن منها : برقة ، وطرابلس . انظر : تاريخ الجزري ، لوحة ١٩٥ ؛ عبد الواحد المراكشي (عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي ، ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٥٠ م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م ، ص ٣٠٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦، ٤٣٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢١٥ ، ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ؛ ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٧٠ ؛ ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ؛ ص ٣٤ – ٣٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ١٩٥٣ م ، ج١ ، ص ٣١٦ حاشية ٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ٨١ ؛ العبر ، ج ٣ ، ص ٥٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٨٢ . وهناك مصادر خلطت كثيراً بين شرف الدين قراقوش التقوي مملوك المظفر ، وبين بهاء الدين قراقوش الصلاحي ، مملوك السلطان صلاح الدين ، وصاحب الشخصية المشهورة في عصره . ===

للاستيلاء على بعض المناطق في المغرب ، فحقق بعض النجاح(١). وكانت فكرة المسير إلى المغرب تراود المظفر تقي الدين حتى قبل عزله عن نيابة مصر(٢). وقد بعث إليها فرقة عسكرية قبل صدور قرار عزله.(٣)

وقبل أن يتحرك باتجاه المغرب بعث المظفر رسالة إلى عمه صلاح الدين يستأذنه في التوجه إلى المغرب(٤) ، ويبدو أنه أراد بذلك معرفة مدى تمسك صلاح الدين به ، وإعطائه مزيداً من الاقطاع . وإلاّ فإنه ليس بحاجة إلى إذن أحد إذا كان عازماً فعلاً على المسير إلى المغرب .

وخشي صلاح الدين من تنفيذ المظفر لخطط بالخروج إلى المغرب ، لمعرفته بشجاعته ، وخشي أيضاً من مسير جيش مصر خلفه الأمر الذي سيفقد صلاح الدين جزءاً من جيشه هو بحاجة ماسة إليه لجهاد الصليبيين الذين يرى أن جهادهم أولى من إضافة أملاك جديدة لدولته في المغرب رغم رغبته في الاستيلاء على مناطق مغربية عندما تسمح الظروف بذلك(٥).

وردّ صلاح الدين على المظفر برسالة طلب منه فيها العودة إلى الشام بأسلوب مهذب لم يخلو من عبارات تقريع وتوبيخ كتبها القاضي الفاضل بإسلوبه البلاغي المعروف(٦)، واستجاب المظفر تقي الدين عمر لطلب عمه

= انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣١، ٣٤٩، ٣٦٢ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٠ ، حاشية ٨ .

(١) تاريخ الجزري ، ورقة ١٩٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢١٥ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٣٦ ، حاشية ٤ .

(٣) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٣٤ – ٣٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٨٢ .

(٤) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٠ ؛ تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٨٥ أ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٠ .

(٥) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م ، ص ٧٦ .

صلاح الدين بالعودة إلى الشام ، وشجعه على ذلك أيضاً نصيحة أصحابه له بكسب رضا عمه(١). ورغبته في مواصلة فريضة الجهاد ضد الصليبيين .

وتوجه المظفر إلى الشام ، بينما كان جيشه مقيماً خارج القاهرة منتظراً أوامره، وعند وصوله إلى دمشق ،استقبله صلاح الدين بالحفاوة ، وزاد في اقطاعه ما يرضيه ، فكتب المظفر إلى جيشه يأمره بالعودة إلى تكناته ، وإلغاء خطة المسير إلى المغرب (٢). إلاّ أن بعض أتباعه لم ينفذوا أوامره وتوجهوا إلى المغرب ، لكنهم منوا فيها بالهزيمة(٣).

أما الاقطاعات الجديدة التي حصل عليها المظفر فتمثلت في ميافارقين، وجبل جور(٤)، إضافة إلى اقطاعه السابق وهو حماة ، ومنبج ، والمعرة ، وكفرطاب ، وقلعة نجم . وقد ظن البعض أن صلاح الدين أخذ من المظفر تقي الدين عمر اقطاعه في حماة وتوابعها عندما جعله

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ،ج١، ورقة ١٨٥ أ ؛ البنداري : سنا البرق، ص ٢٨٠ – ٢٨١؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ص ٧٠، ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٨١ – ١٨٢ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ص ٨٩ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص٤٥٧ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ ، ص ٤٣٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٦٦٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٩٢. وفي إحدى روايات ابن الأثير أنّ صلاح الدين خدع تقي الدين واستدرجه حتى قدم الشام فمنعه من العودة إلى مصر ، وتبدو هذه الرواية بعيدة عن الصحة . انظر: ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ، وانظر أيضاً سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢، ص ٦٢٢ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٧٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨١؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص٧٠ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٤) جبل جور: كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، وفيها قلاع وقرى. ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

نائباً بمصر ، وأعادها إليه بعد عزله عنها(١). والثابت أنها استمرت اقطاعاً له حتى عندما كان نائباً في مصر(٢).

ومهما يكن من أمر فقد عاد المظفر إلى حماة ، وبقي بها حتى صدرت إليه الأوامر من صلاح الدين بالمسير إلى حلب ، والمرابطة بها لمراقبة تحركات الصليبيين في أنطاكية ، بينما تفرغ صلاح الدين لتنظيم الجيوش استعداداً لمعركة فاصلة مع الصليبيين(٣).

وتوجه تقي الدين عمر بجيشه إلى حلب ، فانضمت إليه قواتها ، وسار بالجميع إلى حارم وعسكر بها ، في مواجهة الصليبيين ، ومكث هناك حتى وصلته أوامر جديدة من صلاح الدين بعقد صلح بين أنطاكية وحلب . ولمّا فرغ تقي الدين من أمر الصلح ، تحرك بقواته من حارم لينضم إلى المسلمين الذين أكملوا استعداداتهم لخوض المعركة(٤).

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٨٥ أ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ٤٥٧ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٦٦ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ج ١ ، ص ١١٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٣ ؛ أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٦٠ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٥٣ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٨٨ .

(٢) العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر ... ورقة ١٠٩ ؛ البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٢ ؛ الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ العليمي (مجير الدين بن عبد الرحمن العليمي المقدسي ، ت ٩٢٨ هـ/١٥٢١م)؛ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمّان ، ١٩٧٣م ، ج١ ، ص ٣١٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٩ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٤-٧٥؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ – ١٨٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩١ – ٩٢ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٤ – ٧٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٢٨ .

وفيما كان صلاح الدين ينتظر قدوم الحجاج لتأمين عبورهم منطقة الكرك بسلام ، وصلت من مصر قافلة تحرسها فرقة من الجيش ، وكان مع القافلة بعض أهل تقي الدين عمر الذين تخلفوا في مصر(١)، وجاؤوا إلى الشام بعد مرور خمسة أشهر من عزل تقي الدين عمر عن نيابة مصر ، وكانوا خلال هذه الفترة ، ينتظرون الفرصة المناسبة ، للانتقال من مصر إلى الشام . وهذا تفنيدٌ آخر لمزاعم من اتهموا المظفر تقي الدين عمر بالتخطيط للاستقلال بمصر، حين اصطحب معه ما تبقى من أهل العادل عندما خرج بجيشه للاشتراك في مهاجمة الكرك .

وعندما جاء المظفر للاشتراك في معركة حطين(٢) كانت معه قوات من حلب والموصل وماردين(٣) . وجعله صلاح الدين قائداً لميمنة جيشه(٤) . فيما أقبل الصليبيون بقضهم وقضيضهم ، للدخول مع المسلمين في معركة حاسمة، تحققت فيها سنة الله عز وجل في نصر الحق وإزهاق الباطل ، تجسيداً لقوله – عزّ من قائل – ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾(٥).

ودارت رحى معركة حطين المباركة ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب ، فما كان من الكونت ريموند(٦) " القومص " – صاحب طرابلس –

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٠ .

(٢) حطين : قرية بين طبرية وعكا . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٥ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١٨٨.

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٢ .

(٥) سورة التوبة ، آية ٧ .

(٦) ريموند الثالث : تسميه المصادر الاسلامية " القومص " ، ورث عرش امارة طرابلس عن والده ريموند الثاني سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م ، وأسره نور الدين زنكي سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م ؛ وأطلق سراحه سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢م ، وعيّن وصياً على مملكة بيت المقدس سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م وأصبح أقوى الشخصيات الصليبية ، وتوفي بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م متأثراً بصدمة الهزيمة ، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج ١، ص ٥٠٥؛ ج ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٦٥٠ .

وكان قائداً للفرسان ، إلا أنْ هاجم بشكل عنيف ميمنة الجيش الاسلامي التي يقودها تقي الدين عمر ، الذي أفسح لريموند ورجاله المجال، فخرجوا من ساحة المعركة ، وعاد تقي الدين عمر ، وأغلق تلك الثغرة واستأنف القتال من جهته(١).

وسواءً كان نجاح ريموند في الخروج من المعركة ، مرده إلى اتفاق بينه وبين صلاح الدين الذي أمر تقي الدين عمر بافساح الطريق له(٢). أو كانت لهجومه العنيف إثر تلقيه أوامر بذلك من ملك بيت المقدس(٣) . أو جاء مجازفة منه بحياته بعد رؤيته لبوادر الهزيمة النكراء(٤) ، فإن ما يهمنا أنّ خروجه بأتباعه من ساحة المعركة ، كان له دور كبير في إدخال اليأس إلى نفوس الصليبيين ، وتحطيم روحهم المعنوية ، وكان هذا الخروج من مقدمات الكارثة التي حلت بهم(٥).

وكانت عملية فتح الثغرة التي خرج منها ريموند وأتباعه – التي اقتصرت عليهم فقط – وإعادة احكامها مرة أخرى ، والتي تولى المظفر تقي الدين عمر تنفيذها ، من المهارات العسكرية

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٣٦٦ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٥ – ٧٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٥٣٥ .

(٢) عبدالله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، ص ١٨٦ ؛ قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٢٠ . وقال : هي رواية الفرنج .

(٣) قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٢٠ ؛ بسام العسلي : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٨٠٥ ؛ انتوين بردج : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد غسان ، نبيل الجيرودي ، دمشق ، ١٩٨٥م ، ص ١٩٦ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛ سميل: الحروب الصليبية ، ص ٨١ ، سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق، ص ٣٩١.

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛ عبدالله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ، ص ١٨٦ ؛ سميل : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٨١ ؛ سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ، ص ٣٩١.

التي شهدتها معركة حطين(١).

وفور انتهاء معركة حطين ، سار صلاح الدين بجيشه إلى طبرية فافتتحها ، ثم سار منها إلى عكا(٢) فسقطت في يده ، وحصل تقي الدين عمر على أموال طائلة عند دخوله عكا ، وكان ذلك بعلم صلاح الدين ورضاه ، كما استولى على " دار السكر " وكانت تحوي على قدوراً ضخمة(٣).

وبعد دخوله عكا بعث صلاح الدين السرايا لفتح بعض القلاع والحصون ، فبعث تقي الدين عمر إلى تبنين(٤) ليقطع الامدادات عنها وعن صور(٥) تمهيداً لفتحهما(٦).

سار تقي الدين بقواته إلى تبنين وحاصرها ، لكنه شعر بعجزه عن فتحها لحصانة قلعتها، وشجاعة أهلها الممزوجة بالتعصب الديني ، فطلب من صلاح الدين القدوم بجيشه لاقتحامها ، فجاء بقواته وشدد عليها الحصار حتى استولى عليها بالأمان في رجب سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٧م(٧). وكانت تبنين هذه

---

(١) محمد محمد حسين : الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٤٢٦-٤٢٧ .

(٢) عكا : مدينة كبيرة من سواحل الشام بينها وبين صور إثنا عشر ميلاً ، ملكها الصليبيون لأول مرة سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م ، أبو الفداء : تقويم البلدان، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) البنداري : سنا البرق ، ص ٣٠١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٦.

(٤) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور . ياقوت: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٥) صور : مدينة على ساحل البحر من أحصن الحصون . استولى عليها الصليبيون سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٧) الاصفهاني (القاضي عماد الدين أبو عبدالله بن صفي الدين العماد الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق : محمد صبح ، ص ٩٩-١٠١ ؛ البنداري: سنا البرق ، ص ٣٠٤ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٨٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١١، ص ٥٤١ - ٥٤٢ ؛ ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥١٣ .

تحمي الحدود الشمالية لملكة بيت المقدس(١).

ثم استمرت المعاقل الصليبية في السقوط واحداً تلو الآخر ، وكان من بينها القدس ، وكانت فرحة تقي الدين عمر باستعادة بيت المقدس – كغيره من المسلمين – كبيرة جداً ، ففاضت قريحته ، ونظم قصيدةً بهذه المناسبة ، مدح فيها عمه صلاح الدين ، وهنّأه بهذا النصر المؤزر(٢).

وبعد دخول بيت المقدس، شرع المسلمون في تطهيره من دنس الصليبيين ، وتنافس ملوك بني أيوب في تقديم خدماتهم للأماكن المقدسة به . وقام المظفر تقي الدين عمر بغسل قبة الصخرة وجدرانها بالماء ، ثم بماء الورد مراراً ، وكنس ساحتها ، وبخّرها بمجامر الطيب ، حتى غدت تعبق عطراً . وأنفق في سبيل ذلك أموالاً طائلةً ، وعدّة أحمالٍ من ماء الورد(٣).

وبعد الانتهاء من أمر بيت المقدس ، سارت طلائع الجيش الاسلامي بقيادة الأفضل بن صلاح الدين ، والمظفر تقي الدين عمر إلى عكا ، وهي في طريقها إلى صور ، ولما تكاملت القوات في عكا قادها صلاح الدين إلى صور

= أبو شامة : الروضتين، ج٢ ، ص ٨٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٩٥ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

(١) فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ١٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب، ص٩٠-٩١، ومطلع القصيدة :

دع مهجة المشتاق مع أهوائها   يا لائمي ما أنت من نصحائها

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥١٦ ؛ الأصفهاني : الفتح القسي، ص ١٤٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٩١ ؛ السيوطي (محمد بن شهاب الدين الخفاجي، ت ٨٨٠ هـ/١٤٧٥م) اتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق : أحمد رمضان ، القاهرة ١٩٨٢م ، ج١ ، ص ٢٧٢ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج١ ، ص ٣٤٠ .

وفرض عليها الحصار(١) . كما شن عليها عدة هجمات ، وقاد تقي الدين عمر بعضاً من تلك الهجمات(٢). وأثناء محاصرة صور، جاء مبعوث من الخليفة العباسي إلى صلاح الدين ، واستقبل ملوك بني أيوب – ومن بينهم المظفر تقي الدين عمر – مبعوث الخليفة عند اقترابه من المخيم(٣).

وبعد أنْ لمس صلاح الدين قوة وصمود صور ، ومع اقتراب فصل الشتاء ، أذن لقواته بالعودة إلى أوطانها ، فعاد تقي الدين عمر إلى حماة وكان بصحبته عساكر الجزيرة التي توجهت فيما بعد إلى بلادها(٤).

وبعد انقضاء فصل الشتاء ، استدعى صلاح الدين المظفر تقي الدين عمر وأمره بالمسير إلى تيزين(٥) وأردفه بابنه الظاهر بن صلاح الدين ، وأمرهما بالمرابطة فيها لمراقبة تحركات الصليبيين في أنطاكية ، بينما يقوم صلاح الدين بمهاجمة حصن الأكراد ، واستغرقت هذه المهمة شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م(٦) .

ثم انضم المظفر تقي الدين عمر بقواته إلى صلاح الدين لمهاجمة

---

(١) البنداري : سنا البرق ، ص ٣٠٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ١٠٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٠ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص٢٤٩.

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ البنداري :سنا البرق، ص ٣٢٢ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٦ .

(٥) تيزين : مدينة صغيرة تابعة لأنطاكية استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م . ابن الشحنة الصغير : الد المنتخب ص ٢٢٢ .

(٦) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٨٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٥٥ ؛ المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٠٠ .

جبلة (١) حيث تعرضوا في طريقهم إليها لهجوم من اسطول صقلية ، واستولى المسلمون على جبلة ثم اللاذقية(٢) حيث سلّمهما صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر(٣) .

وزحف المسلمون بعد ذلك على عدد من الحصون الصليبية ومنها حصن برزيّة(٤) الذي ابدا مقاومة عنيفة ، وكان صلاح الدين وابن أخيه تقي الدين عمر يطوفان على الصفوف ، لحث الجنود على الاستبسال ومواصلة القتال ، فما لبث الحصن أن سقط في أيدي المسلمين(٥) .

وعندما رأى الصليبيون في أنطاكية أن معاقلهم تسقط واحداً بعد الآخر ، سارعوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين ، الذي سمح لجنوده بالعودة إلى بلدانهم في شهر شعبان سنة ٥٨٤/نوفمبر ١١٨٨م(٦) . وقد وضعت هذه الهدنة حداً لخطة كان صلاح الدين على وشك تنفيذها إذ كان ينوي محاصرة

---

(١) جبلة : بلدة صغيرة ، تبعد عن بانياس أربعة وعشرين ميلاً وعن اللاذقية اثنى عشر ميلاً . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٢) اللاذقية : بلدة على ساحل البحر بينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعين ميلاً . أبوالفداء: تقويم البلدان ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٦١ ؛أبوالفداء: المختصر ، ج٣ ، ص ٧٤ ؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٠؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٢٤ – ١٢٥ . وفي رواية الأصفهاني أن صلاح الدين سلّم اللاذقية لسنقر الخلاطي . انظر : الأصفهاني : الفتح القسي ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ، وانظر أيضاً : أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٨ .

(٤) حصن برزية : قلعة صغيرة منيعة شمال غرب فامية، وجنوب الشغرويكاس ،أبوالفداء: تقويم البلدان ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٥) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٨٨ ب ؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢٤٨–٢٥٠؛ ابن الأثير: الكامل ، ج١٢، ص ١٤–١٥ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٦٦.

(٦) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢٦٠ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٩٤ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢، ص ٢٦٩ .

أنطاكية تمهيداً لفتحها ، فيما يقوم المظفر تقي الدين عمر بحصار طرابلس ليمنعها من تقديم المساعدة لأنطاكية(١).

واستغل صلاح الدين مدة الهدنة ليتفقد بعض أجزاء مملكته ، فزار حماة حيث استقبله ملكها تقي الدين عمر ، وأصعده إلى قلعتها ، التي لم يخف صلاح الدين اعجابه بحصانتها ، كما وجد أهل حماة يثنون على حسن سيرة ملكهم المظفر(٢) . ويقال أن صلاح الدين أقطع تقي الدين عمر مدينتي جبلة واللاذقية في زيارته هذه.(٣)

واستأنف صلاح الدين حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وحاصر شقيف أرنون(٤) ، وطالت مدة الحصار، في الوقت الذي أوشكت فيه هدنته مع أهل أنطاكية على الإنقضاء ، وحتى يتفرغ لحصار شقيف أرنون دون أن يشغله أمر أنطاكية ، طلب صلاح الدين من المظفر تقي الدين عمر أن يرابط بقواته ومن قدم عليه من عساكر الجزيرة قبالة الصليبيين في أنطاكية وامتثل تقي الدين أوامر السلطان صلاح الدين وقام بالمهمة على الوجه المطلوب(٥).

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٦ – ١٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢) الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٢٦٣-٢٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٣) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٨٨ أ ، ١٨٩ أ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٩٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٥٢ ؛اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ص ٤٢.

(٤) شقيف أرنون : قلعة منيعة جداً بين دمشق والساحل ، وتتحكم في المنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصبة ، وتتكون القلعة من قسمين أحدهما علوي والآخر سفلي ولها سور ضخم من الحجارة . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ؛ فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٨٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٧ ؛ أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ٢٨٣ ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ١٥٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ .

واستغل الصليبيون انشغال صلاح الدين بحصار شقيف أرنون وزحفوا على عكا وحاصروها في رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، فتوجه صلاح الدين لإنقذها ، واستدعى الجيوش من كل مكان ، وكان في طليعة الملبين لدعوته المظفر تقي الدين عمر(١).

وعندما تكامل جيش صلاح الدين ، قام بتنظيم صفوفه ، فجعل المظفر تقي الدين عمر قائداً للميمنة ، وكان هدف صلاح الدين كسر الحصار الصليبي لعكا ، فأصدر أمراً بالهجوم ، ونجحت ميمنة المسلمين التي يقودها تقي الدين عمر ، في خرق الحصار الصليبي بعد معارك شرسة خاضتها ضد الصليبيين ، وأصبح الطريق إلى عكا مفتوحاً من جهتها الشمالية ، وهو الموضع الذي تمركزت فيه ميمنة المسلمين ، ودخل صلاح الدين إلى عكا ، وزوّدها بالمؤن والمدد(٢).

وكان صلاح الدين يتحين الفرص للإيقاع بالصليبيين في معركة فاصلة، ، فانسحب من تحت أسوار عكا ، ونظّم قواته مرة أخرى ، واحتفظ تقي الدين عمر بقيادة الميمنة ، وفجأةً شنت أربع فرق من الجيش الصليبي هجوماً صاعقاً على القوات الاسلامية في الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٥ هـ / الرابع من اكتوبر سنة ١١٨٩م(٣) . وكان الهجوم

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٩١ أ ؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢٩٩ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ، ص ٣٥ ؛ أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن نصرالله : شفاء القلوب ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ، ص ٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٢-٢٩٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٧ ؛ السيوطي : إتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى ، ج ١ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١٧.

(٣) سميل : الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

الصليبي منصباً على ميمنة المسلمين، فأراد قائدها المظفر تقي الدين عمر استدراج المهاجمين ، فتظاهر بالتقهقر أمامهم.(١) فظن صلاح الدين أن الميمنة تنهزم ، فأرسل لها مدداً من القلب الذي يقف هو على رأسه ، فلاحظ الصليبيون ذلك فحولوا هجومهم إلى القلب فحلّت به الهزيمة(٢) . وانقسمت الفرق الصليبية المهاجمة إلى قسمين ، الأول اقتفى أثر المسلمين المنهزمين وتمادوا في ذلك حتى اختفوا عن الأنظار ، والثاني قصد خيمة صلاح الدين وكانت منصوبة على تل ، فانقض عليهم من ثبت من جنود المسلمين وأوسعوهم قتلاً وأسراً . ولما وصل من نجا منهم إلى مواقع الجيش الصليبي الذي لم يشترك بعد في المعركة ظنوا أن فرقهم الأربع التي قامت بالهجوم قد أبيدت ، وأنه لم ينجُ منها إلاّ هذا النفر القليل ، فاضطرب أمرهم ، وتعرضوا في الوقت نفسه لهجوم عنيف من ميسرة المسلمين ،التي كانت صامدة في مواقعها طوال الوقت. وما لبث أن عاد المظفر تقي الدين عمر بميمنة الجيش فاشترك في المعركة الرهيبة التي أسفرت عن هزيمة منكرة للصليبيين . فقدوا خلالها آلافاً من القتلى . وأُطلق على هذه المعركة مسمى المعركة العظمى بعكا(٣).

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٩٢ ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١١٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٩٦ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٧ ؛ سميل : الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ ؛ وفي بعض الروايات أن تقي الدين عمر تراجع مجبراً أمام قوة الهجوم الصليبي . انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١١١ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٦٩٦ ؛ فايد عاشور : الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ، دار الاعتصام – الطبعة الأولى ، ص ١٨٨ ؛ سميل : الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ؛ تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٩٢ أ – ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١١٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٣) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٩١ – ١٩٢ ؛ الأصفهاني :الفتح القسي =

وقد كان لغياب التنسيق عند كلا الجانبين دوره في سير المعركة، وتحديد نتيجتها. فتراجُع المظفر تقي الدين عمر المقصود في بداية المعركة لم يتم بالتفاهم مع القائد العام للجيش – أعني صلاح الدين – فكان سبباً في هزيمة المسلمين، بينما كان انعدام التنسيق بين من اشترك من الصليبيين في الهجوم ومن لم يشترك سبباً في هزيمتهم والتي كانت نتيجةً نهائيةً للمعركة.

وبعد انتهاء المعركة انتقل صلاح الدين بجيشه إلى الخروبة (١) حيث قضى بها شتاء عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م، مرابطاً أمام الصليبيين وكان بصحبته المظفر تقي الدين عمر(٢).

ولما أقبل الربيع وعادت العساكر الإسلامية لاستئناف الجهاد أعاد صلاح الدين تنظيم جيشه وجعل المظفر تقي الدين عمر – كما هي عادته – قائداً للميمنة(٣).

وأثناء ذلك وصلت الأنباء باقتراب وصول الجيش الألماني بقيادة الامبراطور فردريك بربروسا(٤) وهو جزء من الحملة الصليبية الثالثة التي

= ص ٣٠٨ – ٣١٢؛ ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص ١٠٩ – ١١٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٧ – ٣٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١١١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٩٤ – ٢٩٨؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص ١٠١؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب، ص ١٦١.

(١) الخروبة: حصن بسواحل الشام، جنوب عكا، بينه وبينها ١٦ كم. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ٣٦٢؛ حامد غنيم: الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٢٥ – ٣٢٦؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٥١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣١١.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص٣١٣.

(٤) فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا، تولى العرش بعد وفاة عمه كونراد الثالث سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢م، ويعد من أقوى الملوك الذين حكموا ألمانيا منذ عهد أوتو الأول الملقب "بالعظيم" (٣٥١ هـ/٩٦٢ م – ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣م). عبدالله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، ص ٢٤٠، حاشية رقم ٢. ولتفصيلات أوسع انظر: حامد زيان: الامبراطور فردريك بربروسا.

دفعت بها أوربا لاستعادة بيت المقدس من المسلمين ، واختار الجيش الألماني الطريق البري . واتفق صلاح الدين مع قادة جيشه على اعتراض الجيش الألماني ومنعه من الوصول إلى فلسطين ، فتقرر مسير بعض القادة إلى بلدانهم ليتولوا مهمة الاعتراض ، فكان أول من غادر معسكر المسلمين المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر ، وكان والده قد أقطعه مدينة منبج فسار إليها(١) . وتلته في المغادرة عساكر كثيرة منها عسكر حماة ، أما المظفر تقي الدين عمر فكان آخر من غادر المعسكر الاسلامي(٢) . وقد عهد إليه صلاح الدين بالدفاع عن أملاكه في مدينتي جبلة واللاذقية.(٣)

وأصيب الجيش الألماني بنكسة خطيرة ، إذ توفي قائده الامبراطور فردريك بربروسا وتفرقت جموعه ، إلا أنّ جزءاً منه أصر على مواصلة سيره ، يقوده ابن الامبراطور المتوفى ، حيث وصل إلى أنطاكية ، ولما أراد التوجه إلى طرابلس ، خرج معه دليل سلك به طريق الساحل ليكون في مأمن من هجمات عساكر حماة وحلب(٤) . ورغم هذا الإجراء الاحترازي فإن مؤخرة الجيش الألماني تعرضت لهجوم عنيف في المنطقة الواقعة بين اللاذقية وجبلة وطرابلس . وقد قاد الهجوم المظفر تقي الدين عمر ، واشترك فيه فرسان من جبلة واللاذقية(٥) . لكن عددهم كان قليلاً بالمقارنة مع عدد الجيش الألماني. ولو تلقى المظفر تقي الدين عمر مدداً من المناطق المجاورة له لكان

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٣٩٣ – ٣٩٤ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٧ ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٢٤ ؛ حامد غنيم : الجبهة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٩٦ ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص١٢٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٢٤ .

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٣٩٤ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٣٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠.

(٥) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٣٩٦ .

لهذا الهجوم نتائج كبيرة ، وقد نبّه ابن شداد لهذه النقطة إذ قال : " ولو لحقه الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن لكل أجل كتاب "(١).

ثم عاد تقي الدين عمر إلى حيث يقيم صلاح الدين بجيشه بالقرب من عكا ، وبينما كان في طريقه إلى هناك التقى بمعز الدين سنجرشاه(٢) – صاحب جزيرة ابن عمر –(٣) وفهم منه أنه غادر المعسكر بدون إذن صلاح الدين ، فعاتبه على هذا التصرف ، وطلب منه العودة معه إلى المعسكر ، وعندما رأى معز الدين جدّية المظفر تقي الدين عمر وشدة حزمه امتثل لطلبه وعاد معه إلى معسكر المسلمين مرغماً.(٤)

وعند اقتراب المظفر تقي الدين عمر من المعسكر ، استقبله العادل – أخو صلاح الدين – واصطحبه إلى خيمة صلاح الدين ، حيث شفع الإثنان لمعز الدين الذي كان برفقتهما ، واختار النزول بجوار تقي الدين عمر ليكون آمناً على نفسه.(٥)

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٧ .

(٢) الملك سنجر شاه معز الدين بن غازي بن مودود ، وصف بالظلم والجور ، قتله ابنه غازي سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٥٠٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٥ .

(٣) جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينهما مسيرة ثلاثة أيام ، ويحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات ، وتنسب إلى الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي ، وهو أول من سكنها في حدود سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٤) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٩٨ أ ؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص٤٢٩؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٤٥ – ١٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦ ، إلاّ أنه تفرّد برواية مفادها أن صلاح الدين بعث رسالة إلى المظفر تقي الدين عمر وأمره فيها بإعادة معز الدين سنجر شاه طوعاً أو كرهاً ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ١٦٨ .

(٥) الأصفهاني : الفتي القسي ، ص ٤٢٩ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٤٦؛أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٤٢ .

ونزل المظفر تقي الدين عمر بقواته في المكان الذي تركه مظفر الدين كوكبوري(١) الذي حصل على منطقة اربل(٢) وأعمالها ، بعد تنازله عن اقطاعه السابق وهو حران والرها وسميساط(٣) والموزر(٤) ، وكان مظفر الدين نازلاً في ميسرة الجيش الاسلامي قبل سماح صلاح الدين له بالتوجه إلى إقطاعه الجديد في اربل . ولما جاء المظفر تقي الدين عمر نزل في المكان الذي تركه مظفر الدين ، كما قام صلاح الدين باقطاعه المناطق التي تنازل عنها مظفر الدين ، فأصبح المظفر تقي الدين عمر يملك اقطاعاً واسعاً يضم حماة ومنبج والمعرة وقلعة نجم وميافارقين وجبل جور وجبلة واللاذقية وحران والرها وسميساط والموزر وبكراميل وبلاطنس(٥).

وعلى الفور بعث تقي الدين عمر نوابه لاستلام المناطق الجديدة التي أعطيت له شرق الفرات(٦).

---

(١) مظفر الدين كوكبوري "كوكبري" علي بن ابكتين – صاحب اربل – ورثها عن والده ، لكنه أخرج منها وانضم إلى صلاح الدين فأقطعه الرها وسميساط ، ثم تنازل عنها مقابل حصوله على اربل بعد وفاة أخيه زين الدين سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م ، وتوفي مظفر الدين سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م . المنذري : التكملة ، ج٣ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١١٣ – ١٢٠ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٧ .

(٢) اربل : قلعة حصينة ، ومدينة كبيرة ، من أعمال الموصل بينهما مسيرة يومين . ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٣٧ – ١٤٠ .

(٣) سميساط : مدينة على شاطئ الفرات الغربي ، في طرف بلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ .

(٤) الموزر : منطقة بأرض الجزيرة منها مدينة نصيبين الروم . ياقوت : المصدر السابق ، ج٥ ص ٢٣١.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٤٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٧ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٠٣ ؛ وبلاطنس : حصن منيع بسواحل الشام ، مقابل اللاذقية . ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٧٨ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٤٠ .

أما الصليبيون فقد ضاقوا ذرعاً من شبه الحصار المفروض عليهم من قبل المسلمين ، فخرجوا لقتالهم ، فرتب صلاح الدين جيشه . فكان المظفر تقي الدين عمر في الميسرة هذه المرة لأنه كان يشغل المكان الذي تركه مظفر الدين كوكبوري . واستدرج صلاح الدين الصليبيين وأخذ يسير بمحاذاتهم حتى وصلوا منطقة رأس الماء(١) ، فأصدر أوامره إلى ميمنة جيشه وميسرته بالإحداق بالصليبيين ، والالتفاف عليهم ، فدارت رحى معركة عنيفة بين الطرفين في شوال سنتي ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م ، فقد خلالها الصليبيون آلافاً من القتلى(٢).

وعندما حل الشتاء عادت العساكر الاسلامية إلى أوطانها . وغادر المظفر تقي الدين عمر معسكر صلاح الدين عائداً إلى حماة في شهر صفر سنة ٥٨٧هـ/١١٩١.(٣)

وتذكر بعض المصادر أن تقي الدين عمر لم يعد إلى المعسكر ثانية، حيث ذهب لتفقد المناطق التي اقطعت له في مناطق شرق الفرات ، وبقي هناك حتى وافته منيته في شهر رمضان من نفس السنة(٤). إلا أنّ ابن شداد ذكر أن المظفر تقي الدين عمر وابنه المنصور محمد اشتركا في محاولة تنفيذ خطة

---

(١) رأس الماء : لم أجد تعريفاً لهذا المكان في كتب البلدان التي اطلعت عليها.

(٢) الأصفهاني: الفتح القسي ، ص ٤٤٢ – ٤٤٦ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٤٧ – ١٥٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٩ – ١٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧٠٤.

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٧ ، وقد ذكر أن المظفر تقي الدين عمر غادر المعسكر في شهر محرم ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٥٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٤٦؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ١٠٥ .

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٢؛ ابن الأثير: الكامل ، ج١٢ ، ص ٦٣ .

وضعها صلاح الدين للايقاع بالصليبيين ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١ م، وهذا يعني أنه عاد ثانية إلى معسكر المسلمين ، ويمضي ابن شداد في روايته الآنفة الذكر ، وملخصها أن صلاح الدين بلغته أنباءٌ عن خروج حشود من الصليبيين وابتعادهم عن خيامهم مستغلين فترة فصل الشتاء وتوقف الأعمال العسكرية ، فقرر الإيقاع بهم ، فأعد كمينين لذلك أحدهما بقيادته والآخر بقيادة المظفر تقي الدين عمر ، لينقضا على الصليبيين عند ابتعادهم عن معسكرهم ، وعندما أعد صلاح الدين الكمينين لم يخرج الصليبيون كعادتهم ، وكأنهم كانوا على علم بما أُعد لهم ، وبذلك توقف تنفيذ الخطة(١). والراجح أن المظفر تقي الدين عمر قد اشترك في محاولة تنفيذ هذه الخطة لأنّ مصدرها – وهو المؤرخ ابن شداد – كان مشتركاً في محاولة تنفيذها . إذ يقول " وكنت في الصحبة في ذلك اليوم "(٢).

وعلى كل حال فإن المظفر تقي الدين عمر قد حصل من صلاح الدين – بعد إلحاح كبير – على إذن بالتوجه إلى اقطاعاته في شرق الفرات(٣). وكان إذن صلاح الدين مقيداً بعدة شروط منها جمع أكبر عدد ممكن من عساكر الجزيرة ليساهموا في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة التي لا تزال مستمرة ضد بلاد الشام ، والعودة السريعة ، وعدم الاعتداء على المناطق المجاورة لاقطاعاته لأن أصحابها موالين لصلاح الدين وبعضهم مرابط معه في مواجهة الصليبيين .(٤) كما نصح صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٥٥ – ١٥٦ ؛ وذكر الأصفهاني الحادثة دون ذكر اسم المظفر تقي الدين عمر . انظر الفتح القسي ، ص ٤٧٠ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٢ .

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٨ – ٤٦٩ ؛ عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية ، ص ١٥٥ .

بتوزيع اقطاعاته في شرق الفرات على أكبر عدد ممكن من الجنود ليستطيع تكوين جيش يمكنه الاعتماد عليه(١). كما نصحه بعدم معاقبة من يرفض دعوة الانضمام إلى الجهاد ، وأن يرجئ محاسبة من يفعل ذلك من الحكام إلى أنْ تحين الفرصة المناسبة ، ويزول الخطر الصليبي(٢) .

ووافق المظفر تقي الدين عمر على شروط عمه ، ووعده بالعودة بعد أشهر قليلة مصطحباً جيشاً كبيراً(٣) ، وتوجه إلى شرق الفرات بما يقارب السبعمائة جندي من أتباعه(٤).

ووصل المظفر تقي الدين عمر إلى منطقة جبل جور ، وأخمد فتنة كانت بها(٥) . ثم سار إلى ميافارقين ورتب أحوالها . وخرج منها مصطحباً معه عسكراً من ماردين ، فاستولى على حاني(٦) والسويداء(٧) ، ثم التقى مع بكتمر(٨) – صاحب خلاّط –(٩) في معركة قوية انهزم فيها بكتمر رغم أنه

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٢ ، ص ٧٠٦.

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٨ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٣٨ ؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٤٦٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١، ص ٢٠٣ ؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٥) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٧ .

(٦) حاني : مدينة من ديار بكر . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .

(٧) السويداء : بلدة مشهورة من ديار مضر ، قرب حران ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٨) الأمير سيف الدين بكتمر بن عبدالله . تولى حكم خلاط بعد وفاة سيده ناصر الدين سكمان الثاني ، سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م واستمر يحكمها حتى سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م حيث قتل على أيدي الاسماعيلية ، انسان العيون ، ورقة ٤٦ – ٤٧ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ ، العبر ، ج ٣ ، ص ٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٨.

(٩) خلاّط : أو أخلاط ، بلدة مشهورة ، قصبة أرمينيا الوسطى . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

كان الأكثر عدداً وعدة(١) . ويبدو أنه استعد ثانية ليثأر لهزيمته لكن جيشه لم يلبث أن انهزم فور مشاهدته لطلائع جيش المظفر تقي الدين عمر ، الذي غنم ما تركه المنهزمون من خيام وأثقال(٢). وأصبح الطريق إلى خلاط مفتوحاً أمام تقي الدين عمر وجيشه ، فتقدم إليها وحاصرها ، لكنه أدرك صعوبة اقتحامها فتخلى عن حصارها بعد أن استولى على قلعة قريبة منها تُدعى شميران(٣).

أما بكتمر فقد استنجد بالخليفة العباسي الناصر لدين الله(٤) ، الذي أرسل بدوره رسالة إلى صلاح الدين ندد فيها بشدة بما تتعرض له خلاط من

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٧٥ - ٣٧٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن الشحنة الكبير (أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد ، ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ؛ روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، مطبوع بهامش الجزء السادس من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ، المطبعة الكبرى ، ١٢٩٠ هـ ، ص ٩٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٩ .

(٣) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٦٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ ؛ ابن الشحنة الكبير : روضة المناظر ، ص ٩٧ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ١٦٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ ، وقد ذكر خطأ أن تقي الدين عمر استولى على خلاّط .

(٤) الناصر لدين الله أحمد بن المستضئ بالله ، الخليفة الرابع والثلاثون للدولة العباسية ، وأطولهم حكماً ، ولد سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م . بويع بالخلافة بعد وفاة والده سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩ م واستمر خليفة حتى توفي سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م . ابن طباطبا(محمد بن علي ابن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقي ، ت ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت ، ص ٣٢٢ - ٣٢٩ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج٢٢ ، ص ١٩٢ - ٢٤٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٣ - ٤٢٢ .

هجمات من قبل تقي الدين عمر وأتباعه(١).

وكان صلاح الدين ممتعضاً من هجمات المظفر تقي الدين عمر على خلاط(٢) . ورد على الخليفة بأنه لم يأمر تقي الدين بشيءٍ مما قام به ، وأنه سمح له بالذهاب إلى مناطق شرق الفرات ليجمع العساكر ويعود لاستئناف الجهاد ، لكنه عاد ليبرر للخليفة أسباب ما قام به المظفر تقي الدين عمر من أعمال عسكرية في منطقة خلاط حيث قال : " واتفقت أسباب اقتضت ذلك"(٣). كما أوضح للخليفة بأنه أمر المظفر تقي الدين عمر بالعودة إلى الشام فوراً(٤).

أما في بلاد الشام فقد زاد ضغط الصليبيين على عكا بعد اكتمال وصول حملتهم الثالثة ، وفيما كان صلاح الدين ينتظر قدوم تقي الدين عمر ومعه العساكر التي وعد باحضارها ، إذ بعكا تسقط في أيدي الصليبيين ، في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م (٥) .

ولم يتردد صلاح الدين في تحميل المظفر تقي الدين عمر جزءاً كبيراً من مسئولية سقوط عكا(٦). لأنه بمهاجمته لمنطقة شرق الفرات ، مَنَعَ وصول

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٦٧.

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٧٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٨ ؛ وانظر أيضاً : أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣، ص ٤٥٨ . ويذكر ابن الأثير ، أن تقي الدين أراد أن يضم مدينة حاني – من ديار بكر– إلى اقطاعه فلما ملكها غضب لمحاربته . الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢، ص ١٩٣.

(٥) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٦ .

(٦) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ – ١٨٣ ؛ قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٩٢ . وانظر أيضاً : خاشع المعاضيدي وآخرون : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ١٧٩.

عساكر تلك المنطقة للمساهمة فـي الجهاد ضد الصليبيين(١). وكانت أعداد تلك العساكر كبيرة إذ تعادل تقريباً حجم القوات الإسلامية التي كان يرابط بها صلاح الدين حول عكا(٢).

أما المظفر تقي الدين عمر فلم يكن صمود خلاط أمامه نهاية أعماله العسكرية في تلك المنطقة ، فقد تخلى عن خلاط وزحف على مدينة أخرى تابعة لها هي ملازكرد(٣) وحاصرها مدة تقارب الثلاثة أشهر(٤) مما يدل على اصراره على الاستيلاء عليها .

واشترك معه في حصارها جيش من مدينة أرزن الروم(٥) بقيادة ملكتها " ماما خاتون بنت سلدق"(٦) ، كما توافدت عليه عساكر غفيرة من المناطق المجاورة يدفعها إلى ذلك المجاعة التي أصابت مناطق شرق الفرات في تلك الفترة ، والتي أحسن المظفر تقي الدين عمر استغلالها عندما أخذ يجند كل من يفد إليه ويغدق على جيشه الأموال الطائلة حتى أصبحت العساكر التابعة له كبيرة جداً.(٧)

وقد كاد المظفر تقي الدين عمر أن يقطف ثمار حصاره الطويل

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥١٣ ، ٥٦٦ – ٥٦٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٧ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٥٤ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥١٣ .

(٣) ملازكرد : ومنازجرد ، ومنازكرد ، كلها اسم الموضع واحد ، وهو بلد مشهور بين خلاّط وبلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٠٢ .

(٤) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٣١ ب ؛ : الفتح القسي ، ص ٤٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٦ .

(٥) أرزن الروم :بلدة من أرمينية أهلها أرمن .ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٥٠-١٥١.

(٦) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٧٠ .

(٧) الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٥٧٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٤.

للازكرد، إذ طلب أهلها منه مهلة لتسليمها . وقبل انقضاء المهلة المحددة بيومين ، مرض المظفر تقي الدين عمر وساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم حتى توفي قبل الاستيلاء على المدينة.(١)

وخلال فترة تواجد المظفر تقي الدين عمر في منطقة شرق الفرات، كان على اتصال بعمه صلاح الدين ، فقد أرسل له رسالة يخبره فيها بوفاة قزل(٢) بن الدكز – صاحب بلاد العجم – ووصلت الرسالة إلى صلاح الدين في اليوم الذي توفي فيه المظفر تقي الدين عمر ، أو في يوم قريب جداً منه(٣).

وفيما كان صلاح الدين نازلاً بجيشه في الرملة ، في مواجهة الصليبيين الذين تقدموا من عكا باتجاه القدس ، وصله نبأ وفاة المظفر تقي الدين عمر ، فكتم الخبر عن الناس ، واستدعى جماعة من المقربين إليه وكان من بينهم ابن شداد – مصنف سيرته – واجتمع بهم داخل خيمته ، وأمر الحراس بالابتعاد عن الخيمة ، ومنع الدخول إليها . وفيما كان الجماعة يتشوقون لسماع الأمر الذي طُلبوا من أجله ، وإذ بصلاح الدين يفاجئهم – وهو الرجل الصبور – بالبكاء والنحيب إلى درجة أثّرت في نفوسهم ، فأجهشوا بالبكاء دون أن يعرفوا سبب فعله هذا . ثم أخرج لهم كتاباً ، وأعلن أنه يتضمن نعي المظفر تقي الدين عمر ، فعليهم البكاء ثانية ، ولم يهدأ الوضع داخل الخيمة إلاّ بعد موعظة ألقاها ابن شداد في الحاضرين ، حيث استرجع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٢ ، ص ٧٠٦ .

(٢) السلطان أرسلان قزل عثمان بن الملك الدكز ، صاحب أذربيجان ، ملكها بعد أخيه البهلوان ، واستولى على همذان وأصبهان والري . ثار ضده طغرل ، فهرب إلى أصبهان وتسلطن بها وحكم سبع سنين ، ووجد مقتولاً على فراشه في شعبان سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، ولم يعرف قاتله . الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ١٩٧ – ١٩٨.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٢ .

صلاح الدين وطلب منهم كتم الخبر حتى لا يعلم به الصليبيون(١).

وهذا دليل على قوة شخصية المظفر تقي الدين عمر ، وتأثيره في نفوس الجنود الصليبيين والمسلمين على حد سواء . فلو سمع الصليبيون بخبر وفاته لتشجعوا وارتفعت روحهم المعنوية ، وفي المقابل تزداد حالة الجبهة الاسلامية تدهوراً .

وقد كان حزن صلاح الدين لوفاة المظفر تقي الدين عمر عظيماً(٢) . ولا غرو في ذلك ، فقدْ فقدَ بموته رجلاً من أعز أنصاره ، وأكثرهم إخلاصاً له ، وأكفئهم في تحمل ما يناط به من واجبات(٣) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٢٢- ٢٢٣ ؛ وانظر أيضاً : تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٩٤ ب ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٦٤ .

(٢) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج ١ ، ورقة ١٩٤ ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٦٧؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٦٤ ؛ ابن طولون (محمد بن طولون ، ت ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م،) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق : محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٠ م ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٨ ؛ ابن المستوفى (شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد النجمي ، ت ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠م) تاريخ اربل المسمى " نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل " تحقيق سامي الصقار ، بغداد ، ١٩٨٠م، ج ٢، ص ٤٩٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص ٢٧٩ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٨٩ .

ورغم اختلاف المصادر في مكان وزمان وفاة المظفر تقي الدين عمر، إلاّ أن أرجح الأقوال أنه توفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة ٥٨٧ هـ / سبتمبر سنة ١١٩١(١) في طريق خلاط عائداً إلى ميافارقين(٢).

وبوفاته طويت صفحة مشرقة من صفحات القادة المجاهدين ، الذين نذروا أنفسهم لجهاد أعداء الإسلام ، ولقد كان حب الجهاد متغلغلاً في نفسه ، فضحى بنفسه وولده وماله في سبيل الله . وقد سجل له التاريخ مواقف جهادية مشرقة ومنها – إضافة إلى ما ذكرناه في الصفحات السابقة – أنه شكل فرقة عسكرية من رجّالة وخيالة ، وأوقف عليها وقفاً خاصاً ، وجعل قاعدتها قرب دمشق وكان من مهامها مضايقة الصليبيين، ومراقبة تحركاتهم ، وشن الغارات عليهم كلّما سنحت الفرصة . ولما استعاد المسلمون

---

(١) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ١٩٤ ؛ ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٣٨ ب؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر ... ، ورقة ١١٠ب؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين، ص١٩٨؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٦٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٧٦ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج٣ ص ٨٠ ؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ص ١١٠ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ١٥٦ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٢، ص ٣٦٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص٩٧.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٣ .

بيـروت(١) سـنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، انتـقـلت هذه الفـرقـة إليـها وجـعلتـها مقـراً لقيـادتها ، لتـكـون قريبة مما تبقى للصليبيين مـن إمـارات خاصـة صـور وطـرابلـس والحصـون القـريـبة مـنها (٢).

وقـد اتصـف المظـفر تقـي الدين عمر بالشجاعة المتناهية(٣) ، والكـرم ، وكـان مـؤيداً فـي الحروب التـي يخوضهـا(٤) . وركنـاً مـهماً مـن أركـان البيـت الأيـوبـي(٥) . مـحـبـاً للعلماء والأدبـاء ، وكـان هـو

---

(١) بيروت: مدينة جليلةعلى ساحل البحر بينها وبين بعلبك ستة وعشرون ميلاً ، استولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٢ هـ /١١١٠ م . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ، ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م) تاريخ بيروت ، المسمى " أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت " تحقيق : فرنسيس هورمس وآخرين ، بيروت ١٩٦٧ م ، ص ٣٧ .

(٣) الأصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، ص ٨١ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٨ أ ؛ ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ٨٠ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٢٣ .

(٥) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحنبلي ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٣٧ م) جهينة أخبار ملوك الأمصار ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، رقم ١٦٩ ، عن نسخة مكتبة كوبرلي بتركيا رقم ١٦٩ ، ورقة ٥٤ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ .

نفسه أديباً فاضلاً(١)، وشاعراً مجيداً(٢) ، وقيل أن له ديوان شعر(٣) ، وأوردت عدة مصادر مقتطفات من شعره(٤) .

---

(١) ابن حبيب : جهينة أخبار الملوك ، ورقة ٥٤ أ ؛ الأصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، ص ٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٩١. السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ .

(٢) الأصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، ص ٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ج ٧ ، ص ٩١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٤ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٤ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٤) الأصفهاني : خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، ص ٨٥ – ١١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ؛ المنذري : التكملة ، ج ١ ، ص ١٦٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٩١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ١١٤ .

الفصل الثاني
مملكة حماة في عهد المنصور الأول محمد
(٥٨٧ هـ/١١٩١ م - ٦١٧ هـ/١٢٢١م)

* المنصور الأول يخلف والده تقي الدين عمر على مملكة حماة .
* موقف مملكة حماة من حرب الوراثة بين أبناء صلاح الدين .
* جهاد مملكة حماة ضد الصليبيين .
* أثر وفاة المنصور الأول على مملكة حماة .

المنصور الأول يخلف والده تقي الدين عمر على مملكة حماة

عندما وافت المنية المظفر تقي الدين عمر وهو في طريق خلاط، كان بصحبته ابنه المنصور محمد، الذي قام على الفور بفك الحصار عن ملازكرد، وحمل جثمان والده، وعاد به مسرعاً إلى حماة، حيث دفنه بها، وكان هذا العمل من دلائل حزم المنصور وعظيم همته(١).

ويبدو أنّ المنصور أراد أن يظهر للناس مدى تمسكه بحماة، نظراً لأنها عاصمة مملكة والده، لذلك لم يدفن جثمانه في المكان الذي توفي فيه، بل نقله إلى حماة.

وحقيقةً أنّ المظفر تقي الدين عمر لم يوص بالملك من بعده لابنه المنصور محمد(٢)، وليس من حقه فعل ذلك، فالإقطاع الأيوبي – الذي وضع أسسه صلاح الدين – لم يكن يسمح بتوريث الاقطاع(٣).

ولم تشر المصادر إلى مبايعة عساكر المظفر تقي الدين عمر لإبنه المنصور بعد وفاته، لكن يظهر من مجريات الحوادث، أنّ المنصور حصل على موافقة من جيش والده على تسلمه لزمام السلطة في المناطق التي كانت اقطاعاً لوالده. إذ نراه بمجرد وصوله إلى حماة يبعث رسالةً إلى

---

(١) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٥٧٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ١٩٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٧٦، أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص ٨٠؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب، ص ٢٣٥.

(٢) أحمد غسان: مملكة حماة الأيوبية، ص ٦٠.

(٣) طلال العصيمي: الاقطاع الحربي في العصر الأيوبي، ص ١٣٢ – ١٣٦؛ عبدالله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، ص ١٠٣.

صلاح الدين ينعي فيها والده ، ويطلب الموافقة على تولّيه أمور الاقطاع الذي كان ممنوحاً لوالده(١).

وقد ضمّن المنصور رسالته الآنفة الذكر شروطاً تمثّلت في أنْ يُقْسِمَ له صلاح الدين " بأغلظ الأيمان ؛ على موافقته بأن يكون وريثاً لوالده في ما كان بحوزته من إقطاع ، وإلاّ فإنّه قد لا يستمر في خضوعه وتبعيته لسلطان الدولة الأيوبية.(٢)

ولقد أثارت شروط المنصور غضب صلاح الدين.(٣) لأنّها المرة الأولى التي يطلب فيها أحد من أهل بيته مثل هذا الأمر . لذلك رفض الموافقة على طلب المنصور ، وكان رفضه شديداً . ليمنع تكرار مثل هذه الحادثة(٤).

ونتيجة لغضب صلاح الدين ورفضه الموافقة على طلب المنصور ، بدأ الأخير يحدث نفسه بإمكانية التمرد، ليستقل بما تحت يده من مناطق ، مستغلاً إنشغال صلاح الدين بمواجهة الصليبيين(٥). على أنّ بعض

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٧٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٢ – ٨٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ٨٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧١٤ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٧٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٧ .

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي ، ص ٥٧١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ٣٧٧ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) تاريخ ابن الفرات ، تحقيق : حسن محمد الشماع ، البصرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٥٩ – ٦٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٥.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٢ – ٨٣ .

مستشاري صلاح الدين فهم من الشروط التي طلبها المنصور في رسالته أنّها اعلان للتمرد في حالة رفض صلاح الدين لها(١).

ولقد أدى انشغال صلاح الدين بمواجهة الصليبيين ومحاولة منعهم من التقدم إلى بيت المقدس ، إلى تجميد الوضع بينه وبين المنصور عدة أشهر، استمرت من شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م – وهو تاريخ وفاة المظفر تقي الدين عمر – حتى نهاية السنة ، ولما دخلت سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، طلب الأفضل بن صلاح الدين من والده اقطاعه المناطق التي كانت بيد المظفر في شرقي الفرات ، مقابل تنازله عن دمشق ، فوافق السلطان على هذا الطلب وأذن للأفضل بالمسير إلى شرق الفرات ، للاستيلاء على المناطق التي منحت له هناك وسمح له باستخدام القوة العسكرية إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وزوده بمبالغ مالية لتحقيق هذا الهدف(٢). كما أصدر أمراً إلى ابنه الآخر الظاهر غازي صاحب حلب بمساعدة الأفضل ، وكتب إلى ملوك المناطق الشرقية الموالين له ، كالموصل ، وسنجار ، وجزيرة ابن عمر، وديار بكر، وغيرهم، يأمرهم بتقديم المساعدة له.(٣)

وعندما وصلت أنباء تلك التحركات إلى المنصور خشي عاقبة

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ٨٠ ؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٥٩ – ٦٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧١٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٥ .

(٢) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٩٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ – ٣٧٨ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٣، ص ٧١٤ .

الأمور ، فأرسل إلى الملك العادل مستجيراً به ، وحثه على التوسط له عند السلطان(١).

وعرض المنصور على السلطان – بواسطة مجيره العادل – اقتراحاً يتضمن تنازله عمّا كان لأبيه في شرق الفرات ، مقابل احتفاظه بحماة ومعرة النعمان وسلمية وقلعة نجم ، وكفالته لإخوته . أو أنْ يتنازل عن القسم الشامي من مملكة والده مقابل حصوله على مناطق شرق الفرات(٢).

واستمرت المفاوضات بين السلطان وأخيه العادل بشأن المنصور ، ومرت بعدة أطوار ، وافق السلطان في إحداها على إعطاء المنصور مناطق شرق الفرات ، واستعادة حماة وتوابعها منه . وعندما طلب العادل منه التوقيع على وثيقة بهذا الشأن ، والقسم عليها ، غضب بشدة ، وأمر باحراق نسخة اليمين ، وعدم التحدث معه في هذا الموضوع مرة أخرى . وأبدى استغراباً كبيراً ، إذ كيف يطلب منه وهو السلطان أن يحلف لأحد أبناء أبناء أخيه ؟ ولا يُكتَفَى منه بذلك بل يُطالب بالتوقيع على وثيقة خطية بهذا الشأن!!.(٣)

وتفاقمت المشكلة ، فأراد صلاح الدين معرفة رأي أصحابه وقادة جيشه ، فبعث إليهم ابن شداد – مصنف سيرته – فاجتمع بهم بحضور العادل – أخي صلاح الدين – فعرض عليهم الأمر ، وأخبرهم أن السلطان ينتظر

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٩٥ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٨ ؛أبوالفداء: المختصر ، ج٣ ، ص ٨٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٧١٤ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ أبو شامة: الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٠ .

معرفة رأيهم ، فقام الأمير حسام الدين بن أبي الهيجاء(١) ، وقال : " نحن عبيده ومماليكه ، وذاك صبي ، وربما حمله خوفه أنْ انضاف إلى جانب آخر ، ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فإنْ أرادنا نقاتل المسلمين صالح الكفار وسرنا إلى ذلك الجانب ، وقاتلنا بين يديه ، وإن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم " وهذا كان جواب الجميع"(٢).

ومن خلال ما عرضه مستشاروا السلطان في هذا الاجتماع نستنتج أن قضية المنصور شكلت قلقاً للقوات الاسلامية المرابطة في مواجهة الصليبيين، كما أن ذهاب الأفضل ببعض القوات إلى شرق الفرات وانضمام عساكر الجزيرة إليه يسبب نقصاً للقوات الاسلامية ، كالذي حدث عندما اعتدى المظفر على مناطق شرق الفرات ، ومنع وصول الامدادات من تلك المناطق إلى المسلمين مما ساهم في سقوط عكا في أيدي الصليبيين .

أما العادل فقد نشط في مساعي الوساطة التي يقوم بها ، وعرض على السلطان احضار المنصور إليه على أنْ يعطيه حران والرها في هذه السنة ، ويزيده عليها حماة والمعرة في السنة التالية ، لكن السلطان اعترض على هذا الاقتراح.(٣)

ولم ييأس العادل ، واستمر في محاولاته لاقناع السلطان باعطاء

---

(١) الأمير الكبير أبو الهيجاء السمين الكردي ، كان من أكابر أمراء صلاح الدين ، وكان نائباً عنه في عكا إبّان حصارها من قبل الصليبيين ، وخرج منها ودخل بدلاً عنه سيف الدين المشطوب حيث سلمها للصليبيين ، ثم استنابه صلاح الدين على القدس ، وأخذها منه العزيز بن صلاح الدين ، فتوجه إلى بغداد واستقبل بالحفاوة والاكرام ، وبعثه الخليفة الناصر لدين الله على رأس جيش إلى همدان حيث توفى بها سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧ م - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٩ .

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٩٦ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

المنصور ولو بعض ما يطلبه(١) . ونتيجة لتلك المحاولات المتكررة ، ولاقتراح مستشاري السلطان وقادة جيشه ، وافق السلطان على إعطاء المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، وانتزع باقي المناطق التي كانت اقطاعاً لوالده وهي : جبلة واللاذقية والموزر وسميساط ، وحران والرها وميافارقين وحاني(٢).

وسارع العادل إلى طلب مناطق شرق الفرات من أخيه صلاح الدين ، فوافق على طلبه ومنحها إياه.(٣)

واستأذن العادل في التوجه لتفقد المناطق الجديدة التي أُعطيت له ، فأذن له السلطان وطلب منه إبلاغ الأفضل بما تم الاتفاق عليه ليعود إلى حيث يقيم المسلمون في معسكرهم في مواجهة الصليبيين.(٤) وسار العادل إلى شرق الفرات ، وقد أوصاه صلاح الدين بالاجتماع مع المنصور وتطييب خاطره ، وأن " يعطيه ما يريد"(٥)، وتفقد العادل مناطقه في شرق الفرات وعين بها نواباً من قبله (٦). وعاد قاصداً القدس ، وقبل وصوله إليها ، وبالتحديد في منطقة مارصمويل(٧) التقى بالمنصور ، فاجتمع به ، وكتب إلى

---

(١) العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا ...ورقة : ١١٠ ب ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢ ، ص ٣٦٩ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج٣ ، ص ٤٢٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٧٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٢٣؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ ابن الشحنة : روضة الناظر ، ص ٩٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٥ .

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٩٦ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٩؛ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٥٩٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧١٥ .

(٧) مارصمويل : بليدة من نواحي القدس ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٩ – ٤٠ .

أخيه صلاح الدين يسأله حسن استقبال المنصور الذي سيصل برفقته ، ولما علم الظاهر بن صلاح الدين – صاحب حلب – باقتراب العادل والمنصور استأذن في الخروج لاستقبالهما ، فتوجه للقائهما ، فوجد المنصور معسكراً بمن معه في منطقة بيت نوبة(١)، ونزل عنده ، وأقام إلى وقت العصر ، حيث اصطحبه لوحده دون عسكره ليدخله على والده السلطان صلاح الدين(٢).

وجاء المنصور ومعه العادل والظاهر إلى خيمة صلاح الدين ، الذي ما أن وقعت عيناه على المنصور، حتى نهض له واعتنقه وقبّله وعَلَيَهُ البكاء ، حتى أبكى من حوله . ويبدو أنه استعاد ذكرياته مع والده ومشاركاته له في الكثير من المهام والمسئوليات . ثم هدأت نفس السلطان ، وأخذ يباسط المنصور ويسأله عن الطريق من حماة إلى فلسطين(٣).

وقضى المنصور ليلته تلك في خيمة الظاهر بن صلاح الدين وسار في صباح اليوم التالي إلى حيث يقيم جنوده في بيت نوبة ، وأمرهم بالتحرك لينضموا إلى إخوانهم المجاهدين تحت قيادة السلطان صلاح الدين(٤).

---

(١) بيت نوبة : أو بيت نوبا ، بليدة من نواحي فلسطين . ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٣ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٠ –٢٣١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٣) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ج١ ، ورقة ٢٠٤ ب ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٧٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨١ ؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٦١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٥ ، وحُسْن استقبال السلطان صلاح الدين للمنصور ، وموافقته على بقاء حماة وتوابعها بيده ردٌّ بليغ على اتهام ابن تغري بردى له بأنه يكره المنصور ولذلك انتزع منه ما كان بحوزة والده المظفر تقي الدين عمر . انظر ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٤ .

(٤) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٠٠ ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣١؛أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٧٩ .

موقف مملكة حماة
من حرب الوراثة بين أبناء صلاح الدين

بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، قُسِّمت مملكته بين أبنائه ، فحصل الأفضل على دمشق وتوابعها كالقدس وبلاد الساحل حتى حدود مصر مع فلسطين ، وكانت مصر من نصيب العزيز ، أما حلب وتوابعها فأعطيت للظاهر غازي ، واستقرت مناطق شرق الفرات بيد العادل أخي صلاح الدين . وبقيت حماة والمعرة وقلعة نجم وسلمية ومنبج بيد المنصور محمد بن المظفر ، وهو داخل تحت حماية الظاهر غازي ومنتمي إليه(١).

ولما انتشر خبر وفاة صلاح الدين ، طمع الأراتقة في الاستيلاء على مناطق شرق الفرات وانتزاعها من العادل ، الذي أرسل بدوره يستنجد بملوك بني أيوب(٢).

واستجاب ملوك بني أيوب لصرخات العادل ، وقام الأفضل - باعتباره سلطان الدولة - باصدار أوامره إلى الملوك ومن بينهم المنصور - صاحب حماة - بسرعة تقديم المساعدة للعادل وهدّدهم إن تقاعسوا في تنفيذ هذا الأمر(٣).

وتدفقت النجدات الأيوبية إلى حران ، حيث كان يقيم العادل ، وكان في مقدمة الواصلين المنصور بعساكره(٤)، وكانت معه أيضاً نجدة حلب(٥).

---

(١) الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٣٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٢٦ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار القلم ، ص ١٨؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٠٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٣ ، ص ٧١٩.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩٩ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ، ص ١٨.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

وعندما تكاملت القوات عند العادل ، طلب من ابن أخيه الظافر خضر(١) بن صلاح الدين ، أن يهاجم سروج ، وبعث له مدداً بقيادة المنصور محمد ، وتمكنت القوات الأيوبية من الاستيلاء على سروج بعد يوم واحد من نزولها عليها ، في الثامن من رجب سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣(٢).

وانتهت الحملة الأيوبية في شرق الفرات ، وعادت العساكر إلى أوطانها(٣).

وباشتراك المنصور محمد في هذه الحملة يكون قد اشترك في ابعاد خطر هدد الدولة الأيوبية ووجودها خاصة في جهات حلب وحماة(٤).

ولم يدم الوفاق الأيوبي طويلاً ، إذ سرعان ما تفجرت الخلافات بين الملكين الأفضل والعزيز ، واندلعت الحرب بينهما ، ولم تقتصر عليهما ، إذ كان على بقية ملوك بني أيوب أن يشتركوا فيها(٥).

وعندما تحرك العزيز قاصداً دمشق ، انطلقت صرخات الأفضل طالباً العون من الملوك الأيوبيين ، فاستجاب له العادل والظاهر والمنصور والمجاهد ، وأعلنوا وقوفهم إلى جانبه ضد العزيز(٦).

---

(١) الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، المعروف بالمشمر ، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢م ، وتوفي بحران سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ص٢٥.

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٠ أ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٢٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٠٣ ، وقد ذكر أن الظافر خضر عاد بقواته بعد خلاف بينه وبين عمه العادل ، ولم يشترك في الاستيلاء على سروج .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٤) حسن نصر الله : بعلبك في العهد الأيوبي ، مقالة منشورة بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ٧٣ ، كانون أول - ديسمبر ، ١٩٨٤م ، ص ٨٦ .

(٥) عن أسباب الخلاف بين العزيز والأفضل وتفاصيل الحرب الأهلية التي تلته انظر : علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٠ - ٥٠ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٩ ؛ ═

ولم يكن انضمام المنصور – وبقية الملوك – إلى جانب الأفضل إلاّ لخوفهم من استيلاء العزيز على دمشق لأنه " إن أخذها ملك بلادهم "(١).

وقبيل وصول العزيز إلى دمشق ، كان الظاهر غازي مشغولاً بأمر تل باشر(٢) فأراد إخضاعها ، فزحف عليها بجيشه ، وطلب المساعدة من المنصور محمد ، الذي أرسل له فرقة من جيشه ، فأقام الظاهر بقواته محاصراً لتل باشر ، ولم يتخلَّ عن حصارها إلاّ عند سماعه باقتراب العزيز وقواته ووصولهم إلى مشارف دمشق(٣).

ولما وصل العزيز إلى دمشق وحاصرها ، قام عمه العادل بمفاوضته نيابة عن الأفضل ، وتم الاتفاق على أن يكون المنصور محمد ، وعز الدين بن المقدم(٤) – صاحب كفرطاب وأفامية وبارين – ودلدرم بن ياروق تابعين للظاهر غازي ، وأن يتنازل الأفضل عن جبلة واللاذقية للظاهر غازي ، كما يتنازل عن بيت المقدس للعزيز(٥).

= أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٠ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٠٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٦-١١٧؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٦ ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤٤ .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٠ ؛ وانظر أيضاً : علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٤ .

(٢) تل باشر : بلدة شمال حلب بينهما مسافة يومين . ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص٣٢١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٣) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٣٥ أ – ب .

(٤) عز الدين بن المقدم من أكابر الأمراء في عهد صلاح الدين وأخيه العادل ، ورث اقطاعه عن والده سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وبقي بيده حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠م . سبط ابن الجوزي :(شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، الشهير بسبط ابن الجوزي ، ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، حيدر آباد ، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١ م ، ج ٨ ، ص ٤٨٠ .

(٥) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٣٥ أ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٥ .

وقد كانت بنود الصلح جامعة – إلى حد بعيد – لمقترحات الملوك الذين وافقوا عليها ، فالظاهر هو الذي اشترط دخول المنصور وابن المقدم وابن ياروق في تبعيته (١).

ولم يكن المنصور ليرضى أن يكون تابعاً للظاهر بلا ثمن ، فقد تعهد له الظاهر بمنحه جبلة واللاذقية ، وبكسرائيل (٢) ، وصهيون(٣) ، وبلاطنس، على أنْ يسلمه ما تحت يده منها وهي جبلة واللاذقية ، ويساعده على انتزا ع الأخرى من أصحابها ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة(٤).

وبعد عقد الصلح ، عاد كل ملك إلى بلاده(٥).

وبعد مضي ما يقارب العام الواحد على عقد الصلح المشار إليه، تجددت الخلافات بين الأفضل والعزيز ، وترددت الشائعات بأن الأخير عازم على قصد دمشق مرة ثانية ، فخيم الاضطراب على بلاد الشام ، وخشي المنصور على سقوط مملكته في حلبة هذا الصراع ، وكان محقاً في خشيته ، فالظاهر لم يتحرك خطوة واحدة لتنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه بأن يعطيه بعض المناطق ويساعده على انتزا ع مناطق أخرى من أصحابها رغم مضي مدة كافية يستطيع الظاهر أن يثبت فيها صدق نواياه . مع أنه يعلم أنّ وعده هذا هو الذي جعل المنصور ينضوي تحت لوائه ، حسب بنود الصلح السابق . ومن جهة ثانية فإنّ الظاهر غير مطمئن لنوايا عمه العادل خاصة

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٣ .

(٢) بكسرائيل : بكسر أوله وثانيه ، حصن في جبل من سواحل حمص مقابلٌ لجبلة ، ياقوت: معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٧٥ .

(٣) صهيون : قرية من قرى اللاذقية . يضرب بحصانتها المثل . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٣ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٤٥.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٦ – ٣٧ ؛ ابن الشحنة : روضة الناظر ، ص ١٠٥؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤٥ .

بعد مماطلة الأخير له في تنفيذ ما اتفقا بشأنه في قضية ابن ياروق وأبناء عمومته(١).

وكان متوقعاً أن ينضم الظاهر إلى أخيه العزيز ليس حُباً فيه ، وإنما نكاية في عمه العادل . وكان على المنصور أن يختار الإنضمام إلى أحد الفريقين . ولأن الظاهر لم يف له بوعده . ولخوفه من الوقوف ضد العادل والأفضل انحاز إليهما ، وأعلن عن تخليه عن تبعيته للظاهر ، وكذلك فعل عز الدين بن المقدم . وعرض الإثنان على العادل الالتجاء إليه ، فرحّبَ بهما وأصبحا من أتباعه(٢).

ولما تحقق الأفضل من عزم العزيز على غزو دمشق ، أخذ يستنجد بحلفائه الذين وقفوا معه في المرة السابقة . فتوجه بنفسه إلى نصيبين والتقى فيها بعمه العادل ، وسار الإثنان إلى دمشق . وفيما واصل العادل طريقه إليها عرّج الأفضل على حلب ليطمئن على استمرار أخيه الظاهر في موقفه المساند له . لكنّ الظاهر بدأ هذه المرة أقل حماساً في تقديم العون له . واشترط أن يعيد إليه العادل أتباعه الثلاثة : المنصور، وابن المقدم ، وابن ياروق، قبل أن يشترك في أي عمل لصد العزيز عن دخول دمشق . وقد حصل الظاهر من أخيه الأفضل على وعد بمحاولة إقناع عمهما العادل بالقبول بهذا الشرط(٣).

وترك الأفضل حلب وتوجه إلى حماة للاستنجاد بصاحبها المنصور، الذي استقبله خارج البلد وأضافه ووعده بالوقوف إلى جانبه(٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣، ص ٤٥ – ٤٦ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة : ٢١٣ أ ب ؛ مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٤٤ – ٤٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٢ أ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٢٢٩؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٢٣.

وعاد الأفضل إلى دمشق ، ووجد عمه العادل قد سبقه إليها ، فأطلعه على نتائج مباحثاته في حلب وحماة ، وأخبره بالشرط الذي وضعه الظاهر مقابل وقوفه معهما . فرفض العادل بشكل قاطع الموافقة على هذا الشرط . ولما وصلت أنباء ذلك الرفض إلى أسماع الظاهر ، أعلن وقوفه إلى جانب العزيز وبعث إليه يحثه على سرعة التحرك لغزو دمشق ووعده بمناصرته(١).

وتشجّع العزيز كثيراً عندما وصلته رسائل الظاهر ، وخرج بجيشه من القاهرة في شوال سنة٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م ، وتوجه نحو دمشق التي وصل إليها المنصور محمد لينضم إلى العادل والأفضل ومن معهما في الدفاع عنها(٢).

أما الظاهر فقد استغل فرصة اقتراب العزيز بجيشه من دمشق وتواجد المنصور بها للمساهمة في الدفاع عنها، فخرج بجيشه من حلب متوجهاً إلى منبج لينتزعها من المنصور انتقاماً منه لتخليه عن تبعيته وانضمامه إلى خصمه العادل . وعندما وصل إلى بزاغا ، جاءه نبأ تمرد بعض الجنود على العزيز ، وانكفائه عن دمشق ، وخروج الأفضل والعادل ومن معهم في أثره ، فتخلى عن مشروعه لاحتلال منبج وعاد إلى قراحصار(٣)، وعسكر بها حتى انسلخ شهر شوال ٥٩١ هـ/ ١١٩٥م فسار منها إلى حلب(٤).

أما العزيز فلم يكد يقترب من دمشق حتى وقع الاختلاف في جيشه فقرر العودة بسرعة إلى القاهرة ، وخرج وراءه الأفضل والعادل والمنصور وابن المقدم وابن الداية بجيوشهم(٥).

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٣ أ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

(٣) قراحصار : مرج كبير شمال حلب . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

ووصل العزيز إلى القاهرة وشرع في تحصينها ، أما مطاردوه فقد توقفوا عند بلبيس(١) . وتولى العادل نيابة عنهم مفاوضة العزيز ، وقد تم الاتفاق على استمرار كل ملكٍ في حكم بلاده ، وأن يقيم العادل مع العزيز في مصر، ليساعده في تدبير شئون دولته(٢). وقد أدرك العادل أن انضمامه إلى العزيز سيمكنه فيما بعد من السيطرة على دمشق، نظراً لميل صاحبها الأفضل إلى الدعة واللهو.

ولم يدم هذا الصلح أكثر من عام واحد - كسابقه تماماً - إذ زحف العزيز وعمه العادل على دمشق لانتزاعها من الأفضل في رجب سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م ، ولم تواجههما إلا قوات قليلة مؤلفة من عساكر دمشق وحلب ، فتمكنا من هزيمتها ودخلا دمشق . وتم إخراج الأفضل منها إلى صرخد(٣). وتسلم العادل دمشق بصفته نائباً عن العزيز الذي غادرها إلى مصر(٤).

وبعد إحرازه لهذا الانتصار ، ارتفع شأن العزيز ، وأصبح أقوى بني أيوب ، مما حدا به إلى أن يطلب منهم الخطبة له على منابرهم ، ونقش اسمه على عملاتهم . فامتثلوا كلهم لأوامره(٥). ولا شك أنّ المنصور كان من جملة الملوك الذين نفذوا طلب العزيز ، والجدير بالذكر أنه استطاع الوقوف على الحياد في الجولة الأخيرة من الصراع بين أبناء صلاح الدين .

وعندماتوفي العزيزسنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، وتم تعيين الأفضل أتابكا(٦)

---

(١) بلبيس : مدينة على طريق الشام على بعد عشرة فراسخ من الفسطاط . ياقوت: معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٧٩ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة : ٢١٤ أ - ب ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢، ص٢٣٠، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٦١ - ٦٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٢٦ .

(٣) صرخد : بلد من أعمال دمشق ملاصق لحوران . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠١.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٦٨ .

(٥) ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) در التيجان وغرر تواريخ الزمان ،صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى . رقم ٢٠١٥ عن نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٨٢٨ حوادث سنة ٥٩٣ هـ ؛ الدر المطلوب ، ص ١٣١.

(٦) أتابك كلمة تركية مكونة من لفظتين : " أتا" معناها أب . و " بك " ومعناها أمير - أي الأمير الوالد - وكان على الأتابك عند السلاجقة مسئولية تربية ابن الأمير وتدريبه على شئون الحكم والإدارة . ولمعرفة تفصيلات أوسع . انظر: علي الغامدي: بلاد الشام قبل الغزو المغولي . ص ٣٥ ، حاشية رقم١.

لإبنه القاصر - المنصور محمد بن العزيز - وجد الأفضل في ذلك فرصة لاستعادة دمشق من عمه العادل(١) ، واستغل انشغال عمه العادل بما يجري من حروب في مناطق شرق الفرات ، فكاتب أخاه الظاهر غازي الذي شجّعه على قصد دمشق وتعهد بتقديم المساعدة له(٢).

ولمّا أقبل الأفضل بجيش مصر ، خرج الظاهر بجيشه من حلب وقصدا جميعاً دمشق(٣).

ولم يكن المنصور - صاحب حماة - غافلاً عن كل هذه التطورات ، وخشي من مهاجمة الظاهر لمنبج وهو في طريقه إلى دمشق . فبعث إليها فرقة من الجيش الحموي ، لتتولى مهمة الدفاع عنها ، لكن هذه الفرقة اصطدمت بطلائع جيش حلب ، ووقع معظم أفرادها في الأسر ، وساقهم قائد الجيش الحلبي سيف الدين طغريل(٤) إلى الظاهر ، الذي أطلق سراحهم(٥). ويبدو أنه لم يشأ إشغال خاطره بهم أو احتجازهم في حلب لأنه كان سائراً في طريقه إلى دمشق .

وجاء الظاهر بجيشه ليعبر على الجسر المقام على نهر العاصي بالقرب من حماة ، فحاول العسكر الحموي منعه من ذلك ، فوقع صدام بين الفريقين ، أسفر عن تفوق جيش حلب وعبوره الجسر بالقوة العسكرية ، حيث نزل بالقرب من حماة ، ولم تنقطع المناوشات بين الفريقين . ولكنّ المنصور

---

(١) والحقيقة أن أعداء العادل في مصر هم الذين أوصلوا الأفضل إلى الوصاية على ابن العزيز الصغير

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٩٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

(٤) طغريل بك الخادم أتابك العزيز بن الظاهر صاحب حلب كان صالحاً خيراً ذا رأي وسياسة ، توفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٨٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٤ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ١٤٥ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٤٤ .

عندما رأى تفوق الظاهر عليه ، تحول إلى سياسة الملاطفة وبعث إليه بعدد من الهدايا والتحف(١).

ورأى الملكان الظاهر والمنصور أن من مصلحتهما اتخاذ موقف مشترك في قضية الصراع الدائرة رحاها في المنطقة ، واتفقا على مساهمة المنصور في محاولة انتزاع دمشق من العادل ، مقابل السماح له بالاستيلاء على بارين وانتزاعها من ابن المقدم(٢).

ولما بلغت العادل أنباء عزم الأفضل على غزو دمشق ، ترك ابنه الكامل يحاصر ماردين ، وأسرع هو بالعودة إلى دمشق وكان بصحبته ابن المقدم ، حيث تمكنا من دخول دمشق قبل وصول الأفضل إليها بوقت قصير . ولما جاء الأفضل لم ينزل لمحاصرة البلد على الفور بل عسكر بالقرب منه ، منتظراً قدوم الظاهر الذي جاء وبرفقته فرقة من جيش حماة . فقام الأخوان على الفور بمحاصرة دمشق(٣).

وانتهز المنصور فرصة انشغال الملوك بمحاصرة دمشق ، ووقوع ابن المقدم – مع العادل – تحت الحصار . فأسرع بجيشه إلى بارين ، فحاصرها وضربها بالمنجنيق وذلك لأيام خلت من شهر رمضان سنة ٥٩٥ هـ/ يوليو ١١٩٩ م ، واستمر مضايقاً لها حتى سقطت في أواخر ذي القعدة من العام نفسه . وقد كان المنصور يباشر القتال بنفسه ، فأصيب بجرح في إحدى المعارك ، قبيل الاستيلاء على البلد، ولما تحقق له ما أراد ، بعث بالبشائر

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٦٢.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٨ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٢ ؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر ، ص ١١٤؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٥ – ٩٩؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٦٠.

إلى الأفضل والظاهر - وهما على حصار دمشق - ففرحا بهذا النصر ودُقّت البشائر ، وأقيمت الاحتفالات في معسكرهما ابتهاجاً به(١).

وكان المنصور مصمماً على الاستيلاء على بارين ، لذلك لم يسأم من فترة الحصار الطويلة نسبياً ، والتي استمرت ما يقارب الثلاثة أشهر، وكان يتعجل انجاز هذا العمل ، خوفاً من حدوث أي طارئ على جبهة دمشق ، قد ينعكس بصورة سلبية على موقفه في بارين ، لذلك كان يباشر القتال بنفسه ، ولم تثنه الجروح التي أصابته عن سيره قدماً نحو تحقيق هدفه . كما أنّ انتصاره في بارين قد رفع من الروح المعنوية لقوات الأفضل والظاهر باعتباره حليف لهما ، وجزء من جيشه يشترك معهما في حصار دمشق . كما أن الانتصار الذي تحقق كان على حساب خصم اختار الوقوف في الصف المعادي لهما .

وأقام المنصور في بارين فترةً من الزمن ، داوى خلالها جروحه ، وأشرف على إعادة بناء أسوار البلد وما تهدم داخله بسبب قصف المنجنيق(٢).

ونستنتج من إعادة بناء البلد وتحصين أسواره ، أنّ المنصور كان ينوي الاحتفاظ به ، والدفاع عنه ، ضد كل من يحاول انتزاعه منه .

أما على جبهة دمشق فقد أثّر الحصار على أهلها ، فأشار زعماؤها على العادل بأن يستدعي ابنه الكامل بعساكره من ماردين ، لعله ينجح في فك

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٨ أ ؛ ابن أسباط الغربي(حمزة بن أحمد بن عمر بن صالح ابن أسباط الغربي ، ت ٩٢٦ هـ / ١٥١٩ م) تاريخ ابن أسباط الغربي نسخة مصورة على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ٧١٧ ،عن نسخة مكتبة الفاتيكان بإيطاليا رقم ٢٧٠ ، ورقة ٣٦ ب ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٠١؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠١ ، أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ٩٦ .

الحصار عنهم ، فاستحسن رأيهم ، وأرسل في طلب الكامل الذي سار بقواته في أوائل سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م ، متوجهاً إلى دمشق ، واتفق رأي الأفضل والظاهر على منعه من الوصول إليها ، أو على الأقل اعاقته بعض الوقت ، ريثما يتمكنا من الاستيلاء عليها . وأُنيطت مهمة منع الكامل من الوصول إلى دمشق بالملكين المنصور والمجاهد - صاحب حمص - وبمساعدة فرقة من جيش مصر ، وأُرسلت الأوامر بهذا الشأن إلى المنصور ، الذي بدأ يستعد لتنفيذها(١).

وبعد انضمام الفرقة المصرية إلى جيش حماة ، سار بهم المنصور إلى سلمية ، وكانت خطته تتمثل في منع الكامل من عبور العاصي بقواته ، وأقبل الكامل في جيش كثيف ، مما اضطر المنصور إلى الانسحاب بقواته من سلمية والتحصن في حماة ، دون أن يحاول الاشتباك مع الكامل ، الذي عبر بقواته نهر العاصي دون مقاومة ، وبعث المنصور رسالة إلى الظاهر غازي يشرح له فيها تفصيل ما حدث(٢).

والحقيقة أن انسحاب المنصور وعودته إلى حماة كان أمراً منطقياً . فالكامل كان معه جيشٌ كبير ، وهو الذي رجّح كفة والده العادل ، وجعله ينجح في فك الحصار عن دمشق سنة ٥٩٦ هـ /١١٩٩م ، ويتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم(٣).

وبعد فشل الأفضل في الاستيلاء على دمشق ، وانسحابه إلى مصر ، اقتفى العادل أثره ، وتمكن من طرده من مصر، وعوّضه بمناطق

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٥- ١٠٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣، ص ٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ٤، ص ٧٣٢ .

حاني ، وجبل جور، وسميساط ، وميافارقين ، إضافةً إلى صرخد. ولما دخل العادل مصر نصّب نفسه أتابكاً للمنصور بن العزيز ، ثم ما لبث أن خلعه واستقل بملك مصر في صيف سنة ٥٩٦ هـ/١٢٠٠م.(١)

وقد ظن بعض الباحثين أنّ العادل أقطع المنصور بن العزيز مدينة حماة(٢) . وهذا لم يحدث مطلقاً . ويبدو أنّ اشتراك صاحب حماة وابن العزيز عثمان في الاسم واللقب كان مدعاةً للخلط بين الشخصين ، فكل منهما يُدعى " الملك المنصور محمد " .

ومهما يكن من أمر ، ففي السنة التي دخل فيها العادل مصر ، واستقل بملكها ، جاء إلى حماة القاضي زين الدين بن هندي(٣) - المعروف بابن الهيطلية - وكان قاضياً لحمص ، فتركها واختار الاقامة في حماة حيث استقبله ملكها المنصور وبالغ في احترامه(٤).

ولما استقرت الأمور للعادل في مصر ، أدرك المنصور حرج موقفه ، فهو حليف للأفضل والظاهر في آخر جولة من الصراع خاضاها ضد العادل. كما أنّه استولى على بارين من ابن المقدم بينما كان هذا الأخير محصوراً مع العادل في دمشق كما سبق الإشارة إلى ذلك . والآن ، وقد انجلت الأمور عن تصدُّع حلف الأخوين الأفضل والظاهر ، وسيطرة العادل على مصر ودمشق ، وبروزه كأقوى ملك في البيت الأيوبي، وأصبح مؤهلاً لتولي منصب " السلطان " ، فإنّ على المنصور أن يبحث له عن مخرج من

---

(١) ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ٢٢ . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٠٩ -١١٠. أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، ولتفاصيل أوسع ، انظر علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٩ ؛ قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٧٩ .

(٣) انظر ترجمته فيما يلي الفصل السادس ، ص ٤٣٠ .

(٤) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٣٧ .

المأزق الذي وجد نفسه فيه . فكلّف زين الدين ابن هندي – قاضي حمص سابقاً – بحمل رسالة منه إلى العادل في القاهرة ، ضمّنها اعتذاره عن موقفه ضده في الفترة السابقة ، وسأله الصفح عنه وقبوله من أتباعه(١).

واستقبل العادل رسول المنصور بالحفاوة والاكرام ، وأظهر الرضا عنه، وطلب من كاتبه أن يكتب رداً على رسالة المنصور ، فلما فرغ الكاتب من كتاب الرد ، استعرضه العادل ؛ فإذا هو مثقل بكلمات الجفاء ، وأبياتٍ شعريةٍ، متضمنةً الكثير من العتاب ، فلم ترق له ، وطلب من كاتبه استبداله، وكتابة ردٍّ آخر ، وضمنه أبياتاً شعرية قام العادل نفسه باملائها على كاتبه ، فجاءت في غاية الرقة والعذوبة ، ثم دفع الرسالة إلى زين الدين بن هندي، ليسلّمها بدوره إلى المنصور ، وقال العادل لزين الدين بن هندي : " المولى الملك المنصور إن كان قد صدرت منه هذه الزلة الواحدة فله من الحسنات ما يمحوها ويمحقها."(٢)

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٢٧ ك تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة٣٧ب ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٣ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣، ص ١٤٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٤ ، والأبيات التي أملاها العادل بنفسه على كاتبه هي :

أتظنني من جفوةٍ أتعتب ... قلبي عليك أرق مما تحسب

لا يوحشنك ماجنيت فتنثني ... متجنياً ، وهواك لا يُتجنَّب

ما أنت إلا مهجتي وهي التي ... أحيا بها ، فترُى عليها أغضب ؟

أنت البريء من الإساءة كلها ... ولك الرضى وأنا المسيء المذنب

وتـوّج المـنصـور اتفـاقـه مـع العـادل بعقـد قرانه على ملكة خـاتون بنـت العـادل(١).

والواقع أن العادل كان بحاجة إلى أنصار له من أهل بيته ليساهم ذلك في استـقرار الدولة الأيوبيـة ويقيها من ويلات الحروب الأهلية ، لذلك سارع بقبول عرض المنصور ، وكَسِبَ ملكاً أيوبياً في صفّه .

وقد كان سـعي المنصور إلى كسب رضا السلطان العادل ، أسرع من الطلب الذي تقدم به ابن المقدم إلى السلطان ليعيد إليه بارين . إذ عندما تقدم ابن المقدم بطلبه كانت الخطبة قد أقيمت للسلطان بحماة ، ونُقِشَ اسمه على عملتها . لذلك بعث السلطان برسالة إلى المنصور ليعيد بارين إلى صاحبها . ولم تنطو الرسالةُ على احتجاجٍ شديد ، أو تهديدٍ قوي ، مما شجع المنصور على الاعتذار عن تنفيذ ما ورد فيها بحجة قرب بارين من حماة ، وعرض المنصور بدلاً من الانسحاب دفع تعويض لابن المقدم ، وقد كان التعويض متمثلاً في تنازله عن منبج وقلعة نجم ، فوافق ابن المقدم على هذا التعويض، لأنّ منبج وقلعة نجم أكثر دخلاً وأوفر خيراتٍ من بارين(٢) .

ونستدل من هذه المقايضة أنّ احتلال المنصور لبارين لم يكن دافعه التوسع وإضافةُ أملاكٍ جديدة وإلاّ لما تخلى عن منبج وقلعة نجم رغم غناهما إذا ما قورنتا ببارين التـي تشـبّث بـهـا . وإنمـا دَفَعَـهُ إلـى ذلـك حرصـه علـى سلامـة حماة ، لأن مـن يسـيطر على بارين سيكون مُهدِّداً لحماة ، لقرب المسافة بينهما ، ولأن الصليبيين سبق وان اتخذوا من قلعة بارين الصغيرة(Mont Ferrand – كما كانوا يسمونها) قاعدةً لهجماتهم ضد

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ،ص١١٤؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٦ .

(٢) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٣٧ ب ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١١٤ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢١ – ٢٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٨؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٨٠ .

ممتلكات أمراء حماة وحمص قبل قيام الدولة الأيوبية(١). لذلك فإن احتلال بارين من قبل المنصور، وضمّها إلى مملكته ، وجعلها خطا للدفاع عنها ، أمرٌ اقتضته الضرورة وأملته المصلحة . ولما رأى الظاهر غازي – صاحب حلب – المكاسب التي حصل عليها المنصور محمد من جرَّاء تبعيته للعادل ، بادر إلى سلوك الطريق نفسه ، وبعث رسله إلى القاهرة ، ووافق على الخطبة في بلده لعمه العادل ، ونَقْشِ اسمه على عملتها.(٢)

ولم يكد ينتهي عام ٥٩٦ هـ /١٢٠٠م ، إلاّ والعادل سلطان الدولة الأيوبية بلا منازع ، فقام بتقسيم مملكته بين أبنائه ، بينما أقرّ المنصور على حماة ، والظاهر غازي على حلب.(٣)

وكان الظاهر غازي – رغم خضوعه العلني للعادل واعترافه به سلطاناً على الدولة الأيوبية – يتحين الفرص للإيقاع بعمه ، وانتزاع السلطنة منه ، وكان يراقب تحركات عمه العادل في مصر، واستبشر بما قام به الصلاحية(٤) هناك من تمرد ضد العادل ، احتجاجاً على نفيه لابن استاذهم العزيز عثمان، وإخراجه من مصر ، واتخذ الثائرون من الصلاحية بعض مناطق الشام مركزاً لهم ، مما سهل على الظاهر الإتصال بهم، ومساندتهم ضد العادل. وكان من الطبيعي أن ينضم إليهم الأفضل ، ليكوِّنوا حلفاً ضد العادل ، ولم يقف السلطان مكتوف اليدين تجاه ما يحاك ضده من مؤامرات ، فأمر ابنه المعظم بالاستيلاء على صرخد وطرد الأفضل منها. وعندما أدرك الأفضل بأنه سيكون هدفاً للهجوم ، خرج من صرخد والتجأ إلى أخيه الظاهر في

---

(١) فولففانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ١٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٤ – ١١٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٨ ؛ المقريزي : السلوك، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٥٣ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

(٤) الصلاحية نعت يطلق على مماليك السلطان صلاح الدين الأيوبي .

حلب، واتفق معه على الزحف على دمشق للاستيلاء عليها ، ومن ثم الزحف على مصر وطرد العادل منها ، وساند الصلاحية بدورهم هذه الفكرة(١).

وعندما تكاملت استعدادات الظاهر في حلب ، وصله نبأ وفاة عز الدين بن المقدم وانتقال إقطاعه – وهو منبج وقلعة نجم وكفر طاب وأفامية ، ومفردة المعرة –(٢) لأخيه عبدالملك ، فوجدها الظاهر فرصةً سانحةً للاستيلاء على كل هذه المناطق . ليحقق بذلك عدة أهداف ، منها :زيادة رقعة مملكته ، وتوجيه ضربة عسكرية لأحد حلفاء عمه العادل تمهيداً للعمل العسكري الأكبر وهو احتلال دمشق . والأهم من ذلك استخدامها ورقة رابحة يساوم بها المنصور ليكسب تأييده ، ووقوفه إلى جانبه . وبالفعل زحف الظاهر بجيشه على منبج في شهر رجب سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م ، واستولى عليها ثم على قلعة نجم وكفرطاب(٣).

وقبل أن يواصل مسيره إلى دمشق ،أراد الظاهر استمالة المنصور إلى جانبه، فبعث إليه رسالةً مع الشيخ تقي الدين علي بن أبي بكر الهروي(٤) ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٩ – ١٢٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠ .

(٢) مفردة المعرة : هي عشرون – وقيل خمس وعشرون – ضيعة من المعرة . تاريخ ابن لسباط الغربي ، ورقة ٣٧ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٤ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٣٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٩ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ج ٧ ، ص ١٤٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق٢، ص ١٩٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٣٥ .

(٤) الشيخ علي بن أبي بكر الهروي المعروف بالسائح ، مولده بالموصل ، واستوطن حلب وله بها رباط . وبنى له الظاهر مدرسة في حلب ، توفي سنة ٦١١ هـ/١٢١٤م ودفن بمدرسته. ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٣٤٦ – ٣٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ١٢٢ ؛ المنذري : التكملة ، ج ٢ ، ص ٣١٥ – ٣١٦ ؛ الذهبي : اعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٥٦ – ٥٧ .

وتضمنّت الرسالة أساليب متنوعة لإقناع المنصور بالانضمام إلى الحلف المضاد للعادل، ففي مطلع الرسالة يتودد الظاهر للمنصور ، ويؤكد له عمق محبته ، وفي وسطها يحذره من سوء نية العادل وكثرة أطماعه ، ويدلل على صحة اتهامه هذا بما قام به ضد أبناء أخيه . مع أن والدهم هو سبب بروزه وظهوره على مسرح الحوادث ، وحاول الظاهر في رسالته أيضاً بث الفرقة بين العادل والمنصور ، إذ يُذكِّر الأخير بانتزاع منبج وقلعة نجم منه وتسليمها لابن المقدم ، مُدَّعياً بأنَّ هذا دليلٌ واضح على تفضيل العادل لابن المقدم عليه ، وفي نهاية رسالته تعهد الظاهر بمنح المنصور كل ما كان اقطاعاً لابن المقدم مقابل تأييده له ضد العادل(١) .

ولمّا تسلّم المنصور رسالة الظاهر، أبدى رفضه لما تضمنته من عروض، وجاء رفضه بشكل مهذب ؛ إذ بعث إلى الظاهر يعتذر له ، ويبرّر رفضه باليمين التي أقسمها للعادل ؛ والتي لا يستطيع الحنث بها(٢).

ولم يقبل الظاهر اعتذار المنصور ، واغتاظ من رفضه لاقتراحه فهاجم المعرة واستولى عليها ، ثم تقدم إلى حماة وحاصرها في شعبان سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م ، وعاث في البساتين الواقعة ظاهر البلد ، واجتث أشجارها ، وهاجم البلد بقوة عدة مرات ، وجرت حول أسواره معارك عنيفة، استمرت حتى الأيام الأولى من شهر رمضان ، وأصيب الظاهر بجرح في ساقه اليسرى في إحدى المعارك ، حيث كان يتولى قيادة الهجمات بنفسه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢١ ؛ وانظر أيضاً ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٩ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٩٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٩ أ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي ، ورقة ٢٨ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٩٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٠ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية ، ص ٢٩١ .

لحرصه على اقتحام المدينة ، فلما رأى شدة المقاومة ، وأدرك صعوبة مواصلة القتال لا سيما وأن شهر الصوم قد حل ، جنح للسلم ، وتم الاتفاق على رفع الحصار عن حماة مقابل دفع المنصور لمبلغ ثلاثين ألف دينار ، وتَعَهّده بالانضمام إلى الظاهر والأفضل إذا نجحا في احتلال دمشق(١) .

وقد كان الأفضل مشتركاً مع أخيه الظاهر عندما هاجم حماة لأنهما كانا في طريقهما إلى دمشق(٢) .

ونرى هنا أنّ المنصور قد أنقذ مملكته بالمبلغ الذي دفعه ، وبالوعد الذي قطعه على نفسه . علماً بأنه وعد مشروط بنجاح أبناء صلاح الدين في احتلال دمشق . ويرجع الفضل في صمود حماة في وجه الهجمات المكثفة إلى حصانتها وإلى " شهامة صاحبها وحمية أهلها ".(٣)

ولم يتأخر المنصور في دفع ماتفق عليه مع الظاهر ، إذ بعثه مع قاضي حماة نجم الدين أبو البركات ابن أبي عصرون(٤)، فأدرك الظاهر وجيشه وهم معسكرون بالرستن، في طريقهم إلى دمشق

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٣٨ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٩ أ ب ،؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٣٨ ب ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦١ – ١٦٢ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٣ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، ورقة ٥٣٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٥؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٣٦.

(٣) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٥ .

(٤) انظر ترجمته فيما يلي الفصل السادس ، ص ٤٢٨ .

. فدفع المال إليهم.(١)

وواصل الأفضل والظاهر مسيرهما إلى دمشق وأخضعاها للحصار، وشنَّا عليها هجماتٍ متكررة . وأثناء إنهماك كل الأطراف في موضوع دمشق بين مدافع ومهاجم ، خرج المنصور بجيشه من حماة فأغار على شيزر والروج(٢)، وكانت اقطاعاً لابن الداية وهو من الموالين للظاهر صاحب حلب(٣).

وربما قصد المنصور من ذلك السيطرة على هاتين المنطقتين لدعم مركزه . والملفت للنظر أنه لم يهاجم حلب ، وإنما قصد شيزر والروج ليحافظ قدر الإمكان على موقف الحياد النسبي الذي استطاع أن يقفه في هذه الجولة من الحرب الأهلية بين الأيوبيين.

أما أبناء صلاح الدين فقد هاجموا دمشق وحاصروها بشدة وتسببت هجماتهم في احراق فندق المظفر تقي الدين عمر داخل دمشق(٤). لكنّ العادل استطاع في النهاية اجبار المهاجمين عن التخلي عن هجومهم ، وفكِّ حصارهم عن المدينة ، وتوجه الأفضل إلى حمص فيما سار الظاهر عائداً إلى حلب(٥).

وفي طريق عودته إلى حلب ، نزل الظاهر قريباً من حماة ، وجرت بين عساكره وقواتها مناوشات ، لم يلبث المنصور أن تداركها قبل استفحالها ،

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٥ ، حاشية رقم ٦ .

(٢) الروج : كورة من كور حلب المشهورة تقع إلى الغرب منها بينها وبين المعرة. ياقوت: معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٩ .

(٥) انظر علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٥٩ ،

حيث بعث إلى الظاهر يذكّره بالاتفاق السابق بينهما ، فأمر الظاهر قواته بالكف عن مهاجمة الحمويين ، ورحل إلى بلاده(١) ، ويقال أن الجرح الذي أصابه في ساقه كان في هذه النوبة(٢).

ولم يكن المنصور مطمئناً للوعود التي حصل عليها من الظاهر بعدم مهاجمة حماة ، وكان يخشى كثيراً على المعرة ولا سيما بعد أن احتل الظاهر مفردة المعرة من ابن المقدم وأصبحت جزءاً من أملاكه . ولم يكن باستطاعة المنصور توفير الحماية لملكته بدون دعم خارجي ، فانتهز فرصة فشل أبناء صلاح الدين في الاستيلاء على دمشق ، ورحيلهم عنها دون التوصل إلى صلح مع عمهم العادل ، فأرسل إلى العادل يطلب منه الحضور إلى حماة، للضغط على الظاهر ، واجباره على عقد صلح يزيل خطره عن حماة.(٣)

ولم يتردد العادل في قبول طلب المنصور لأنه سيحصل على مكاسب جديدة ، وينتقم من الظاهر الذي تزعم محاولة الاستيلاء على دمشق ، وكان يخطط للزحف على مصر ، لذلك خرج العادل بجيشه من دمشق سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١ م ، ونزل بتل صفرون(٤) بالقرب من حماة ، وسارع المنصور إلى استقباله ، بينما خشي الظاهر مغبة ذلك وأرسل مندوبين من قبله يحملون لعمه العادل أنواعاً من الهدايا وعرضاً بالصلح ، فدارت مفاوضات بين الطرفين ، وانتهت عن عقد صلح تضمن الاعتراف بضم الظاهر لمناطق منبج وأفامية وكفرطاب، وانتزاع مفردة المعرة منه وضمها للمنصور ، وكذلك تنتزع منه قلعة نجم وتُسلّم للأفضل ، الذي حصل أيضاً على سروج ورأس عين(٥) ، كما تقرر

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .
(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢١ .
(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٣٩ .
(٤) تل صفرون : يسمى الآن تل الدّبّاغة وهو خالي من العمران . أحمد الصابوني :تاريخ حماة ، ص ٦٢ ، حاشية رقم ١ .
(٥) رأس عين : مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣ – ١٤ .

أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان العادل في جميع ممالك الدولة الأيوبية(١).

وقد كان هذا الصلح مكسباً لكل الأطراف الأيوبية - بغض النظر عن نسبة الكسب التي حصل عليها كل طرف - فقد تمّ تصفية اقطاع أبن المقدم، وتوزيعه بين الظاهر والأفضل والمنصور ، فيما اعترف الجميع بالعادل سلطاناً للدولة الأيوبية .

ولّما استقرت الأوضاع للعادل ، استأنف عملية تقسيم البلاد على أبنائه ، فبعث الأشرف إلى حران ومناطق شرق الفرات ، وبعث بالأوحد(٢) إلى ميافارقين(٣).

وحتى يثبت المنصور صدق تبعيته للعادل ، واخلاصه الشديد له ، قام بإخراج الشيخ نجم الدين أبو البركات بن أبي عصرون(٤) من حماة " وكان قاضيها ووزيرها يومئذ" بعد أن اعتقله في السجن مدة من الزمن " أشرف فيها على العطب " وقام بنفيه إلى حلب بعد مصادرة أملاكه ، وكان ذنب القاضي الذي استوجب معه كل هذه العقوبة هو بغضه للسلطان العادل !.(٥).

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٤٩ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٢٠أ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا ... ورقة ١١٢ ب ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٣ وهي عنده من حوادث سنة ٥٩٧ هـ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠١ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٥٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٢٦ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦، ص ١٨٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ق ١ ، ص ١٥٩ ؛ ابن العبري : مختصر الدول ، ص ٣٩٣ .

(٢) الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل ، اتصف بالظلم والعسف ، توفي سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ؛ الذهبي: اعلام النبلاء، ج ٢٢ ص٣٦؛ تاريخ الاسلام ، طبقة ٦٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابن نظيف :التاريخ المنصوري ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٣٣ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٩ .

(٤) انظر ترجمته فيما يلي ، الفصل السادس ، ص ٤٢٨ من هذاالبحث .

(٥) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٧٣ .

ويبدو أنّ القاضي تدخل في مفاوضات الصلح التي جرت بين الظاهر والعادل – بصفته وزير حماة التي كانت أرضها مسرحاً لتلك المفاوضات – وربّما كان يميل إلى الظاهر مما أغضب العادل ، فأوعز إلى المنصور بمعاقبته ونفيه من البلد.

وفي هذا العام أيضاً (٥٩٨ هـ /١٢٠١م) وصلت إلى حماة ملكة خاتون بنت العادل ، زوجة المنصور فكان دخولها إلى البلد يوماً مشهوداً(١) ولا يخفى علينا ما لعلاقات المصاهرة والزواج من تأثير في اتخاذ المواقف السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة(٢).

ولم يكن الأفضل – وهو أكبر أبناء صلاح الدين والمعهود إليه بالسلطنة – ليرضى بحكم مناطق صغيرة ، بينما ينعم عمه العادل وأبناؤه بمعظم أجزاء المملكة التي أرسى قواعدها والده ، لذلك ما انفك ينسج خيوط المؤمرات ، ويتحين الفرص ، ويُجْرِي الاتصالات هنا وهناك ليستعيد ما سُلب منه ، ولكنّ تحركاته لم تخف على عمه العادل ، فقرر معاقبته على ما بدر منه، فأصدر أوامره إلى الأشرف بانتزاع رأس عين وسروج منه ، كما أمر الظاهر باستعادة قلعة نجم منه ، ونُفّذت أوامر العادل ، ولم يتبق للأفضل غير سميساط(٣). وخشي الأفضل أن تنتزع منه سميساط أيضاً فيبقى صفر اليدين . وأدرك أنّه لا يمكنه استعادة ما خسره من مناطق إلاّ عن طريق الملاطفة والتشفّع عند عمه العادل . وأخذ يبحث عن شخص ليكون وسيطاً له

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة : ٥٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ص١٣٤.

(٢) علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٧٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٤ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٦١ .

عند عمه ، فلم يجد أفضل من المنصور لحسن علاقته مع العادل . وحتى يكون التوسل شديد التأثير لم يبعث الأفضل رسولاً عادياً من قبله ليعرض على المنصور رجاءه بالدخول وسيطاً بينه وبين عمه العادل بل بعث رسولاً من نوع خاص ، إنّها أمه ، التي وصلت إلى حماة تحمل رسالته . فاستقبلها المنصور . وبعث معها القاضي زين الدين بن هندي لمقابلة العادل ، الذي رفض توسّل الأفضل ، فعادت أمه إليه خائبة ، فاشتد غضبه ، وقطع الخطبة للعادل في سميساط ، واستبدلها بالخطبة لسلطان سلاجقة الروم(١). وبقي منعزلاً في سميساط حتى توفي بها في صفر سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م(٢).

وكان العادل حريصاً على عدم إغضاب المنصور لكونه الوسيط في قضية الأفضل ، لذلك بعث إليه رسالتين مع القاضي زين الدين بن هندي إحداهما خطية ، مضمونها أنه سمع شفاعته في الأفضل ، ولكنه لا يستطيع قبولها نظراً لفداحة المؤامرة التي كان يخطط لها الأفضل، والتي سيشرحها القاضي زين الدين بالتفصيل لأنها مضمون الرسالة الشفوية . ويؤكد العادل في رسالته الخطية اهتمامه بكل ما يشير به المنصور وقال في هذا الصدد: "والمجلس يجري على عادته الجميلة في الإصغاء إليه والاعتماد عليه "(٣) . أما الرسالة الثانية ، وهي الشفوية ، فهي تتضمن تفاصيل ما كان يخطط له الأفضل ، ويسعى جاهداً لتنفيذه ، وهي في مجملها " أفعالاً لا يجب اهمالها فأوجب ذلك تغيّرنا عليه "(٤) . كما قال السلطان .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥١ – ١٥٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣، ص ١٠٤؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٣٨؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٤ .

(٢) الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٢٩٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥٢؛ وانظر أيضاً : تاريخ ابن الفرات ، ج٤، ق ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية ، ص ٢٨٣ .

ومن خلال متابعتنا لمواقف المنصور من الحرب الأهلية بين الأيوبيين، نلحظ أنه لم يشترك في هذه الحرب إلاّ بدافع المصلحة ، أو المحافظة على مملكته من السقوط(١).

وبالرغم من توقف الحرب العسكرية بين ملوك بني أيوب قبل انتهاء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلا أن الحرب السياسية استمرت بعد هذا التاريخ . ففي سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤م ، توجه المنصور إلى القاهرة لزيارة السلطان . وتذكر المصادر أنّ المنصور كان خائفاً من الاجتماع بالعادل ، دون أن تذكر سبب هذا الخوف(٢) . ويبدو أن العادل كان يُحمّل المنصور جزءاً من مسئولية نجاح الصليبيين في مفاجأة جيش حماة ، في الهجوم الذي شنوه عليها في هذا العام(٣). لأنّ العادل تأثر جداً عندما بلغته أنباء ذلك الهجوم(٤).

ومهما يكن من أمر فإنّ العادل استقبل المنصور في القاهرة بحفاوة لم يكن يتوقعها ، وسُرّ بقدومه كثيراً ، وبقي المنصور في ضيافته مدة من الزمن . عاد بعدها إلى حماة مبتهجاً بما لقيه من كرم الضيافة، وحُسن الاستقبال(٥). والذي يمكن اعتباره دليلاً على

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٨٨ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٤٦ ، حاشية رقم ١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ق ١ ، ص ٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ١ ، ص ١٦٤ ؛ابن نصر الله : شفاء القلوب ص٢٣٩.

(٣) لمعرفة تفاصيل هذا الهجوم انظر ص من هذا البحث .

(٤) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٤٤ .

(٥) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٤٦ متن ، وحاشية رقم ١ في نفس الصفحة ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٦٤ ؛ =

رضا السلطان عليه ، وأنّ مخاوفه التي حملها معه إلى القاهرة لم يكن لها ما يبررها .

أما العادل فقد مكث في مصر حتى سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ، فخرج منها إلى الشام على نيّة الجهاد . فلما وصل إلى دمشق ، وفد إليه المنصور، وشكا إليه من مضايقات الظاهر المتكررة له ، وقد أثار ذلك غضب العادل(١) لدرجة انتشرت معها الشائعات بأنه سيهاجم حلب بعد انتهاء عمليات الجهاد ، مما حدا بالظاهر إلى مراسلته وتوثيق الصلح السابق معه(٢).

وفي الفترة بين عامي ٦٠٠ - ٦٠٤ هـ/١٢٠٣ - ١٢٠٧م . حقق أبناء العادل الأشرف والأوحد ، انتصارات في منطقة الجزيرة ، حيث انتصر الأشرف على الزنكيين ، فيما استولى الأوحد على خلاّط ، فسعى العادل إلى الحصول على اعتراف من الخليفة العباسي بضمّه لخلاّط وما جاورها باعتبارها جزءاً من مملكته كبقية المناطق الخاضعة لحكمه ، فجاءه تقليد الخليفة وهو في دمشق ، ويتضمن التقليد الإعتراف به سلطاناً على مصر وبلاد الشام وخلاط وما بيده من مناطق الجزيرة . وأُقيم حفل كبير بهذه المناسبة شارك فيه مندوبون من حماة وحمص وحلب ، قاموا بنثر الذهب على رأس العادل وأبنائه ساعة ارتدائهم لخلع الخليفة(٣).

= ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٩ ، وذكر أن الذي استقبل المنصور هو السلطان الكامل - وهو خطأ - لأن الكامل لم يصبح سلطاناً إلا بعد وفاة والده سنة ٦١٥هـ .

(١) ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٣) أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي) ، ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م) ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بـ "ذيل الروضتين" تعريف وتصحيح : محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، نشر: عزت العطار ، الطبعة الثانية ١٩٧٤م ، ص ٦٣؛ ابن واصل:مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٥٧، ٢١٨ ؛أبو الفداء : المختصر، ج٣، ص١٠٨-١٠٩؛ =

وكانت قلعة دمشق قد أصابها الضرر بسبب المعارك التي دارت بين الأيوبيين ، فأمر العادل ملوك بني أيوب بترميمها ، حيث خصص لكل ملك برجاً يتولى بناءه على حسابه الخاص ، فقام المنصور بترميم أحد الأبراج وتحصينه وذلك في سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م(١).

وفي شرق الفرات ، كانت خلاّط من الأملاك الأيوبية التي لا يسع سلطان الدولة الأيوبي أنْ يتنازل عنها ، لذلك استدعى العادل النجدات من أنحاء الدولة الأيوبية ، فور سماعه بتعرض خلاط لهجمات الكرج(٢). فجاءته النجدات من كل مكان ، وكان من بينها جيش حماة بقيادة ملكها المنصور(٣). وخرج العادل لقتال الكرج سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م ، لكنهم تفرقوا عند سماعهم بمقدمه(٤).

وعندما عبر العادل بالجيوش نهر الفرات ، توجه إلى سنجار ، وطلب من صاحبها(٥) التنازل عنها مقابل تعويضه بمنطقة أخرى ، وعندما رفض التنازل عنها ، أمر العادل فرقة من جيشه بالاستيلاء على نصيبين(٦)

= ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٨ .

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٩ .

(٢) الكرج : جيل من الناس ، نصارى ، لهم ولاية تنسب إليهم وأهم مدنها تفليس . ولهم ملك ولغة ، وولايتهم بين جبال القبق وبلد السدير ؛ ياقوت : معجم البلدان ، مادة كرج ، ج٤ ، ص ٤٤٦ .

(٣) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٥٩ ؛ وهي عنده من حوادث سنة ٦٠٥ هـ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٥) صاحب سنجار في هذا التاريخ هو قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي .

(٦) نصيبين : قصبة ديار ربيعة من بلاد الجزيرة . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ١٢٤ .

والخابور(١) ، وأسند قيادتها للملك المنصور والملك الأشرف ، وتمكنت هذه الفرقة من الاستيلاء على المنطقتين في وقت قصير .(٢)

وحاول الظاهر استغلال ابتعاد عمه العادل عن بلاد الشام ، وانشغاله بمناطق شرق الفرات ، فخرج بجيشه من حلب وعسكر خارجها . وعقد تحالفاً مع الزنكيين وسلاجقة الروم ، كان هدفه منع العادل من الاستيلاء على سنجار . وبعث رسالةً إلى عمه العادل يشفع فيها لصاحب سنجار ويهدده بإعلان التمرد ضده إذا لم يقبل شفاعته ، كما عرض على المنصور التحالف معه ضد عمه العادل(٣).

ولم يقبل العادل شفاعة الظاهر ، واستمر محاصراً لسنجار ، لكنّ معظم الملوك الذين كانوا معه أظهروا عدم تحمسهم لفكرة الاستيلاء على المدينة ، رغم أنّ العادل كان قد أقطعهم أجزاءً كبيرة من منطقة الخابور ، وقد حصل المنصور على جزء من هذا الاقطاع(٤).

واكتفى العادل بالحصول على نصيبين والخابور، ورفع حصاره عن سنجار(٥)، وعاد قاصداً بلاد الشام ، وعندما كان في منطقة رأس عين، حدث خلاف بينه وبين وزيره صفي الدين بن شكر(٦) ، فترك الوزير المعسكر

---

(١) الخابور : ولاية واسعة بين رأس عين والفرات يمر بها نهر كبير يحمل اسمها. ياقوت: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٢ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ٨٦-٩٤؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٤) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٥٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٦) انظر ترجمته في الحاشية رقم ٨ ، ص ٥٥ .

وانصرف ، فتبعه المنصور ومعه بعض الأمراء ، فأقنعوه بالرجوع بعد أنْ شفعوا له عند العادل فقبل شفاعتهم فيه(١).

وتكرر غضب العادل على وزيره ابن شكر ثانية سنة ٦٠٩ هـ /١٢١٢م، فعزله من منصب الوزارة ، وأمره بالخروج من مملكته ، فقطع الفرات متوجهاً إلى الشرق لكنّ الأشرف بن العادل لم يسمح له بالإقامة في المناطق الخاضعة لحكمه ، فعاد ابن شكر إلى سلمية ، ولجأ إلى المنصور الذي رحب به ، وأحسن استقباله ، فأنكر العادل على المنصور ذلك ، وأمره بإخراج ابن شكر من بلاده ، فلم يسع المنصور إلاّ الإذعان لأمر السلطان ، فأمر بعض أتباعه بإخراج ابن شكر ومراقبته حتى يتأكد من عبوره للفرات ، وبالفعل تم اخراج الوزير الذي اختار السير إلى آمد(٢).

ولم تؤثر هذه الحادثة في تعكير صفو العلاقات بين المنصور والسلطان العادل ؛ إذ استمرت العلاقة بينهما بشكل جيد حتى وفاة الأخير في السابع من جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨ م . بعد أن قسّم معظم المملكة بين أبنائه فيما بقيت حلب بيد العزيز بن الظاهر ، وحمص بيد

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٥٩ – ٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ٩٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٧١.

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١١٥ .

المجاهد، وبعلبك بيد الأمجد ، واحتفظ الأفضل بسميساط ، أما حماة وتوابعها فبقيت بيد المنصور محمد ، وقد أخطأ ابن دقماق عندما ذكر أنّ العادل أعطى حماة وحمص وكذلك قلعة جعبر لابنه الحافظ أرسلان(١). والثابت أن الحافظ لم يكن له إلاّ قلعة جعبر فقط(٢).

وعندما توفي العادل كان أكبر أبنائه الملك الكامل يرابط بالجيش قبالة الصليبيين الذين يستعدون لمهاجمة دمياط ، فقام ابن المشطوب(٣) بتدبير مُؤامرة لخلع الكامل ، وتنصيب أخيه الفائز مكانه ، فشعر الكامل بالمؤامرة ، وفرّ من المعسكر ، مما أوقع الاضطراب في جيشه، ومكّن الصليبيين من دخول دمياط بدون مقاومة ، فيما عُرِف بالحملة الصليبية الخامسة(٤).

وما لبث أن جاء المعظم بن العادل ليشترك في الجهاد ضد الصليبيين ، فاجتمع بأخيه الكامل ؛الذي أطلعه على ما دبّره

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٣٤ . والملك الحافظ هو نور الدين أرسلان شاه بن العادل ، حكم قلعة جعبر مدة طويلة . ولما خشي من سقوطها بأيدي الخوارزمية سلمها للعزيز بن الظاهر صاحب حلب ، وأخذ عزاز عوضاً عنها ، وتوفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢، ص ١٣٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ ؛ المقريزي : السلوك، ج١ ، ق ١ ، ص ١٩٢.

(٣) الأمير عماد الدين أحمد بن علي من أمراء الكهارية ، وأكبر أمير بمصر وله أتباع كثيرون . الأصبهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٧٢ أ . وانظر ترجمة والده فيما سبق الفصل الأول ص ٢٩ حاشية ٤ .

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٠٢ ؛ ابن العميد:(المكين جرجيس بن العميد. ت : ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤م) أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ص ١١-١٢؛=

ابن المشطوب ، فتمكن المعظم من اعتقال ابن االمشطوب ونفيه إلى الشام ، فوصل إلى حماة ودخلها ومعه أربعة من مماليكه(١) .

واتفق الكامل والمعظم على إخراج أخيهم الفائز من مصر ، بحجة طلب النجدات من الشام والجزيرة . فوصل إلى حماة واستقبله المنصور بحفاوة بالغة ، وقدّم له بعض الهدايا ، ثم غادر الفائز حماة إلى بلاد الجزيرة حيث توفى بعد وصوله إليها بمدة قصيرة (٢) . وليس من الثابت أن المنصور كان على علم بالسبب الحقيقي الذي أُخرج من أجله الفائز من مصر ، كما أننا لا نملك دليلاً على أن الفائز اجتمع بابن المشطوب أثناء تواجده في حماة .

هذا ولم يستقر ابن المشطوب في حماة طويلاً . إذ خرج منها ومعه مئات من الفرسان والمشاة ، ومن ضمنهم قاضي حماة السابق – نجم الدين أبو البركات بن أبي عصرون – وأغار ابن المشطوب بجموعه على مراعي حلب ، ونهب ما وجده بها من مواشي(٣) .

وعندما علم الأشرف – وكان متواجداً في حلب – بما قام به ابن المشطوب ضد مراعي حلب ، اتصل به ، وعرض عليه اقطاعه رأس عين والخابور . فاستجاب ابن المشطوب لعرض الأشرف ، وتوجه إلى مناطق

= ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٨ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ص ١٩٩.وعن تفاصيل الحملة الصليبية الخامسة انظر : علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٢٩ – ٢٢٥ ، محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة « حملة جان دي بريين على مصر » الاسكندرية ١٩٧٨م .

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٧٧ ؛ المقريزي : السلوك ج ١، ق ١ ، ص ١٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٩١ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٧٧ – ٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤، ص١٨؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ، الطبقة ٦٢، ص ٣١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ١٩٨ . ٢٠١ .

(٣) أبو شامة : نيل الروضتين ، ص ١١٦؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٨٧–١٨٨؛ =

اقطاعه ، لكنّه ما لبث أن تمرد على الأشرف في سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م . فبعث له فرقة عسكرية تمكنت من القبض عليه ، حيث أودع السجن حتى وافته منيته سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢١م(١).

ولنا أن نتساءل هنا : هل استقبال ابن المشطوب في حماة ، وخروجه منها، وبرفقته فرقة عسكرية ، وبصحبته قاضي حماة – مقارنة بأربعة أشخاص دخلوها معه عند قدومه – وإغارته على مناطق من مملكة حلب ، هل يعني هذا تغييراً في سياسة المنصور إزاء أبناء الملك العادل ؟.

بدايةً فإنّ استقبال المنصور لإبن المشطوب في حماة أملته عليه شهامته ، فهذا شخص اختار الالتجاء إليه دون غيره وربما أراد استخدامه ورقة رابحة ضد أبناء العادل إذا هاجموه . وأمّا عن خروجه من حماة بعدد كبير من الفرسان والمشاة وبرفقتهم قاضي حماة . وهجماتهم على مناطق حلب . فهذا لا يعني بالضرورة أن المنصور يؤيد ذلك العمل ، فابن المشطوب كان من كبار أمراء الأكراد الهكارية وكان يلقب " ملك الأكراد"(٢) كما كان والده من قبله(٣) . لذلك فلا غرابة أن يتوافد عليه أبناء جنسه الذين يدينون له بالولاء . وكثرت جموعهم عنده حتى بدأ

= ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٩ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٦٨.

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٧٢ ب ؛ أبو الفداء : التبر المسبوك ، حوادث سنة ٦١٧ هـ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤، ص ٧٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ١٢٥؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٩٨ – ٩٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٤ .

(٢) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٦٨ .

(٣) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٩٨ ؛ وانظر أيضاً : الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٧٢ أ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٠.

(٤) انظر الفصل الأول من هذا البحث، ص ٢٩ ، حاشية ٤ .

يحدث نفسه بإمكانية إقامة إمارة خاصة به وشجعه على ذلك ثقته بكفاءته العسكرية وانقياد أتباعه له . وقد استطاع إقناع نجم الدين أبو البركات بن أبي عصرون – قاضي حماة السابق – بمرافقته ، ووعده بتقليده قضاء ما يملكه من مناطق ، وجعله مستشاراً خاصاً له(١) ، ولا بد أن المنصور كان يرغب في خروج ابن المشطوب من حماة بعد أن كثر أصحابه تحاشياً لشرهم.

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

جهاد مملكة حماة ضد الصليبيين زمن المنصور الأول

لم يكن جهاد مملكة حماة ضد الصليبيين في عهد المنصور إلاّ امتداداً لما كان قد بدأه والده المظفر تقي الدين عمر مؤسس المملكة الأيوبية في حماة .

وكان للحوادث التي تلت وفاة المظفر سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م . أثر كبير في مجريات الحملة الصليبية الثالثة ، فبعد ملاحظة الصليبيين لانشغال السلطان صلاح الدين بأمر المنصور ، وإرساله لإبنه الأفضل ومعه بعض الجيش لانتزاع شرق الفرات منه ، ثم ارسال العادل أيضاً إلى تلك البلاد، وتفرق القوة الاسلامية لهذا السبب ، طمعوا في تحقيق انتصار سريع على المسلمين ، فانقضوا على جيش مصر وهو في طريقه إلى فلسطين للاشتراك في عملية صد الصليبيين عن بيت المقدس(١). وأوسعوه قتلاً وأسراً " وكانت موقعة شنعاء ، لم يصب الإسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدد الناس في البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه "(٢).

وكانت مفاوضات الصلح قد بدأت بين صلاح الدين وريتشارد(٣) قلب الأسد ملك انجلترا ، لكنها توقفت بسبب ما حدث بين المنصور والسلطان

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٥ ، ق ١ ، ص ٧١٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ص ٧٠٠-٧٠١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ،ج٢ ، ص ٣٨٤ ، والمعركة وقعت بمكان يسمى " الحسي " وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م .

(٣) الملك ريتشارد – قلب الأسد – ملك انجلترا ، تولى الحكم بعد وفاة والده هنري الثاني سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، واشترك في الحملة الصليبية الثالثة ، وكان من أبرز الشخصيات الصليبية ، عاد إلى بلاده بعد عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م . ودخل في حرب مع ملك فرنسا ، وقتل وهو يحاصر إحدى القلاع الفرنسية سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩م . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٦ ، ١٤٣ .

صلاح الدين من خلاف . إذ كان ريتشارد على علم بما جرى ، فأراد استغلال ذلك الخلاف لمصلحته ، فوضع شروطاً جديدة للصلح ، معتقداً أنّ السلطان صلاح الدين سيضطر للموافقة عليها لإنشغال خاطره بتلك القضية المهمة أعني قضية المنصور ، لكنّ السلطان رفض الشروط الجديدة ، وقرر إيقاف مفاوضات الصلح(١).

وعندما توقفت مفاوضات الصلح بين السلطان وريتشارد ، بدأت مفاوضات أخرى بين السلطان وكونراد مونتغمري " المركيس "(٢) صاحب صور، من أجل عقد صلح بين الطرفين سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م . ولم يكن دافع السلطان لعقد هذا الصلح تعميق الخلافات بين الصليبيين وحسب ، بل كان يخشى من دخول المنصور في حرب مع بكتمر – صاحب خلاط – مما يؤثر على موقفه أمام الصليبيين(٣) . ولم تُسفر هذه المحادثات عن أي صلح حيث قطعها السلطان(٤) .

وبعد انتهاء الخلاف حول قضية الحكم في حماة جاء العادل ومعه المنصور بجيشه الذي أعجب السلطان بجودة تجهيزه ، وانضم جيش حماة إلى الجيش الاسلامي ، حيث قاده السلطان وهاجم يافا(٥) واستولى عليها

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٧ .

(٢) كونراد مونتفرات " Conrad de Montferat " المعروف في المصادر العربية " بالمركيس" . كان مقيماً في القسطنطينية أثناء معركة حطين . جاء إلى صور وتسلم القيادة فيها ، وصمد في وجه صلاح الدين ، واشترك في الحملة الصليبية الثالثة . وعقد صلحاً مع صلاح الدين وانسحب إلى صور حيث قتل فيها سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م .عبدالله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ .

(٥) يافا : مدينة على ساحل البحر من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان، ج٥، ص ٤٢٦.

عنوة، دون قلعتها التي استمرت تقاوم . وبينما كان السلطان يحاول اقتحامها؛ إذا بطلائع الجيش الصليبي الذي يقوده ريتشارد قلب الأسد تقترب من المدينة، ، فآثر السلطان الإنسحاب وترك يافا وشأنها(١).

وبعد ذلك استؤنفت مفاوضات الصلح ، وتمخضت المفاوضات عما عرف بصلح الرملة ، وطلب الصليبيون أن يحلف الملوك الذين حضروا على وثيقة الصلح ، فأقسم الملوك ومن ضمنهم المنصور على تلك الوثيقة (٢) . وعندما فرغ من أمر الصلح عاد السلطان إلى دمشق ، وأذن للعساكر بالعودة إلى أوطانها ، وعاد كل ملك إلى بلده(٣) .

وبعد مضي ما يقارب الستة أشهر على عقد صلح الرملة ، وبالتحديد في صفر سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٢ م توفي السلطان صلاح الدين ، واندلعت الحرب الأهلية بين الأيوبيين ، وكان من نتائجها تقلص حركة الجهاد الإسلامي بشكل كبير(٤).

ولقد شجعت حرب الأيوبيين الأهلية الصليبيين على تكثيف غاراتهم على بلاد المسلمين . وكان من أحد الأهداف التي سعوا للحصول عليها انتزاع بارين من المنصور(٥) . مما دفعه إلى الخروج إليها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢، ص ٣٩٤ – ٣٩٨؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢، ص ٨٣–٨٤؛ تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ق ١ ، ص ٧١٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢، ص٤–٧.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٣ ؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص ٩٩ ؛ ابن نصرالله: شفاء القلوب ، ص ١٧٧ ، وعن صلح الرملة انظر : عبدالله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ص ٢٧٣ – ٢٨١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٤) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٠٩ – ٢١٠.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ .

والمرابطة فيها سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م . ومنها بعث يطلب النجدة من السلطان العادل ، الذي أصدر بدوره أمراً إلى المجاهد – صاحب حمص – والأمجد – صاحب بعلبك – ليقدما العون للمنصور . وكتب الوزير ابن شكر رسالة إلى المنصور ، يخبره فيها بما اتخذه السلطان من اجراءات لتوفير الدعم له . لكنْ يبدو أن المجاهد والأمجد لم يسرعا في تنفيذ ما طلبه منهما السلطان مما حدا بالأخير أنْ يأمر الظاهر – صاحب حلب – بإنجاد المنصور ، كما أرسل رسالةً أخرى إلى المنصور يشكره على مرابطته في وجه الصليبيين ، ويخبره بأنه أنكر على المجاهد والأمجد تأخرهما في مساعدته(١).

وعندما وصلت النجدات من حلب وبعلبك ، استعد المنصور لخوض المعركة مع الصليبيين ؛الذين تجمعوا من حصن الأكراد وطرابلس والحصون المجاورة لهما ، وقصدوا بارين ، ويبدو أنّهم اختاروا الدخول في معركة مع العساكر المرابطة في بارين على أمل أن يوقعوا بهم الهزيمة ، فتغدوا مناطق حماه وحلب مفتوحة أمامهم ، ولكنّ المنصور فوّت عليهم هذه الفرصة . إذ خرج عليهم بمن معه والتقى بهم بالقرب من بارين في اليوم الثالث من رمضان سنة ٥٩٩ هـ/ يونيه ١٢٠٣م ، وحقق عليهم نصراً مؤزراً ، وسيق الأسرى إلى حماة . وكان دخولهم إليها من الأيام المشهودة، ولهج الشعراء بمدح المنصور ، وبتعظيم الانتصار الذي تحقق على يديه.(٢)

وفور انتهاء المعركة بعث المنصور بالبشرى إلى السلطان العادل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤١ – ١٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٣ – ١٤٥ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ١٠٣؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٤٧ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٢–٢٥٤؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ – ٧٤٦ .

الـذي رد عليـه برسـالـة . وصلـت إلـيه فـي الثامن عشـر من رمضـان سنة ٥٩٩ هـ/يونية ١٢٠٣م ، قَيّمَ فيها السلطان ما أحرزه المنصور من نصر ، كما تضمنت الرسالة دعوات السلطان للمنصور بمزيد من التوفيق(١).

وكانت معظم القوة الصليبية التي مُنيت بهذه الهزيمة من طائفة الاسبتارية . أما الداوية فقد جاء رسولٌ منهم لمقابلة المنصور بعد انتهاء المعركة بوقت قصير، وهو يسعى لعقد صلح بين الداوية وصاحب حماة (٢)، لكنّ ذلك الرسول كان يحمل رسالةً أخرى ، مضمونها أنّ حملةً صليبية جديدة وصلت إلى عكا من أوربا ، وأن عدد أفرادها يقدر بنحو ستين ألف فارس وتركبليّ(٣) وأنهم سيزحفون على جبلة واللاذقية ، وأن مُقَدّم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

(٢) يبدو أن السبب الذي دفع الداوية لعرض الصلح على المنصور هو الوضع المضطرب الذي أمسوا فيه – هم والقوى الصليبية الأخرى في بلاد الشام – نتيجة الحرب الأهلية التي اندلعت بين الصليبيين ، والتي تسمى حرب الوراثة في انطاكية ، وجدير بالذكر أن تلك الحرب تفجرت سنة ١٢٠١م واستمرت ما يقرب من خمس وعشرين سنة .
انظر : رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

(٣) التركبلي : لفظة يونانية معناها أبناء الترك ، وهو مصطلح أطلقه البيزنطيون على فرقة من جيشهم ينحدر أفرادها من أب تركي أو عربي ، وأم يونانية ، وتعتمد هذه الفرقة – كالجيوش التركية – على الكرّ والفرّ، وعندما جاء الصليبيون إلى الشام ومروا بأراضي الدولة البيزنطية أخذوا عنهم نظام هذه الفرقة وكونوا فرقاً كثيرة على هذا النمط ، وقد أدت هذه الفرق دوراً في الحروب الصليبية . ابن واصل : مفرج الكروب . ج ٢ ، ص ١٤٩ ، حاشية رقم ١ .

الاستبارية(١)، ومقدم الداوية والملك عموري لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ، متوجهون إلى ليو الثاني ملك الأرمن ليصلحوا بينه وبين أمير أنطاكية بوهمند الثالث ، وبذلك تنتهي الخلافات في الجبهة الصليبية ، وتتحد كلمتهم على حرب المسلمين ، وأخبر مبعوث الداوية المنصور أنّ حشوداً أخرى في طريقها إلى الشام ، وأنّ حماة ستكون من أهدافهم الأولى . ويبدو أنّ هذه الرسالة كان هدفها إرهاب المنصور فقط ، واجباره على عقد صلح مع الاستبارية(٢).

لكنّ المنصور لم يعبأ بالتهديدات الصليبية ، وأعلن تحديه لهم ، مما دفع رسول الداوية لإعلان خضوعه ، والاعتذار عما احتوته الرسالة من تهديدات ، والافصاح عن الدافع الحقيقي لمجيئه ، وهو عقد الصلح بين المنصور والداوية ، فوافق المنصور على طلبه ، وعقد صلحاً مع الداوية ، وسُرّ الرسول بنجاحه في مسعاه ، وكشف عن رأسه وتقدم إلى المنصور وقَبّل يده(٣).

أما الاسبتارية فكانوا يرغبون في مصالحة المنصور بعد انتصاره عليهم ، ولكنهم لا يرغبون في حصوله على المزيد من المكاسب على حسابهم، فاعتقدوا أنّهم سيحصلون على بغيتهم بأسلوب التهديد والوعيد، وحتى تكون رسالتهم أكثر تأثيراً . وبدون أن يظهروا تأثرهم من الهزيمة ، بعثوا بها مع أحد أفراد طائفة الداوية مستغلين سعي هؤلاء

---

(١) ومقدم الاسبتارية في هذه الفترة هو " جفري دونجون " . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨٤٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ على الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢١٧ - ٢١٨ ؛ خاشع المعاضيدي : تأريخ الوطن العربي ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

للتوصل إلى صلح خاص بهم مع المنصور.

لكنّ المنصور لم يتزعزع ، ولم يعبأ بمزاعم الإسبتارية ، وفي نفس الوقت نجح في تحييد الداوية في أي صراع قادم بينه وبين الإسبتارية وذلك بموافقته على التصالح معهم ، ورفض التفاوض بشأن الصلح مع الإسبتارية .

ولما عاد رسول الداوية مخبراً بفشل خطة إرهاب المنصور وحمله على التصالح مع الاسبتارية ، ثارت ثائرة هؤلاء وقرروا مهاجمة المنصور ومن معه في بارين، آملين في تحقيق النجاح هذه المرة ، فخرجوا من حصن الأكراد والمرقب(١) في أربعمائة فارس ، وألف ومائتي راجل إضافةً إلى التركبلية ، والجرخية(٢) ورماة الزنبورك(٣) ، وكان جلّهم من الإسبتارية ومعهم عناصر من الصرب(٤)، وقصدوا بارين في الحادي والعشرين من رمضان سنة ٥٩٩هـ/يونيه ١٢٠٣م ، فرتّب المنصور عساكره ، والتقاهم في ذلك اليوم

---

(١) حصن المرقب : وبالفرنجية " مرغات Margat " قلعة على الساحل السوري بالقرب من مدينة بانياس . ويتألف الموقع الحصن من قليعة داخلية قوية ، وقلعة خارجية أكثر اتساعاً ، يحيط بها سور خارجي مزدوج ، وهي ذات أشجار وفواكه ، استولى عليها الصليبيون بين عامي ٥١٠ هـ / ١١١٦ م- ٥١٢ هـ/١١١٨م . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ فولفغانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) الجرخية : مفردها جرخ (Jarkh) مأخوذة عن (تشرخ Tcharkh) وهي لفظة فارسية، وهي نوع من القوس الرامي الذي تُرمى عنه النشاب أو النفط ، ويقال للذي يرمي عن قوسه السهام أو النفط " الجرخي " . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٠، حاشية "٣"؛ وانظر أيضاً مرضى بن علي الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٦ - ٨.

(٣) الزنبورك : جمعها زنبوركات ، ويقصد بها معنيان ، إما نوع من القسي التي تُرمى عنها السهام وإما نوع من السهام ذاتها . ولمزيد من التفاصيل راجع ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص٢٤٤، حاشية " ١ " .

(٤) الصرب : مجموعة من القبائل الأرثوذكسية ، ألفت في العصور الوسطى مملكة خاصة بها (٧٥٦ هـ / ١١٨٠م - ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م) وهي نواة ما عرف باسم دولة يوغسلافيا . دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد١٤، مادة " صرب " ص ١٧٥-١٩٦؛ الموسوعة العالمية ، النسخة العربية ، جنيف ، ١٩٨٩ م ، ج ١٨ ، ص ٣١٧٤ - ٣١٧٧ .

فكسرهم كسرة قبيحة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان من بين القتلى مقدم التركبليّة ، وقومص من البحرية ، وأسر منهم جماعة على رأسهم قائد يدعى " أفرميلو " وهو أخو " الجرد " ، ومن نجا منهم ولىّ منهزماً ، وكان مائة فارس منهم وأكثر من ألف راجل قد كوّنوا كميناً هدفه الانقضاض على عسكر حماة، لكنهم عندما رأوا أصحابهم يولون الأدبار، انقلبوا على أعقابهم ، وأسرعوا بالعودة إلى حصونهم وقواعدهم(١).

أما المنصور فقد جمع الأسرى ، وساقهم إلى حماة ، حيث دخلوها وهم يرْتَدون زيهم العسكري ، ممتطين صهوات جيادهم ، وبأيديهم قنطارياتهم(٢)، ليتكرر هذا المشهد في حماة للمرة الثانية خلال شهر واحد ، وقد صاغ الشعراء فرحة هذا الانتصار، في قصائد معبّرة ، تضمنّت الإشادة بالمنصور صاحب حماة ، الذي تحقق على يديه ذلك النصر(٣).

ولو توقفنا بعض الوقت أمام هذه المعركة لوجدنا فيها حقائق مهمة ، في مقدمتها أنّ حملة صليبية جديدة قد جاء ت من الصرب وانضمت إلى الاسبتارية في معقليهما حصن الأكراد والمرقب . وهذا بلا شك هو الذي شجع الاسبتارية على مهاجمة بارين مرة ثانية رغم أنّ هزيمتهم الأولى لم يمض عليها أكثر من اسبوعين .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٨ – ١٥٠ .

(٢) القنطارية نوع من الرماح - أصل اللفظة يوناني (Kontarion) لأنها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم - ووصفها الطرسوسي بأنها رماح من خشب الزان وما شاكله، ليست بالطويل، يطعنون بها. وإسنتها قصار عراض - مرضي بن علي: تبصرة أرباب الألباب، ص ١١؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٨٣ ، حاشية ٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ؛ وانظر أيضاً : أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ١٠٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ – ٧٤٦ .

ومن هذه الحقائق أيضاً أن حماة كانت خط الدفاع الاسلامي الأول في مواجهة الاسبتارية في حصني الأكراد والمرقب ، لذلك كان على صاحب حماة مسئولية كبيرة ، تتطلب منه اليقظة والحذر ،لدرء الخطر الصليبي المستمر على الجبهة الاسلامية من تلك الجهة . وفي المقابل كان الهجوم الذي يشنّه الاسبتارية من مواقعهم في حصني الأكراد والمرقب ضد الجبهة الاسلامية كان لا بد أن يمر عبر بوابة مملكة حماة وتوابعها .

أما الاسبتارية فقد أيقنوا بعد هزيمتهم الثانية بعجزهم عن الحصول على أية مكاسب على جبهة بارين ، فسعوا ثانية إلى عقد هدنة مع المنصور، بدأت المفاوضات بشأنها حالما انقشع غبار المعركة الأخيرة ، إذ أنّ المنصور قد ضمَّن رسالة التهنئة التي بعثها إلى السلطان العادل بعد نهاية الموقعة رغبة الاسبتارية في عقد الصلح ، ويستشيره في هذا الأمر ، فجاء رد السلطان بتفويضه في اتخاذ ما يراه مناسباً ، مع تشجيعه على الصمود ، والتقليل من شأن قوة الصليبيين بناءً على تقارير وصلت إلى السلطان بهذا الشأن(١).

وعندما لاحظ الظاهر تكرار هجمات الصليبيين على بارين بعث نجدة أخرى من حلب لمساندة المنصور ، وصلت هذه النجدة إلى بارين في شهر شوال سنة ٥٩٩ هـ/ يوليو ١٢٠٣ م(٢).

أما المنصور فقد بدأ يتفاوض مع الاسبتارية مدعوماً بالتفويض الذي حصل عليه من السلطان ، وتوصل الفريقان إلى عقد هدنة بينهما في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م ، عاد بعدها المنصور إلى حماة ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣، ص ١٥٢ – ١٥٣ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٥٣ .

وعادت النجدات التي كانت ترابط معه إلى بلدانها(١).

وبعد أنْ لاحظ السلطان العادل تكرار الهجمات الصليبية على المناطق الاسلامية في بلاد الشام ، استدعى العساكر لمواجهة هذا الخطر ، فأتته النجدات من كافة أجزاء الدولة الأيوبية ، حيث توجه إلى الطور(٢) ورابط بها سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤م (٣) ، ومن المرجح أنّ حماة ساهمت بدورها مع بقية الممالك الأيوبية في محاولة كبح جماح الصليبيين في هذا العام .

ولم يشتبك السلطان في معارك مهمة مع الصليبيين في هذه الفترة وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين ،عادت على إثره العساكر إلى بلادها(٤).

أما الإسبتارية فلا زالت هزيمتهم على يد المنصور عالقة بأذهانهم ، وجاء انتهاء أجل الهدنة التي عقدوها مع المنصور مبرراً ليسعوا في أخذ ثأرهم منه ، فأغاروا بشكل مفاجئ على حماة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م(٥)، فخرج

---

(١) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٣٨ ب ، ابن الساعي (علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ، ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م) الجامع المختصر في عناوين التواريخ وعيون السير . الجزء التاسع ، تحقيق : مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤م؛ ص ١٢٥؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥٤؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق١ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الطور : جبل مطل على طبرية بينهما مسافة أربعة فراسخ . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

(٤) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٢٠ .

(٥) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٤٤ ، حاشية(١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وتذكر بعض المصادر أن هذه الغارة وقعت في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م. انظر : ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن أبي بكر ، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م) الإعلام بتاريخ الإسلام ، المجلد الخامس ، صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، برقم ٧٣٦ عن مكتبة فيض الله بتركيا برقم ١٤٠٣، ورقة ٢أ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي، ورقة ٣٩ أ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص١٢٥ ؛ ابن أيبك = الدر المطلوب ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ؛ الحريري: الإعلام والتبيين، ص٤٦.

المنصور للقائهم ، وكان معه عدد قليل من العسكر . فحلّت به الهزيمة ، وتراجع إلى حماة والصليبيون في أثره ، وتأخر المنصور عند اقترابه من حماة ، حتى أصبح في ساقة الجيش وأبلى بلاءً حسناً ، لكنّ هزيمته أتاحت فرصةً لِتَقدم الصليبيين إلى حماة وقد وصلوا إلى قرية " الرقيطاء"(١) وهي قريبة جداً من باب حماة الغربي. ولكنّ الحمويين تمكنوا من صد المعتدين ، وشجعهم كثيراً صمود ملكهم المنصور الذي " لولا وقوفه لما أبقوا من الناس أحداً"(٢) . وقد كان الهجوم الصليبي شديداً ومفاجئاً في نفس الوقت لدرجة أنهم سَبُوا كثيراً من النساء الغسالات على ضفاف العاصي ، وكان من بين الأسرى شهاب الدين أحمد البلاعي ، وكان من كبار المسئولين في حماة(٣).

والحقيقة أن المنصور يتحمل جزءاً من نجاح الصليبيين في مفاجأة حماة . فهو لم يتخذ احتياطات كافية لمواجهة أي هجوم من الاسبتارية، خصوصاً أنّ مدة الهدنة بينه وبينهم قد انتهت .

---

(١) الرقيطاء : ضيعة تبعد ٤ كم عن الباب الغربي لحماة . أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٦٧، حاشية رقم ٢ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٤ ؛ وانظر أيضاً : أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٥٤ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢ .

(٣) ابن قاضي شهبة : الإعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٢ أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٣٩ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٤٤ ،حاشية رقم ١ ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٤ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٥١ ؛ ابن الساعي: الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ١٢٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ – ١٦٣؛ أبو الفداء : المختصر ج ٣ ، ص ١٠٦ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ص ١٥٥ – ١٥٦ ؛الذهبي: دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦١ ، ص ٤٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص٦٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٤٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٣٩ .

وخشيةً من وقوع هجوم صليبي جديد ، طلب المنصور نجدة من المعظم عيسى - وكان نائباً عن أبيه في دمشق - فأرسل له فرقة عسكرية رابطت عنده حتى عقد صلحاً مع الصليبيين في العام نفسه(١).

على أن المنصور استطاع استعادة الأسرى والسبايا من أيدي الصليبيين(٢) ، الذين لم يحصلوا على أي فوائد تذكر من جراء هجماتهم على بارين وحماة.(٣)

وقد ذكر الذهبي في " تاريخ الاسلام " أن عساكراً من حماة هاجموا سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م ، حصن المرقب وكادوا أن ينجحوا في فتحه لولا مقتل قائدهم ، فاضطروا إلى ترك الحصن(٤) . وهو خطأ تداركه نفس المؤلف في كتابه الآخر " دول الاسلام " إذ أشار إلى هذا الهجوم ، لكنّه ذكر أن الجيش الذي قام به كان من حلب ، وهو الأصح(٥).

ولم تكن الاتفاقيات التي توصل إليها السلطان مع الصليبيين كافية لوقف تحركاتهم العسكرية ، فكانوا يتحايلون عليها كلمّا لاحت لهم لحظةً مناسبة . فلم يجد العادل بداً من القيام بحملة ضدهم ، فخرج إلى بحيرة قدس ، وأرسل في طلب المساعدات من ملوك الدولة الأيوبية الذين توافدوا عليه، ومن بينهم المنصور بعساكره ، وعندما تكاملت الاستعدادات تقدم السلطان في شهر

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ص ١٥٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ٢٤ ؛ وذكر ابن الساعي : الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ١٢٥ ، أن العادل هو الذي عقد الصلح مع الصليبيين .

(٢) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٥٨ .

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٤) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦١ ، ص ٤٦ .

(٥) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ وانظر أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

شوال سنة ٦٠٣ هـ / مايو ١٢٠٧ م إلى حصن الأكراد، وهاجمه بعنف ، وفتح برجاً قريباً منه يسمى " أعناز" ، كما وصلت هجماته إلى طرابلس ، وسقطت في يده قلعة قريبة منها هي " القليعات " ، وانتهت تلك الحملة بصلح في أوائل سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧(١).

ويشير ابن العديم إلى أنّ حماة تعرضت لهجمات صليبية سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨م اقتضت إرسال الظاهر – صاحب حلب – لفرقة من جيشه ، انضمت إلى المنصور لتساهم في الدفاع عن حماة ، كما دفعت تلك الهجمات الصليبية السلطان العادل إلى زيارة حماة وقضاء شتاء هذا العام فيها . فيما كانت فرق من الفرسان الاسلامية تغير على طرابلس والحصون القريبة منها لتخفيف الضغط الصليبي على حماة(٢).

ولم يتوقف التهديد الصليبي لحماة وإن كان قد خفّ في بعض السنوات ، فقد تجدد ذلك الهجوم سنة ٦١١هـ /١٢١٤ م ، إذ تجمعت أعداد كبيرة من الصليبيين، وعسكروا خارج حصن الأكراد ، فرأى كل من المنصور – صاحب حماة – والمجاهد – صاحب حمص – في التجمع الصليبي خطراً يهدد بلديهما ، فطلبوا من الظاهر – صاحب حلب – التدخل عند الصليبيين ، فبعث الظاهر رسالةً إلى الصليبيين يحذرهم فيها من مهاجمة حماة ، فأذعنوا لتهديده، وتعهدوا بعدم مهاجمتها مقابل حصولهم على أسرى وسبايا من أهلها ، فدارت بينهم وبين المنصور مفاوضات بناءً على هذا الشرط، وتم عقد الصلح بين الطرفين(٣) ، ولا غرابة في أن المنصور صاحب

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢١؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٥٢-٥٣؛ ابن واصل :مفرج الكروب ،ج ٣، ص ١٧٢ -١٧٣؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ،ص١٠٧-١٠٨؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ص ١٦٠ .

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٣) ابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٣، ص ٢٢٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ١٥٣.

حماة رضي بإعطاء الصليبيين ما أرادوا من حماة ذلك أنهم كانوا في أعداد غفيرة جاءت من قبرص وطرابلس وعكا وأنطاكية وبلاد الأرمن(١). وهذه الجموع تؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أن الصليبيين - وخاصة الاسبتارية منهم - كانوا يضمرون الشر لحماة وصاحبها وأهلها .

وكان آخر الأدوار الجهادية لملكة حماة زمن المنصور الأول ، اشتراك ابنيه المظفر محمود ، والناصر قلج في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة(٢) ، فبعد نزول الصليبيين على دمياط سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ، وتواصل صيحات الاستغاثة من السلطان الكامل - الذي خلف والده العادل في السلطنة سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨ م - جهز المنصور ابنه وولي عهده المظفر الثاني بفرقة عسكرية ، وبعث به إلى مصر ليكون في خدمة السلطان الكامل ، الذي استقبله عند وصوله إلى المعسكر ، وأنزله في ميمنة جيشه - وهي منزلة أبيه وحده -(٣).

وقبيل وفاة المنصور سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠ م ، بعث إليه المعظم يطلب منه المساعدة لمواجهة الصليبيين في الشام ومهاجمتهم لتخفيف الضغط عن مصر ، فجهز المنصور فرقة من الجيش أسند قيادتها لابنه الناصر قلج، وأمره بالمسير إلى المعظم ، وفي الطريق مرض الناصر قلج ، ورغب بالعودة إلى حماة ، لكنّ والده أمره بمواصلة السير ، فأطاع أوامر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
بدأت طلائع الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى الشام سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م ، واستعد العادل لمواجهتها ، ورابط في الطور ، واستدعى النجدات فجاءته من كل مكان، ومن المرجح أن تكون قد وصلته نجدة من حماة . انظر : أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٠٢ ، علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٣٤ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٥ ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٧٤ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٦ ب ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ؛ وحاشية رقم ٢ من الصفحة نفسها ، ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٢، وهي عنده من حوادث سنة ٦١٨ هـ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٢٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠١ .

والده، وواصل سيره حتى نزل القابون(١) وقد اشتد به المرض ، وخشي المعظم من تأخر وصول عسكر حماة إليه بسبب مرض قائدهم ، فبعث إلى الناصر قلج يأمره بعبور البلد، ومن ثم إرسال العساكر إليه إذا أراد أن يتأخر هو لأخذ قسط من الراحة . فاستجاب الناصر قلج لأوامره وأرسل العسكر إليه(٢).

ومن الجدير بالذكر أن شخصاً من أهالي حماة يدعى " شمايل "(٣) وهو من قرية معرذفتين(٤) بحماة ، كان يعمل " جانداراً "(٥) عند السلطان الكامل ، وقد لعب هذا الرجل دوراً في صمود دمياط الطويل في وجه الصليبيين ، حيث كان يسبح في النيل بين مراكب الأعداء إلى أن يدخل دمياط فينقل لأهلها رسائل السلطان ، ويحثهم على الصمود ، ويعدهم بقدوم المدد لفكّ الحصار عن البلد ، كما ينقل للسلطان رسائل أهل البلد وأخبارهم . وكان هذا الشخص وسيلة الاتصال الوحيدة بين السلطان ودمياط(٦) . وكان

---

(١) القابون : موضع يبعد ميلاً واحداً عن دمشق في طريق القاصد إلى العراق . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، وحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة ؛ وانظر أيضاًابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٦ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٢٢ .

(٣) الأمير علم الدين شمايل . انظر: المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩ ، حاشية رقم ٢ .

(٤) معرذفتين : قرية تبعد مسافة ٦ كم غرب حماة ، وما زالت تحمل نفس الاسم حتى الآن ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩ ، حاشية رقم ٣ .

(٥) جاندار : كلمة فارسية تتكون من لفظين :جان معناها سلاح ، ودار معناها ممسك، وهو الذي يستأذن للأمراء قبل دخولهم على السلطان . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩ ، حاشية ١ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٢٠٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٨ .

الصليبيون على علم بأمره ،وحاولوا القبض عليه ولم ينجحوا(١)، ونتيجة لهذا العمل البطولي حظي شمايل بمكانة رفيعة عند السلطان الكامل ، وجعله أمير جاندار(٢)، ثم والياً للقاهرة(٣) . وإليه تنسب خزانة شمايل بالقاهرة(٤).

---

(١) ابن أيبك : الدر المطلوب ،ص ٢٠٠ ؛ قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي، ص ٤٨٨.

(٢) امير جاندار : وصاحب هذه الوظيفة كالمستلم للباب ، ويستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ، ويدخل أمامهم إلى الديوان ، كما أنه يقدم البريد للسلطان مع الدوادار وكاتب السر . وإذا أراد السلطان قتل أحد أو تقريره ، كان على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو أيضاً المستلم للزردخاناة التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات من السجن المطلق . ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، ص ١١٧ – ١١٨ ؛ القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندي ، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) ؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م ، ج ٤ ، ص ٢٠ – ٢١، المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ،ج ٤ ، ص ٢٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٢٠١، المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٩٨ .

(٤) خزانة شمايل من أشهر السجون في القاهرة ، تقع بالقرب من باب زويلة على يسار الداخل منه إلى البلد ، وكانت قبيحة الشكل لا يُحبس فيها إلا من صدر بحقه حكم بالإعدام أو يريد السلطان اعدامه لجريمة ارتكبها . المقريزي : الخطط ، ص ١٨٧ – ١٨٨؛ وانظر أيضاً : ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٢٠١ ، حاشية رقم ١ .

أثر وفاة المنصور الأول على مملكة حماة

لما بلغ المظفر محمود – أكبر أبناء المنصور – السابعة عشرة من عمره سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، رشحه والده لولاية العهد ، وطلب من أهالي حماة مبايعته على ذلك ، وتولى ابن واصل – والد المؤرخ المشهور– كتابة العهد على ذلك(١). وكانت تلك المرة الأولى التي يُعيّن فيها وليٌّ للعهد في حماة في ظل حكامها من بني أيوب .

ولم يلبث المنصور أن بعث ولي عهده على رأس فرقة من جيش حماة ، ليساند خاله السلطان الكامل في مواجهة الحملة الصليبية التي وصلت إلى دمياط، ويبدو أن المنصور كان يهدف من وراء إختيار المظفر الثاني لقيادة هذه الحملة إلى عدة أهداف ، فبالاضافة إلى إقامة فريضة الجهاد ،أراد إثبات كفاءة ولي عهده ، واستحقاقه لهذا المنصب ، كما أراد أن يُكسبُه خبرة حربية من خلال المعارك التي سيخوضها ضد الصليبيين ، وأخيراً رغب المنصور في

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٥ ، وقد ذكر أن المظفر الثاني كان في مصر عندما عقد له والده البيعة بولاية العهد ؛ اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد اليافعي كان حياً سنة ٦٧٩ هـ) جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين المصرية ، نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١١٤٢،عن نسخة المكتبة الوطنيةبباريس رقم ١٥٤٣، ورقة ٣٠ أ، ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) تاريخ ابن الفرات ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، رقم ٦١٢ ، عن نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ٥٤١ ، ج ٦، لوحة ٦٣ ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٧٤ ب ؛ كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا ... ، ورقة ١١٣ أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٦ أ – ب ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، وحاشية رقم ٢ من الصفحة نفسها ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٦٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٣٣ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٢٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٥٢ .

كسب رضا السلطان الكامل ، وضمان عدم معارضته في موضوع ولاية عهده – كما فعل معه صلاح الدين في بداية توليه حكم حماة ، ولقد أدرك المنصور أهمية تقوية الروابط بين ولي عهد حماة وسلطان الدولة الأيوبية ، وتأثيرها فيما سيقع مستقبلاً من حوادث .

وبعد مسير المظفر الثاني إلى مصر ، توفيت والدته ملكة خاتون بنت العادل ، فحزن عليها المنصور حزناً شديداً ، وسمح للشعراء برثائها كما رثاها هو نفسه بقصيدة من نظمه(١) .

وبعد أن طلب المعظم النجدة من المنصور ، وبعث إليه ابنه الناصر قلج، ، ابتدأ به المرض ، وكان حمى صفراوية حادة ، ولما تدهورت صحته ، بعث إلى ولي عهده يطلب حضوره ، وخشي أن يدركه الموت قبل وصوله . وكان ابنه الآخر الناصر قلج مرابطاً مع المعظم في مواجهة الصليبيين بالشام ، فقرر استدعاءه لقربه منه ، لكنّ الناصر قلج لم يصل بالسرعة التي توقعها والده ، مع أنه أرسل إليه يطلبه " مرة ومرة ومرة " . وأخيراً وصل كتابه بأنه قادم في الطريق ، لكنّ المنصور توفي قبل وصوله(٢) .

وكانت وفاة المنصور في ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ / فبراير ١٢٢١ م ، وكان قد تخطى الخمسين سنة من عمره بعدة أشهر ، وقد استمر مرضه واحداً وعشرين يوماً(٣).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٦٥ – ٦٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٤؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٤٧ ؛ تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦٢، ص ٢٤٢؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٨ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، حاشية رقم ٢.

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٤ – ٥٤٦ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٦ أ ؛ أبو الفداء : التبر المسبوك ، حوادث سنة ٦١٧ هـ ؛ العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا والشام ، ورقة ١١٣ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٧؛ =

وفقدت حماة بموته ملكاً حازماً ، استطاع قيادة مملكته إلى بر الأمان وسط أمواج من الحروب والمؤامرات والحوادث الجسام .

ورغم صغر مملكة حماة إذا ما قورنت بممالك حلب ودمشق ومصر وغيرها إلاّ أنّ المنصور استطاع أنْ يجعل منها رقماً مهماً في معادلة الصراع بين أفراد البيت الأيوبي ، فكان السلطان العادل والملك الظاهر يحرص كل منهما على كسب المنصور إلى جانبه ، ويخشى من انضمامه إلى الطرف الآخر(١).

وكان المنصور يملك جيشاً جيد التجهيز والتدريب ، وعمل معه عدد من كبار الأمراء والقواد ، كما أضاف تحصينات جديدة لقلعة حماة ، وجعلها من أكثر القلاع حصانة وقوة(٢).

وكانت تصل إلى المنصور أخبار متفرقة من عدة أقاليم ومنها أخبار وصلت إليه من اليمن ، إذ يذكر ابن واصل أن " والي البرِّ "(٣) بحماة حج سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م، ويعث إلى المنصور برسالة تتضمن وصف حوادث

= أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٥ ؛ المنذري : التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩١ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ص ٢٦٣ وذكر أن وفاته سنة ٦٢١ هـ ولكنه استدرك هذا الخطأ وأشار إلى أن تاريخ وفاته سنة ٦١٧ هـ ، وجعل المحقق هذا الاستدراك في حاشيته رقم ١ في نفس الصفحة ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٤٧ : العبر ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ؛ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) فوات الوفيات ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨١ .

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٣) والي البِرّ : يبدو من خلال التسمية أنه شخص مكلف بإدارة أعمال البرِّ وشئون الحجاج الحمويين .

وقعت في اليمن ، منها مقتل الملك المعز اسماعيل(١) بن سيف الاسلام الأيوبي ، ووقوع الفتنة في البلد إثر ذلك . ويبدو أن رسالة والي البر تشتمل على أخبار أقاليم أخرى أو أمور تتعلق بالحج ، يدل على ذلك نص الجزء الذي أورده ابن واصل من هذه الرسالة إذ ورد فيه : " وسطر الكتاب يتيماً في رابع عشر المحرم وفيه " وأما أخبار اليمن ... "(٢) وهذا دليل على أن هناك فقرات من الرسالة قبل وصف ما جرى في اليمن .

وكان طبيعياً أن تكون هنالك علاقة ما بين مملكة حماة واليمن ، بعد أن استطاع أحد أفراد الأسرة الأيوبية الحاكمة في حماة وهو سليمان شاه(٣) بن سعد الدين بن الملك المظفر تقي الدين عمر من الاستيلاء على الحكم في اليمن وكانت رسائله تصل إلى عمه المنصور وإلى السلطان العادل(٤).

وقد اتصف المنصور بالشجاعة و محبة العلماء(٥) ، وحسن السيرة

---

(١) الملك المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب تولى حكم اليمن بعد وفاة والده سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م ، قتله مماليكه سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٧٣ ، ١٣٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

(٣) سليمان شاه تولى السلطة في اليمن مدة من الزمن حتى انتزعها منه الملك المسعود "أقسيس " ابن الكامل سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥م . واعتقله وبعثه إلى مصر ، وبقي بهاحتى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م ، فقتل شهيداً في المنصورة بعد اشتراكه في معركة ضد الصليبيين ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٢٢٧ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٧٧ . ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١١١ - ١١٢.

(٤) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٣٨ .

(٥) ابن حبيب : جهينة الأخبار ، ورقة ٥٤ أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٤؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٠ -٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٥ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٢٦٣ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٠٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٥ ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١١١ .

والكرم ، وكان يباشر أمور الدولة بنفسه ، ويبدأ برنامجه اليومي بعد صلاة الفجر ، ويقضي النهار في تدبير أمور الدولة وحل مشاكل رعيته ، ولا يحتجب عنهم في معظم الأوقات(١).

وكان موكبه يضاهي مواكب السلاطين في الفخامة. وعندما دنت منيته أطلق المساجين وقال : " في سجننا من قد ظلمنا بأخذ مالنا" ، " ومن قد ظلمنا وظلمناه" ، واعتق عبيده وإماءه وأثمانهم لا تحصى(٢).

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٠ - ٩١. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٠.

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٧-٨١.

الفصل الثالث
مملكة حماة
بين الأخوين الناصر قلج أرسلان والمظفر الثاني
" ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م - ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م "

* الناصر قلج أرسلان وانفراده بمملكة حماة ولجوء المظفر الثاني إلى مصر
* أطماع المعظم عيسى صاحب دمشق في حماة
* سياسة الناصر قلج في حماة ونتائجها
* المظفر الثاني وانتزاع مملكة حماة من أخيه الناصر قلج أرسلان "٦٢٦هـ/١٢٢٩م"
* سياسة المظفر الثاني في إدارة مملكته
* موقف المظفر الثاني من الحرب الأهلية بين الأيوبيين "٦٣٥هـ/١٢٣٧م - ٦٤٢هـ/١٢٤٤م" .

الناصر قلج وانفراده بمملكة حماة ولجوء المظفر الثاني إلى مصر

ذكرنا في نهاية الفصل السابق أن المنصور صاحب حماة قد عهد إلى ابنه الأكبر المظفر بولاية العهد ، وبعثه على رأس نجدة إلى السلطان الكامل في مصر ، الذي يقف في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة ، كما أرسل ابنه الآخر الناصر قلج أرسلان إلى المعظم لمواجهة الصليبيين في الشام . وعندما شعر المنصور بدنو أجله استدعى ابنه الناصر قلج بحكم قربه من حماة . لكنّ الناصر قلج لم يحضر بالسرعة المتوقعة . إذ إنّ رسائل المنصور صاحب حماة كانت تقع بيد المعظم،وكان يحتجزها عنده ليبتزّ بها الناصر قلج ، فلم يسمح له بالعودة إلى حماة إلاّ بعد أن حصل منه على تعهد يدفع له بموجبه مبلغاً من المال في كل سنة.(١)

وفور وصوله إلى حماة اجتمع به أمراء والده ، وحلّفوه على وصية أبيه التي قضت بأن يكون المظفر ولياً للعهد ، ومقابل ذلك أفردوا له معرة النعمان وجعلوها مُلْكاً له ، وحلّفوه على ذلك ، واتفق أن الناصر قلج كان مريضاً فسمحوا له بالمبيت في حماة تلك الليلة على أن يرحل في اليوم التالي إلى المعرة(٢) . لكنّ الأمراء -وعلى رأسهم وزير حماة زين الدين بن فريج- وجدوا الناصر ليّن العريكة ، سهل الانقياد، ومن الممكن التحكم فيه بعكس أخيه المظفر الذي عُرف بالشهامة وقوة البأس ، والاستقلال بالرأي . فوجدوها

ص

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري،ص٩١،حاشية رقم ٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٤ ، ص ٨٧ ؛ .أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٩٦.

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، حاشية رقم ٢ .

فرصة سانحة لهم ليتحكّموا بمصير الدولة من خلال تنصيب الناصر قلج ملكاً عليها(١). لكنّ بيعة المظفر التي في أعناقهم تشكّل حجر عثرة في طريقهم لتحقيق أطماعهم ، وقد استطاعوا التغلب على هذه العقبة ، وحنثوا في أيمانهم ، ونقضوا العهود بعد توكيدها بطريقة وصفها ابن أبي الدم – وهو من المعاصرين – بقوله : " وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها"(٢) . ويستطرد ابن أبي الدم في ذكر تلك المؤامرة نافياً اشتراكه فيها ويقول :" وكان من لطف الله تعالى أنني كنت مريضاً تلك المدة ثم لم أحضر شيئاً من ذلك "(٣).

وحتى يَظْهر هؤلاء الأمراء بأنّهم لم يخالفوا وصية ملكهم المنصور ، ولم يحنثوا في أيمانهم السابقة ، أوهموا الناس بأن المنصور لا زال على قيد الحياة . وساعدهم على ذلك أن خبر وفاته لم ينتشر بعد . فزعموا أنّه اجتمع بابنه الناصر قلج وعهد إليه بالملك وأمرهم بمبايعته ، فأعلنوا بيعته ، ونادوا بشعاره في البلد.(٤)

أما المظفرالثاني فقد بلغته أنباء وفاة والده وهو مرابط بقواته مع الكامل مقابل الصليبيين بدمياط . فاستأذن الكامل فسمح له بالعودة إلى حماة، وكان يظن أنه سيتسلم مقاليد الحكم فور وصوله إليها . لكنّ شيئاً من وهذا لم يحدث ، فقد التقى بخاله المعظم في منطقة الغور(٥) ،

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٦ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٦ أ – ب ؛ مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤٥ .

(٣) ابن أبي الدم : المصدر السابق ، لوحة ٥٤٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٥) الغور : من أول بحيرة طبرية ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زغر ويرد البحيرة الميتة . والغور ما بين جبلين . غائر في الأرض جداً ، وبعض الغور من حد الأردن إلى أن يجاوز بيسان فإذا جاوزه كان من حد فلسطين ، وهذا البطن إذا امتد فيه السائرأداه إلى أيلة . ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) صورة الأرض ، ط . بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٦٠ .

وهو في طريقه إلى حماة . فأخبره المعظم باستيلاء أخيه الناصر قلج على الحكم، ونصحه بالتوجه إلى دمشق ، ومن هناك يرسل إلى أمراء والده يذكرهم ببيعتهم له لعلهم يراجعون أنفسهم ، ويستدعونه ليتسلم حقه في الحكم.(١)

استمع المظفر الثاني لنصيحة خاله ، وتوجه إلى دمشق ، ونزل بدار لوالده فيها تعرف بـ" الزنجيلي " ، ومن هناك بعث برسائله إلى رجال الدولة في حماة(٢)، ويقال إنّ المعظم بعث بدوره رسائل مماثلة لزعماء حماة(٣) ، لكنه لم يكن مخلصاً في عمله هذا بسبب الاتفاق السابق بينه وبين الناصر قلج(٤).

ولم يجد المظفر الثاني عند زعماء حماة أذناً مصغية ، بل تبين له أنه وقع ضحيةً لمؤامرة كبيرة ، حيكت خيوطها بدقة ، واشتركت فيها أطراف عديدة ، منها شخص يدعى ابن الفصافصة كان من المقربين لديه ، والمرافقين له منذ توجهه إلى مصر بالعساكر ، حيث لعب هذا الشخص دوراً مهماً في إخفاء خبر مرض المنصور عن ابنه المظفر مما ساعد الناصر قلج على اعتلاء عرش حماة ، وعندما اكتشف المظفر الثاني تلك المؤامرة قام بقتل ابن الفصافصة في دمشق ، ثم عاد إلى مصر وحصل على إقطاع بها من الكامل . وبقي يتربص بأخيه الناصر والموالين له.(٥)

وكان الناصر قلج يخشى من انتزاع أخيه المظفر الثاني حماة منه ، وكان يعلم جيداً أنّ

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٨ – ٨٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٩٦–٣٩٧.

(٣) ابو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ١٢٦؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٩٦.

(٤) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، حاشية رقم ٢ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٩٧ ؛

الحل والعقد في حماة ملتفون حوله . وكان الناصر قلج قد أمِن جانب الكامل لانشغاله بالخطر الصليبي الذي هدد بالزحف على القاهرة من دمياط في أية لحظة ، كما ضمن موالاة المعظم بالاتفاق المبرم بينهما . وبقي بالقرب منه قوتان كبيرتان لا بد من استمالتهما إلى جانبه ، أو على الأقل ضمان حيادهما في أي صراع قد ينشب بينه وبين أخيه المظفر الثاني . وهاتان القوتان هما : مملكة حلب ، ومناطق شرق الفرات الخاضعة لحكم الأشرف بن العادل . وقد نجح الناصر قلج في كسب كلا القوتين ، وذلك عندما بعث إلى شهاب الدين طغريل – الوصي على عرش حلب – يعرض عليه التحالف وتعزيز العلاقات بين المملكتين . كما طلب منه الاتصال بالأشرف بالنيابة عنه عارضاً عليه التبعية والخطبة له على منابر حماة ، مقابل توفير الحماية له ضد أي اعتداء قد يتعرض له(١).

وبهذا أضحى الناصر قلج ملكاً على حماة باعتراف زعمائها . وبتأييد من القوى المحيطة بها في دمشق وحلب ومناطق شرق الفرات . رغم أنه لم يكن فيما سبق ولياً للعهد ، ولا أكبر أبناء المنصور محمد صاحب حماة السابق(٢).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩١ .

(٢) ذكر أبو شامة في ذيل الروضتين ، ص ١٢٤ أن الناصرقلج هوأكبرأبناء المنصور محمد ، ونقل عنه ذلك كل من ابن أيبك في الدر المطلوب ، ص ٢٦٣ ؛ وابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ ، وانظر أيضاً النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١١٠. والثابت أن المظفر هو أكبر أبناء المنصور وولي عهده .

أطماع المعظم عيسى صاحب دمشق في حماة

تميزت المرحلة التي تلت وفاة صلاح الدين في الدولة الأيوبية بالحروب الأهلية بين ملوك الأسرة الأيوبية ، وكانت الأطماع الشخصية هي المحرك الأساسي لمعظم تلك الحروب . ومن أمثلة ذلك أطماع المعظم عيسى – صاحب دمشق – في حماة والتي كان لها نتائج خطيرة على المدى البعيد ، ولم يقتصر تأثيرها على حماة أو بلاد الشام فقط ، بل امتد إلى أقاليم إسلامية واسعة ، وسيتبين ذلك من خلال معالجتنا لهذه الفقرة .

لم تبدأ أطماع المعظم في حماة إلاّ بعد وفاة المنصور سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م ، حيث كان ابنه الناصر قلج في خدمة المعظم وهو يواجه الخطر الصليبي في سواحل بلاد الشام ، وقد علم المعظم بمرض المنصور وتدهور حالته الصحية قبل أن يصل خبر ذلك إلى الناصر قلج المقيم معه في نفس المعسكر ، وذلك بواسطة الرسائل التي جاءت من حماة تحث الناصر قلج على سرعة القدوم ، واحتجز المعظم الرسائل وكتم خبرها عن الناصر قلج . وعندما أطلعه عليها ، لم يسمح له بمغادرة المعسكر إلا بعد أن حصل منه على تعهد، يدفع بموجبه الناصر قلج مبلغاً كبيراً من المال قيل إنه أربعمائة ألف دينار سنوياً(١). إضافة إلى إرسال فرقة من عسكر حماة إلى دمشق عندما تطلب الأخيرة ذلك(٢).

ويستنتج أحد الباحثين المحدثين من ضخامة المبلغ الذي تم الاتفاق عليه بين المعظم والناصر قلج على قوة الوضع

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٦ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩١ ، حاشية رقم ٢ .

الاقتصادي في حماة(١) .

على أنّ الاتفاق في حد ذاته يفتح الباب على مصراعيه لتدخل المعظم في شؤون حماة ، وتحقيق أطماعه فيها متذرعاً بنقض الناصر قلج للاتفاق المبرم بينهما لأنّه سيعجز حتماً عن دفع ذلك المبلغ الضخم ، في كل سنة .

أمّا الناصر قلج فقد وافق على شروط المعظم الآنفة الذكر بدون تفكير، جاعلاً نصب عينيه سرعة الوصول إلى حماة،وقطع الطريق على أخيه المظفر الثاني المعهود له بولاية العهد .

واضطر المعظم إلى تأجيل مشروعه في غزو حماة وضمها إلى مملكته ريثما تتهيأ الظروف لذلك . وبعد نجاح الأيوبيين في طرد الصليبيين من دمياط سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١م(٢). عاد المعظم إلى دمشق ، وظن أنّ الظروف قد باتت مناسبة لتحقيق أطماعه في حماة ، وكان لا بد من وجود سبب مباشر يبرر مشروعية تحركه ضد حماة ، فبعث إلى الناصر قلج يطالبه بتسديد المبلغ المتفق عليه لكن الناصر قلج ماطل وسوّف، ولم يف بتعهده لعجزه عن توفير ذلك المبلغ،مما أغضب المعظم وجعله يعلن عزمه على مهاجمة حماة(٣).

وكان المعظم يراقب تحركات الناصر قلج في حماة ، وعندما علم

---

(١) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ١٦٤ .

(٢) عن انتصار الأيوبيين على الحملة الصليبية الخامسة واستعادة دمياط منهم ، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٧٢ – ٧٧٧ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٥٣ – ٢٥٥ .

(٣) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٨ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤، ص ١١٧–١١٨؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .

بخروجه إلى الصيد، تجهز وخرج بجيشه من دمشق ، وعلل خروجه بمحاولة القبض على أحد أمراء السلطان الكامل يدعى مجاهد الدين اقبال وكان السلطان قد طلب منه القبض على ذلك الأمير الهارب وإرساله إلى مصر . فتحجج المعظم بهذا السبب ليخدع به الناصر قلج ، فيُمضي أيامه بين الصيد والنزهة بينما يسير المعظم بجيشه إلى حماة ويحتلها في غيبته ، لكنّ هذه الحيلة لم تجز على الناصر قلج وعاد إلى مقر ملكه مسرعاً ، وبدأ يستعد للحصار(١).

وعندما وصل المعظم إلى أسوار حماة في ذي الحجة سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م ، وجد الناصر قلج قد سبقه إليها وأغلق أبوابها ، فبعث المعظم إليه رسالة يلومه فيها على هذا التصرف ، ويزعم أنّه خرج حسب أوامر السلطان الكامل للقبض على أحد الأمراء الفارين ، ولم يكن قصده الحرب لكنّ إغلاق أبواب حماة في وجهه يعتبره إعلاناً للحرب ضده ، وسيخوضها بكامل قواته(٢).

ونزل المعظم في قرية " نقيرين "(٣) واستمر في حصار حماة ، لكنه أدرك صعوبة الاستيلاء عليها ، فقرر تجريدها من المناطق التابعة لها والتي تلعب دوراً في صمودها(٤) . فتحرك بجيشه إلى سلمية . ولم

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٧ أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٨ ب ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٣٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٧ أ ، وأيضاً مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٨.

(٣) نقيرين : قرية تقع الآن في ضواحي حماة ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤، ص١١٨، حاشية رقم ٢ .

(٤) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٩١ .

يلبث أن استولى عليها ، وصادر ما وجد في مخازنها من مواد غذائية وعين بها نائباً عنه(١).

وبعد سلمية سار المعظم إلى معرة النعمان، وما أن سمع واليها شهاب الدين بن القطب بقصد المعظم لها حتى تركها وتوجه إلى حماة ، وعند اقترابه من المعرة خرج أعيانها لاستقباله وعلى رأسهم سالم بن واصل - والد المؤرخ المشهور - وهم يحملون العديد من الهدايا . ونزل المعظم بدارٍ كان شهاب الدين بن القطب قد بناها للناصر قلج في غرب البلد واستولى على محاصيل البلد وعيّن أحد أتباعه نائباً بها(٢).

وعاد المعظم إلى سلمية وأقام بها حتى مضت سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م(٣).

وعندما كان المعظم مقيماً بالمعرة ، وفد عليه شهاب الدين بن القطب مبعوثاً من الناصر قلج في محاولة للتفاوض معه وثنيه عن عزمه على الاستيلاء على حماة وتوابعها ، لكن المعظم لم يلتفت إلى مبعوث الناصر قلج ولم يعره أدنى اهتمام ، فعاد ابن القطب إلى حماة خالي الوفاض(٤).

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٧٧ أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٨ ب ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ١١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٤؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٢ .

(٢) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٨ ب ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق١ ، ص ٢١٤؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .

(٣) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٨ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ١٢٠ .

كما استقبل المعظم وهو بالمعرة رسولاً من الحلبيين جاء لمعرفة سبب مهاجمة حماة ، وكان معه بعض الهدايا ، فقبل المعظم الهدايا واعتذر لرسول الحلبيين ، وكرر زعمه بأنه خرج للقبض على أحد الأمراء الخارجين على السلطان الكامل ، ولكنه عندما اقترب من حماة لم يقم صاحبها بما يجب عليه من الاستقبال وإقامة الضيافة " وتجنى الملك المعظم على الناصر صاحب حماة ذنوباً لا أصل لها"(١) كما جاء إلى خدمة المعظم عند نزوله بالمعرة ، صاحب شيزر وهو من أبناء سابق الدين بن الداية ، وعرض عليه المساعدة المعاضدة(٢) .

وكان المعظم أثناء إقامته بسلمية يواصل الضغط على حماة، ليُجبرها على الاستسلام ، فأوعز إلى بعض العرب التابعين له بقطع الامدادات العسكرية والغذائية عنها،كما حوّل طريق القوافل الذي كان يمر بها إلى سلمية(٣) .

وبينما كان المعظم في الشام محاصراً لحماة. كانت أخبار تحركاته تصل إلى مصر ، حيث كان يقيم أخواه الكامل والأشرف ، فخشيا أن يكون نجاحه في احتلال حماة مشجعاً له على مزيد من التوسع على حساب جيرانه ، كما كان الناصر قلج من الموالين للأشرف، فاتفق الأخير مع أخيه الكامل على منع المعظم من الاستيلاء على حماة ، واجباره على الانسحاب من المناطق التي اقتطعها من مملكة حماة ، وبعثا رسالتين إلى المعظم بهذا المعنى ، ورغم أن مضمونها واحد إلا أنهما قصدا إظهار اهتمامهما الكبير بهذا الموضوع ، فبعث كل منهما

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٢.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٣.

رسالة مستقلة عن الآخر(١) . فجاء رسول الأشرف من شرق الفرات ، ومرّ على حلب ، واجتمع بشهاب الدين طغريل - الوصي على عرش حلب - وأخبره بما أُرسل من أجله ، كما أوضح له أن هجمات المعظم على حماة لم تكن بعلم الأشرف والكامل ولا برضاهما ، ثم واصل المبعوث طريقه إلى سلمية فوجد عند المعظم رسولاً من الكامل يحمل رسالة مشابهة لما معه ، ومضمونها الانسحاب من مملكة حماة وإعادة ما استولى عليه من ممتلكاتها . واستجاب المعظم لطلب أخويه مكرهاً ، وعقد صلحاً هشاً مع صاحب حماة، ثم انسحب عائداً إلى دمشق، ونار الغضب على أخويه الكامل والأشرف تضطرم في قلبه اضطراماً(٢).

ولم تكن مسألة ترحيل المعظم عن سلمية وحرمانه من الاستيلاء على حماة هي بداية الخلاف بينه وبين أخويه الكامل والأشرف فقط(٣) . بل كانت السبب الرئيسي الذي نتج عنه صراع مرير بين أبناء العادل، واشتركت فيه عناصر خارجية وتجاوزت آثاره حدود الدولة الأيوبية .

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٧ أ ؛ مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٨؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٩٠ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٧ أ - ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ورقة ٣ أ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٤٦٣ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٢٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ؛ ابن العديم: زبد الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٤؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٢٣ .

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ٩٩ ؛ الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٩ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٧٤ .

لقد أدرك المعظم أنّ الكامل والأشرف قد اتفقا ضده ، وكان لا بد من البحث عن حليف يعتضد به ، فاتصل بمظفر الدين كوكبوري صاحب اربل الذي أعلن موافقته على الوقوف إلى جانبه(١) .

وكان المظفر غازي(٢) بن العادل ينوب عن أخيه الأشرف في حكم المناطق الواقعة شرقي الفرات ، كما كان ولياً لعهده ، فحرضه المعظم على التمرد واستغلال غياب الأشرف في مصر ، ووعده بتقديم العون له ، لكنّ الأشرف عاد من مصر على عجل،وقمع تمرد المظفر غازي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م(٣) .

وأثناء انشغال الأشرف بتمرد المظفر،أغار المعظم على حمص وبارين، ووصل إلى بحيرة قدس ولكنّه عاد إلى دمشق بعد علمه بانتصار الأشرف وفشل تمرد المظفر غازي(٤) .

وسعى المعظم إلى تكوين حلف قوي يهدّد به الكامل والأشرف، فبادر إلى الاتصال بجلال الدين الخوارزمي(٥) سلطان الدولة الخوارزمية ،

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٩٠ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤، ص ١٣٧.

(٢) الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب خلاط وميافارقين وحصن منصور مات في رجب سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٧م ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢، ص ١٣٣ - ١٣٤ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣٣ .

(٣) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ١٦٠ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٢٧ أ - ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ٢٠ أ - ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٢٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

(٥) جلال الدين منكوبرتي بن السلطان علاء الدين محمد ، سلطان الدولة الخوارزمية تملكها بعد وفاة والده ، وألف النسوي كتاباً في سيرته ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

وعرض عليه التحالف فأجابه إلى ذلك(١).

ورأى المعظم أنه قد شكل حلفاً قوياً باتفاقه مع الخوارزمي وصاحب اربل ، وأنّ بإمكانه تحقيق أطماعه في حماة دون أن يعير أخويه الكامل والأشرف أي اهتمام ، فاتفق المعظم حليفاه على شن هجمات متفرقة على عدة مناطق وفي وقت واحد ، لإرباك خصومهم وتشتيت قواتهم إذا ما حاولوا مواجهة تلك الهجمات ، فتقرر أنْ يهاجم المعظم حماة وحمص ، ويتكفل مظفر الدين كوكبوري بمهاجمة الموصل - وكانت موالية للأشرف - بينما يتولى جلال الدين الخوارزمي مهاجمة خلاط - عاصمة الأشرف - لإرباكه واشغاله عن الاهتمام بأمر حماة ، أما الكامل فكان يخشى الخروج من مصر لشكوك تساوره حول إخلاص جيشه له.(٢)

ورأى المعظم أن يبدأ بمهاجمة حمص ، وحاول الأشرف تقديم النجدة لها إذ أمر بعض قبائل آل فضل(٣) التابعة له بالتوجه إلى حمص ، وفي أثناء طريقهم إليها اعتدوا على بعض قرى حماة والمعرة وتعرضوا لها بالنهب والسلب(٤).

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٢ أ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٢٣؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٤ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٢٦٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١١ أ - ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤، ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٩٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) آل فضل : بنو فضل بن ربيعة من طيء ومنازلهم بين حمص وقلعة جعبر على ضفتي الفرات إلى أطراف العراق والبصرة . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ، حاشية رقم ٣ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١١ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب، ص ٢١٠.

أما المعظم فتقدم إلى حمص وحاصرها ، وأغارت قواته على سلمية وكانت إذ ذاك بيد المظفر الثاني بن المنصور . وبسبب صمود حمص ، وتفشي الأمراض في جيشه اضطر المعظم إلى العودة إلى دمشق،ودخلها في شهر رمضان سنة ٦٢٣هـ /١٢٢٦م(١).

وعندما أحسّ الأشرف بأنه يتعرض لمؤامرة كبيرة، قرر الذهاب إلى دمشق،والاجتماع بصاحبها المعظم ، لعله يتوصل معه إلى حل يرضيهما معاً ، وأراد الناصر قلج استغلال وجود حليفه الأشرف في دمشق،فأوفد مبعوثاً إلى المعظم ليحصل منه على تعهد بالكف عن مهاجمة حماة ، وكذلك فعل المجاهد صاحب حمص ، وبعد أن أقام الرسولان فترة طويلة في دمشق، وافق المعظم على التعهد بعدم مهاجمة حماة وحلف على ذلك ، ولكنه رفض فعل الشئ نفسه مع مبعوث المجاهد صاحب حمص(٢) .

وبعث المعظم وأخوه الأشرف رسالة مشتركة إلى كل من الناصر قلج ، والوصي على عرش حلب .

ورغم عدم معرفتنا لمضمون الرسالة إلاّ أنها ذات علاقة بأطماع المعظم في حماة ، وهذا ما دفع الناصر قلج والوصي على عرش حلب إلى رفضها(٣).

وقد بقي الأشرف في دمشق مدة عشرة أشهر ، وهو كالأسير في يد أخيه المعظم ، ولم يستطع الخروج من دمشق إلا بعد أن

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١١ ب – ١٢ أ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٤، ص ١٧٧ ، ١٧٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .

حلف للمعظم بمعاضدته ضد الكامل ، والمجاهد صاحب حمص ، والناصر قلج صاحب حماة(١).

وفور حصول المعظم على تعهد أخيه الأشرف بمساعدته، بعث برسالة إلى الناصر قلج، كانت تحمل أيضاً توقيع الأشرف، وتتضمن شرحاً لما تم الاتفاق عليه في دمشق، وقد رفض الناصر قلج ما جاء في الرسالة، وبدأ بتحصين بلده والاستعداد للقتال ، وكذلك فعل المجاهد صاحب حمص إذ وصلته رسالة مماثلة من المعظم والأشرف(٢).

أما الأشرف فقد عاد إلى بلاده في شرق الفرات بعد اتفاقه السابق مع المعظم في دمشق ، ولكنه ما أنْ وصل إلى بلاده حتى تنصّل من تعهده السابق مبرراً تراجعه هذا بأنه كان مجبراً على اليمين التي أقسمها لأخيه المعظم(٣).

وعندما علم المعظم بتراجع الأشرف عن ما تم الاتفاق عليه ندم على تمكينه من الخروج من دمشق ، وأوعز إلى القبائل العربية الموالية له بمهاجمة حماة وحمص فعاثوا في نواحيهما سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧م(٤).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤ أ ؛ تاريخ الجزري ، ورقة ٢٣٠ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٨٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣١٠ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٤٠ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

ويبدو أن أولئك الأعراب قد هاجموا حماة مرة ثانية في العام نفسه، لكنّ المجاهد صاحب حمص أوقع بهم واستعاد منهم ما كانوا قد غنموه من حماة(١).

أما الكامل فعندما تأكد من تحالف أخيه المعظم مع جلال الدين الخوارزمي اشتدّ به الخوف فعرض على الامبراطور فردريك الثاني(٢) التحالف معه لمواجهة المعظم وحلفائه ، وقد نتج عن هذا التحالف تسليم بيت المقدس للصليبيين سنة ٦٢٦هـ /١٢٢٩م(٣).

وعندما بدأت طلائع القوات الصليبية تتدفق على الشام أدرك المعظم خطورة موقفه، فأخذ يتلطف مع أخيه الأشرف ويعرض عليه التحالف ، عندها أدرك الناصر قلج والمجاهد صعوبة موقف المعظم، فبعثا إليه يطلبان منه التعويض عما أخذه من بلديهما والخسائر التي تسبب فيها عند مهاجمته لهما(٤).

وقد كان التحالف بين المعظم وجلال الدين الخوارزمي نافذاً استغله الأخير للتدخل في شؤون خلاّط التي تعلقت أطماعه بها ، ولم تنته بوفاة

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٤٦ .

(٢) فردرك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، من أبرز شخصيات العصور الوسطى ، تربى وتعلم بصقلية ، تولى العرش سنة ٦١١هـ /١٢١٤م وجمع بين عرش المانيا والصقليتين ، حيث كان والده ألمانياً . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٥ .

(٣) الأصفهاني البستان الجامع ، ورقة ١٠٤ ب ؛ ابن أبي الدم : التاريخ المظفري، لوحة ٥٥ ، ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٥ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ورقة ٢٥ ب – ٢٧ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ، لوحة ٢٧ – ٢٨ ، ٤٢ – ٤٣ ؛ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٥٦ أ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٤٨٠ ، وتعرف هذه الاتفاقية باتفاقية يافا ، ومن شروطها حصول الصليبيين على القدس وبيت لحم والناصرة على أنْ يبقى سور بيت المقدس خراباً، وجميع القرى التابعة له بأيدي المسلمين . والحرم الشريف وما حواه بأيدي المسلمين أيضاً . انظر : علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٥٩ –٢٧١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

حليفه المعظم سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م بل استمرت بعد ذلك لعدة سنوات، تعرضت خلالها خلاط لعدة هجمات كان آخرها الحصار الطويل الذي أسفر عن سقوطها بيد جلال الدين سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠م(١).

ولم يقف الأشرف مكتوف اليدين حيال احتلال خلاط وهي أهم أجزاء مملكته في شرق الفرات ، وسارع إلى التحالف مع سلطان سلاجقة الروم واتفقا على إعلان الحرب على جلال الدين الخوارزمي . فتقدم الأشرف بالجيش الأيوبي وكان من ضمنه فرقة من عسكر حماة ، واجتمع مع سلطان سلاجقة الروم الذي كان قد استعد بجيشه ، فتوجه الاثنان إلى نواحي خلاّط حيث اشتبكا في معركة رهيبة مع جلال الدين الخوارزمي ، وهزماه هزيمة منكرة سنة ٦٢٧هـ /١٢٣٠م(٢). وترتب على هزيمة جلال الدين في هذه المعركة نتيجتان خطيرتان : أولاهما إصابة الدولة الخوارزمية في المقتل .وقد

---

(١) أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦ م) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٨٧٥ عن نسخة مكتبة الطاهر بن عاشور الخاصة ، رقم ١١٣ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٢ أ ؛ النسوي (نور الدين محمد بن أحمد بن علي كان حياً قبل سنة ٦٣٩هـ) سيرة جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ حمدي ، القاهرة : ١٩٥٣م ، ص ٢٩٩ - ٣٢٨ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٩ - ٦٦٠ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٩٨ ؛ الهمذاني :(رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، ت ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م) جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيز خان ، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد ، بيروت ١٩٨٣ م ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٩٦ب ؛ أبو شامة : نزهة المقلتين ، ورقة ٤٤ أ - ب ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٢ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٤ أ - ب ؛ ابن أيبك : درر التيجان ، لوحة ٤١٠ ؛ تاريخ الجزري ورقة ٢٣٣ أ - ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢١٨ - ٢٢٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٦٠ - ٦٦١ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ ؛ الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢، ص ١٣٤ ؛ العبر ، ج ٣ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ؛ تاريخ الاسلام ، الطبقة الثالثة والستون ص٢٤=

استغل المغول هذه الهزيمة،فأخذوا في مطاردة جلال الدين الخوارزمي من مكان إلى آخر ، فخرج هائماً على وجهه حتى ظفر به أحد الأكراد وقتله سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م . وبمقتله أصبح الطريق مفتوحاً أمام المغول إلى العراق والشام وغيرها . فقد كان جلال الدين الخوارزمي ودولته سداً منيعاً بين المغول والعالم الاسلامي في مناطق العراق والجزيرة والشام ومصر ، وقد أدرك الأشرف خطورة هذا الوضع، فلام من جاء يهنئه بانتصاره على جلال الدين وتنبأبالاجتياح المغولي للعالم الاسلامي لأنه كان يدرك الدور المهم الذي يقوم به جلال الدين الخوارزمي في مواجهة المغول(١) ، وقد واجه جلال الدين الخوارزمي المغول طيلة ستة عشر عاماً،اشتبك معهم خلالها في أربع عشرة معركة لم ينهزم إلاّ في اثنتين منهما،والثالثة تلك التي قضت على دولته بُعيد هزيمته من الأشرف وسلاجقة الروم(٢).

والنتيجة الثانية المترتبة على انتصار الأشرف ومن معه على جلال الدين الخوارزمي انهيار الدولة الخوارزمية،وتمزق جيشها الكبير،وتحول عناصره إلى مرتزقة يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم الأموال من ملوك الأقاليم(٣)،وفي هذا الإطارجاؤوا إلى الشام وكانوا وقوداً لحروب كثيرة هناك . إلاّ أنّ من حسناتهم استعادتهم لبيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٦م(٤).

== ابن كثيـر : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٣٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٦٤ – ٦٥ ؛ وانظر أيضاً : حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي ، ص ٢١٤ .

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٣ أ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ١١٧، ١٧٤ ؛ النسوي : سيرة جلال الدين الخوارزمي ، ص ٣٣٤ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٦ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ١٣٤ ؛ تاريخ الاسلام ، الطبقة الثالثة والستون ، ص ٣٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٢ ؛ الهمذاني : جامع التواريخ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣١ ، وقال الأشرف لمن جاء يهنئه « تهنـؤني به وتفرحون سوف ترون غبه ، لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتارإلى بلاد الاسلام ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج » .

(٢) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٦٩١ ، وانظر أيضاً :حافظ حمد: الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٣٦-٣٣٧ .

سياسة الناصر قلج في حماة

لقد كان هدف زعماء حماة الذين نصّبوا الناصر قلج ملكاً عليها السيطرة على مقدرات البلد والتحكم في شؤونه ، وكان على رأس هؤلاء الوزير زين الدين بن فريج الذي استمر في مزاولة عمله كوزير في حماة خلال الشهور الأولى من فترة حكم الناصر قلج ، ولم يكن باستطاعة الناصر قلج استبداله بشخص آخر خلال هذه الفترة ، ولكن بعد أن توطد حكمه قام بعزله قبيل نهاية سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م ، واستبدله بالوزير شهاب الدين بن القطب(١).

ولم يكن ماضي شهاب الدين بن القطب يشفع له لتولي منصباً مهماً كهذا،فرغم معرفته بالأدب والفقه(٢) ، إلاّ أنه كان في يوم من الأيام معتقلاً في جامع قلعة حماة بسبب خيانته في عمل كان المنصور صاحب حماة قد أسنده إليه ، وبفضل هذا الاعتقال حصل التعارف بينه وبين الناصر قلج ، حيث كانا يجتمعان بجامع القلعة،وقد أنِسَ الناصر قلج لأحاديث شهاب الدين بن القطب الذي بشّره في أحد الأيام برؤيا رآها في منامه فيها إشارة إلى أنه سيخلف والده في حكم حماة وسيتخطى بذلك أخاه الأكبر وولي العهد المعين المظفر الثاني . وقد استبشر الناصر قلج بهذه الرؤيا ووعد شهاب الدين بن القطب بالوزارة إذا تحققت تلك الرؤيا ، ولمّا تحققت وفىّ بوعده وعينه وزيراً بحماة ، عندها نزع شهاب الدين بن القطب العمامة عن رأسه وتزيا بزي الجند(٣).

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٢) وُصف شهاب الدين بن القطب بالنباهة والتبحر في الفقه والخلاف والأدب . وسافر إلى العراق ودرس في بغداد مدة من الزمن ، ثم عاد إلى حماة وعين معيداً بالمدرسة المنصورية عند الشيخ سيف الدين الآمدي ، وكان أبوه أيضاً من العلماء والمتصدين للفتوى . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٧ – ٨٨ .

وكان الناصر قلج قد عيّن شهاب الدين بن القطب والياً على المعرة وأعطاه صلاحيات كبيرة حتى أنّه كان يتصرف فيها كما يتصرف الملوك في ممالكهم . لكن يبدو أنّ عمله بالوزارة تعارض مع ولايته على المعرة فتنازل عن الولاية وتفرغ للوزارة وأتابكية العسكر في حماة(١).

وأسند الناصر قلج منصب القضاء في حماة لعماد الدين بن القطب -أخي الوزير شهاب الدين - وقد استمر في هذا المنصب عدة سنوات(٢).

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد انحاز الناصر قلج إلى خاله الأشرف ، وأعلن تبعيته له ، كما خطب له على منابر حماة ، وقد استفاد كثيراً من هذه التبعية؛إذ كانت سبباً في استمرار حكمه بحماة لمدة وصلت إلى تسع سنوات . فقد كان الأشرف يقف معه في مواجهة كل الأخطار الخارجية كما سبق الإشارة إليه ولكن عندما عُدِمَتْ المصالح بين الجانبين لم يتردد الأشرف في التضحية بالناصر قلج ، ومساندة المظفر الثاني في محاولته لإستعادة حقه في الملك . كما سنرى في الصفحات القادمة(٣).

وكان للأخطار التي واجهتها الدولة الأيوبية إبان الحملة الصليبية الخامسة دورها في تعزيز حكم الناصر قلج في حماة ، وانشغال ملوك بني أيوب عما يجري بها .

في مصر كان السلطان الكامل بحاجة ماسة إلى تجنيد كافة القوى الأيوبية بل والاسلامية عامة لمواجهة الحملة الصليبية التي نجحت في الاستيلاء على دمياط ، وأخذت تتحفز للزحف على القاهرة ، وبعث يستدعي النجدات من كافة المناطق ، فوصلت كتبه إلى صاحب حماة الناصر قلج الذي

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) انظر ما يلي ، ص ١٧٧-١٨٧ - من هذا البحث .

لم يُخف شكوكه في نوايا السلطان الكامل ، وخشيته من انتزاع حماة منه وإعطائها للمظفر الثاني صاحب الحق الأول فيها ، والذي خسرها بسبب مرابطته معه أمام الصليبيين . لكنّ الأشرف التقى بالناصر قلج ووعده بعدم تمكين الكامل من أخذ حماة منه . وعلى هذا الأساس سار الناصر قلج بقواته مع الأشرف وغيره من ملوك بني أيوب وتوجهوا إلى دمياط . واستقبلهم الكامل بالترحاب ، وعلى الفور اجتمع الأشرف بالسلطان الكامل وتباحثا في موضوع مملكة حماة،وتم الاتفاق على عدم مضايقة الناصر قلج . وكان الكامل بحاجة إلى مساعدة الناصر قلج فأظهر رضاه عنه وأحسن استقباله كما فعل مع بقية الملوك الذين قدموا لنجدته.(١)

وبعد الانتصار على الحملة الصليبية الخامسة جاء زعماؤها لتوقيع وثيقة الصلح مع السلطان الكامل ، الذي أعدّ مجلساً موسعاً لهذه المناسبة حضره ملوك بني أيوب ومن بينهم الناصر قلج صاحب حماة . كما حضره قادة الجند وكبار الأمراء.(٢)

وإثر اندحار الحملة الصليبية ، عادت النجدات إلى أوطانها ، وعاد الناصر قلج بجيشه إلى حماة ، لكنه ما لبث أن خرج منها وتوجه إلى الرقة(٣)

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٢٦ أ ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج١ ، ورقة ٧٨ ب ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ أبو الفداء :المختصر ج ٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الثانية والستون، ص٢٧، وأهم ما تضمنه هذا الصلح جلاء الصليبيين عن دمياط وعودتهم إلى أوربا .

(٣) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة ، لأنها من جانب الفرات الشرقي ، ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٥٩ .

سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م،حيث اجتمع هناك بالأشرف الذي قَدِم لتوه من مصر(١)، ويبدو أن الناصر قلج أراد بذلك التأكيد على استمرار تحالفه مع الأشرف وشكره على موقفه المساند له أثناء وجودهما معاً عند الكامل بمصر.

وقد رأينا حرص الأشرف على الدفاع عن الناصر قلج عندما تعرضت مملكته لهجوم عنيف من المعظم صاحب دمشق . وقد تسببت هجمات المعظم تلك في إضعاف قوة الناصر قلج حتى غدا محصوراً في حماة ، ونتيجة لضعف قوة الناصر قلج طمعت قبيلة آل فضل العربية في خيرات حماة إذ شنوا عليها هجوماً قوياً سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧ م كاد أن يفني ما تبقى للناصر من قوة لولا التدخل المباشر من جيش حلب فعاد المهاجمون إلى مضاربهم وأيديهم ملآنة بالغنائم وآثار هجمتهم المدمرة باقية في حماة والمعرة والطرق التي قطعوها في المنطقة(٢).

وجاء تدخل الحلبيين لمصلحة الناصر قلج لأنه شريك لهم في الانتماء إلى الأشرف(٣). وكذلك كانت قبيلة آل فضل من المنتمين إلى الأشرف(٤). لكنّ ما أصاب حماة من ضعف هو الذي أغراهم بمهاجمتها دون أنْ يعيروا اشتراك صاحبها في الانتماء معهم إلى الأشرف أدنى اهتمام .

وفي داخل حماة نفسها وقع خلاف بين صاحبها الناصر قلج ووزيره شهاب الدين بن القطب سنة ٦٢٢هـ /١٢٢٥ م،أودع بسببه الوزير السجن

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٤-٩٥؛ أبو الفداء : المختصر ج ٣ ، ص ١٣٠ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١١ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩٧ ؛ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٧ .

وصـودرت أمـلاكـه ، ولبث في سـجنه حتـى دخل المظفـر الثـاني حـمـاة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م حيث أطلق سراحه وأعطاه إقطاعاً صغيراً دون أن يكون له أيّ منصب مـهـم فـي الدولـة(١) . ولـم يقـتـصـر غـضـب النصـر قلج على الوزير المذكور بل تعداه إلى أخيـه قاضي حـمـاة عمـاد الديـن بن القطب حيـث أُقـيل مـن منصبـه ، وقُبض عليـه ، وعـوقب كـمـا يعـاقب اللصـوص ، وتعرض لأصناف شتى من العذاب بسبب شائعات ترددت عنه في حمـاة ، واتهامه بارتكاب أفعال قبيحة ، ولكن القاضي المذكور استطاع الفرار من السجن ولجأ إلى صهيون(٢).

وقيل بل إنّ القاضي عماد الدين بن القطب استطاع الخروج من حماة قبل أن يتمكن الناصر قلج من القبض عليـه(٣)، وتبدو الرواية الأولى أكثر تفصيلاً وأقرب إلى الحقيقة .

وبهروب عماد الدين بن القطب أصبح منصب القضاء بحماة شاغراً ، فبادر الناصر قلج إلى ترشيح ابراهيم بن أبي الدم القاضي والمؤرخ المعروف لشغل هذا المنصب ، فتقلده(٤).

وبعد تطور الخلاف بين المعظم والناصر قلج إثر هجمات الأول على حماة، ودخول أطراف أيوبية وخارجية في خضم هذا الصراع حتى غدت المواجهة وشيكةً بين معسكرين قويين كان يخشى كل منهما أن يكون البادئ بها ، في وسط هذا الجو المشحون حدث خلاف بين الناصر قلج ، وصاحب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٢٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .

(٤) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٢٤ ، وأيضاً حاشية رقم ٥ من نفس الصفحة ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .

شيزر – وهو من أبناء الداية – نتج عنه حرب بين الجانبين استطاع الناصر قلج خلالها من التوغل في شيزر ونهبها وذلك سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م ولم يتراجع عنها إلا بعد تدخل الأشرف في القضية ، حيث أجبر الجانبين على توقيع صلح بينهما انسحب الناصر بموجبه من شيزر وعاد بجيشه إلى حماة(١).

وعندما تحالف السلطان الكامل مع الامبراطور فردرك الثاني سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م . ووعده بتسليم القدس ، بعث برسائل إلى ملوك بني أيوب يبرّر لهم سبب موقفه هذا ، وجاء رسوله إلى حماة وسلّم الرسالة لصاحبها الناصر قلج(٢).

وتميزت سياسة الناصر قلج الداخلية بظلم للرعية بلغ ذروته سنة ٦٢٥هـ /١٢٢٨م ، عندما طرح في سوق حماة أعداداً من الماشية وآلاف الأصواع من الغلال ،وأجبر بعض الناس على شرائها بأغلى الأثمان(٣). ويبدو أنه كان يحتكر سوق البلد. كما أمر الناصر قلج بإحراق حمام ودار كانت من أحسن الدور في حماة تعود ملكيتها لشخص يدعى زين الدين اسماعيل بن قرناص(٤) وهو من أكابر أهل حماة ، ولم يكتف الناصر قلج بذلك بل أمر بقطع أشجار بستانه وأشرف بنفسه على عملية القطع(٥) .

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٣٧ ، وحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٤٦ – ١٤٧، وحاشية رقم ٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٤) بيت ابن قرناص من أشهر البيوت بحماة وبرز زمنه بعض العلماء ، انظر مايلي الفصل السادس .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥ – ٦ ؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري، ص ١٨٥. وانظر أيضاً : ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٦٠٩-١٦١٠.

وعندما علم السلطان الكامل بما فعله الناصر قلج بزين الدين بن قرناص ، اشتد غضبه ، وبعث رسالة إلى الناصر قلج يطالبه فيها باعادة بناء دار ابن قرناص لتعود إلى سابق عهدها . كما تضمنت الرسالة أيضاً طلباً بإرسال خمسمائة فارس من عسكر حماة ليكونوا في خدمة الكامل الذي يستعد لمواجهة أي رد فعل قد يقوم به الامبراطور فردريك الثاني بعد تردد الكامل في الوفاء بوعده بتسليمه القدس . ويبدو أن الكامل أراد أن يختبر ولاء صاحب حماة له . لكنّ الناصر قلج رد على السلطان الكامل بجفاء، ورفض تنفيذ ما طلب منه ، وبعث إلى الأشرف يخبره برده على السلطان(١).

ويبدو أن الناصر قلج لم يذهب بعيداً في رفضه لطلبات السلطان السابقة ، إذ نجده يرسل فرقة من عسكر حماة لخدمة السلطان في مواجهة الصليبيين سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ، أسوة بمعظم ملوك بني أيوب(٢). ومن غير المستبعد أن يكون الناصر قلج قد فعل ذلك نتيجةً لضغط من الأشرف ، أو محاولةً منه للتخفيف من غضب السلطان عليه .

واستمر الناصر قلج في إبداء إخلاصه للأشرف وانحيازه إليه ، فعندما جاء الأشرف سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، لمساندة ابن أخيه الناصر داود بن المعظم صاحب دمشق ضد السلطان الكامل ، التقاه الناصر قلج خارج حماة، وقَدّم له مجموعة من الهدايا والتحف ، كما قام بواجبات الضيافة نحوه(٣).

وكان من الطبيعي أن ينحاز الناصر قلج إلى الأشرف في الدفاع عن

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ١٦٠.

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٣٢ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٧٥.

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ، لوحة ٩-١٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٦٢؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٦ .

دمشق وإبعاد خطر السلطان الكامل عنها . حيث خرج بقواته من حماة ودخل دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩ م ، في الوقت الذي كان فيه الأشرف يفاوض الكامل في غزة ، فيما كان الناصر داوود مقيماً بنابلس في انتظار ما ستسفر عنه محادثات غزة ، وعندما علم بما تمّ الاتفاق عليه قفل راجعاً إلى دمشق التي غادرها على الفور الناصر قلج متوجهاً إلى حماة؛ إذ علم أنه سيكون ضحية لاتفاق الكامل والأشرف، وأنّه سيكون هدفاً لهما بعد انتهائهما من أمر دمشق ، ولم يكن الناصر قلج راغباً في إظهار خوفه وهلعه لذلك تظاهر بالمرض ، فأمر قواته بالمسير إلى حماة ، وخرج معها محمولاً على محفّة، وما أنْ وصل إلى عاصمة ملكه حتى بدأ بالاستعداد للحصار وتحصين البلد.(١)

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .

المظفر الثاني
وانتزاع مملكة حماة من أخيه الناصر قلج

عندما جاء المظفر الثاني من مصر قاصداً حماة إثر سماعه نبأ وفاة والده المنصور سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ، ووجد أن أخاه الناصر قلج قد سيطر على مقاليد الحكم فيها عاد إلى دمشق ، ومن هناك حاول استمالة زعماء حماة ليمهد لعودته،لكنّ محاولاته ذهبت سدىً . ولم يكن هذا نهاية المطاف بل كان المظفر الثاني يحلم طوال السنوات التسع التي قضاها بعيداً عن حماة باليوم الذي يعود فيه إليها ويتربّع على عرشها(١). وكان يحدوه أمل كبير في تحقيق هذا الحلم لا سيما وأنّه ولي عهد أبيه ، والسلطان الكامل يساند مطالبه.

لكن السلطان الكامل كان مشغولاً بمواجهة الحملة الصليبية الخامسة، لذلك لم يقم بأي عمل لمساندة المظفر الثاني في استعادة حقه في الحكم إلا سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، حينما اجتمع بأخيه الأشرف وتباحث معه في قضية الحكم بحماة ، وعارض الأشرف بشدة انتزاع حماة من الناصر قلج لانتمائه إليه ، واستغرقت المباحثات وقتاً طويلاً ، وانتهت باتفاق بين الكامل والأشرف نصّ على إعطاء المظفر الثاني سلمية فقط ؛ فيما تبقى حماة وبارين والمعرة بيد الناصر قلج (٢) . وبحصوله على سلمية يكون المظفر الثاني قد خطا

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٩؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ؛ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ /١٣٦٢ م) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٠٥؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ز ، ص ٣٩٧؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

خطوته الأولى على طريق استعادة حقه في عرش حماة(١).

ولم يتوجه المظفر الثاني إلى سلمية بنفسه/بل بعث أحد المقربين إليه وهو حسام الدين بن أبي علي الهذباني(٢) ليكون نائباً عنه بها . فوصل إليها في سنة ٦٢٠ هـ /١٢٢٣م ، وعمرّ قلعتها وكانت قد هدمت في عهد المنصور ، كما أحسن إلى أهلها ورفع الظلم عنهم(٣) . ويبدو أن الناصر قلج ونوابه أساؤوا السيرة فيهم .

ولم يكن المظفر الثاني ليكتفي بسلمية لذ لك ما انفك يراقب تطورات الأمور في حماة ، ويبدو أنه عاد إلى دمشق إبّان الصراع الذي حدث بين المعظم والناصر قلج ، وكان راغباً في استغلال ذلك الصراع لمصلحته ، فبينما كان في دمشق سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ، إذا بشائعات تتردد حول وقوع حادث بحماة راح ضحيته ملكها الناصر قلج ، وجاءت إلى المظفر الثاني كتب من بعض أهالي حماة يدعونه فيها إلى القدوم عليهم لتولي السلطة ، وعندما علم المعظم بذلك لم يحاول استغلال هذه الفرصة لعدم توفر الظروف المناسبة ، ورأى أنّ من الأفضل تجهيز المظفر الثاني وتشجيعه للتوجه إلى حماة حتى إذا أصبح ملكاً عليها يكون مديناً له بما حققه من نجاح ، وربما انضم إلى التحالف الذي أقامه لمواجهة الكامل والأشرف ومن معهما ، وخرج

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٩٢ .

(٢) حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي بن باساك الهذباني ، كان أميراً كبير القدر ، كان الصالح أيوب يعتمد عليه في مهماته ويثق به ثقة عظيمة وجعله استاذ داره وأنابه عنه عدة مرات ، توفي في شعبان سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ٢ ، ص ٧٧ - ٨٤ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٧ - ٥٥٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ، لوحة ٦٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ١٢٩؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

المظفر الثاني من دمشق بمباركة ملكها المعظم وقصد حماة ، لكنه اكتشف وهو في الطريق إليها أن ما سمعه لم يكن إلاّ إشاعةً كاذبة ، والكتب التي وقعت في يده كانت مزورة،فاضطر للعودة إلى دمشق(١) .

ويبدو أنّ علاقة المظفر الثاني بالمعظم قد ساءت بعد هذه الحادثة، فغادر دمشق متوجهاً إلى مصر ، وانضم إلى التحالف الذي أقامه الكامل ضد المعظم وحلفائه ، مما حدا بالأخير إلى مهاجمة سلمية أثناء مهاجمته لحمص سنة ٦٢٣ هـ /١٢٢٦ .(٢)

أما الكامل فما فتيء يطالب الناصر قلج بالتنازل عن الحكم لأخيه المظفر الثاني،لكنّ الناصر قلج لم يعبأ بمطالب السلطان الكامل(٣).

وعندما جاء الكامل ليأخذ دمشق من الناصر داود بن المعظم سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م كان بصحبته المظفر الثاني ، حيث وعده الكامل باستخلاص حماة من الناصر قلج وتسليمها إليه.(٤)

ولما وصل الكامل إلى غزة جاءه أخوه الأشرف ، ليتفاوض معه ، وكان يتظاهر بمساندة الناصر داود ، لكنه عندما اجتمع بالكامل اتفق معه ضد الناصر داود ، وتم بين الاثنين اتفاق غزة المشهور الذي أعاد رسم خريطة الدولة الأيوبية ، فقد تقرر أخذ دمشق من الناصر داود وتسليمها إلى الأشرف ، أما حماة وبارين والمعرة فتُنتزع من

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٢٥ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٦٤ من هذا الفصل .

(٣) ابن أيبك : درر التيجان ، لوحة ٤١٠ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١٥٧ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٤ أ - ب ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٨، تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٦؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ١ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

الناصر قلج،وتُعطى للمظفر الثاني الذي يتنازل بدوره عن سلمية للمجاهد صاحب حمص(١).

وبعد أن تم الاستيلاء على دمشق أمر الكامل عساكره بالاستعداد للزحف على حماة ، ثم تحرك بقواته إلى سلمية وعسكر بها ، وأمر المظفر الثاني بالمسير ببعض الجيش إلى حماة للاستيلاء عليها ، وكان الناصر قلج قد استعد للحصار وشحن القلعة بالمقاتلين والمؤن(٢).

وتقدّم المظفر الثاني بالجيش إلى حماة،ونزل عليها يوم الأربعاء الثاني من رمضان سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م(٣) ، ونصب المجانيق جهة الباب الغربي، وأخذ يقصفها ، وجاء الناصر قلج يوماً ، وصعد إلى أسوار الباب الغربي ، فرأى كثرة العساكر المحدقة بالبلد ، والمجانيق المنصوبة عليه ، وأثناء وجوده هناك سقط حجر المنجنيق على رجل كان يقف قريباً منه،فطيّر قحف رأسه وظهر دماغه ، ويبدو أن الناصر قلج كان هو المستهدف بذلك الحجر ، وعندما رأى الناصر قلج ذلك المنظر دخل الروع في قلبه وكان جباناً بطبعه ، فعزم حينئذ على النزول إلى الكامل وتسليم نفسه ، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص يخبره سراً بما عزم عليه،ويطلب منه مرافقته لمقابلة الكامل بمعسكره في سلمية ، فاتفقا على اللقاء وقت السحر، حيث نزل الناصر قلج من قلعة حماة بمفرده،والتقى بالمجاهد،فسارا سوياً إلى الكامل الذي نهر الناصر قلج ،

---

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٠ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٤ ب – ٢٥ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ١٤ – ١٥ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٤٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٩ أ – ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٩ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٢ – ٥٥٣ .

وصاح في وجهه وأمر على الفور باعتقاله(١).

وكان نزول الناصر قلج إلى الكامل بدون اتفاق مسبق خطأً جسيماً ، فلو اعتصم بقلعة حماة وطالب بالتعويض عنها لأجيب إليه(٢). لكنّ هلعه وضعف رأيه ، وجهل مستشاريه الذين أشاروا عليه بالنزول إلى الكامل بدون اتفاق مسبق هي الأسباب التي دفعته للتفريط بملكه ، ووصل به الأمر إلى أنْ أصبح معتقلاً في قلعة الرّها بأمر السلطان الكامل.(٣)

وبعد نزول الناصر قلج من حماة بيومين،وصلت رسالة من الكامل إلى مماليك المنصور محمد بقلعة حماة،يخبرهم أنه قد رضي عن الناصر قلج،وسمح له باخراج أمواله ومماليكه من حماة(٤) .

وبأمر من الكامل بعث الناصر قلج علامة إلى نوّابه بقلعة حماة يدعوهم من خلالها إلى تسليم القلعة لنواب الكامل(٥) ، واعتقد مماليك المنصور محمد وأولاده المتحصنون بالقلعة،أنّ الكامل يريد الاستئثار بحماة وإنهاء حكم البيت التقوي بها(٦) ، فأعلنوا أنّهم لن يأبهوا باستسلام الناصر قلج ، ولن يسلّموا البلد لنواب الكامل ، ونصّبوا المعزّ بن المنصور – شقيق المظفر الثاني والناصر قلج – ملكاً على حماة . وهو لا يزال طفلاً صغيراً . ورفعوا شعاره

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ٢٩ ب -٣٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ،لوحة ٦٠ – ٦١ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٦ – ٤٨٧ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ١٨١– ١٨٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٩ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ،لوحة ٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ،ص ٢٦٦.

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٠-٦١ ؛ وانظر أيضاً : ابن نظيف: التاريخ المنصوري، ص ١٨٢ .

(٤) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٣ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦١ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٦٩.

(٦) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٣ .

في البلد . وأعلن كبار مماليك المنصور-وعلى رأسهم الطواشيان:شجاع الدين مرشد(١) وبشير الخادم المنصوريان-أنّهم لن يُمكّنوا أحداً من تسلّم زمام السلطة بحماة إلاّ إذا كان من سلالة المظفر تقي الدين عمر(٢)

وكان مبعوثان قد جاءا من قِبَل الكامل للتفاوض حول كيفية تسليم البلد، فدخلا حماة ، لكنّ زعماءها لم يمكّنوهما من الصعود إلى القلعة ، بل أنزلوا المعزّ بن المنصور ليقابلهما ، فقال لهما " هذه القلعة لي ولإخوتي يقوم بملكها أحدنا ، وأي واحد منا مات كان فينا من يقوم مقامه ، وليس بيننا وبين من يقصدنا إلا السيف"(٣) ثم صعد إلى القلعة وتركهما ، فصاحت عليهما العامة داخل حماة،ورجموهما بالحجارة،فعادا إلى الكامل وأخبراه بما حدث(٤). ويبدو أنّ زعماء حماة هم الذين لقّنوا المعز الكلمات التي قالها

---

(١) شجاع الدين مرشد بن عبدالله المظفري الخادم ، الأمير الكبير ، كان شجاعاً وله مواقف مشهودة في الحروب ، اعتقه سيده المظفر الثاني ، وكان ابن استاذه المنصور الثاني لا يخالف رأيه ويتصرف في دولته كيف يشاء ، وينوب عنه حين يتغيب عن حماة ، وكان السلطان الظاهر بيبرس يحبه ويعتمد عليه لكفايته وشجاعته ، وكان شجاع الدين يحب الفقراء ويتصدق عليهم ، توفي بحماة وهو في عشر السبعين سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م ، ودفن بتربته قرب المدرسة التي أنشأها بحماة . انظر : البرزالي (علم الدين القاسم بن محمد البرزالي ، ت ٧٣٩ هـ/١٣٤٠م) المقتفي لتاريخ أبي شامة ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ١٧٠٤ ، عن نسخة مكتبة أحمد الثالث بتركيا ، رقم ٢٩٥١ ، ج١ ، حوادث سنة ٦٦٩ ؛ اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد اليونيني ، ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان حيدر آباد ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١١ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣١ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ورقة: ٣٠ أ ؛ ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦١- ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٣- ١٤٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٢٩ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠.

(٤) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ٣٠ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣١ ب؛=

لمبعوثي الكامل ، ويتضح منها أنّهم يعتبرون الناصر قلج قد مات ، كما أنها تتضمّن تصميمهم على مقاومة عساكر الكامل .

وفهم الكامل أنّ الحمويين يظنون أنّه يريد الاستيلاء على حماة، ووضعها تحت حكمه المباشر وإنهاء حكم الأسرة التقوية ، فبعث إليهم برسالة يحثهم فيها على التفاوض مع المظفر الثاني وتسليم البلد له (١). وفي الوقت نفسه حثّ المظفر الثاني على الاتصال بمماليك والده والاتفاق معهم على تسليم السلطة له(٢).

ودارت مفاوضات بين المظفر الثاني ومماليك والده تم الاتفاق خلالها على تسلّمه حماة وأعمالها والمعرة ما عدا " جشر " والضياع المفردة ونفريتا وهي من عمل حماة ، وثلثمائة ألف دينار مصرية من الأموال المخزنة بقلعة حماة ، وكل ما للناصر قلج من مماليك ودواب وكتب وغيرها . وكُتب بذلك وثيقة(٣) .

وتقرر تحليف المظفر الثاني على ما تم الاتفاق عليه ، فجاء وفد من حماة لهذا الغرض وكان من أعضائه شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم - قاضي حماة والمؤرخ المعروف - وابن عم له . حيث اجتمعوا بالمظفر الثاني بجوسق(٤) كان الناصر قلج قد بناه على ضفاف العاصي إلى الشمال من

= تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٢٩ .

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٥ ؛ وانظر أيضاً ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٨٢ .

(٤) الجوسق : هو الحصن وما شابهه ، ويطلق أيضاً على القصر. وهو المقصود هنا انظر: ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب ، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، مادة جسق .

التربة التي تضم رفاة جدهما المظفر الأول تقي الدين عمر ، وكان ذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٢٦هـ/ اغسطس ١٢٢٩م ، فحلف لهم المظفر الثاني تحت ستارة(١) المنجنيق بحضور عدد من أمراء جيش الكامل(٢)، وقد اشترط الوفد الحموي على المظفر ألاّ يدخل معه إلى البلد إلاّ جماعته المقربون إليه،ولا يدخل معهم أحد من عسكر الكامل ، وأن يكون دخولهم ليلاً من باب النصر(٣).

وفي سحر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان دخل المظفر الثاني وأصحابه إلى حماة ثم أُغْلِقَ الباب ثانيةً ، ونزل المظفر الثاني بدار الأكرم(٤) بالجزء المعروف بالسوق الأعلى ، وفي صباح ذلك اليوم جلس مجلساً عاماً ، وقصده أهالي البلد مهنئين،كما نزل إليه إخوته ومماليك والده من القلعة ، وتوافدت عليه عساكر حماة ، وأظهروا السرور البالغ بمناسبة مقدمه وتوليه الحكم وكان يوماً مشهوداً ، وكان أهل حماة يحبونه لشهامته ووفور عقله ويقظته(٥) . وكانوا يخشون من استيلاء الكامل على البلد،فتبدد

---

(١) الستائر قطع من الجلـود واللبود المبلـولة بالخل والشب والنظرون ، لتحمي الجنود العاملين على المنجنيق من قذائف النفط وغيرها ، انظر الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨-١٩ ، عبدالله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون، ص ١٢٤ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٥ ؛ وانظر أيضاً : تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦١ – ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

(٤) دار الأكرم : تنسب إلى وزير المنصور المدعو خطير الدين الأكرم بن الدقماسي ، وكانت ذات مناظر مدهشة وهي معدة للضيافة وسكن الملوك وقد خربت الآن وصار موضعها بيوتاً لدبغ الجلود ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧١-٢٧٢؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٦٥ ، حاشية رقم (١) .

(٥) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٥ – ٥٥٦ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية. ورقم ٣٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ، لوحة ٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

خوفهم بدخول المظفر الثاني حماة ،وسيطرته على الوضع بها(١).

وحل عيد الفطر سنة ٦٢٦ هـ / أغسطس ١٢٢٩ م ، والمظفر الثاني بدار الأكرم ، واحتفل بالعيد احتفالاً مشهوداً،أفاض فيه من الخلع الشيء الكثير ، ومدّ سماطاً لعامة الناس، حضره ما لا يحصى عدده من الناس ، وفي ليلة الجمعة الثاني من شوال صعد المظفر الثاني إلى القلعة،وعقد مجلساً عاماً في اليوم التالي،ونادى بازالة المنكرات،واسقاط المكوس والضمانات،وخَلَعَ على القضاة والأمراء والنواب والحاشية والرؤساء،واستقر منذ ذلك اليوم في القلعة(٢).

وحسب اتفاق غزة سلّم نواب المظفر الثاني إلى نواب المجاهد بلدة سلمية ، وتوجّه إليها المجاهد ، وعيّد بها الفطر سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩هـم(٣).

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٢.

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ ، لوحة ٦٥؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٨٢ ، وهناك مصادر أشارت إلى استيلاء المظفر الثاني على حماة بشكل مقتضب منها : الأصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٩٦أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣١ أ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٧ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٥٦ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٢٧٢؛ وانظر أيضاً : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣٠ أ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٥٠٤ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٢١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ،ص١٤٤؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

وبعد فترة قصيرة رضي الكامل عن الناصر قلج،وأطلق سراحه ومنحه بارين ، وأمره بالتوجه إليها ، كما أذن له باستعادة أمواله التي كانت بقلعة حماة وتقدر بأربعمائة ألف درهم ، وبعث إلى المظفر الثاني يخبره بذلك(١) . وكان المظفر الثاني قد خرج بقواته إلى بارين وأقام محاصراً لها ، وعندما علم الناصر قلج بذلك أرسل إلى الكامل يشتكي له،فأنكر الكامل على المظفر الثاني هذا التصرف(٢) . وأمره بالتخلي عن بارين لأخيه الناصر قلج ، كما أمره بالافراج عن أمواله التي احتجزها بالقلعة ، فامتثل المظفر الثاني لأمر الكامل،وترك بارين للناصر قلج ، وأرسل جزءاً من ماله واحتجز الباقي ، ورفض الناصر قلج استلام ما أُرسِل إليه ، وطالب بالمال كله فما كان من المظفر الثاني إلا أن استعاد ما أرسله من مال،ولم يسمح بخروج شيء منه من القلعة(٣). ولما استقر الوضع في حماة للمظفر الثاني ، تحرك جيش الكامل متوجهاً إلى بعلبك(٤) .

وجدير بنا في نهاية معالجتنا لهذه الفقرة أن نتساءل هل كان لدى الكامل نيّة في الاستيلاء على حماة وإنهاء حكم البيت التقوي بها ؟ هناك من اتهم الكامل صراحة بذلك ، بل ذهبوا إلى أن الكامل كان مستعداً لإعطاء المظفر الثاني تعويضاً عن حماة في حالة نجاح قواته في دخولها(٥) . وهناك من بَرّأ ساحة الكامل من هذا الاتهام(٦) ، وهو الأقرب إلى الحقيقة.

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٨ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا ، ورقة ١١٤ أ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ، وانظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ١٨٩ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص٢٧٣.

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣١ ب ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري،ص ١٨٧.

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

(٦) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٤ .

فالكامل سلطان الدولة الأيوبية ،وفي خدمته جيوش ضخمة،وقد نوّه هو نفسه بهذه النقطة في رسالة بعث بها إلى أهل حماة عندما شعر أنهم يتوجسون خيفة من استيلاء قواته على بلدهم بعد القبض على الناصر قلج . وقال في رسالته لهم : " بأننا لم نرد هذه المدينة لأنفسنا،ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا ، فإنّ البلاد بلادنا والأولاد أولادنا ، ونحن نتصرف في ذلك كيف نشاء،وقد أطلقنا البلاد والأقاليم انعاماً " وفي نهاية رسالته أشاد الكامل باخلاص أهل حماة لأسرة المظفر تقي الدين عمر وحرصهم على بقاء المُلك فيهم ، وحثهم على الاتصال بالمظفر الثاني وتسليم البلد له ، وغادر الكامل سلمية متوجهاً إلى مناطق شرق الفرات في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٦٢٦هـ /١٢٢٩م(١) . أي قبل أن يتفاوض زعماء حماة مع المظفر الثاني بشأن تسليمها إليه .

---

(٦) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٤ .

سياسة المظفر الثاني في إدارة شؤون مملكته

كان المظفر الثاني يعتمد على وزيره حسام الدين بن أبي علي الهذباني في إدارة شؤون سلمية عندما أعطيت له سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣م، وعندما جاء المظفر الثاني مع الكامل لأخذ دمشق من الناصر داود كان برفقته وزيره حسام الدين ، فحدث بين الاثنين خلاف في منطقة غزة ، فعاد حسام الدين إلى مصر، واتصل بخدمة الصالح أيوب بن الكامل ، فاتخذ المظفر الثاني سيف الدين بن أبي علي الهذباني – ابن عم حسام الدين الآنف الذكر – وزيراً(١). وكان سيف الدين يقول للمظفر الثاني " أشتهي أن أراك صاحب حماة وأن أكون بعين واحدة " فقدر الله أن أصيبت عينه أثناء محاصرة حماة(٢). فلما استولى المظفر الثاني على السلطة في حماة ، قرّب سيف الدين ، وزوجة أخته(٣) وفوض إليه أمور الدولة كلها(٤). فقام بها أحسن قيام ، إذ نظّم أمورها ، ورتب أحوالها ، وقرّب إليه أهل الخير والصلاح ، واختار أعوانه ومستشاريه من المشهود لهم بالأمانة والكفاءة ، وشدد على المفسدين ونفاهم من البلد، وأجبر المتخاصمين على رفع قضاياهم إلى المحاكم وحضور جلساتها، وعدم التفريق بين الخصوم أمام القضاء ، والالتزام بتنفيذ ما يصدر عن القضاة من أحكام(٥).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٤ ب ، ٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٣٩.

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، وذكر أن المظفر أقطع سيف الدين سلمية. وهذا لا يصح إذ أن سلمية سُلّمت إلى المجاهد صاحب حمص .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص١٤٤، تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

(٥) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٧ .

أما السلطان الكامل فإنه لمّا وصل إلى مناطق شرق الفرات استدعى المظفر الثاني ، فلحق به ، فزوجه بابنته غازية خاتون ، وأعطاه التقليد على حماة ، فعاد المظفر الثاني إلى عاصمة ملكه مسروراً ، وقد تحققت أمانيه بحكم حماة وبالزواج من ابنة خاله الكامل(١).

واستمر المظفر الثاني في إصلاح الأوضاع الداخلية بحماة ؛ إذ أمر بترميم دار العدل وفَتْحِهَا ، وكان يجلس بها ويرد على شكاوي الناس ، وينصف المظلومين ، وشجع هذا على عودة النازحين عن حماة إليها(٢). وتدل إصلاحات المظفر الثاني السريعة بحماة على مدى التدهور الذي أصابها إبان فترة حكم الناصر قلج ، والذي أجبر بعض أهلها على النزوح عنها .

وعندما كان الكامل بحران جاءته أنباء محاصرة جلال الدين الخوارزمي لخلاط ، فاستدعى العساكر لينقذ خلاط ، فجاءته نجدة من حماة(٣).

وفي نهاية سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م هاجم الاسبتارية بارين ، وكانت بيد الناصر قلج ، واستولوا على ست قرى تابعة لها ، ونهبوها وسبوا أهلها، وظفروا بطائفة من التركمان الرعاة، وغنموا منهم مائتي بعير ومثلها من البقر، وأسروا آلافاً من الناس، وعندما بلغت أنباء تلك الغارة الكامل شق عليه

---

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٩ - ٥٦٣ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ورقة ٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٦٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ١٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ أبو الفداء :المختصر، ج ٣ ، ص ١٤٥ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٧٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٢٣٦.

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٦ .

ذلك(٤). ويبدو أن الصليبيين استضعفوا جانب الناصر قلج ، فقاموا بهجومهم هذا ، آملين في تحقيق هدفهم القديم وهو احتلال بارين وجعلها قاعدة متقدمة لهم يهددون من خلالها الممالك الأيوبية في حماة وحلب وحمص .

ولم يقم المظفر الثاني بأي عمل لرد الصليبيين عن بارين (١) . وكانت سلمية أيضاً خارجة عن نطاق حكمه إذ تسلمها المجاهد – صاحب حمص – حسب اتفاق غزة ، وشيّد بها في سنة ٦٢٧ هـ /١٢٣٠ م قلعةً على تل شُمَيْميِش(٢) بإذن من السلطان الكامل ، وجلب لها الحجارة من حصن كان المظفر الثاني قد أمر ببنائه عندما كانت سلمية له . ولما سمع المظفر الثاني بأنباء إقامة هذه القلعة، انزعج بشدة، واعتبر أنها تشكل تهديداً خطيراً لملكته ، فجمع حشداً من أتباعه ، وعزم على مهاجمة شميميش وهدم قلعتها ، لكنّه تراجع عن عزمه عندما علم أنّ هذا العمل تم بإذن السلطان الكامل . أما المجاهد فكان يخشى من هجوم المظفر الثاني وأصحابه ، فأمر بسرعة إنجاز القلعة، وتم بناؤها في أسبوع واحد ، وكان البناء يتم تحت حراسة المجاهد وغلمانه وحاشيته ، وعندما أُنجزت أطلق عليها المجاهد اسم " ماردين الشام " تشبيهاً لها بماردين التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة ، كما شحنها بالرجال والمؤن والعتاد(٣).

---

(١) يعزو سعيد عاشور سبب إحجام المظفر الثاني عن صدّ الهجوم الصليبي على بارين إلى عدم استعداده لذلك ، انظر الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٩ .

(٢) شميميش : وتسمى أيضاً شميميس قلعة على رأس جبل إلى الشمال الغربي من سلمية بينهما مسافة ميل واحد، وهي اليوم خراب، وآثاربنيانها باقية إلى الآن ، الصابوني: تاريخ حماة ، ص ٦٥ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) الاصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٩٩ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ١٤٠ – ١٤١ ، ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٦٤ أ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٥٠٤ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

ولم ييأس الصليبيون من محاولات الاستيلاء على حماة ، ولم يمنعهم فشل حملاتهم السابقة من تكرار محاولاتهم مرة بعد أخرى ، لأن نجاحهم في الاستيلاء على حماة يحقق لهم مكاسب عظيمة تتلاشى أمامها كل الصعاب والهزائم التي مُنوا بها في السابق ، لذلك خرجت جموع كثيرة من الاسبتارية من حصن الأكراد ، ومن صليبيي انطرطوس(١) وطائفةٌ من الداوية، وقصدوا حماة في رمضان سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠م ، فلم ينتظر المظفر الثاني وصولهم ، بل سارع إلى الخروج لملاقاتهم ، فالتقى بهم في " أفنون"(٢) واشتبك معهم في معركة عنيفة ، شنّ عليهم خلالها هجماتٍ متتالية . فلم يستطع الصليبيون الثبات وولوا منهزمين مخلفين وراءهم في أرض المعركة أعداداً كبيرة من القتلى من الفرسان والرجالة ، كما أسر المظفر الثاني جماعةً منهم واستعاد ما كانوا غنموه أثناء زحفهم من حصن الأكراد إلى حماة ، وعاد المظفر الثاني إلى حماة وأمامه الأسرى ، مزهواً بما حقق من انتصار ، ومدحه الشعراء ، وأثنوا على جهوده ، وشبهوا انتصاره هذا بما سبق أن حققه الكامل من انتصارات على الصليبيين(٣).

---

(١) انطرطوس : حصن على بحر الروم ، وهو ثغر لأهل حمص ، احتلها الصليبيون سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٤٦ ؛ فولفغانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٦١ .

(٢) أفنون : قد تكون قرية قفيلون الحالية القريبة من بارين ، وتبعد مسافة ٣٥ كيلومتر عن حماة ويصل بينهما طريق ترابي ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) تاريخ ابن اسباط الغربي ، ورقة ٥٣ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٠٢-٣٠٥؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ وذكر أن الذي صدهم عن حماة الصالح أيوب . والصحيح ما أثبتناه ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٦٢؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٩ .



وفي سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م خرج الكامل بجيشه من مصر عازماً على أخذ آمد(١) من صاحبها المسعود(٢) لشكاوي بلغته عنه ، واصطحب معه ابنته غازية خاتون زوجة المظفر الثاني ، ولمّا وصل إلى منطقة اللجون(٣) حضر لخدمته المظفر الثاني ، ويبدو أنّه انتقل معه إلى دمشق ، فيما زُينت حماة استعداداً لاستقبال غازية خاتون(٤) .

وسار الكامل إلى آمد بجيش جرار ، ضم جمعاً كبيراً من الملوك من بني أيوب وغيرهم ، ومن بينهم المظفر الثاني صاحب حماة ، ونزل الكامل بجيشه على آمد وحاصرها ، وبدأ الجنود بنقب الأسوار ، فلم يسع صاحبها المسعود إلا أن يطلب الأمان ، لكنّ الكامل رفض طلبه ، فلم يجد المسعود أمامه إلا أن يتوسط بالمظفر الثاني وصواب الخادم(٥) فأرسل إليهما سراً يناشدهما السعي له عند الكامل ، وبالفعل تدخلا له عند الكامل الذي قبل شفاعتهما، وأعطاهما منديله دليلاً على رضاه عن المسعود ، وعلامةً على منحه الأمان ، فأخذ المظفر الثاني وصواب الخادم المنديل، ودخلا إلى آمد ليلاً ، وفي صبيحة

---

(١) آمد : من أكبر المدن في ديار بكر على الشاطيء الغربي لدجلة . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٢) المسعود بن الصالح ناصر الدين محمود بن أرتق . صاحب حصن كيفا وآمد ورثها عن والده سنة ٦١٨ هـ/١٢٢٠ م ، وبعد اطلاق سراحه من سجن الكامل سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م ، توجه إلى المغول فقتلوه ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ١٠٧؛ أبوالفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

(٣) اللجون : قرية على نصف مرحلة من بيسان إلى الغرب منها . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٢٧ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٥ أ – ٤٦ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٢٠٣، ٢١٠ – ٢١١ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، تحقيق : حسنين ربيع ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ج ٥ ، ص ٢٩ .

(٥) الطواشي صواب العادلي مقدم الجيوش ، توفي سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م. الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢، ص ٣٧٧ – ٣٧٨ .

اليوم التالي ، خرج المسعود من آمد ، وفي رقبته منديل السلطان الكامل، وبصحبته المظفر الثاني وصواب الخادم ، فتلقاهم الكامل وأكرم المسعود وأنزله بخيمته ، وفُتِحت أبواب آمد ، ودخلها الكامل بجيشه ، وأسكن المظفر الثاني بقلعتها(١) مكافأة له على جهوده التي ساهمت في إنجاح الحملة الأيوبية على آمد.

وكان حصن كيفا تابعاً للمسعود صاحب آمد، ورفض نوابه تسليمه للكامل ، وبعد استسلام المسعود، توجهت فرقة من الجيش الأيوبي بقيادة الأشرف ومعه المظفر الثاني صاحب حماة إلى حصن كيفا ، وحاصرته لفترة قصيرة ، وتمكنت من الاستيلاء عليه في أوائل سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م(٢).

وبعد انتهاء الحملة الأيوبية على آمد ، عاد المظفر الثاني إلى حماة ، ثم خرج منها بعسكره لمساعدة العزيز بن الظاهر – صاحب حلب – على انتزاع شيزر من شهاب الدين بن الداية(٣) وعندما تكلل هذا العمل بالنجاح

---

(١) الأصفهاني: البستان الجامع ، ورقة ٢٠٠ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٥ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٠٧ – ٢٠٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٤٠ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٦؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٢ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الثالثة والستون ص ٣٩ ؛ الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين ، ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩م) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

والجدير بالذكر هنا أن الكامل أخذ المسعود صاحب آمد معه إلى القاهرة ، ثم غضب عليه وسجنه ومكث في السجن حتى وفاة الكامل سنة ٦٣٥ هـ /١٢٣٧م ، حيث أُطلق سراحه، فغادر مصر متوجهاً إلى الشرق، ومرّ في طريقه على حماة ، حيث استضافه صاحبها المظفر الثاني . انظر : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٦ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٣) شهاب الدين يوسف بن مسعود بن عثمان بن الداية ، ورث اقطاع شيزر عن والده وكانت اقطاعاً لجده سابق الدين عثمان منذ أيام نور الدين زنكي وأقره عليها السلطان صلاح الدين . أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص ١٥٣ .

أحسن العزيز إلى المظفر الثاني وعاد كل منهما إلى عاصمة ملكه(١).

وكان المظفر الثاني قلقاً على مستقبل بارين ، فالناصر قلج عاجز عن حمايتها من الصليبيين خاصة فرسان الاسبتارية المتمركزين بحصن الأكراد، وقد بلغ الضعف بالناصر قلج أنّه كان يدفع لهم إتاوة سنوية ليمتنعوا عن مهاجمة بارين، وكانت بعض قراها مناصفة بين المسلمين والصليبيين ، وبسب أهمية موقعها بالنسبة لحماة ، وكونها خط الدفاع الأول عنها في مواجهة الاسبتارية في حصن الأكراد ، رأى المظفر الثاني أن تركها بيد أخيه الناصر قلج - العاجز عن حمايتها - يشكل تهديداً مباشراً لحماة ، لذلك طلب الإذن من السلطان الكامل أنْ يضمها إلى مملكته ، فأجابه الكامل إلى ذلك ، ويبدو أنّ الكامل كان يُقدِّر الأخطار المترتبة على بقاء بارين بيد الناصر قلج ، وكان المظفر الثاني يرغب في إضفاء صبغة شرعية على عملية ضمه لبارين ، فسعى للحصول على موافقة سلطان الدولة الأيوبية ، وما أنْ حصل المظفر الثاني على إذن السلطان الكامل حتى سار بعساكره إلى بارين وحاصرها ، وكان زعماؤها قد نفروا من أخيه الناصر قلج لبخله ، وسوء سيرته ، فاتصلوا به وشجعوه على الاستيلاء عليها، فأقام محاصراً لها مدة تسعة أيام ، ولما أدرك الناصر قلج عجزه عن المقاومة أعلن استسلامه ، واجتمع بأخيه المظفر الثاني، الذي عرض عليه الإقامة معه في حماة، لكنّ الناصر قلج رفض ذلك ، وخرج بأهله إلى دمشق ، فلم يمكنه صاحبها الأشرف من الإقامة فيها ، فرحل عنها وتوجه إلى السلطان الكامل بمصر(٢) .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٨ أ - ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٦٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٨ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، =

وفي مصر استقبل السلطان الكامل الناصر قلج بالترحاب، وأعطاه إقطاعاً ، وأطلق له أملاك والده بمصر والغور ودمشق ، لكنّ الناصر قلج لم يرض بما أعطاه الكامل ، ورد على رسول الكامل – الذي جاء ليخبره بما قرر السلطان منحه من إقطاع – بكل فظاظة ، وأعلن أنّه يريد استعادة ملكه في حماة وزيادةً عليه ، ولّما علم الكامل بذلك ، أدرك أن الناصر قلج قد اختل، فأمر باعتقاله بقلعة الجبل ، ومكث في الاعتقال حتى توفي سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧م قبل وفاة السلطان الكامل بأيام . وبعث الكامل يعزي أخاه المظفر الثاني بوفاته(١).

ولم يكن الصليبيون بمنأى عما يحدث في بارين ، إذ كانوا يراقبون تلك التّغييرات عن كثب ، وعندما سيطر المظفر الثاني على بارين ، بعثوا إليه يطلبون منه الاستمرار في دفع الإتاوة التي كان يدفعها لهم صاحب بارين السابق الناصر قلج ، فأجابهم المظفر الثاني بالرفض ، وامتنع عن دفع أي مبلغ لهم ، فما كان من الاسبتارية إلاّ أنْ استعانوا بالداوية وبغيرهم من الصليبيين في أنطاكية ، وطرابلس، وبقايا مملكة بيت المقدس ، ومملكة قبرص .

= لوحة ٢٢٠ – ٢٢١ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي ، ورقة ٥٤ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٦٧ – ٦٨ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٣ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الرابعة والستون ، ص ٢٣٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧ .
ويشير ابن خلدون إلى أنّ الناصر قلج هم بتسليم بارين للصليبيين . انظر تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٦٥ .

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٤٨ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٣٣، ابن قاضي شهبة : الإعلام بتاريخ الإسلام ، ج ٥ ، ورقة ٨٣ أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٦٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣، ص ١٥٣ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الرابعة والستون ، ص ٢٣٤ ؛ المقريزي: السلوك، ج١ ، ق ١ ، ص ٢٤٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٩٧. وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١١١ .

فاحتشد الصليبيون جنوب حصن الأكراد ، مكونين ما نستطيع أنْ نطلق عليه حملةً صليبية جديدة ؛إذ زحفوا من منطقة حصن الأكراد باتجاه بارين ، فهاجموها في إحدى ليالي شهر جمادى الأولى سنة ٦٣٠ هـ / الموافق لشهر مارس سنة ١٢٣٣م، واستطاعوا دخول البلد ، لكنّ القلعة استعصت عليهم ؛إذ تحصن بها معظم أهل البلد؛ وشنّ الصليبيون الغارات على المناطق المجاورة لبارين ، ومكثوا في منطقة بارين أسبوعاً كاملاً ثم انسحبوا إلى حصن الأكراد، بعد أن ملأوا أيديهم بالغنائم ، ولم يجد الصليبيون في حملتهم هذه مقاومة تذكر ، وقد جاء انسحابهم نتيجةً للظروف السيئة التي كانت تمر بها القوى الصليبية في الشرق ، إضافة إلى خشيتهم من الاصطدام بالجيش الأيوبي الضخم الذي بدأ يتحرك نحو الشمال ولم يكن لديهم علم بأن ذلك الجيش كان يقصد معاقبة سلاجقة الروم ، لتجرئهم على الاستيلاء على خلاّط . ولمّا كان الكامل يرغب في التفرغ لمحاربة سلاجقة الروم ؛ قام باقناع المظفر الثاني بعقد صلح مع الاسبتارية وبدفع إتاوة مالية لهم(١). وقدّرت تلك الإتاوة بنصف ما كان يدفعه الناصر قلج للصليبيين عندما كان حاكماً لبارين(٢).

ويُظهر الهجوم الصليبي الضخم على بارين أهمية تلك المنطقة في هذه الفترة من فترات الحروب الصليبية ، فقد كان كلا الطرفين الإسلامي والصليبي يحرص على السيطرة عليها .

وإثر الهجوم الصليبي أدرك المظفر الثاني أنّ بارين ستكون هدفاً دائماً للاسبتارية ، فسعى إلى تحصينها إذ رمم قلعتها ، ووسع خندقها، وامتدت تحصيناته إلى حماة نفسها ؛ فأمر بسد أبواب المباني المطلة على نهر

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٩ - ٨١٠ ؛ على محمود : الغزو الصليبي والعالم الاسلامي ، المملكة العربية السعودية ، دار عكاظ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ١١٨.

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٥٢ .

العاصي، وبنى سوراً بينها وبين النهر ، وأغلق باب الجسر الشمالي ، وحوّل باباً يعرف بباب الثقفي من مكانه ، واضطر في خضم مشروع التحصين هذا إلى تخريب مدرسة للحنفية كانت بالجزء المعروف بالسوق الأعلى ، وكذلك مسجد بني نظيف وكان مقاماً على ضفاف العاصي ، وكان من أروع المباني في مدينة حماة ، وأحدث برجاً في الفحيم بوادي البرية بين حماة وحلب وسلمية . وبالغ في تحصين مملكته ، ويقال إنّ قلعة المعرة بنيت في هذه الفترة (١) . وهناك من يذكر أن هذه القلعة بنيت سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٣م بمشورة الوزير سيف الدين بن أبي علي، وتمّ بناؤها في غضون شهرين فقط ، وساعد على سرعة إنجازها توفر الحجارة المنحوتة المهيأة للبناء بظاهر المعرة ، كما جُلبت لها الحجارة من أنقاض مدينة قريبة منها تعرف "بسيات " ومن بقايا أبنية رومانية وكنائس مهدّمة . وغدت قلعةً حصينةً حسنة ، تضمّ جامعاً وعدة أبراج وُزعت على الأمراء ، وهنّأ الشعراء المظفر الثاني بعد انتهاء العمل فيها .(٢)

وكان تقاعس الأيوبيين عن نصرة المظفر الثاني ضد الهجوم الصليبي الأخير على بارين عائداً لانشغالهم بقضية خلاط ،التي استولى عليها علاءالدين كيقباذ(٣)بن كيخسرو سلطان سلاجقة الروم ، فاستنفر السلطان

---

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٢٥٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٥٦ أ - ب ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٢٧ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، وذكر أن العمل في بنائها بدأ سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م وانتهى في السنة التالية ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٥ .

(٣) علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم ، كان شجاعاً مهيباً ، استمر حكمه مدة تسع عشرة سنة ، توفي سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م . أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٦٥ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٦٨ .

الكامل الجيوش الأيوبية لانقاذ خلاط ، فتوافد عليه الملوك بجيوشهم ، وكان من بينهم المظفر الثاني صاحب حماة ، وتقدّم الكامل بجيشه الضخم صوب آسيا الصغرى ، وكان السلاجقة قد استعدوا لملاقاته ، وأقفلوا كل الطرق التي تصل بلاد الشام بآسيا الصغرى ، وشحنوا المعابر بالجنود والسلاح ، وفيما كان الكامل يبحث عن طريق يدخل منه إلى بلاد الروم جاءه صاحب خرتبرت(١)، وأشار عليه بالدخول من ناحية خرتبرت . فسمع الكامل مشورته ، وعبر الفرات متجهاً إلى الشرق ، وعسكر بالسويداء(٢) ، وأمر فرقة من ميمنة جيشه بالمسير إلى خرتبرت لتكون مقدمة للجيش ، وأسند قيادتها للمظفر الثاني صاحب حماة وبمعاضدة نائبه في الشرق صواب الخادم ، وسار المظفر الثاني بتلك الفرقة التي قدر عددها بألفين وخمسمائة فارس ، ووصلوا إلى خرتبرت ليلاً ، فلمّا طلع الفجر أقبلت عساكر السلاجقة في اثني عشر ألف مقاتل ، واشتبكوا مع العساكر الأيوبية في معركة قوية استمرت حتى آخر النهار ، رجحت في نهايتها كفة السلاجقة ، فانهزم المظفر الثاني ولجأ إلى قلعة خرتبرت ومعه صواب الخادم وبعض الجنود ، بينما تحصن معظم من كان معه في ربض البلد. فاقتحم جيش السلاجقة الربض عنوة، وأسروا أكثر من فيه، وجاء علاء الدين كيقباذ بنفسه وأمر بمحاصرة القلعة ، واستمر الحصار

---

(١) تقع خرتبرت في أقصى شمال ديار بكر أسس فيها عماد الدين بن قرا أرسلان إمارة ارتقيه سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م ، واستمرت اسرته تتعاقب على حكمها حتى سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م . عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) السويداء : بلدة مشهورة في ديار مضر، بين حران وبلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

أربعة وعشرين يوماً ، عانى خلالها المحاصرون الشيء الكثير لقلة المؤن وشُحّ الماء والازدحام الشديد ، إذ قُدّر عدد من كانوا داخل القلعة باثني عشر ألف نفس ، اضطر المظفر الثاني لإخراج نصفهم لتوفير ما يكفي من الغذاء ، لكنّ مدة الحصار طالت، والمؤن في طريقها للنفاد ، دون أن تلوح في الأفق بارقة أمل في نجدة من الكامل وجيوشه ، فما كان من المظفر الثاني إلاّ أنْ طلب الأمان له ولمن معه مقابل تسليم القلعة ، فأجابه علاء الدين كيقباذ إلى ذلك ، وعند نزول المظفر الثاني من القلعة استقبله علاء الدين كيقباذ واستضافه في معسكره ، وبالغ في إكرامـــــــه ، وقدّم له تُحَفاً وهدايا ، وسمح له بالمسير إلى حيث يقيم الكامل ، وبعث معه فرقةً من عسكره لتحرسه هو وأصحابه خوفاً عليهم من الخوارزمية وغيرهم ، ولما أقبلوا على معسكر الكامل ، بعث إليهم من يستقبلهم ، وعند اقترابهم منه، خرج بنفسه للقائهم، وكان في غاية الفرح لسلامة المظفر الثاني وأصحابه ، وأنعم عليهم ، وعوضهم عما أخذ منهم، فعادوا أحسن مما كانوا.(١)

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٠ ب – ٢٠١ أ ؛ ابن أيبك : درر التيجان ، لوحة ٤٢٩ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٥٤ ب – ٥٥ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٣ ب – ٢٣٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٦٠ – ٢٦٥ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٤ أ – ب ؛ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام،ج٥، ورقة ٧٠ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٧٨ – ٨٢ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٩ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢١٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣٠ – ١٣١؛ ابن الجزري (محمد بن ابراهيم بن أبي بكر ، ت٧٣٩هـ/١٣٦٢م) المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى " حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان عن أبنائه " اختيار شمس الدين الذهبي ، تحقيق خضير عباس المنشداوي. الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ١٤٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ص ١٣٦؛أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٤ – ١٥٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٧٠ .

ويرجع السبب في عدم قيام الكامل بمحاولة لانقاذ المظفر الثاني ومن كان محاصراً معه في قلعة خرتبرت ، إلى الخلاف الذي كان قد بدأ يُطِل برأسه بين الكامل من جهة ومعظم ملوك بني أيوب المرافقين له في هذه الحملة من جهة ثانية ، بسبب اتهامهم له بأنه يخطط لأخذ المناطق التي يحكمونها في بلاد الشام ويضمها إلى مصر لتكون دولةً خاصة به ، ويعوضهم بالمناطق التي يستولي عليها من سلاجقة الروم ، لذلك تقاعسوا عن خدمته ، وتبيّن له عدم جدّيتهم واخلاصهم له(١).

والملفت للنظر في هذه القضية حسن الاستقبال الذي أبداه علاء الدين كيقباذ للمظفر الثاني والقادة الذين كانوا بصحبته ، وربما قصد علاء الدين من ذلك الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الممالك الأيوبية الصغيرة في بلاد الشام ، حتى لا تقف مع الكامل في المستقبل وتؤيده إذا ما كرر محاولته لمحاربة السلاجقة(٢).

وبعد انتهاء الحملة الأيوبية على آسيا الصغرى ، عاد المظفر الثاني إلى حماة ، فدخلها في ربيع الأول سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، وبعد وصوله بوقت قصير، وُلد ابنه المنصور محمد الثاني، فهنّأه الشعراء بسلامة العودة وبمقدم المولود الجديد(٣).

وكان للحملة الأيوبية الفاشلة ضد سلاجقة الروم آثارٌ عكسية ، إذ استفحل أمر السلاجقة واستولوا على حران والرها ، مما أغضب الكامل

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ٥٥ أ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٧٧ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٦٤ .

(٢) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٣٣٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٢٨٦ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ٤٤٠ .

وجعله يخرج بجيشه من مصر ، وعندما وصل الشام انضم إليه عددٌ من أهل بيته ، ومن ضمنهم المظفر الثاني صاحب حماة ، ونجح الأيوبيون في استعادة حران والرها وقلاع أخرى كان السلاجقة قد استولوا عليها ، ثم عادت الجيوش الأيوبية إلى بلدانها(١)، وقد أخلص ملوك بني أيوب مع سلطانهم الكامل في هذه الحملة ، لأن هدفها كان استعادة مناطق محددة سُلبت من الدولة الأيوبية ، ولم يكن قصدها التوسع أو إضافة أملاك جديدة .

وعند عودة المظفر الثاني إلى حماة بعد اشتراكه في الحملة الأيوبية الثانية ضد سلاجقة الروم ، بلغته أنباءٌ عن تحركات مريبة يقوم بها الصليبيون، . فتوجه إلى بارين بقواته ورابط بها ، واستهلت سنة ٦٣٤ هـ /١٢٣٧م وهو مرابط هناك(٢) .

وكان المظفر الثاني مدركاً لخطورة التحركات المغولية منذ البداية ، مما دفعه إلى إرسال فرقة من جيش حماة لترابط مع الصالح أيوب ابن الكامل في مدينة سنجار ، تحسُّباً لهجمات مغولية متوقعة وذلك سنة ٦٣٠ هـ /١٢٣٣م(٣).

ولم تقتصر علاقات المظفر الثاني على الأطراف التي أشرنا إليها ضمن هذه الفقرة ، بل تجاوزتها إلى أطراف أخرى ، ففي سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م بعث رسالة للخليفة العباسي المستعصم(٤) يعزّيه في والده، ويهنئه بالخلافة، وقام

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٣٢٨ - ٣٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٠٩- ١١٠ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٣٣١ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٥٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص١١٤.

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٢٢٧ .

(٤) المستعصم بالله أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله آخر خلفاء بني العباس في العراق ولد سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢م ، بويع بالخلافة سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، واستشهد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٣٢٣ - ٣٢٨ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٧ - ٤٢٩ .

بنقل الرسالة القاضي شهاب الدين بن أبي الدم ، وبصحبته القاضي والمؤرخ جمال الدين بن واصل ، وحمّلهم المظفر رسائل إلى الملك السعيد نجم الدين ايلغازي(١) بن أرتق – صاحب ماردين – وإلى الناصر ابن العزيز – صاحب حلب – وإلى بدر الدين لؤلؤ(٢) – صاحب الموصل(٣) ، ويبدو أن الرسائل الثلاث الأخيرة تتعلق بالحرب الأهلية الأيوبية التي كانت تدور رحاها إذ ذاك .

وبعث المظفر الثاني برسالة أخرى للخليفة العباسي سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤م ومعها بعض الهدايا(٤).

وصفوة القول أن المظفر الثاني كان حريصاً على مداراة الأوضاع خشية على مملكة حماة لذلك نراه قد اشترك في عدة حروب خارجية كما سبق الإشارة إليه .

---

(١) الملك السعيد نجم الدين ايلغازي بن المنصور أرتق أرسلان بن ايلغازي الأرتقي صاحب ماردين ، تولى حكمها سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨م وتوفي سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٨م بسبب وباء أصاب أهل بلده . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) بدر الدين لؤلؤ الأرمني الأتابكي ، المنعوت بالملك الرحيم ، كان مملوكاً لنور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وتولى تدبير دولته واستمر في منصبه في عهد القاهر بن نور الدين ، وعندما توفي القاهر سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م نصّب بدر الدين ابني القاهر وكانا صغيرين فما لبث أن خلعهما واستقل بالسلطة . توفي سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧م ؛ الذهبي : *العبر* ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٥ ب .

موقف المظفر الثاني
من الحرب الأهلية بين الأيوبيين

شهدت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين حربين أهليتين طاحنتين ، الأولى كانت بين أبناء صلاح الدين ، والثانية كانت بين أبناء أخيه العادل، ولم تقتصر كل منهما على طرفين فقط بل أدلى كل ملوك بني أيوب الذين عاصروهما بدلائهم فيها .

وهذه الحرب الثانية التي نحن بصدد الحديث عنها(١) بدأت ملامحها بالظهور منذ سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م خلال الحملة الأيوبية الأولى ضد سلاجقة الروم ، ولم تكتمل صورتها إلا بعد أربع سنوات من هذا التاريخ ، ففي سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦م تفجر الصراع بشدة بين الكامل من جهة ، والأشرف والمجاهد – صاحب حمص – والحلبيين من جهة أخرى ، وبادر الأشرف إلى تكوين حلف مضاد للكامل ضم بالإضافة إلى من ذكرناهم السلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، وكان الأشرف وحلفاؤه يعلمون مدى إخلاص المظفر الثاني – صاحب حماة – وولائه للكامل ، لكنهم اتفقوا على استمالته إلى جانبهم بكل الوسائل ، إذ إنّ خروجه عن تحالفهم يجعل ذلك التحالف قليل الجدوى ، فاتفق الأشرف والمجاهد والحلبيون على الاتصال به وترغيبه في الانضمام إلى صفهم ، وتهديده بالحرب إذا رفض ذلك ، وقام المجاهد – نيابة عنهم – بعرض مقترحاتهم على المظفر الثاني ، الذي أبدى تردده في أول الأمر ، ولكن إزاء إلحاح المجاهد ، وخوفاً على مملكته من الضياع تظاهر

---

(١) عن أسباب هذه الحرب ومجرياتها انظر : علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص ١١٧ – ١٧٣

بالموافقة على الانضمام إلى تحالفهم ، وكان في قرارة نفسه يضمر الولاء للكامل ، ولم يكتف المجاهد بما أبداه المظفر الثاني من موافقة علنية للوقوف إلى جانبهم ، بل ألزمه بالمسير معه إلى دمشق لملاقاة الأشرف، وتأدية القسم بين يديه على أنه معهم ضد الكامل ، وبعد أنْ نفذ المظفر الثاني ذلك عاد إلى حماة(١).

وكاد التحالف الذي تزعمه الأشرف أن يُصاب بنكسة خطيرة بوفاة علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م ، وقام بالملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو(٢) فبعث إليه ملوك الشام رُسلاً للتعزية وتجديد التحالف ليضمنوا استمراره في تحالفهم ، وكان رسول المظفر الثاني إليه الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري المعروف بشيخ الشيوخ في حماة(٣).

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٢ ب – ٢٠٣ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ورقة ٢٣٤ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٦٣ أ – ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٣٦١ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٥ أ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٠٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٢٣– ١٢٤ ؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين ، ص ٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢٧؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣١٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ؛ ابن كثير :البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣١٦ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢١٦ .

(٢) غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو ، دخل في طاعة المغول سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م ، وتوفي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٢ .

(٣) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٣ أ – ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٥ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٦٣ ب – ٦٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٣٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٢٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ق ١ ، ص ٢٥٤ .

ثــم بعــث الأشــرف وحلفــاؤه برســالة إلــى الكامل يخــبــرونه أنهم أصبحـوا يداً واحدةً ضده ، ويهددونه بالحرب إذا هو عزم على الخروج من مصر لقتالهم(١).

وكما سبق أن ذكرنا كان المظفر الثاني مُجبراً على الانضمام إلى الأشرف وحلفائه ومن موقعه هذا أخذ يوافي الكامل بأخبار الأشرف ومن معه " ساعة بساعة "(٢) ، وكان يتحين الفرص للخروج من الحلف المضاد للكامل، فوافته الفرصة التي كان ينتظرها سنة ٦٣٥ هـ /١٢٣٨م إذ توفي الأشرف وهو زعيم الحلف وكبيره ، والقوة التي كان المظفر الثاني يخشى سطوتها ، وكان الأشرف قد أخذ يمين المظفر الثاني وباقي حلفائه لأخيه وولي عهده الصالح اسماعيل(٣) بن العادل ، وذلك عندما اشتد مرضه ودنت منيته(٤).

وعندما لاحت الفرصة المناسبة كان المظفر الثاني بحاجة إلى ذريعة تجعل انسحابه من الحلف المعادي للكامل أمراً منطقياً ، فلم يجد أمامه إلاّ المطالبة بسلمية التي سبق أن أخذت منه وأعطيت للمجاهد في اتفاق غزة المشهور ، فبعث إلى المجاهد يطلب منه التنازل له عن سلمية وشميميش ، وجَعَلَ هذا شرطاً لاستمراره حليفاً له ، وكان على ثقة من أنه لن يجيبه إلى

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٤ ب –٢٣٥ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٣٧٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٦٢ أ – ب .

(٣) الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل ، انضم إلى الناصر بن العزيز صاحب حلب بعد طرده من دمشق سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م . واشترك معه في محاولته للقضاء على الدولة المملوكية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م حيث أسره المماليك وأعدموه . الذهبي :العبر، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٤) الأصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٥أ.

طلبه، ولم ينتظر رداً من المجاهد، بل بعث رسولاً من قبله هو الشيخ أبو سالم بن القاضي كمال الدين مظفر بن الثقفي – وهو من أعيان فقهاء حماة وأكابرها – إلى الكامل في مصر، ليخبره بأنّه لا زال موالياً له ، ولم يكن انضمامه إلى الأشرف إلاّ اتقاءً لشرّه ، وأكرم الكامل رسول المظفر الثاني غاية الإكرام ، وقبل اعتذاره ، ووعده بانتزاع سلمية من المجاهد وتسليمها إليه، وأقسم له على ذلك(١).

أما في الجانب الآخر فقد خشي الحلبيون من تفكك عُرى التحالف الذي أقامه الأشرف ، مما يجعلهم فريسة سهلة للكامل ، فحاولوا التوسط بين المظفر الثاني وبين المجاهد ، وبعثوا لذلك وفداً برئاسة ابن العديم – القاضي والمؤرخ المعروف – وظل الوفد يتنقل بين حماة وحمص محاولاً رأب الصدع بين الجانبين ، لكن الطرفين أصرا على مواقفهما ورفضا تقديم أي تنازل ، فالمظفر الثاني يريد استعادة سلمية والمجاهد يرفض ، ويحتج بأنّ المظفر الثاني سبق أنْ حلف له على ما بيده من مناطق ، ومن ضمنها سلمية وشميميش ، وعندما لَفَتَ ابن العديم نظر المظفر الثاني إلى أنّ مطالبته بسلمية تعتبر نقضاً للعهد الذي قام على أساسه تحالفهم ، جاء جواب المظفر الثاني بأن المجاهد هو البادئ بنقض العهد، واتّهمه باستمالة بعض عساكر حماة ، وهدد بالانضمام إلى الكامل وتحريضه على مهاجمة حمص ، وبَذْل كل ما في وسعه للاستيلاء

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٤ ب – ٢٠٥ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٦ أ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٦٨ ب – ٦٩ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٠٣ – ٤٠٤ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٥ أ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٤٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٦؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ٣١٧ . وظن أحد الباحثين أن وفاة الأشرف أضعفت موقف المظفر الثاني فسارع بالانضمام إلى الكامل ، وليس الأمر كذلك . انظر السيد الباز العريني : الأيوبيون ، ص ١٣١ .

عليها، أما حلب فقد تعهد بالدفاع عنها ، ومَنْع كل من يحاول الوصول إلى قرية من قراها ، وعندما سأله ابن العديم عن رده إذا اشتركت قوات حلب مع المجاهد في الدفاع عن حمص ؟ كان جواب المظفر الثاني بأنه سيقاتل المجاهد وكل من يقف معه ، وأطْلع ابن العديم زعماء حلب بما جرى بينه وبين المظفر الثاني ، فصدرت إليه الأوامر بالعودة إلى حلب ، فخرج من حماة دون توديع ، وفي الطريق لحقته خلع المظفر الثاني فأبى أن يأخذ منها شيئاً وواصل سيره إلى حلب.(١)

وزحف الكامل بجيشه من مصر ، وحاصر دمشق في جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م ، وأثناء ذلك بعث إلى المظفر الثاني تقليداً بسلمية ، فبعث المظفر الثاني نوابه إليها فتسلموها.(٢)

ولم يشترك المجاهد مع الصالح إسماعيل في محاولة صد الكامل عن دمشق ، متذرعاً بخشيته من استغلال المظفر الثاني لفرصة غيابه عن حمص، ومن ثم مهاجمتها والاستيلاء عليها ، واكتفى المجاهد بإرسال مدد من عسكر حمص إلى دمشق ، وقع معظمهم في أسر الكامل فأعدمهم.(٣)

وبعد سقوط دمشق بيد الكامل أمرجيشه بالاستعداد لمهاجمة حمص

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ وانظر أيضاً : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٦٩ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٠٤ - ٤٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٧ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٧ أ - ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٩ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٤٠٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٥٢ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٢٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣١٨ .

(٣) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٥ ب ، ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٦ ب .

وأرسل إلى المظفر الثاني ليسبقه إلى حمص ، فخرج بجيشه من حماة وعسكر في الرستن(١).

وبينما كان المظفر الثاني يُمَنِّي نفسه بالاستيلاء على حمص ومعاقبة صاحبها المجاهد ؛إذ بخبر وفاة الكامل يصل إليه ، فجزع المظفر الثاني لذلك جزعاً شديداً ، وحزن لوفاة الكامل ، ورحل من الرستن عائداً إلى حماة وأقام العزاء بالجامع الأعلى(٢).

ويذكر اليونيني أنه بعد وفاة الكامل اتفق المجاهد صاحب حمص مع الصالح اسماعيل صاحب بعلبك على قتال المظفر الثاني صاحب حماة . ولما شعر المظفر الثاني بما يدبران له ، سعى إلى محالفة الصليبيين ، فبنى لهم كنيسة بحماة. كما لبس الغفارة(٣) تقرباً لهم(٤) . على أنني لم أجد في المصادر المعاصرة ما يشير إلى ذلك ، وهذا مما يُضعف رواية اليونيني، ويجعلها غير مقبولة .

ومهما يكن من أمر فقد تنفّس المجاهد صاحب حمص الصعداء إثر وفاة الكامل، وتفرّغ للانتقام من عدوه اللدود المظفر الثاني ، فبدأ يشن غاراته

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠٧ب ، ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة٢٣٧ب ٢٣٩ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٥٢-١٥٣ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣١٩ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٠ أ - ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي،ورقة ٢٣٩ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٣ أ - ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٧٧ ؛ أبو الفدا: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٠؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٧١ .

(٣) الغفارة : خرقة تكون على رأس المرأة توقي بها الخمار من الدّهن ، وكل ثوب يغطى به فهو غفارة . ياقوت : معجم البلدان ، مادة : غفارة .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

على حماة وضياعها ، وبعث نوابه إلى سلمية فانتزعوها من نواب المظفر الثاني ، وقطع قناةً كانت تمد بساتين الجرون - وهي معظم بساتين حماة - بمياه العاصي، فجفّت الأشجار وماتت الأرض ، وتخيّل المجاهد أن بإمكانه إخضاع حماة بقطع نهر العاصي عنها(١). فقام بسدّ مخرج العاصي من البحيرة ، فانقطع الماء عن حماة يومين ، بطلت خلالها النواعير والطواحين التي كانت تُدار بواسطة الماء ، وتفرق الماء في الأودية ، لكنه لم يجد مجرىً يستوعبه ، فعاد مندفعاً بقوة ، وحطم السد الذي أقامه المجاهد ، وعاد إلى مجراه الطبيعي ، ولما أدرك المجاهد فشل هذه الطريقة ؛ أخذ في شن الغارات على حماة وتخريب ضياعها وقراها(٢).

ولقد أدرك الصالح أيوب بن الكامل أنّ المظفر الثاني في موقف حرج بسبب انحيازه إلى والده الكامل ، وكان يخشى عليه من قوات حلب أكثر من خشيته من صاحب حمص وعسكره ، لذلك بعث إلى عمته

---

(١) وشجعه على ذلك حكاية قديمة زعمت أن حمص - في سابق الأزمان - كانت تحكمها ملكة ، وكانت تأخذ قطيعة من حماة وشيزر ؛ وإذا امتنع أهل المدينتين عن دفع ما فرض عليهما، عمدت تلك الملكة إلى سدّ مخرج العاصي من بحيرة حمص ، فيندفع الماء في وادٍ يقال له وادي الحيات ، فيضطر أهل حماة وشيزر إلى دفع ما عليهم من مبالغ ، وقد ظنّ المجاهد أن باستطاعته القيام بمثل هذا العمل ، والاستيلاء بواسطته على حماة .

انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ، ص ١٧٧ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٠ أ - ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٩ أ - ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة٧٣ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦، لوحة ٤٢٤ - ٤٢٥ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٦ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٧٦ - ١٧٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ م ، ج١ ، ق٢، ص٢٦٩.

الصاحبة ضيفة خاتون(١) - وهي التي تدير الأمور في حلب لحفيدها الناصر بن العزيز - يشفع عندها للمظفر الثاني ، لكنها لم تقبل شفاعته ، واتهمت المظفر الثاني بالإخلال بتعهداته وبمعاداته لملكة حلب(٢).

واستعد الجيش الحلبي ، واستعان ببعض المرتزقة من الخوارزمية والتركمان ، وانضم إليهم بعض عساكر الكامل في دمشق ،كما طلبوا نجدةً من غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم، فأمدّهم بفرقة من خيار جيشه(٣). ولمّا تكاملت الاستعدادات ، أصدرت الصاحبة أمرها بمهاجمة المعرة ، لتجريد حماة من توابعها التي قد تُسْهِمُ في صمودها ،خصوصاً بعد أن استولى المجاهد على سلمية، ولم يعد بحوزة المظفر الثاني بالاضافة إلى حماة إلا المعرة وبارين ، وكانت القلعة التي أقيمت في المعرة من المغريات التي جعلت الحلبيين يختارونها لتكون هدفهم الأول في حملتهم على حماة . وتحركت القوات الحلبية ومن معها بقيادة تورانشاه(٤) بن صلاح الدين إلى المعرة ، فاستولت على المدينة فيما ظلت القلعة صامدة ، وأراد المظفر الثاني تدارك الوضع ، فبعث رسولاً إلى حلب طلباً للتفاوض وحل المشكلات العالقة بين

---

(١) الصاحبة ضيفة خاتون بنت الملك العادل ، ولدت بقلعة حلب سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م؛ تزوجها ابن عمها الظاهر غازي ، فأنجبت له ابنه العزيز،حكمت حلب وصية على حفيدها الناصر ابن العزيز لمدة ست سنوات ، توفيت سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٣، ص ١٧١ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٣ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٢٨؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٤) أبو المفاخر المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، كان كبير البيت الأيوبي ، توفي في حلب بعد أن استولى عليها المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . الذهبي: العبر ، ج ٣ ، ص ٢٨٩ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

الجانبين بصورة وديّة ، لكن رسوله الذي وصل إلى حلب لم يجد من يستقبله أو يقبل التفاوض معه ، فعاد إلى حماة خائباً ، بينما نُصبت المجانيق على قلعة المعرة ، وشرعت في ضربها ، وعندما اشتد الضغط على المتحصنين بالقلعة طلبوا الأمان لأنفسهم ، وسلموا القلعة للقوات الحلبية في أواخر شعبان سنة ٦٣٥ هـ/ ابريل ١٢٣٨م،(١) وأصيب عدد كبير من الحلبيين في عملية استيلائهم على المعرة.(٢)

ويبدو أن المظفر الثاني غضب من عودة رسوله من حلب خاوي الوفاض ، فاستغل انشغال القوات الحلبية بحصار المعرة ، وخرج بجيشه من حماة، وأغار على شيزر واشتبك مع حاميتها ، وأسر عدداً منهم ، وانهزم الباقون وعلامات الذهول بادية على وجوههم(٣) ويبدو أنهم لم يتوقعوا هجوماً جريئاً كهذا.

وخلال شهريْ رمضان وشوال سنة ٦٣٥ هـ / مايو ويونيه ١٢٣٨م ، كانت هناك هجمات متبادلة بين القوات الحلبية المتمركزة في شيزر وقوات حماة ، إذ كان الحلبيون يغيرون على حماة وكان المظفر الثاني يخرج للقائهم ، ويُغير بدوره على بلادهم (٤) .

وفي أواخر شوال سنة ٦٣٥ هـ / يونية ١٢٣٨، وصل الجيش الحلبي

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٠ ب - ٢١١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٢٦ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٢٥٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٩ ب .

(٣) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١١ أ - ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٣٩ ب .

(٤) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١١ أ - ب ؛ ابن واصل: التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٩ - ب .

إلى حماة ، وفرض عليها الحصار ، وكان صاحبها المظفر الثاني قد بنى سوراً من اللبن خارج سور البلد الأصلي من جهة القبلة ، وجعل له باباً سماه باب دمشق ، وذلك زيادة في تحصين بلده.(١)

ورغم الحصار ، ومنع دخول المؤن إلى البلد، إلاّ أنّ الحصار لم يكن محكماً ، ولم تتخلله محاولات اقتحام فعلية ، ويقال أنّ الصاحبة ضيفة خاتون لم تكن ترغب في احتلال حماة والقضاء على المظفر الثاني إذ هو ابن اختها ، وإنما كان هدفها من الحصار معاقبة المظفر الثاني لتخليه عن حلفهم بعد وفاة الأشرف ، ولإجباره على التخلي عن المعرة التي ما فتيء يطالب بها منذ احتلها الحلبيون منه.(٢)

ولم يكن المظفر الثاني طيلة فترة الحصار قابعاً في حماة متحصناً خلف أسوارها ، بل كان يخرج بطائفة من عسكره ويهاجم القوات الحلبية فتدور معارك سجالٌ بين الطرفين.(٣)

ويبدو أنّ المظفر الثاني قد اتصل بالخوارزمية وناشدهم مساعدته ، فخرجت جموع منهم من بلادهم وقصدوا حماة ،وفي الطريق اعترضتهم قوة من جيش سلاجقة الروم، ونشبت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار الخوارزمية(٤) وربما كان هذا من أسباب تخلي الحلبيين عن حصار حماة،

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٨٢ .

(٢) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٠ ب – ٢١١ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٩ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٣ ب – ٧٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٥٧ – ٤٥٨ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٦ أ ؛ ابن العديم: زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ، ٢٤١ – ٢٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٨٢ ، ١٩١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣، ص ١٦٢ – ١٦٣ ؛ المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٩ – ٤١٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٩١.

(٤) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٢ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٤٠ ب .

على أن السبب المشهور لفك الحلبيين حصارهم عن حماة هو الضجر الذي أصاب عساكرهم، مما حدا بالصاحبة إلى إصدار أوامرها بالانسحاب في بداية سنة ٦٣٦ هـ / أغسطس ١٢٣٨ م ، وكان الحصار قد أثر على الوضع في حماة ، وأنفق خلاله المظفر الثاني أموالاً طائلة.(١)

وفور انسحاب القوات الحلبية ، خرج المظفر الثاني ببعض رجاله من حماة ، وتوجه إلى بارين ، وهي البلدة الوحيدة التي بقيت له خارج حماة ، وكانت لها قلعة حصينة ، فهدمها حتى لا يصيبها ما أصاب المعرة ، إذ كانت قلعتها من أسباب مهاجمة الحلبيين لها ، ومن ثم احتلالها.(٢)

وتغير ميزان القوى لصلحة المظفر الثاني عندما جاء الصالح أيوب من مناطق شرق الفرات ليتسلم دمشق من الجواد يونس(٣) إثر مقايضة بين الرجلين ، فَقَبْل وصوله إلى دمشق ، بعث الصالح أيوب إلى المظفر الثاني يدعوه إلى اللحاق به ليدخلا دمشق معاً ، فَسُرَّ المظفر الثاني كثيراً بتلك الدعوة ، رجاء أن يثأر لنفسه من المجاهد والحلبيين ، فخرج من حماة ببعض عسكره ، والتقى بالصالح أيوب وهو في طريقه

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٩٨ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية، ورقة ٧٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٥٨؛ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٩٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ؛ المقريزي:السلوك، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٣) الملك الجواد مظفر الدين يونس بن ممدود بن العادل ، كان من أمراء الكامل وخلفه في حكم دمشق، وتنازل عنها للصالح أيوب وأخذ سنجار وعانة عوضاً عنها، فانتزعت منه. ورفض الصالح أيوب استقباله في مصر ، فدخل مع الصليبيين في عكا فأخذه الصالح اسماعيل منهم مقابل مال دفعه لهم فخنقه حتى مات سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠م؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

إلى دمشق فدخلها معه من باب الحديد.(١)

أما المجاهد فكان في دمشق مع الجواد يونس، ولما علم بنيته في التخلي عن دمشق للصالح أيوب ، عاد مسرعاً إلى حمص ، وبدأ يستعد للحرب ، لعلمه أنّ المظفر الثاني والصالح أيوب سيقصد انه بعد فراغهما من أمر دمشق.(٢)

ولما دخل الصالح أيوب ومعه المظفر الثاني دمشق في جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ هـ / فبراير سنة ١٢٣٩م ، ندم الجواد يونس على تفريطه في دمشق ، واستقل العساكر التي رافقت الصالح أيوب عند دخوله إليها ، فحدث نفسه بالتمرد ، واستعادة دمشق ، وأخذ يستحلف الجنود لنفسه ، وكادت أنْ تندلع فتنة هوجاء نتيجة لذلك ، لولا تدخل المظفر الثاني ، إذ نزل من قلعة دمشق واجتمع بالجواد ، وعاتبه على ما بدر منه ، وضمن له نيابةً عن الصالح أيوب الوفاء بجميع تعهداته ، وما زال به حتى طيّب قلبه ، واستحلفه على اتمام ما اتفق عليه مع الصالح أيوب ،

---

(١) الأصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢١٣ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٤٠ب؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ،ورقة ٧٦ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٦٥ ؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣م) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم ١٦٥٩ ، عن نسخة المكتبة التيمورية ، رقم ٢١٠٢ ، ج ٢، ورقة ١٧٧ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧١٩ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ؛ ابن أيبك: الدر المطلوب ، ص ٣٣٢ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٠ - ١٤١ ؛ تاريخ الاسلام ، الطبقة الرابعة والستون ، ص ٢٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٦٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٦٤ - ٤٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٢٠٢.

فخرج الجواد لأخذ مناطق شرق الفرات التي حصل عليها عوضاً عن دمشق.(١)

وكان المجاهد على يقين بأن المظفر الثاني سيستعيدمنه سلمية فبادر إلى تخريبها وهدم قلعتها ، ونقل أهلها إلى حمص ، وجمعهم داخل حَوشٍ كبير بناه خصيصاً لهم ، ولم يعودوا إلى بلدتهم إلاّ بعد وفاة المجاهد سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م . فشرعوا في إعادة بناء دورهم وبلدهم(٢) . وهذا أمر له دلالته العميقة ؛إذ يشير إلى مدى المعاناة الشديدة التي كان يعانيها عامة الناس من جراء الحرب الأهلية الناشئة بين الأيوبيين .

ولما سيطر الصالح أيوب على دمشق ، تقدم المظفر الثاني ومعه الخوارزمية إلى حمص فحاصروها ، فقام صاحبها المجاهد بالاتصال بالخوارزمية ، واستمالهم إلى جانبه ، وأنفق فيهم الأموال ليتركوا حمص وشأنها. وعندما شعر المظفر الثاني بذلك خشي من انقلاب الخوارزمية عليه ، فرفع الحصار عن حمص وعاد إلى حماة . وكذلك فعلت الخوارزمية ؛إذ تركوا حمص وعادوا إلى ديارهم(٣)، وقد كان هؤلاء الخوارزمية مرتزقة يميلون إلى من يدفع لهم أكثر(٤) . وقد ذكر أحد الباحثين أنّ المجاهد دفع مبلغاً من المال إلى المظفر الثاني لقاء رفعه الحصار عن حمص (٥) .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٦ ب ؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٦ ، لوحة ٤٦٥–٤٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ – ٢,٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب، ص ٣٦٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٦٩ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ١٦٣؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٦٩ .

(٤) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٣٣٨ .

(٥) أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٨٣ .

وأخذ المظفر الثاني يبحث له عن طريق آخر للانتقام من عدوه المجاهد صاحب حمص ، وكانت بيده ورقة رابحة تلك هي الصالح أيوب ، فأخذ المظفر يحثه على مهاجمة حمص ، وإزاء إلحاحه المستمر خرج الصالح أيوب بجيشه من دمشق عازماً على المسير إلى حمص ، ونزل بثنية العقاب(١)، وهناك تواترت عليه رسائل من بعض أمراء الديار المصرية يستحثونه على القدوم فاحتار في أمره ! هل يزحف إلى حمص ؟ أم يبدأ بمصر ؟ واستقر رأيه أخيراً على قصد مصر لأنه إذا ملكها سيملك بعدها ما يشاء . فعاد إلى دمشق في رمضان سنة ٦٣٦هـ / مايو ١٢٣٩م ، وبذلك تأجل الهجوم على حمص(٢) . ويذكر ابن أيبك أن المجاهد جاء إلى دمشق سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩م ، وعقد صلحاً مع الصالح أيوب بحضور المظفر الثاني(٣).

ولم يلبث الصالح أيوب أن خرج من دمشق قاصداً مصر ، ولم ينس أن يوصي المظفر الثاني بالمحافظة على دمشق في فترة غيابه عنها(٤) .

وعسكر الصالح أيوب بمن معه في نابلس ، وأقام هناك منتظراً اكتمال قواته التي سيسير بها إلى مصر ، لكنّ أعداءه في الشام كانوا يضعون الخطط لإنهاء حكمه . إذ عَلِمَ المظفر الثاني صاحب حماة أنّ المجاهد

---

(١) ثنية العقاب : ثنية مشرفة على غوطة دمشق ، في طريق الذاهب من دمشق إلى حمص. ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٧ أ ، ٧٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٦٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٢٧ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٦٩ .

(٣) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٤ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

صاحب حمص ، والصالح اسماعيل صاحب بعلبك قد اتفقا على قصد دمشق والاستيلاء عليها بعد رحيل الصالح أيوب عنها ، وخلوّها من العساكر ، فرأى المظفر أنّ من واجبه الدفاع عنها ، فقرر إرسال فرقة كبيرة من عسكر حماة لتتولى الدفاع عنها ، لكن كان من الصعب جداً على هذه الفرقة الوصول إلى دمشق دون المرور بالقرب من حمص ، فكان على المظفر الثاني أن يجد وسيلة يستطيع بواسطتها إيصال جنوده إلى دمشق بأمان . فتفتق ذهنه عن خطة جريئة ، تمثلت في اتفاقه مع وزيره سيف الدين بن أبي علي على أن يظهر الأخير الغضب على سيده المظفر الثاني ، ويوهم كبار رجال حماة بأنّ ملكهم سيسلم البلد للصليبيين نكاية في جيرانه الذين ناصبوه العداء ، وحاولوا مراراً إزالة ملكه ، وبهذه الذريعة يستطيع الوزير الخروج من حماة بالعساكر وبكل من صدّق تلك الحيلة من أهل حماة ، ويتوجه بالجميع إلى دمشق مظهرين هو ومن معه استنكارهم لتصرف المظفر الثاني ، وعدم رضاهم عن العيش مع الصليبيين في بلد واحد.(١)

ونفذ سيف الدين ما تمّ الاتفاق عليه ، واقتطع جملة من عسكر حماة ، واستمال بعض زعمائها ، وأشاع في البلد أن الصليبيين سيتسلمونه ، ويسبون النساء والأطفال إذا بقوا فيه . واشتد هلع الحمويين عندما رأوا ملكهم يستقدم بعض الصليبيين ، وينزلهم بقلعة حماة ، واعتقدوا بصدق كلام الوزير وانحازوا إليه.(٢)

وخرج سيف الدين بمن انضم إليه من عسكر حماة وأهلها ، ونزل بتل

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٩٨ – ٤٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٤٩٩ – ٥٠٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٢٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٠٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٢٢٤ .

صفرون القريب من حماة ، وكان المظفر الثاني يركب إليه كل يوم ، ويجتمع به مظهراً للناس أنه يحاول إرضاءه واقناعه بالعودة إلى حماة ، بينما هما يتفقان في السر على وسائل تنفيذ خطتهما .(١)

وبعد ثلاثة أيام قضاها في تل صفرون ، سار سيف الدين بمن معه من الرجال والنساء والأطفال متظاهراً بنزوح لا عودة بعده ، ولما وصلوا قرب حمص ، نزلوا على بحيرة قدس . فخرج إليهم المجاهد صاحب حمص ، وطلب الاجتماع بسيف الدين، فجاءه الأخير منفرداً مطمئناً له ، فرحب به المجاهد ، وأحسن استقباله ، وسأله عن خبره ، فزعم له أنه خرج بمن معه من حماة احتجاجاً على قرار المظفر بتسليم البلد للصليبيين . فلاطفه المجاهد وآنسه ، وتظاهر بتصديقه ، وسأله الدخول معه إلى حمص ليضيفه بها ، ومن ثم يأذن له بمواصلة سيره إلى دمشق . فاغتر سيف الدين بكلام المجاهد ، ودخل معه حمص ، فانزله صاحبها بدار حسنة من دور قلعتها ، وبالغ في إكرامه ، وبعث إلى من كان معه يطلب منهم دخول حمص ، فدخلها معظمهم ، وامتنع آخرون . ولما اطمأنّ المجاهد أنّ معظمهم قد أصبح في حمص ، أمر باعتقالهم ، وعلى رأسهم الوزير سيف الدين ، وزج بهم في غياهب السجون ، وصادر أموالهم وأمتعتهم ودوابهم وكل ما معهم ، وسام بعضهم أصنافاً شتى من العذاب حتى استخلص منهم أموالهم ، وكان منهم جماعة من أكابر حماة منهم الطبيبان موفق الدين محمد بن أبي الخير (٢)، وزين الدين بن سعد الدين سعدالله بن واصل(٣) - ابن عم المؤرخ المشهور - إذ توفي الأول في

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٠٠ ؛ ابن واصل " مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٤ .

(٢) انظر ترجمته فيما يلي الفصل السادس ، ص٤١٢-٤١٣ من هذا البحث .

(٣) انظر ترجمته فيما يلي الفصل السادس ، ص ٤١٣ من هذا البحث .

السجن نتيجة للتعذيب القاسي الذي تعرض له ، أما الثاني فأُطْلِق سراحه بعد مدة بشفاعة الإسماعيلية أصحاب مصياف . ومنهم الأمير بدر الدين ابن أبي على(١) – والد الأمير حسام الدين استاذدار(٢) الصالح أيوب – وابن عمه الأمير علاء الدين ، ومنهم أيضاً جماعة من شيوخ بني قرناص – وهم من بيوت حماة المشهورة –(٣) إذ مات بعضهم في السجن من شدة التعذيب ، بينما افتدى البعض الآخر أنفسهم بالمال بعد أنْ باعوا كل ما يملكون ، ليفتدوا به رقابهم . أما الوزير سيف الدين فقد توفي في السجن بعيد وفاة المجاهد سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ، وأصيبت مملكة حماة بضربة شديدة من جراء فشل هذه العملية(٤) . وكانت كارثة بكل المقاييس . فمن الناحية العسكرية فقدت حماة معظم جيشها ، وخيرة عسكرها ، ومن الناحية الاقتصادية تسببت في أضرار جسيمة طالت كثيراً من أهل حماة . فقد صادر

---

(١) توفي الأمير بدر الدين بن أبي علي في مصر سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٧م ، بعد أن أطلق المجاهد سراحه ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٠ – ٨١ .

(٢) استاذدار : هو الشخص الذي يتولى إدارة شؤون البيوت السلطانية جميعها ، وله الحكم في غلمان السلطان ، وباب داره ، وإليه أمور الجاشنكيرية وله الحديث المطلق والتصرف التام في استدعاء ما يحتاجه كل بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجراها ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان في السرحات والأسفار؛ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

(٣) انظر ترجمات لبعض أفراد هذا البيت فيما يلي الفصل السادس ، ص ٤١٦–٤١٩ من هذا البحث .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٠٠ – ٥٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص٢٢٤– ٢٢٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٨٥ – ٨٧ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج٣ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٥ – ٢٨٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٧٠ .

المجاهد كل ما يملكون ولم يكتف بذلك بل أرغم بعضهم على أن يبيع أملاكه ليفتدي نفسه بالأموال ، ومن الناحية الاجتماعية تسببت في تناقض عدد السكان بل إن بيوتاً كاملة قد أخليت فأهلها إما قتلوا ، أو سجنوا أو اضطروا إلى بيعها والانتقال منها ، كما لا نغفل أضرارها على الناحية الصحية – إن صح التعبير – فنتيجة لها فقدت حماة اثنين من أشهر أطبائها ، وأعتقد أن فقد طبيبين ماهرين في وقت واحد سيترك فراغاً في مجال عملهما ، تظهر آثاره جلية على الوضع الصحي في حماة .

والواقع أن خطة المظفر هذه لا تملك حظوظاً كبيرة للنجاح لما عرف عن المجاهد من ذكاء وخبرة طويلة في مجال العلاقات بين الأيوبيين . كما أن الوزير سيف الدين ارتكب خطأً عندما صدّق كلام المجاهد ووثق به ودخل معه إلى حمص . ولو انه امتنع بمن معه لما قدر عليه المجاهد(١).

واستطاع المجاهد والصالح إسماعيل احتلال دمشق فيما أُعتقل الصالح أيوب بالكرك، فضاق الأمر على المظفر الثاني ، إذ لم يكن معه إلاّ حماة وبارين، وأعداؤه يحيطون به من كل جانب، وقوتهم في ازدياد مضطرد(٢)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ ؛ وانظر أيضاً اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥، ص ٢٣٦ ، وكان من الممكن أن يكون إحاطة الأعداء بحماة سبباً لتغيير المظفر الثاني من موقفه المؤيد للصالح أيوب ، وليس دافعاً له لأن يتمسك بذلك الموقف كما اعتقد بعض الباحثين . انظر: السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، الأيوبيون، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧م ، ص ١٣٦ .

ورغم الضعف الشديد الذي أصاب المظفر الثاني بعد فشل محاولته لانقاذ دمشق إلاّ أنه استمر على ولائه للصالح أيوب وإقامة الخطبة له بحماة .(١)

وذكر بعض الباحثين أنه عندما اشتد الضغط على المظفر الثاني سارع إلى الاتصال بـ " ثيبوت الرابع Thibut IV " أمير شامبني وملك نافاري – وكان قائداً للحملة الفرنسية التي وصلت إلى فلسطين سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م – وعرض عليه التنازل عن حصن أو حصنين من مملكته مقابل تقديم المساعدة له ضد المجاهد والصاحبة الوصية على عرش حلب ، ولم يتردد ثيبوت في قبول العرض ، وسُرّ به كثيراً . بل إنّ الصليبيين كان يحدوهم أمل في أنْ يتحول المظفر الثاني من الاسلام إلى النصرانية !! ، وقد كانت المفاوضات تدور بين الطرفين بواسطة مُنصّر يدعى " غليوم " كان صديقاً قديماً للمظفر الثاني ، وبناءً على هذا الاتفاق تحرك ثيبوت بما لديه من قوة من عكا إلى طرابلس لمساعدة ملك حماة ، وكان مجرد تحركه هذا كافياً لإثارة الرعب في نفوس أعداء المظفر الثاني ، الذي أرسل إلى ثيبوت يخطره بكل أدب بأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدته(٢).

غير أنّه من الصعب التسليم بصحة هذه الرواية ، فثيبوت لم يكن معه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٩ ؛ سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ، ص ٥٢٧ .

إلاّ من نجا من قواته بعد المعركة الساحقة التي هزموا فيها على يد الجيش المصري الذي كان يرابط قرب عزة ، في ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ / نوفمبر سنة ١٢٣٩م(١). وقد انهزم ثيبوت بمن نجا معه إلى عكا خوفاً من تعقّب المسلمين له . فهل يعقل أن يلجأ المظفر الثاني إلى الصليبيين بعد هزيمتهم الشنيعة ليطلب منهم النجدة ؟ إضافة إلى أنّ المصادر الاسلامية لم تشر إلى أي اتصال بين المظفر الثاني والصليبيين خلال هذه الفترة .

ورغم اعتقال الصالح أيوب في الكرك إلاّ أنّ المظفر الثاني لم يكف عن بذل مساعية لإطلاق سراحه ، إذ استقبل جمال الدين بن مطروح(٢) – أحد المقربين من الصالح أيوب – واستضافه بحماة وأنزله بالدار المعروفة " بدار مبارز الدين "(٣) ثم كلّفه بنقل رسالة إلى الخوارزمية ، يحثهم فيها على إنجاد الصالح أيوب ، وكان ابن مطروح يحمل إليهم رسالة مشابهة من الناصر داود – صاحب الكرك – يعدهم فيها بإطلاق الصالح أيوب إذاقَدِمُوا لمساعدته ، وبعد أنْ بلّغ ابن مطروح الرسالتين للخوارزمية عاد ثانية إلى حماة(٤) .

---

(١) عن هذه المعركة انظر: سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٨ – ٨١٩؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٧٥ .

(٢) الأمير أبو الحسين جمال الدين بن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح ، بارع في الأدب والشعر ، ولي الخزانة بمصر ، وأيضاً وزارة دمشق سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م وعزل عنها بعد ثلاث سنوات ، توفي سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .

(٣) كانت هذه الدار تعرف أولاً بدار مبارز الدين بن قرناص ، ثم تحولت ملكيتها إلى مبارز الدين المنصوري ، وكانت تستخدم لضيافة الملوك ، وموقعها في الباب المعروف بباب المغار . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٧٠، حاشية رقم ١ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٧٩ ب – ٨٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات، ج٦ ، ==

وأصبحت حماة ملجأً لأنصار الصالح أيوب فبالإضافة إلى ابن مطروح استقر فيها أيضاً بدر الدين قاضي سنجار (١)، وعز الدين(٢) بن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون ، وأصيل الدين الأشعري إمام الصالح أيوب ، وجماعة من العساكر المساندة للصالح أيوب(٣).

وكانت رسل المظفر الثاني وجواسيسه على اتصال دائم بالخوارزمية والناصر داود صاحب الكرك ، من أجل تأمين إطلاق سراح الصالح أيوب(٤).

وبعد عدة محاولات استطاع المظفر الثاني إقناع الناصر داود بإطلاق سراح الصالح أيوب ، وذلك عندما قطع الخطبة للصالح أيوب في حماة(٥). وبعث شهاب الدين بن أبي الدم برسالتين إلى الصالح اسماعيل في دمشق،

= لوحة ٥١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة حيدر آباد ، ١٣٧٤ هـ./١٩٥٤ م، ج ١ ، ص ١٩٨ ؛ المقريزي : السلوك، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣

(١) قاضي القضاة بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن علي السنجاري ولد سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م ، باربل ، ووفاته في القاهرة سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م كان قاضي سنجار ، واتصل بالصالح أيوب ، وصار من أعوانه وفوض له قضاء مصر إبّان فترة حكمه بها . النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١٢٤ – ١٢٦ .

(٢) عز الدين عبد العزيز بن نجم الدين أبي البركات . درس في مدارس دمشق ثم حلب ، اتصل بالصالح أيوب فكسب ودّه وثقته وأرسله مرتيّن إلى بغداد ، توفي في المرة الثانية بينما كان بالقدس سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥م . صادق جودة : المدارس العصرونية في بلاد الشام ، ص ١٥٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٦٤ – ٥٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥١؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٢.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٢٠ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٥، ص ٢٥٣؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٣ . وانظر أيضاً : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٠ أ .

والعادل الثاني(١) في مصر ، ورسالة ثالثة سرية إلى الناصر داود ، وسافر ابن أبي الدم إلى دمشق ، واجتمع بالصالح إسماعيل ، وسلمه الرسالة ويبدو أنها كانت تتعلق بقطع الخطبة للصالح أيوب بحماة ، ثم توجه ابن أبي الدم إلى نابلس ، والتقى هناك بالناصر داود ، وسلّمه الرسالة السرية التي تضمنت طلب الإفراج عن الصالح أيوب ، وقد تعهد الناصر داود لابن أبي الدم بتنفيذ هذا الطلب ، وحلف له على ذلك(٢) ، ثم واصل ابن أبي الدم سفره إلى مصر، حيث اجتمع بالعادل الثاني، وسلّمه رسالة المظفر الثاني ، وكان فحواها أنّه قطع الخطبة للصالح أيوب في بلده ، واستبدلها بالخطبة للعادل الثاني معلناً بذلك تبعيته له ، ويطلب منه أن يُقسم له بالمحافظة على عرشه في حماة ، وسُرّ العادل الثاني بذلك كثيراً وبالغ في إكرام ابن أبي الدم (٣) . والحقيقة أن تلك الرسالة لم تكن إلاّ وسيلة لكسب الوقت ؛ إذ لم يكن المظفر الثاني مخلصاً أبداً في التودد إلى العادل الثاني وموالاته .

وقد نجح المظفر الثاني في خداع الصاحبة ضيفة خاتون – الوصية على عرش حلب – وذلك عندما تظاهر بموالاتها، فأطلقت له القرى المفردة من ضياع المعرة.(٤)

ويبدو أنّ مطالبة المظفر الثاني بإطلاق سراح الصالح أيوب قد تزامنت

---

(١) الملك العادل الصغير – أو الثاني – أبو بكر بن الكامل بن العادل . تولى عرش مصر بعد وفاة والده ، انهمك في اللهو واللعب ، وحطّ من شأن كبار الأمراء ، فاستدعوا أخاه الصالح أيوب فاعتقله سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م بالقلعة ، ثم بعث له من قتله سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م . ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢٢٩ – ٢٤٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٠أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٢٥٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢، ص ٢٩٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٠أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

مع رغبة الناصر داود في استخدام الصالح أيوب ورقة أخيرة لاستعادة حقه في حكم دمشق ، بعد أن وصلت مفاوضاته في هذا الشأن مع الصالح اسماعيل والعادل الثاني إلى طريق مسدودة(١) . فأطلق سراحه في رمضان سنة ٦٣٧ هـ/ ابريل ١٢٤٠م ، بعد أن أقْسَم عند الصخرة المقدسة بالقدس بأنْ يعطيه بلاد الشام والمشرق ، ويحتفظ لنفسه بمصرفقط(٢).

وكادت جهود الناصر داود والصالح أيوب في التقدم إلى مصر أن تفشل ، عندما اتفق العادل الثاني والصالح إسماعيل على حربهما ، فخرج الأول بجيوشه من مصر ، وزحف الثاني بقواته نحو فلسطين ، مما حدا بالمنصور إبراهيم(٣) - صاحب حمص - والصالح اسماعيل - صاحب دمشق - أن يبعث كل منهما برسالة منفصلة إلى المظفر الثاني يحقرانه فيهما منه لعلمهما بانحيازه للصالح أيوب ، إذ وضّح كل منهما في رسالته الوضع المزري الذي يوشك الصالح أيوب والناصر داود أن يقعا فيه.(٤)

ونظراً لأنّ أعداءه يحيطون به من كل جانب ، ولانقطاع أخبار الصالح أيوب عنه بعد رسالتي المنصور إبراهيم ، والصالح إسماعيل الآنفتي الذكر ، فقد اشتدّ الخوف بالمظفر الثاني، وسيطر عليه القلق . ولكنْ تبدد ذلك كله عندما وصلته أنباء استيلاء الصالح أيوب على الحكم في مصر ، وبدا عليه فرح شديد بعد سماعه لهذه الأنباء ، وزُيِّنت جميع أبراج قلعة حماة ، وأعيدت

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٦٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٦٦ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) الملك المنصور بن المجاهد أسد الدين شيركوه ، صاحب حمص ورثها عن أبيه سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م وكان من الموصوفين بالشجاعة ، توفي بدمشق سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م، وخلفه ابنه الأشرف ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٢٩ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٩ .

الخطبة للصالح أيوب في حماة ، ونُثرت الدراهم والدنانير ابتهاجاً بهذه المناسبة ، وأصبح المظفر الثاني على يقين باستعادة كل ما أُخذ منه خلال الفترة الماضية(١).

أما في مصر فقد استطاع الصالح أيوب الاستيلاء على الحكم ، وسجن أخاه العاد الثاني ، وكان رسول المظفر الثاني ابن أبي الدم لا يزال مقيماً في مصر ، فاستقبله الصالح أيوب استقبالاً طيباً ،ليقينه بانحياز المظفر اليه ، وعندما أراد ابن أبي الدم العودة إلى حماة ، اجتمع به الصالح أيوب ، وبالغ في إكرامه وحمّله رسالةً إلى المظفر الثاني(٢).

وأقام ملوك الشام المعادون للصالح أيوب تحالفاً بينهم في محاولة لحماية ممتلكاتهم منه ، وتكون الحلف الجديد من ملوك دمشق وحمص وحلب ، وعرضوا على المظفر الثاني الانضمام إليهم فلم يقبل(٣). ويبدو أنه آخر العروض التي قدمت لملك حماة ليتحالف مع بقية ملوك الشام ضد الصالح أيوب .

وبعد أن استقرت له الأمور في مصر، تنصل الصالح أيوب من تعهده السابق للناصر داود ، وبرر ذلك بأنه كان مجبراً على هذا التعهد الذي لم يكن يطيقه، فقد ألزمه الناصر داود بأن يحلف له على الشام - بما فيه حماة - وبلاد الجزيرة وديار بكر(٤).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٢ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٦؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٧٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ٥٢٩ - ٥٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص٢٦٥- ٢٦٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٧ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة٥٨ب تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٧٦ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٢٨ ؛ علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

وكان الخوارزمية مؤيدين للصالح أيوب ، وبعد أنْ تحقق له هذا الانتصار أرادوا العودة إلى بلادهم ، فاستعد المنصور إبراهيم صاحب حمص ومعه كثير من العساكر لاعتراض طريقهم ، وعندما علموا بذلك اختاروا سلوك طريق حماة ، ولم يتعرضوا لها بنهب أو سلب كما فعلوا مع غيرها من البلدان ، بسبب العلاقة الوثيقة التي تربط صاحبها بحليفهم الصالح أيوب ، وقد دخل بعض الخوارزمية إلى حماة وتزودوا منها ، وباعوا بعض ما معهم فيها ، ثم رحلوا عنها متجهين إلى الشرق سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١م(١).

ولم يمهل القدر المظفر الثاني ليُجني ثمار انتصار حليفه الصالح أيوب، ففي شعبان سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ، إذ تعرض لفالج شل جنبه الأيمن وأفقده القدرة على الحركة والكلام ، وقام بتدبير أمور دولته الأمير سيف الدين طغرل(٢) وشيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري(٣) والوزير بهاء الدين التاج والطواشي شجاع الدين مرشد المنصوري . والصاحبة غازية خاتون والدة المنصور الثاني ، وتوافد عليه الأطباء ، فجاءه طبيب من المشرق ،

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة٥٧٢؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٥٧ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،ج ٥ ، ص ٢٩٠؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢، ص ١٦٨؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

(٢) الأمير سيف الدين طغريل بن عبدالله استاذدار المظفر الثاني صاحب حماة . من أعيان الأمراء ، وممن وصفوا بالشجاعة وحسن التدبير ، ومعرفة السياسة ، وزوجة المظفر الثاني باخته ، توفي في شوال سنة ٦٥٤ هـ / سبتمبر ١٢٥٧ م ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٧ – ١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣) انظر ترجمته فيما يلي : الفصل السادس ، ص ٣٩٦-٣٩٩ ، من هذا البحث .

كما بعث إليه الصالح أيوب طبيبه النفيس ابن طليب المعروف بالنصراني(١)، وكان الصالح أيوب قد اعتراه قلق شديد عند سماعه بمرض المظفر الثاني . أما المظفر الثاني فلم تتحسن حالته رغم ملازمة الأطباء له (٢).

وفي يوم السبت الثامن من جمادى الأولى سنة ٦٤٢ هـ / اكتوبر١٢٤٤م ، توفي المظفر الثاني ، عن عمر يناهز الثالثة والأربعين ، بعد حكم استمر أكثر من خمسة عشر عاماً ، وكان سبب وفاته

---

(١) العلامة علاء الدين أبو الحزم - وقيل أبو الحرم - ابن النفيس القرشي الدمشقي، شيخ الطب بالديار المصرية، وأحد من انتهت إليه معرفة الطب ، كما كان عنده معرفة بالفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق ، وله عدة مصنفات منها : الشامل في الطب تدل فهرسته على أنه يكون في ثلاثمائة جزء ، بيّض منها ثمانين جزءاً ، ومنها : المهذب في الكحل ، شرح القانون لابن سينا في عدة أجزاء ، ومختصراً في المنطق ، وشرح الهداية لابن سينا في المنطق ، وصنف في أصول الفقه ، والفقه ، والعربية ، والحديث ، وعلم البيان . وله كتاب صغير اسمه " فاضل بن ناطق " يعارض فيه رسالة " حي بن يقظان " . توفي ابن النفيس في ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ / يناير ١٢٨٩م . بعد أن أوقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري . الذهبي: العبر ، ج ٣ ، ص ٣٦٥ ؛ دول الاسلام، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٠١ ؛ أحمد عيسى : معجم الأطباء (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ص ٢٩٢- ٢٩٦.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٨٧ ب ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا ، ورقة ١١٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٩ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٤٧ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣، ص ٢١١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

حمى حادة ، وترك ولدين هما : المنصور الثاني محمد ، والأفضل علي(١) .

وقد وصفه ابن واصل - وهو معاصر له - بقوله : " كان شهماً إلى الغاية القصوى ، لم أعرف من أهل بيته من كان أفرس منه "(٢)، وكان قوياً شديد التحمل يحمل على كتفه لُقاً من الحديد إذا ركب ، ويعجز غيره عن فعل ذلك . وخاض غمار حروب كثيرة ، واشتهر بالفطنة والذكاء وقوة الفراسة ، مع طيب عشرة خاصة مع حاشيته ومعارفه . كما كان محباً لأهل الفضل والمعرفة ، وكان مع ذلك كله ناقص الحظ(٣).

وعندما ورد خبر وفاته على الصالح أيوب اغتمّ له ، وأظهر من الحزن ما لا مزيد عليه ، وأقام له عزاءً بمصر.(٤)

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٦ أ ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج١ ، ورقة ٧٦ أ ، تاريخ من ملك مصر وعكا ... ، ورقة ١١٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٦ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٣٤٤ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٦ أ ؛ ابن حبيب :جهينة الأخبار ، ورقة ٥٤ أ، العليمي : التاريخ المعتبر،ج ١ ، ورقة ٧٦ أ ؛ تاريخ من ملك مصر وعكا ... ، ورقة ١١٥أ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢١٠؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٣٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٨؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢١١ .

الفصل الرابع

مملكة حماة زمن المنصور الثاني
(٦٤٢هـ/١٢٤٤م - ٦٨٣هـ/١٢٨٥م)

* المنصور الثاني وعلاقته ببقية الممالك الأيوبية
* علاقة المنصور الثاني بسلطنة المماليك
* جهاد المنصور الثاني ضد المغول
* جهاد المنصور الثاني ضد الصليبيين والأرمن

المنصور الثاني
وعلاقته ببقية الممالك الأيوبية

حينما وافت المنية المظفر الثاني سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م كان ابنه الأكبر محمد لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ، فَنُصِّبَ خلفاً لأبيه وتلقب بالمنصور الثاني(١) . ولأنه قاصر لزم تعيين وصي عليه . وكانت أمور مملكة حماة – منذ مرض المظفر الثاني سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م – تدار بواسطة عدد من كبار الأمراء . وهم : سيف الدين طغريل أستاذدار المظفر الثاني، وشيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري ، وشجاع الدين مرشد المنصوري ، والوزير بهاء الدين التاج ، واستمر هؤلاء الأمراء في القيام بمهمتهم بعد وفاة المظفر الثاني ، وانضمت إليهم غازية خاتون بنت الكامل ، وهي والدة المنصور الثاني ، وكان المرجع إليها في الأمور كلها(٢).

وبعد وفاة المظفر الثاني مباشرة ، بعث زعماء حماة رسالةً إلى الصالح أيوب ، وحملها إليه زين الدين(٣) بن موهوب ، وحمل إليه أيضاً هدية من

---

(١) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج١ ، ورقة ١١٨ أ ؛ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩م ، ص ١٣ – ١٤ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٣٥٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٦ أ ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٧٦ ب ؛ تاريخ من ملك مصر وعكا ... ، ورقة ١١٥ أ – ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،ج٥ ص ٣٤٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ؛ ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك، ت ٧٣٢ هـ /١٣٣١ م) كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الثامن وعنوانه : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق : أولرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧١م، ص ٣٦٧ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، حيدر آباد ، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م ، ص ٢٣٦ ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج٥ ، تحقيق : س ديدرينغ ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤م ، ص ١٢ ؛ ابن نصرالله: شفاء القلوب ، ص ٤٤٠ .

(٣) أبو البركات زين الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن موهوب الشافعي ═

المنصور الثاني، وسيف والده المظفر ، وذلك لإظهار تبعيتهم له ، واستمرارهم على سياسة المظفر الثاني في موالاة الصالح أيوب والوقوف إلى جانبه ، ووصل زين الدين بن موهوب إلى القاهرة في شهر شوال سنة ٦٤٢ هـ / ابريل ١٢٤٥م ، حيث استقبله الصالح أيوب (١).

وفي العام نفسه (٦٤٢ هـ/١٢٤٤-١٢٤٥) بعث زعماء حماة رسالةً وهديةً سنيةً إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد(٢). ويبدو أنّ الرسالة تتضمن خبر وفاة المظفر الثاني ، وتولي ابنه المنصور الحكم من بعده .

لقد عاصر المنصور الثاني السنوات الأخيرة من عمر الحرب الأهلية الأيوبية التي سبقت الإشارة إليها في الفصل السابق إذ تمكّنت قوات الصالح أيوب من استعادة دمشق من الصالح إسماعيل ، سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وعلى الفور انتزع أنصار الصالح أيوب سلمية من صاحب حمص ، وقاموا بتسليمها لنوّاب المنصور الثاني ، الذي أصبح يسيطر على كل المناطق التي كانت خاضعة لحكم والده المظفر الثاني ، عدا المعرة التي لا تزال بيد صاحب حلب (٣).

= خطيب الجامع الأعلى بحماة ولد بحماة سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م ، كان المظفر الثاني يحترمه ، وبنى له مدرسة جليلة بحماة ، توفي في ربيع الأول سنة ٦٥٩هـ/١٣٦٠م، ودفن في مدرسته بحماة ؛ اليونيني : نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ؛ بيبرس الدوادار (الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار ، ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع ، تحقيق : زبيدة محمد عطاء ص ٩١ . وانظر فيما يلي الفصل السادس من هذا البحث ص ٤٠٤.

(١) اليونيني : نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ، ق ٢ ، ص ٣١٨؛ **Ayyubids, Mamlukes and Crusaders. Selection From The Tarikhal-Duwal-Muluk, Of Ibn Al-Furat in two volumes. Text and Translation by U. and C. Lyons. Cambridge 1971, p. 29.**

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٥٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٧٧ .

ولما قَدِم الصالح أيوب لتفقدالأوضاع في دمشق سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، جاء لخدمته المنصور الثاني صاحب حماة ، والأشرف موسى(١) صاحب حمص، وكانا صغيرين ، فاستقبلهما ، وقرّب إليه المنصور الثاني ، وبالغ في احترامه ، تقديراً لولاء والده المظفر الثاني وإخلاصه له(٢).

وكانت أوامر السلطان الصالح أيوب تُنَفَّذُ في حماة – كما في غيرها من المناطق التابعة له – من ذلك أنّه غضب على مملوكه أيدكين البندقداري(٣)، الذي توجه إلى حماة ، فأرسل الصالح أيوب إلى المنصور الثاني يأمره بالقبض عليه ، فاعتقله بجامع قلعة حماة ، ومكث معتقلاً بها حتى صدر أمر الصالح أيوب بالإفراج عنه ، واستقدامه إلى القاهرة(٤).

أما الخوارزمية فقد قلبت ظهر المجنّ للصالح أيوب ، فاضطر لقتالهم ، وأعد لذلك جيشاً اشتركت فيه عساكر من حماة ، واستطاع جيش الصالح

---

(١) الأشرف موسى بن المنصور ابراهيم بن المجاهد، خلف والده على حمص سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، وبعد سنتين أخذها منه الناصر يوسف صاحب حلب ، وانضم الأشرف إلى هولاكو فأعاد إليه حمص. وتوفي الأشرف سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣ م. ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١١ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٠٢ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٦ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٩٠؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٧؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٧٨ – ٧٧٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٧٨ .

(٣) أيدكين بن عبدالله البندقداري من كبار أمراء الصالح أيوب ، وتولى استادارية الملك الظاهربيبرس، توفي سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م. ابن تغري بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : فهيم شلتوت مكتبة الخانجي ، ترجمة رقم ٥٩٢ .

(٤) تاريخ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ،ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين رزيق ، ج ٧ ، بيروت ١٩٤٢ م، ص ٨١–٨٢؛ العيني(بدر الدين محمود العيني ، ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، تحقيق : محمد أمين ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ج٢ ، ص ١٧٥ .

أيوب إنزال هزيمة ساحقة بجموع الخوارزمية بالقرب من حمص ، في المحرم سنة ٦٤٤ هـ/ مارس ١٢٤٦ م ، ولم تقم لهم بعدها قائمة(١).

ورغم العداء المستحكم ، الذي كان قائماً بين مملكتي حماة وحلب ، زمن المظفر الثاني ، فإنّ العلاقة بينهما تحسّنت بشكل كبير في عهد المنصور الثاني .

وقد تبودلت الرسائل بين حماة وحلب ، وكان الناصر يوسف – صاحب حلب – يُحْسِنُ استقبال رُسل المنصور الثاني ، خاصة إذا كان شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري هو المبعوث القادم من حماة ، وقد قام شيخ الشيوخ بنقل عدة رسائل من المنصور الثاني إلى الناصر يوسف.(٢)

وفور وفاة الصالح أيوب سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م . استدعى مماليكه ابنه المعظم تورانشاه(٣) من حصن كيفا ، ليتولى زمام الحكم ، فوصل إلى دمشق في شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ /يناير ١٢٥٠م ، فوافاه هناك زين الدين ابن موهوب رسولاً من المنصور الثاني ليهنئه بسلامة الوصول.(٤)

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٨ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) الملك المعظم غياث الدين تورانشاه بن الصالح أيوب آخر سلاطين الأيوبيين بمصر ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٩٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٤٧-٢٥١ .

(٤) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، " أو تاريخ الواصلين " ، ج ٦ ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٣١٩ ، عن نسخة باريس ، ورقة ١٤٤ أ – ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ١١٠ب ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ص ٣٥٢ .

ولم يدم حكم المعظم تورانشاه أكثر من بضعة أشهر ، إذ لَقِيَ مصرعه على أيدي المماليك أوائل سنة ٦٤٨ هـ/ابريل ١٢٥٠م . وانتهت بمقتله الدولة الأيوبية في مصر ، وورثتها دولة المماليك ، ولم يكن هذا مرضياً لملوك الأيوبيين في الشام . فسعوا لإحياء دولتهم في مصر(١). وكان من الطبيعي أن تتوحد جهودهم في الشام أولاً . وكان أكثرهم قوة الناصر يوسف – صاحب حلب – الذي ما إن تناهى إلى سمعه خبر مقتل المعظم تورانشاه حتى زحف إلى دمشق ، وضمّها إلى ممتلكاته في ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / يوليو ١٢٥٠م ، وقد بارك المنصور الثاني – صاحب حماة – تلك الخطوة ؛ إذ أوفد شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري إلى الناصر يوسف ، فكان في خدمته ، ونظم قصيدةً امتدح فيها الناصر يوسف على فعله كما هنّأه فيها بشفائه من مرض ألمّ به في شهر شعبان سنة ٦٤٨ هـ / اكتوبر ١٢٥٠م ، وبحلول شهر رمضان المبارك.(٢)

وبعد أن وطّد الناصر يوسف نفوذه في دمشق ، خرج بجيشه إلى مصر ، عازماً على الانتقام من المماليك ، وإحياء الدولة الأيوبية في مصر ، وخرجت معه فرقة من جيش حماة بقيادة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري(٣). وهي تمثل مساهمة مملكة حماة في محاولة استعادة الأسرة

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٥٨ أ – ب .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٥٦ ب .

الأيوبية لسلطتها في مصر ، وفي الطريق إلى مصر نَظَم شيخ الشيوخ قصيدةً يحث فيها الناصر يوسف على الدخول إلى مصر ، وضمّها إلى مملكته ، مشيراً إلى أنّه الأحق بها من غيره ، باعتباره من أحفاد صلاح الدين الأيوبي(١) . لكن الناصر يوسف مُني بهزيمة نكراء في ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م(٢).

ولما آنست غازية خاتون الرشد من ابنها المنصور الثاني ، دفعت إليه مقاليد الحكم في حماة فاستقل بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، بعد أنْ حفظتها له منذ وفاة والده ، ولم تلبث أن توفيت بعد ذلك بأيام قليلة(٣) . وقد أجمع المؤرخون على أنها كانت صالحةً ،

---

(١) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٧ . ومن أبيات تلك القصيدة مايلي :

على طالع الإقبال والسعد والنصر ... مسيرك محروس الركاب إلى مصر

فأنت صلاح الدين وابن صلاحه ... ولاَ مَلِكٌ أولى منك بالنهى والأمر

وما أحد لليوسفين بثالث ... سواك ، وللبكرين والشمس والبدر

قدِمت طويل الباع منشرح الندى ... بسيط رحاب المجد والشكر والعمر

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٠ – ١٩١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦ – ٨ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤٧ ب ؛ العليمي : التاريخ المعتبر، ج ١ ، ورقة ٧٧ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٨٥ .

زاهدةً ، ديّنة ، حسنة السيرة ، محبةً للخير وأهله ، حريصةً على إقامة العدل بحماة.(١)

وأنجبت غازية خاتون للمظفر الثاني ثلاثة أبناء ، هم : المنصور محمد ، والأفضل علي ، وثالث توفي صغيراً قيل إنّ اسمه عمر ، وثلاث بنات : الكبرى منهن اسمها ملكة خاتون ، وتوفيت قبل أمها بوقت قصير ، والصغرى اسمها دنيا خاتون توفيت سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٤٠ م ، بعد وفاة أخيها المنصور الثاني (٢) . وثالثتهن مؤنسة خاتون – وهي بلا شك الوسطى منهن – التي بنت المدرسة الخاتونية بحماة(٣) ، ولم أقف على تاريخ وفاتها .

وكانت فاظمة خاتون – أم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق – قد توفيت في الرستن قبيل وفاة أختها غازية خاتون بأيام قليلة ، وكانت في طريقها إلى حماة لزيارة أختها(٤) . وتشير هذه الزيارة إلى التحسن الكبير الذي طرأ على علاقات مملكتي حلب وحماة في هذه الفترة .

وإثر وفاة غازية خاتون سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، وقع خلاف بين ولديها المنصور الثاني ، والأفضل علي ، عزم معه الأخير على ترك حماة

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤٧ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج ١ ، ص ٧٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٨٥.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٤٧ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص١٩٦؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٨٥ .

(٣) ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٧ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٧٩ .

(٤) الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

والخروج منها . ولم يتردد أخوه المنصور الثاني في الإذن له بالرحيل . لكنّ شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري تدخل في الوقت المناسب ، وسعى لرأب الصدع بين الأخوين ، حيث اجتمع بالأفضل علي وبين له كيف يتعامل مع أخيه الأكبر ويحترمه ، كما اجتمع بالمنصور الثاني ، وقبّح عنده مفارقة أخيه ، والسماح له بالرحيل . وما برح يسعى بينهما بالصلح ، حتى رضي كل منهما عن أخيه ، وعادت المحبة بينهما كما كانت في السابق ، ولم يحدث أن اختلفا بعد ذلك أبداً(١). وهذا الخلاف الذي حدث بين المنصور الثاني والأفضل علي هو الثاني من نوعه الذي يحدث بين أفراد من الأسرة التقوية الحاكمة في حماة . إذ سبق ذلك خلاف الأخوين المظفر الثاني والناصر قلج أرسلان .

وفي مصر وقع الخلاف بين المماليك نتيجة مقتل فارس الدين أقطاي، الذي قُتل بأمر السلطان المعز أيبك فخرج أنصار القتيل وهم المعروفون بالمماليك البحرية(٢) ، وأعلنوا تمردهم على المعز أيبك ، وتوجهوا إلى الشام ، فآواهم الناصر يوسف ، لكنه ما لبث أن غضب عليهم ، فطردهم من بلاده ، فسارو إلى الكرك ، وقصدوا ملكها المغيث(٣) وصاروا من أتباعه ، فأثار ذلك غضب الناصر يوسف فجهزّ جيشاً لقتالهم ، لكنّهم هزموه، مما حدا بالناصر يوسف أن يخرج بنفسه لقتالهم ، فانضم إليه المنصور الثاني – صاحب حماة – بعساكره ، فتوجهوا إلى الكرك ، وحاصروها ، فلم يسع المغيث إلاّ

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٦ .

(٢) البحرية مماليك الصالح أيوب ، وقيل انهم سمو بذلك لأنه بنى لهم مساكن في الروضة – جزيرة بالنيل – وقيل بل سموا بذلك لأنهم قادمون من وراء البحار . راجع : مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م، ص ٩٦ – ١٠٠ .

(٣) الملك المغيث عمر بن العادل الثاني بن الكامل. استولى على الكرك بعد مقتل تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م ، وانتزعها منه الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م ، واعتقلـــه وكان آخر العهد به . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

طلب الصلح، فاشترط عليه الناصر يوسف تسليمه البحرية ، فاعتقل المغيث من استطاع منهم ، وسلمهم للناصر يوسف ، الذي أودعهم سجن قلعة دمشق ، فيما استطاع بعضهم النجاة بنفسه . وبعد انتهاء هذه الحملة ، عاد الناصر يوسف إلى دمشق ، وأعطى المنصور الثاني إذناً فعاد بجيشه إلى حماة سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨م(١).

أما علاقة مملكة حماة بحمص في زمن المنصور الثاني فكانت جيدة ، ويبدو أنّ العداوة المريرة بينهما قد ماتت بموت قطبيها المجاهد والمظفر الثاني، وكان التفاهم بين المنصور الثاني ومعاصره في حمص الأشرف موسى واضحاً ، وازداد رسوخاً وتعمقاً في ظل الدولة المملوكية ؛ ويبدو أنّ الوزير مخلص الدين إبراهيم بن إسماعيل بن قرناص(٢) ، كان له دور في توثيق العلاقات بين حماة وحمص ، فقد تولى الوصاية على الأشرف موسى الذي خلف والده المنصور إبراهيم في الحكم سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦م وكان لا يزال قاصراً ، وكان الوزير المذكور من أكابر أهل حماة قبل انتقاله إلى حمص.(٣)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٠ أ – ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧١ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص ٣٤٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ص ١٩٨؛ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م) عيون التواريخ . تحقيق : فيصل السامر ، ونبيله عبد المنعم ، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م؛ ج ٢٠، ص ٢١٢– ٢١٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق٤ ، ص ٧٩٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٣٢ – ٤٣٣ . وللمزيد من التفاصيل عن دور البحرية وعلاقتهم بالناصر يوسف والمغيث عمر صاحب الكرك ، انظر : على الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٨٧ – ٢٠٣ .

(٢) كان بيت آل قرناص مشهوراً في حماة وسترد – بمشيئة الله – ترجمات لبعض أفراد هذا البيت في الفصل الأخير من هذا البحث .

(٣) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٦٢ .

وعندما أقدم الظاهر بيبرس على إنهاء حكم المغيث الأيوبي بالكرك سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ، لم يبدِ المنصور الثاني أي امتعاضٍ أو تأسف لإنهاء حكم الأيوبيين بالكرك ، بعكس الأشرف موسى – صاحب حمص – الذي لم يُخْفِ اشمئزازه من إسقاط الإمارة الأيوبية بالكرك(١). وقد أثار ذلك حنق الظاهر بيبرس ، فعزم على انتزاع حمص من الأشرف موسى لكنّ القدر خدمه في هذا المجال ، إذ لم يلبث الأشرف موسى أن توفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م(٢) . وقيل إنه مات مسموماً(٣) فسارع الظاهر بيبرس إلى أخذ ما كان بيده من مناطق كحمص والرحبة(٤) .

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٤ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٩٦ .

(٢) اليونيني : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١١ .

(٤) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن شداد الحلبي، ت ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م) تاريخ الظاهر بيبرس ، نسخة مصورة بمكتبة د. علي محمد الغامدي ، ج٢ ، ورقة ١٩٨ .

علاقة المنصور الثاني بسلطنة المماليك

لقد ارتبطت مملكة حماة الأيوبية بعلاقات مع دولة المماليك المعاصرة لها، كانت خلالها مملكة حماة تعلن خضوعها وتبعيتها للمماليك ، وكان لطول مدة حكم المنصور الثاني دورٌ في أن يعاصر عدداً من سلاطين المماليك ، ويرتبط معهم بعلاقات نستعرضها في هذه الفقرة بالتفصيل .

بعد أن اغتال المماليك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م نصّبوا أيبك سلطاناً للدولة واتّخذ لقب المعز ، وخشيةً من انتقام الأيوبيين أعلن المماليك تنصيب أحد أمراء الأيوبيين وهو الأشرف موسى(١) بن المسعود ملكاً اسمياً على مصر ، فيما تولي المعز أيبك الأتابكية وبيده الإدارة الفعلية لشؤون الدولة ، وكان من أكبر المؤيدين لهذه الفكرة فارس الدين أقطاي الجمدار زعيم البحرية ، وكان أقطاي متحكماً في الدولة " وأمره مطاع في الحقيرة والكبيرة ... والملك المعز معه باسم الملك لا غير"(٢). وكان أنصاره يدعونه بالملك الجواد(٣). وسَمَت نفس أقطاي إلى مصاهرة البيت التقوي الحاكم بحماة ، فبعث إلى المنصور الثاني سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م يخطب منه إحدى شقيقاته ، فأجابه بالقبول ، وعقد قران أقطاي على إحدى بنات المظفر الثاني(٤).

---

(١) الملك الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود اقسيس بن الكامل بن العادل، توفي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩١ .

(٢) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٥ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص ٥٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧، ص ١٠ ؛ مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٣٣ ؛ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، ج ٧ ، " العهد المملوكي " المكتب الاسلامي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٦ .

(٤) بيبرس الدودار (الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار ، ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) ، التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشره : عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى =

وفي السنة التالية (٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) أوفد فارس الدين أقطاي كلاً من فخر الدين محمد بن حنّا ، وشرف الدين قيران الفخري إلى حماة لإحضار زوجته ابنة المظفر الثاني إلى القاهرة(١). واستقبلهما المنصور الثاني بالترحيب ، وجهّز أخته بجهاز عظيم(٢) . فخرجت من حماة في موكب ضم عدداً من المَحفَّات المُغشَّاة بالأطلس ، وغيره من فاخر القماش ، إضافة إلى الحُلّي والجواهر ، ووصل الموكب إلى دمشق ، وتوقف بها لقضاء فترةٍ من الراحة(٣).

أما أقطاي فأخذ يستعد لاستقبال زوجته ، وفي هذا الإطار طلب من المعز أيبك أنْ يخلي له القلعة ليسكنها مع زوجته بحجة أنها من بنات الملوك، ومن غير اللائق أن تسكن في البلد مع عامة الناس(٤). فأُسْقِط في يد

= ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ص ٩٤. وانظر أيضاً محمود شاكر: التاريخ الاسلامي، العهد المملوكي، ص ٣٦ .

(١) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج٢، ورقة ١٤٠ ب؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢٣ ب ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨، ص ٧٩٢ ؛ ابن أيبك :الدرة الزكية، ص ٢٥ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٧٩ – ٨٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨١٢ ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٤٣٠ .

(٢) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٥؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٢٣٦؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ – ١٢ ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩، ص ٤٣٠ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٢٣ ب – ١٢٤ ب ؛ تاريخ الجزري : ورقة ٢٥٠ أ – ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٥٨ ؛ ج ٤ ، ص ٣٦٣ ؛ ابن الجزري : المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٢٣٦ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٥ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٣٤ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص ١٥٧؛ سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣، ص ١٩٧ – ١٩٨ ؛ العبر، ج ٣، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧ ، ص ١٠ –١٢ ؛ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج ٢، تحقيق : محمد محمد أمين ، سعيد عاشور ، ١٩٨٤م ، ص ٥٠٣ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٥٨-٢٥٩ =

المعز أيبك ، فهو لا يقوى على رفض طلب أقطاي ، وإذا استجاب لطلبه وأسكنه بالقلعة فسيخلعه بعد وقت قصير ويتسلطن مكانه ، ولذلك عزم على الفتك به وسارع إلى تنفيذ عزمه ، عندما علم أنّ موكب العروس الأيوبية قد خرج من دمشق متجهاً إلى القاهرة ، وتولى مماليك المعز أيبك عملية قتل أقطاي في القلعة(١).

وقد أفرز مقتل أقطاي نتيجتين مهمتين ، الأولى : خروج اتباعه من البحرية من مصر ولجوئهم إلى الشام ، والثانية : استقلال المعز أيبك بالسلطنة وخلعه للطفل الأيوبي الأشرف موسى بن المسعود(٢) .

والحقيقة أن موافقة المنصور الثاني وأمه على تزويج أقطاي كانت من الأمور العجيبة التي لم يخف الناس – في ذلك الوقت – استغرابهم لها(٣). وقد علّق سبط ابن الجوزي – وهو معاصر للحادثة – على ذلك بقوله : " وعجب الناس من بنت الكامل كيف سمحت لذلك العبد بالمصاهرة مع عدم الكفاية؟! فإنها كريمة الطرفين من ناحية الأب والأم . ولما لم يغر أحد لها غار الله فسلّط على أقطاي من قتله أقبح قتله"(٤).

= ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٧٦ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(١) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٦ ؛ ابن تغري بردى : المنهل الصافي، ج٢، ص ٥٠٤ .

(٢) العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١، ورقة ٨١ ب تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٦٧ أ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٥٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢؛ العيني : عقد الجمان : عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٨٦ . محمود شاكر : التاريخ الاسلامي ، العصر المملوكي ، ص ٢٤ .

(٣) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٥ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٧٩٢ .

وإن يكن الناس – في تلك الفترة – عجبوا من ذلك الزواج بدعوى عدم التكافؤ بين طرفيه ، فإنّ غازية خاتون – أم المنصور الثاني – ومعاونيها الذين كانوا يديرون معها شؤون حماة ، كانت لهم نظرة بعيدة ، فقد أدركوا أنّ المستقبل سيكون لهؤلاء المماليك ، والإرتباط معهم بعلاقة المصاهرة يجنب مملكة حماة الاصطدام بهم ، وبالتالي سقوطها ، ولقد كشفت الأيام عن صحة هذا الإدراك ، فقد تربّع على عرش السلطنة عدد من المماليك – الذين بيعوا في صغرهم في أسواق النخاسة – وغدوا من عظماء السلاطين في التاريخ الإسلامي .

وكما كانت مصاهرة البيت الأيوبي الحاكم في حماة سبباً في مقتل الفارس أقطاي ، كانت هي أيضاً من العوامل التي سببت مقتل المعز أيبك ، ففي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، بعث المعز أيبك إلى المنصور الثاني – صاحب حماة – وإلى بدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – يطلب مصاهرتهما ، وعندما علمت زوجته شجر الدر بذلك ، أخذتها الغيرة ، فاتفقت مع بعض المماليك على قتله ، فاغتالوه في حمام القلعة سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م ، ولم تلبث هي أن لقيت المصير نفسه على أيدي مماليكه انتقاماً له (١).

وإذا أمعنّا النظر في حوادث القتل الثلاث السابقة ، ابتداءً بأقطاي ومروراً بالمعز أيبك وانتهاءً بشجر الدر ، لوجدنا القاسم المشترك بينها هو علاقة ضحاياها – بشكل مباشر أو غير مباشر – بالبيت التقوي الحاكم بحماة .

وعندما وصلت جحافل المغول إلى الشام ، خرج المنصور الثاني إلى

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٢٩ ب – ١٣٠ أ ، ١٣٤ ب ، بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية ، ص ٣٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٨ ؛ تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨١٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج١ ، ص ١١٨.

مصر، والتقى هناك بالسلطان سيف الدين قطز ، واشترك معه في معركة عين جالوت(١) ، وبعد هزيمة المغول في هذه المعركة ، جاء قطز ودخل دمشق سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وكان في معيّته المنصور الثاني(٢) .

وبعد أن استقر بدمشق أحسن قطز إلى المنصور الثاني وأقرّه على حماة وبارين ، وأعاد إليه المعرة ، وانتزع منه سلمية وأعطاها للأمير شرف الدين عيسى(٣) ابن مهنا أمير العرب(٤) . وجاء المنصور الثاني إلى حماة وبرفقته أخوه الأفضل ، وهنّأه شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري ، بنصر عين جالوت ، وباستعادة المعرة .(٥)

ويبدو أنّ قطز قد أقرّ المنصور الثاني على مملكته مكافأة له على مجهوده في معركة عين جالوت ، ومن الطبعي أن يأخذ قطز يمين الولاء من المنصور الثاني باعتباره تابعاً له ، وقد ذكر بعض الباحثين أن المنصور تعهد

---

(١) عين جالوت : وسماها ياقوت : عين الجالوت ، بليدة من أعمال فلسطين بين بيسان ونابلس . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٥ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج١، ص ٣٦٦ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عضية بن فضل بن ربيعة ، الأمير شرف الدين. أمير آل فضل ، وينعت أحياناً بملك العرب ، توفي سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ؛ ابن تغري بردى : الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ٥١٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٨٣.

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٥ ب ؛ ابن قاضي شهبة : الإعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ١٤٨ أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧٤ ب ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٤ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ ؛ وانظر أيضاً : ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٥٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٤٤ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٤٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٧٩٥ ، ٨٢٠ .

(٥) العيني : عقد الجمان : عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

بدفع أتاوة للسلطان قطز(١).

ومهما يكن من الأمر فإن قطز رتب أوضاع الشام ، وعيّن سنجر الحلبي(٢) نائباً بدمشق ، وغادر الشام متوجهاً إلى مصر ، وفي الطريق وثب عليه بيبرس وأصحابه فقتلوه ، وواصلوا طريقهم إلى مصر ، حيث تم تنصيب بيبرس سلطاناً ، ولُقب بالظاهر ، وما أنْ استقر السلطان الجديد بقلعة الجبل حتى كتب إلى الملوك والنواب في بلاد الشام ، ومن بينهم المنصور الثاني – صاحب حماة – يخبرهم باستيلائه على الحكم ، ويحثهم على بذل الطاعة له(٣) . فأجابوه " بالسمع والطاعة "(٤).

ولم يكن الظاهر بيبرس غريباً على المنصور الثاني ، فقد عُرض بيبرس

---

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ١٩٩ ؛ محمود شاكر :التاريخ الاسلامي ، ج ٧ " العهد المملوكي "، ص ٣١ ؛ أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٧٠ ، وأشار في الحاشية إلى أنه استقى هذه المعلومة من :

Lane-poole : A History of Eygpt in the Middle Ages, p. 262

وانظر أيضاً : محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٠ م ، ص ٤١ .

(٢) الأمير سنجر بن عبدالله الحلبي من كبار الأمراء في عهود قطز و الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون ، توفي سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج٨، ص ٣٩ ؛ الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٣ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ج٩، ص٧٥؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ص٦٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٧٤؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص ٢٢٨ ؛ ابن عبد الظاهر (محيي الدين عبدالله بن رشيد الدين عبد الظاهر المصري، ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م ، ص ٧١ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧، ص ١٠٢ – ١٠٣ . السيد الباز العريني : المماليك ، بيروت ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٧٤ .

عندما كان مملوكاً صغيراً للبيع في حماة مع زميل له ، وكاد المنصور الثاني أن يشتريه ، وكان من عادته استشارة والدته إذا أراد ابتياع رقيق ، فطلبت رؤية المملوكين المعروضين للبيع . وعندما رأتهما أدركت بفراستها أن بيبرس مملوك غير عادي ، فبوادر الشر تلوح في عينيه ، فحذّرت ابنها المنصور من شرائه . وسمحت له باقتناء زميله إن أراد ، ثم عادت وردتهما جميعاً ، وكان علاء الدين أيدكين البندقداري مسجوناً بجامع قلعة حماة – كما أسلفنا –(١) فاشترى المملوكين ، ووهب بيبرس للسلطان الصالح أيوب(٢).

وعندما وصلت كُتب الظاهر بيبرس إلى سنجر الحلبي – نائب السلطنة بدمشق – تاقت نفسه إلى الاستقلال بحكم الشام ، فأعلن تمرده في ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وبعث إلى نواب الشام وملوكه – ومنهم المنصور الثاني صاحب حماة – يدعوهم إلى تأييده ، فمنهم من أيده ومنهم من امتنع ، وكان من الممتنعين المنصور الثاني ، الذي أدرك بثاقب بصره أن من يسيطر على مصر سوف يتمكن من السيطرة على بلاد الشام ، لذلك نراه يرفع شعار : " أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان "(٣) . وأعلن بذلك

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٣ ، من هذا البحث .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٨٤ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٢٢ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨١ – ٨٢ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٧ ؛ العيني: عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٤ – ٩٥ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤١ ؛ عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ /١٩٧٧م ، ص ١١ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، ص ١٨ – ١٩.

(٣) العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ب ؛ تاريخ ابن أسباط القربي ، ورقة ٧٦ب، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٣ ؛ ج ٢ ، ص ٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٣١؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٤ .

خضوعه للظاهر، بيبرس واستمراره في تبعيته ، وقد كان المنصور الثاني مصيباً عندما اتخذ هذه السياسة ، فقد تعلّم من حوادث التاريخ الماضية أنّ من يملك مصر بموقعها الجغرافي الفريد ، وبمواردها الطبيعية والبشرية الهائلة ، يستطيع التغلب على سائر منافسيه في بلاد الشام .

وتزامن تمرد سنجر الحلبي في دمشق مع هجوم مغولي على بلاد الشام ، خرج بسببه المنصور الثاني من حماة والتجأ إلى دمشق ، ورغم وجوده في دمشق لم يساند المنصور الثاني سنجر الحلبي ، وامتنع عن الاشتراك في المعركة التي خاضها الحلبي وأنصاره ضد جيش الظاهر بيبرس الذي جاء لإخماد التمرد . وقد شجع المنصور الثاني على اتخاذ هذا القرار اضطراب الأمور على سنجر الحلبي، والضعف الشديد الذي كان بادياً على أنصاره(١).

وكان المنصور الثاني على يقين بأن الظاهر بيبرس سينجح حتماً في القضاء على تمرد سنجر الحلبي . لذلك بعث ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد(٢) بن الملك المسعود عثمان إلى القاهرة ، وحمّله رسالةً إلى الظاهر بيبرس ، تتضمن موقفه المعارض لعصيان سنجر الحلبي . وذلك قبل وصول الجيش الذي بعثه الظاهر بيبرس لسحق فتنة الحلبي ، واستقبل الظاهر

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٥ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٢، ص ٢١٠؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(٢) الأمير ناصر الدين محمد بن الملك المسعود عثمان بن المنصور الأول محمد ، كان ذا منزلة عالية عند ابن عمه المنصور الثاني ، وكان ناصر الدين المذكور فاضلاً وصاحب نظم جيد ، ومن شعره :

لله در عصابة تغشى الوغى ... تهوى الخياطة لا إليه تنتمي
ذرعوا الفوارس بالوشيج وفصلوا ... بالمرهفات ، وخيطوا بالأسهم

اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٨ – ١١٩ ؛ ابن تغري بردى : الدليل الشافي، ج٢ ، ص ٦٥٢ .

بيبرس رسول المنصور الثاني بالحفاوة والإكرام ، وأجابه على رسالته بما طيّب قلبه ، وعاد ناصر الدين محمد إلى المنصور الثاني مكرماً.(١)

وتمكن الجيش المصري من هزيمة سنجر الحلبي وأسْرِه في صفر سنة ٦٥٩ هـ / يناير ١٢٦١ م . وأُعيدت الخطبة للظاهر بيبرس في دمشق كما هي في حماة وحمص وحلب.(٢)

وبعد أن استقر الوضع في دمشق للظاهر بيبرس ، وتراجع الخطر المغولي عن شمال الشام عاد المنصور الثاني إلى حماة.(٣)

أما جيش الظاهر بيبرس المنتصر فقد شرع في تطهير دمشق من الأمراء الذين ساندوا تمرد سنجر الحلبي ، واستطاع أحد أولئك الأمراء ويدعى شمس الدين البرلي ، الخروج من دمشق ، وذهب إلى حلب فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م وأعلن عصيانه على الظاهر بيبرس(٤).

وكان البرلي يسعى للحصول على أنصار في بلاد الشام ، فكتب إلى بعض أمراء حماة واتفق معهم على أن يفتحوا له باباً كانوا يشرفون عليه ليتمكن من دخول البلد ومن ثم يستولي عليه . لكن المنصور الثاني عَلِمَ بالمؤامرة ، عن طريق أحد جواسيسه ، ويدعى ناصر الدين الجذامي ، الذي استطاع التسلل إلى صفوف البرلي والحصول على معلومات عن تلك المؤامرة،

---

(١) اليونيني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ ؛ ابن تغري بردي ، الدليل الشافي ج٢ ، ص ٦٥٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٥ ب ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ٢١٠؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٥ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤، ص ٨٢٤؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٤٠.

وعلى الفور قام المنصور الثاني باستبدال الأمراء الذين اتفقوا مع البرلي بآخرين ، دون أن يعاقب أولئك الأمراء ، أو حتى يُظْهِر لهم علمه بما عزموا عليه من فتح الباب للبرلي ، وحسب الموعد المتفق عليه ، جاء البرلي بقواته إلى حماة ، وانتظر أنْ يَفتح له أحدُ الباب ، ولكن دون جدوى(١) . فلجأ إلى محاولة استمالة المنصور الثاني، فبعث إليه رسالة يعرض فيها تنصيبه سلطاناً ، ويتعهد بالعمل تحت قيادته . ويحثه على إحياء الدولة الأيوبية ، مدعياً أنه لم يعد هناك من بني أيوب من هو أجدر منه للقيام بهذا العمل(٢). فرد عليه المنصور الثاني – عن طريق شخص يدعى ناصر الدوي – قائلاً : " متى وَفّيتم أنتم لأحد من بيت أستاذكم حتى تفوا لي ؟ وأنا مالي حاجة بالملك ، وإنما أنا قانع بهذه البلدة ، وأكون فيها مطيعاً لمن يكون مالكاً للديار المصرية"(٣) ومرة أخرى لم يتردد المنصور الثاني في إعلان تبعيته وخضوعه لمن يملك الديار المصرية .

ولما يئس البرلي من مساندة المنصور الثاني له ، استولى عليه الغضب، فأحرق غلالاً وبيدراً للشعير(٤) كانت خارج سور حماة.(٥) وعاث فساداً في الأراضي الخارجة عن سور البلد ، ثم رحل في نصف رجب سنة ٦٥٩/أغسطس ١٢٦٠م إلى شيزر.(٦)

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٥ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١١ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص٨٢٤؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٤) في اللغة: البيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام، راجع ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص٥٠، مادة : بدر .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٥ ب؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان،ج ٢ ص ١٠٥، ١٢١ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١١؛ العيني : عقد الجمان : عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ؛ عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، ص ٣٣.

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

وفي ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ديسمبر ١٢٦٠م جاء الظاهر بيبرس إلى دمشق، فوفد عليه المنصور الثاني ، والأشرف موسى – صاحب حمص – ليجددا له فروض الطاعة والولاء، فاستقبلهما بالترحاب ، وأهدى إليهما ملابس فاخرة ، وجياداً أصيلة ، فلبسا الخلع ثم قاما وقبّلا الأرض بين يدي السلطان ، وخرجا من مجلسه ، فوجدا خيل النوبة(١) والعصائب(٢)، والجمدارية(٣)، والسلاح دارية(٤)، وشعار الملكة كاملاً(٥) . وركب كل منهما بمفرده ، والأمراء في خدمتهما، وسار بين يديهما أمير آخور(٦) ، ثم أعطىَ الظاهر بيبرس كلاً منهما تقليداً على بلده ، وزيد المنصور الثاني مناصفات بلاد الإسماعيلة ، فيما زيد الأشرف موسى تل باشر ، وحُملت إليهما الأمتعة والتحف ، وعاد كل منهما إلى بلده(٧)، ومَنَحَ الظاهر بيبرس المنصور الثاني

---

(١) النوبة : هي المرة بعد الأخرى ، وتجمع على نوب ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٢٨ .

(٢) العصائب : جمع العصابة ، وهي راية تنسج من الحرير الأصفر ، وتوشى بالذهب وتكتب عليها ألقاب السلطان واسمه . القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٣) الجمدار : لفظتين فارسيتين الأولى جاما ومعناها الثوب ، والثاني دار معناها ممسك الثوب وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. القلقشندي : المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٤٣١.

(٤) السلاح دار : كلمة من لفظين ، الأول عربي " سلاح " والثاني فارسي دار بمعنى ممسك السلاح . القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٥) شعار الملكة : هي الراية التي تنشر فوق رأس السلطان إذا سار في موكبه بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، ص ١٥٩ ، حاشية رقم ٢ .

(٦) أمير آخور : مركب من لفظين أحدهما عربي " أمير " والثاني فارسي " آخور " ومعناه المَعْلَف ، والمعنى : أمير المعلف ، وهو الذي يتحدث على اصطبل السلطان أو الأمير ويتولى أمر ما فيه من خيل أو ابل أو غيرها . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ص٤٣٢.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٦ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٧٠ ب ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٧؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان،ج١، ص ٤٥٤ ، ج ٢ ، ص١٠٨ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٨٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٥ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٧٥؛ =

أيضاً مائة ألف دينار ، ودفعاتٍ متتالية من الخلع، بالاضافة إلى الخيل والسيوف المحلاة والأدرع الفاخرة(١) وقيل بل أعطاه ثمانين ألف دينار فقط وحملين من الثياب.(٢)

ومن المرجح أن الأفضل علي كان مع أخيه المنصور الثاني في هذه الزيارة، حيث شاهد الاثنان الظاهر بيبرس وهو يلعب بالكرة(٣) في ميدان دمشق(٤).

ويبدو أن الظاهر بيبرس قصد بإقرار المنصور الثاني على حماة وزيادةً عليها مناصفات بلاد الإسماعيلية أنه كان ينوي مهاجمة قلاع الاسماعيلية بالشام ولهذا لا يستبعد أن يكون قد أراد اطماع صاحب حماة في نصف بلادهم لعله يكفيه حربهم ولمعارضته لتمرد سنجر الحلبي وشمس الدين البرلي ، وما أصابه من ضرر بسبب معارضته لذينك المتمردين . والجدير بالذكر هنا أنّ إعطاء المنصور الثاني مناصفات بلاد الإسماعيلية كان من الناحية النظرية فقط ، لأن الظاهر بيبرس

= المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٧ ؛ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣١٧ ؛ شافع بن علي (شافع بن علي بن عباس ، ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م) حُسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ، ص ٩٧ - ٩٨ ، وقد خلط بين ما أُعطي للمنصور وما أُعطي للأشرف ، فجعل للأول تل باشر وللثاني بلاد الإسماعيلية .

(١) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٢١٠ أ - ب .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٥٤ ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

(٣) الكرة أو الأكرة هي اللعبة المعروفة الآن باسم " بولو " واهتم بها سلاطين المماليك ووضعوا لها القواعد والنظم وتلعب في ميدان خاص يقف على جانبية عدد من الفرسان بيد كل منهم عصا طويلة ، وفي وسط الميدان كرة ويحاول كل فريق اجتذاب الكرة إلى جانبه . ولمزيد من التفصيل . انظر : سعيد عاشور : الظاهر بيبرس، ص ١٩٠-١٩١.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٨ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٧١ .

لم تكن له أي سلطة على بلاد الإسماعيلية في ذلك الوقت.(١)

ولما دخل الظاهر بيبرس دمشق عين أستاذه علاء الدين أيدكين البندقداري نائباً عنه في حلب ، وكان البرلي قد سيطر عليها ، وعندما اقترب أيدكين من حلب انسحب منها البرلي في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م ، فدخلها النائب الجديد ، لكنه لم يستقر بها طويلاً ، إذ عاد البرلي وأرسل إليها جماعةً من أصحابه، فلما دنوا منها، اضطر نائبها أيدكين لتركها سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م . حيث انسحب إلى حماة وأقام بها منتظراً ما ستسفر عنه الأيام القادمة ، ولما تمكن الظاهر بيبرس من القضاء على تمرد البرلي عاد أيدكين إلى نيابته.(٢) وكان الظاهر بيبرس قد استدرج البرلي حتى قبض عليه سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣ م ، وأودعه السجن حتى فارق الحياة سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م.(٣)

وفي المحرم سنة ٦٦٠ هـ / نوفمبر ١٢٦١م بعث المنصور الثاني رسالةً إلى الظاهر بيبرس ، نقلها إليه شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري، فأحسن السلطان استقباله وبالغ في احترامه وقضى الشغل الذي أُرسل من أجله.(٤)

وكان الظاهر بيبرس قد رشّح ابنه السعيد بركة خان(٥)لولاية العهد

---

(١) عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٦ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص ١١٣ – ١١٤ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٩٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٤٦ .

(٣) ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ١٤٤، وهو عنده البرنلي وليس البرلي .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٨٣ ب .

(٥) الملك السعيد محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس ،الخامس من سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى السلطنة سنة ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م ، وخلع سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩م. وتوفي بالكرك في العام نفسه ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٨٦ – ٢٩٢ .

في هذه السنة (٦٦٠ هـ /١٢٦٢ م) وطلب من الملوك والنواب العاملين في الدولة مبايعته . فجاءته البيعة من كافة أنحاء الدولة.(١)

ويبدو أن الظاهر بيبرس غضب من بعض تصرفات المنصور الثاني الذي شعر بدوره بغضب السلطان ، فبعث شيخ الشيوخ مرة ثانية إلى القاهرة في رمضان سنة ٦٦٠هـ / يونيو ١٢٦٢ م وعندما وصل شيخ الشيوخ إلى دمشق ،استقبله النائب بها ، وقام بواجب الضيافة نحوه ، وكتب إلى السلطان يخبره بقدومه ، فجاء جواب السلطان بالمبالغة في إكرامه، وترتيب الإقامات له في المناطق التي يمر بها من بلاد الشام حتى يدخل الحدود المصرية ، ولما وصل شيخ الشيوخ إلى المطرية(٢) ، وجد المهمندار(٣) في استقباله ، ومعه جماعة من أتباعه ، وفرس من خيل النوبة ، فركبه شيخ الشيوخ ودخل القاهرة ، حيث أُنزل بالقصر في القاهرة المعزية ، والإقامات والضيافات تصل إليه في كل وقت(٤). وبعد ثلاثة أيام من وصوله اجتمع شيخ الشيوخ بالسلطان الظاهر بيبرس ، فوجده عاتباً على المنصور الثاني لانشغاله باللهو عن مصالح الرعية(٥). وتحدث السلطان مع شيخ الشيوخ بواسطة ترجمانه فارس الدين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٩ ب ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣٧٠ .

(٢) المطرية : من قرى مصر ، جنوب عين شمس (وهي الآن من أحياء القاهرة) . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) المهمندار : مركب من لفظين فارسيين : مَهْمَن ومعناها الضيف ، ودار ومعناه ممسك ، فيكون المعنى : ممسك الضيف وهو الذي يستقبل الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٣١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٩٠ ب .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٩٠ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٧٤ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ؛ العيني : عقد الجمان عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٣٣ – ٣٣٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ .

الأتابك(١) ، وأنكر على المنصور الثاني انهماكه في الملذات(٢) . ثم تحدث السلطان مع شيخ الشيوخ مباشرة بدون ترجمان ، وقصد السلطان بالحديث الأول الذي تم بواسطة الترجمان إطلاع الأمراء الحاضرين – ويبدو أن بعضهم لا يعرف العربية – على مدى غضبه من تصرفات المنصور الثاني حتى لا يفكر أحد منهم في انتهاج نفس العمل الذي كان عليه المنصور ، ثم طلب السلطان من شيخ الشيوخ البقاء في مصر وإرسال الجواب إلى المنصور الثاني(٣).

ولم يستطع المنصور الاستغناء عن شيخ الشيوخ ، فتوالت كتبه على السلطان الظاهر بيبرس ، يناشده فيها السماح بعودة شيخ الشيوخ إلى حماة، فجهّزه السلطان وقدّم له الهدايا والنفقات وسيّره إلى حماة في أحسن حال(٤). فوصل إليها وزَفّ للمنصور الثاني البشرى برضى السلطان عنه(٥).

ويبدو أن المغول علموا – عن طريق جواسيسهم – أن الظاهر بيبرس حانق على المنصور الثاني ، فسعوا إلى الاستفادة من هذا الوضع فبعثوا قصاداً(٦) من قبلهم ، وفي أيديهم فرمان للمنصور الثاني ، وما أن وصلوا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦، ورقة ١٩٠ ب ؛فارس الدين أقطاي الصالحي المستعرب، توفي سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م ؛الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٧٤ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٥؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٩٠ ب .

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٩١ أ – ب .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٧٤ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٥، العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ .

(٦) القصاد : جمع قاصد وهو المبعوث أو النائب أو الرسول ، بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤٧ ، حاشية رقم ٢ .

إليه حتى قبض عليهم وبعثهم – ومعهم الفرمان – إلى الظاهر بيبرس(١). وقد ظن البعض أن رسل المغول جاءت إلى المنصور الثاني ليرسلهم بدوره إلى الظاهر بيبرس(٢) . ولم يكن الأمر كذلك إنما كان قصد المغول استمالة المنصور إلى جانبهم(٣)، لكنه لم يستجب لهم وبعث برسلهم إلى الظاهر بيبرس ، الذي اعتقلهم وأودعهم السجن ، وشكر المنصور الثاني على حسن تصرفه.(٤)

ويبدو أن الظاهر بيبرس كان يراقب تصرفات المنصور الثاني في حماة، وينظر بقلق بالغ إلى انهماكه في اللهو وانشغاله عن أمور الرعية . لذلك استدعى السلطان في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م الطواشي شجاع الدين مرشد المنصوري إلى القاهرة ، وتباحث معه بشأن الوضع في حماة ، وأنكر السلطان على المنصور الثاني تشاغله باللهو والملذات عن إدارة شؤون الرعية ، وطلب السلطان من الطواشي مرشد لفت نظر المنصور إلى هذه القضية ، لأن السلطان سبق وأن تباحث مع شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري في هذا الموضوع ، لكن يبدو أن شيخ الشيوخ قد عجز عن إقناع المنصور الثاني بالتخلي عن الأمور التي تشغله عن شؤون الرعية في حماة . وفي نهاية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٨١ أ – ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ١٧٤ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٢٨ ، بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ ، حاشية رقم ٢ .

(٣) شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ١٠٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٨١ أ – ب ؛ اليافعي :جامع التواريخ المصرية، ورقة ١٧٤ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٢٨ ، بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ج ٩، ص ٩٢ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ١٠٢ – ١٠٤؛ المقريزي: السلوك، ج١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٣٤.

الاجتماع أصدر السلطان أمراً يصبح بموجبه الطواشي مرشد قائداً لعسكر حماة . وحث السلطان القائد الجديد على الاهتمام بأمر العسكر الحموي ، والعمل على تسليحه تسليحاً جيداً ، وتسيير الدوريات بشكل منتظم ، والبقاء – دائماً – على أهبة الاستعداد ، ليتمكن من أداء ما يُناط به من واجبات(١) .

ويبدو أنّ المنصور الثاني صاحب حماة لم يرعوِ عما كان فيه من لهو ، مما أثار غضب السلطان الظاهر بيبرس بشكل كبير ، وعندما شعر المنصور الثاني بغضب السلطان من تصرفاته وتغيّره عليه خشي عاقبة ذلك ، فاستشار أصحابه ، فأشاروا عليه بإيفاد الطواشي شجاع الدين مرشد إلى السلطان والاعتذار إليه وتطييب خاطره . وبالفعل توجه الطواشي مرشد إلى مصر، وعندما اقترب من القاهرة ، خرج السلطان الظاهر بيبرس لاستقباله ، وبالغ في إكرامه ، وأعطاه أماناً مما كان يحذر منه . وعندما أراد الطواشي مرشد التباحث مع السلطان في الموضوع الذي قدم من أجله ، دخل عليه في مجلسه العام ، فقام إليه السلطان ، واعتنقه ، وأجلسه إلى جواره ، وأجابه إلى كل ما طلبه(٢).

وهنا نشير إلى أنّ السلطان الظاهر بيبرس رغم عتبه المتكرر على المنصور الثاني إلاّ أنّه لم يفكر في تنحيته عن عرش حماة ، ويبدو أنه كان يُقَدّر فيه مواقفه المخلصة التي ما انفكّ يعلنها في كل مناسبة . كما أن السلطان الظاهر بيبرس كان يهمه بقاء جيش حماة على أهبة الاستعداد بسبب الموقع المهم الذي تحتله حماة ، فهي ثغر في مواجهة الاسبتارية المتمركزين في

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٨٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥٠٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩٣ .

(٢) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٢٠٩ أ – ب .

حصن الأكراد ، كما أنها قريبة من بلاد الإسماعيلية ، وهي كذلك غير بعيدة عن قواعد المغول في بعض مناطق الجزيرة ، ولذلك أسند السلطان مهمة قيادة القوات الحموية للطواشي شجاع الدين مرشد، الذي يتمتع بخبرة وشجاعة كافيتين .

وفي إطار اهتمامه الدائم بالجيش ، كلّف السلطان الظاهر بيبرس الأمير سيف الدين بلبان الزيني(١) بالسفر إلى الشام ، وتفقد حصونه وقلاعه، واستعراض عساكر حماة وحلب والقوات المرابطة في الثغور الشامية ، وإلزام النواب في بلاد الشام ، وأمراء الجيوش هناك بتكميل العدد والعدة ، والاستعداد للجهاد ، وحمل الأمير سيف الدين معه مراسيم(٢) صادرة من السلطان إلى النواب وقادة الجيش بهذا الخصوص ، ووصل الأمير سيف الدين إلى الشام ، في جمادى الأولى سنة ٦٦٢ هـ / مارس ١٢٦٤م وأدّى المهمة التي أرسل من أجلها(٣).

واهتم النواب في الشام – ومن بينهم المنصور الثاني – بتنفيذ توجيهات السلطان ، حتى إنه لم يعد لهم شغل إلاّ تجهيز الجيوش والاستكثار من العساكر ، وترميم التحصينات(٤).

وأصابت الظاهر بيبرس وعكة صحية ، فوصلته كتب المنصور الثاني يستأذن في السماح له بزيارته ، والاطمئنان عليه ، فأذن له بذلك ، وخرج

---

(١) بلبان بن عبدالله الزيني الصالحي ، مقدم البحرية ، توفي سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م . ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٢) مراسيم : جمع مرسوم ، أخذاً من قولهم : رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٩٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٠؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩٧ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢١٠ .

السلطان للصيد نواحي العباسة(١) . وعندما اقترب منها موكب المنصور الثاني ، خرج السلطان لاستقباله في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧ م ، وأرسل له ولمن معه التشاريف(٢) ، ثم عاد السلطان إلى قلعة الجبل(٣) . أما المنصور الثاني فطلب من السلطان السماح له بزيارة الاسكندرية فسمح له ، وسيّر بصحبته الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري(٤). وأمر المسؤولين في الاسكندرية بإكرامه وفرش البُسط بين قوائم فرسه(٥) . كما أمر نائب الاسكندرية أن يحمل إليه كل يوم مائة دينار من بيت المال ، وأن يترك له حرية اختيار ما يلائمه من ثياب من دار الطراز(٦).

وقضى المنصور الثاني في الاسكندرية مدةً من الزمن، كان خلالها محط احترام الجميع ومحل تقديرهم ، ثم عاد إلى القاهرة ، وخرج منها يوم

---

(١) العباسة : بليدة في مصر ، وهي أول ما يلقى القاصد إليها من الشام ، وتبعد عن القاهرة خمسة عشر فرسخاً ، ونسبتها إلى العباسة بنت أحمد بن طولون . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(٢) التشاريف والخلع ملابس متنوعة تختلف درجاتها حسب مكانة الممنوحة له.وكانت خلعة صاحب حماة من أعلاها رتبة . ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٦٠ ؛ شافع بن علي : حُسن المناقب ، ص ٢٤١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٦ .

(٤) سنقر بن عبدالله الألفي الظاهري بيبرس ، تولى نيابة السلطنة في الديار المصرية في عهد الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس ، مات معتقلاً بالاسكندرية سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨٢م ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩٣ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤ ؛ العيني : عقد الجمان عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ص ٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

السبت السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م ، بصحبة السلطان الظاهر بيبرس متوجهين إلى الشام ، ولما وصلا غزة ، فارق المنصور الثاني السلطان ، وقصد مدينة الخليل(١)للزيارة ، ثم توجه إلى القدس، ومنها عاد إلى حماة ، وقد كلّف السلطان الأمير جمال الدين بن نهار(٢) بمرافقة المنصور الثاني في سفره ، وتوفير الإقامات له حتى يصل إلى بلده(٣).

ولقد اشتهر السلطان الظاهر بيبرس بخفة الحركة ، والانتقال السريع من مكان إلى آخر :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز و بالشـــام يوماً ويوماً في قرى حلب

فقام في هذا الإطار بعدة زيارات لحماة . ففي سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م ، دخل السلطان الظاهر بيبرس حماة ، وكان عائداً من الحجاز بعد أداء فريضة الحج(٤)، وفي ربيع الآخر من العام نفسه (٦٦٨ هـ/١٢٦٩م) عرج السلطان أيضاً على حماة وكان في طريقه للجهاد(٥).

---

(١) الخليل : بلدة بفلسطين بينها وبين القدس مسيرة يوم ، وفيها قبر ابراهيم الخليل عليه السلام . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٢) الأمير جمال الدين ابراهيم بن نهار اللخمي الصالحي المصري كان أميراً فاضلاً، ارتبط بالصالح علي بن قلاوون وتولى وظيفة مهمنداراً عنده ، ولما بويع الصالح علي بولاية العهد اختار ابن نهار ليكون استانداره ، وقد توفي الاثنان في عام واحد سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م ؛ ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٤ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٤١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ ؛ **Selections From Tarik Ibn Al-Furat ,p.128**

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٩؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٣ ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠، ص ٣٨٠؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٤٨ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .

(٥) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص٦٨ ، أبو الفداء : المختصر، ج٤ ، ص ٦ ؛ ═

ولقد ارتبطت حماة – منذ أن ضمّهاصلاح الدين الأيوبي إلى مملكته – بعلاقات مباشرة مع طائفة الإسماعيلة ، بسبب موقعها القريب منهم ، وهذا ما دفع السلطان الظاهر بيبرس إلى إعطاء المنصور الثاني – صاحب حماة – مناصفات بلاد الإسماعيلية ، وأشرنا إلى أنّ ذلك كان من الناحية الشكلية ، بل إن زعماء الإسماعيلية بعثوا إلى الظاهر بيبرس في بداية حكمه يهددونه إن هو تجرّأ عليهم ، فلم يسعه إلاّ الإذعان لهم(١) لكنّ الخلافات مالبثت أن تفجرت بين زعماء الإسماعيلية في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م ، إذ جاء أحدهم وهو صارم الدين المبارك(٢) بن الرضي ، ومعه هدية سنية ، والتقى بالظاهر بيبرس ، وكان المنصور الثاني هو الذي رتّب لهذا اللقاء ، وشفع في صارم الدين ، وأقنع السلطان الظاهر بيبرس بإسناد الحكم في بلاد الإسماعيلية إليه، وإعطائه تقليداً بذلك ، وقد اتفق السلطان مع صارم الدين على أن تكون مصياف وبلادها خاصة بالسلطان، فيما يتولى صارم الدين حكم باقي مناطق الإسماعيلية باعتباره نائباً عنه ، واختار السلطان الأمير عز الدين العديمي(٣) لينوب عنه في حكم مصياف ، وتوجه صارم الدين وبرفقته عز الدين العديمي إلى بلاد الإسماعيلية ، وتمكنا من دخولها ، لكنّ صارم الدين طرد عز الدين العديمي ، واستقل بالحكم ، وأعلن عصيانه على الظاهر بيبرس(٤).

= ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٤؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ١٩١ أ – ب ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٨٤ .

(٢) الأمير، صارم الدين مبارك بن رضي الدين أبي المعالي ، من زعماء الاسماعيلية ، ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

(٣) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي اطلعت عليها .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣١ – ٤٣٢ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص١٤٤؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٦ – ٥٨٧ .

وعندما علم الظاهر بيبرس بعصيان صارم الدين ، اهتم بموضوعه ، وفي المقابل كان المنصور الثاني يخشى من غضب السلطان عليه ، لأنه كان السبب في تعيين صارم الدين نائباً في بلاد الإسماعيلية(١).

وبالفعل حمّل السلطان الظاهر بيبرس المنصور الثاني مسؤولية ما حصل في بلاد الإسماعيلية فبعث إليه الجمال معالي بن قدوس(٢) ، ونجم الدين الكنجي(٣)، على خيل البريد، وأمره بالمسير بعسكره إلى مصياف ، والقبض على صارم الدين ، فخرج المنصور الثاني بالعساكر إلى بلاد الإسماعيلية ، وعندما اقترب من مصياف ، خرج منها صارم الدين ، والتجأ إلى العُلَّيْقة(٤)، فدخل المنصور بجيشه مصياف في رجب سنة ٦٦٨هـ/ مارس ١٢٧٠(٥).

ولما علم السلطان الظاهر بيبرس بنجاة صارم الدين ، كتب إلى المنصور يلومه على تمكينه من الهرب ، ويلّزمه بالقبض عليه(٦) . فما كان من المنصور إلاّ أن تحايل علي صارم الدين واستدرجه حتى تمكن من القبض عليه ، وأرسله إلى السلطان ، الذي اعتقله بأحد أبراج سور القاهرة ، في ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ / يونيو ١٢٧٠م(٧)، وكان صارم الدين كبير الثقة

---

(١) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٤٤ .

(٢) لم أعثر على ترجمة له فيما توفر لدي من مصادر .

(٣) لم أعثر على ترجمة له فيما توفر لدي من مصادر .

(٤) العُلَّيْقة : قلعة على جبل ، وهي من قلاع الاسماعيلية . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٤٤، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ .

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٤٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ ، وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

بالمنصور الثاني ، لذلك نزل من العليقة لمقابلته فكان ثمن هذه الثقة أن حُمل مُكبلاً إلى القاهرة(١) .

وترددت الأنباء عن خروج بعض القبائل العربية على طاعة الظاهر بيبرس ، مما دفعه للخروج من مصر ، ليتأكد بنفسه من صحة تلك الأنباء، فنزل بظاهر حماة في منتصف شهر صفر سنة ٦٧٠ هـ / سبتمبر ١٢٧١ م ، فخرج المنصور الثاني للقائه ، ولم يعد إلى قلعة حماة ، بل نصب له خيمةً في معسكر السلطان وأقام بها ، ولم يشأ أن يقيم بقصره بينما يقيم السلطان بجواره في الخيام ، وقد تكفل المنصور الثاني بتوفير الإقامات والضيافة للسلطان وأتباعه مدة إقامتهم ، لأنّ السلطان خرج بأتباعه من غير زاد (٢).

ومن المرجح أن السلطان أمر المنصور الثاني – في هذا اللقاء – بزيادة عدد عسكر حماة من ستمائة إلى ثمانمائة فارس ، وقد سارع المنصور الثاني إلى تنفيذ أمر السلطان (٣) .

أماالقبائل التي خرج السلطان لمعرفة نواياها ، فقد تدفق شيوخها إلى معسكر السلطان ، وجددوا له طاعتهم وولاءهم.(٤)

ثم عاد السلطان الظاهر بيبرس إلى دمشق ، ومكث بها حتى حل عيد الأضحى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م ، حيث جاء إلى خدمته المنصور الثاني ، فأحسن السلطان استقباله ، " وأمر بجلوسه معه بطراحة ومسند وكرسي، في رأس السماط مسامتاً للسلطان"(٥).

---

(١) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٩٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق٢، ص ٥٩٩؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٦٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ .

(٥) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٠٢ ؛ وانظر أيضاً : النويري: نهاية الأرب ،ج ٣٠، ص ١٩٢ .

وفي سنة ٦٧١ هـ / ١٢٦٢ م ، زار السلطان الظاهر بيبرس حماة ، فاستضافه المنصور الثاني ، وأنزله بدار المبارز ، واستغل بعض أهل حماة وجود السلطان بينهم ، فكتبوا إليه يشتكون من ملكهم المنصور الثاني ، فأمر السلطان بجمع الكتب التي تضمنت تلك الشكاوي ، وحَمْلِها إلى المنصور الثاني ، دون أن يطّلع على أي منها . وكانت فرصة للمنصور الثاني ليعرف هوية الأشخاص الذين كتبوا تلك الكتب ، وهذا ما كان يتوق له بعض أفراد حاشيته . لكنّ حِلم المنصور الثاني وربما إذعانه لمطالب رعيته ، وخشيته من عقاب الظاهر بيبرس ، أبى عليه أنْ يفعل ذلك ، فأمر باحضار نار، وأحرق بها الكتب جميعاً ، دون أن يطلع على واحد منها(١).

ويبدو أنّ السلطان كان يشك في صحة تلك الشكاوي ، ولم يشأ – في الوقت نفسه – إحراج مُضيْفه المنصور الثاني ، لذلك لم يطلع عليها ، ولم يتلفها، وإنما دفعها إلى المنصور الثاني ، ليعالج هذه القضية بنفسه ، وتركت حركة السلطان تلك أثراً طيباً في نفس المنصور ، الذي شكر السلطان على تصرفه، وخلع على الرسول الذي حمل إليه تلك الشكاوي ، وعمد إلى إحراق الشكاوي حتى لا تتغير معاملته للذين اشتركوا في كتابتها والذين ربما كان بعضهم من حاشيته والمقربين إليه(٢).

وكان السلطان الظاهر بيبرس يُسند إلى المنصور الثاني مهمة التعامل مع طائفة الإسماعيلية ، نظراً لقرب بلادهم منه ، ولم تكن الإسماعيلية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، حوادث سنتي ٦٧١هـ ، ٦٨٣هـ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٦٧ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص١٥٩؛ العيني : عقد الجمان عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٦ – ٣١٧ ؛ ابن نصر الله: شفاء القلوب ، ص ٤٤٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، حوادث سنة ٦٧١هـ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ص١٩، ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص٢٦٧ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٩؛ العيني:عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٦ – ٣١٧ .

لتسلّم بهزيمتها من المماليك . لذلك أعلن زعماء الكهف(١) تمردهم ، على الظاهر بيبرس ، ورفضوا تسليم حصنهم إلى نوابه ، فما كان منه إلاّ أن فوّض المنصور الثاني في التفاوض معهم ، وأخْذ الحصن منهم ، فتوالت كتب المنصور عليهم ، تطالبهم بالاستسلام ، فما أعاروها أذناً مصغية ، وتمادوا في غيهم، فأخبر المنصور الثاني السلطان بما آل إليه أمرهم ، فأمر السلطان حاميات المناطق المجاورة لهم بشن الغارات عليهم ، ومضايقتهم ، فساءت أحوال سكان الكهف نتيجة لذلك ، فأذعنوا لأمر السلطان ، وأرسلوا مفاتيح حصنهم إلى المنصور الثاني الذي سلمها بدوره إلى أحد أمراء السلطان ، فدخل ذلك الأمير الحصن في ذي الحجة سنة ٦٧١ هـ / يونيو ١٢٧٣ م ، وبعث إلى السلطان يخبره بذلك(٢).

وبعد نجاح المنصور الثاني في هذه المهمة ، بقي في عاصمة ملكه حماة حتى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤م حينها قام بزيارة إلى القاهرة ، وفي طريقه إليها مرّ بدمشق حيث دخلها في الثاني من شهر محرم سنة ٦٧٣ هـ / يوليو ١٢٧٤م ، وبمعيته أخوه الأفضل وابنه المظفر(٣) ثم واصل مسيره إلى القاهرة، ووصلها في منتصف المحرم ، وخرج السلطان الظاهر بيبرس لاستقباله بظاهرها(٤) ، وأنزله (بمناظر الكبش)(٥) وبعث إليه أستانداره

---

(١) الكهف : قلعة من قلاع الاسماعيلية على نشز جبل مرتفع يُرى عن بعد. القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٢٠ ب - ٢١ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤١١ - ٤١٢ ك شافع بن علي : حسن المناقب السرية ، ص ٢١٠ .

(٣) البرزالي : المقتفي لتاريخ ابن شامة ، ج ١ ، ورقة ٤٣ ب .

(٤) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٥٢ أ .

(٥) مناظر الكبش : قصر عظيم أنشأه الصالح أيوب على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وسماه الكبش ، ويطل على بركة قارون عند الجسر الأعظم الفاصل بينها وبين بركة الفيل وظل فيما بعد من المنازل الملوكية ، وما زال مكانه يعرف بالكبش حتى =

الأمير آقسنقر الفارقاني(١) ، ومعه السماط السلطاني كاملاً ، فمده بين يدي المنصور الثاني ، ووقف على رأسه كما يفعل مع السلطان ، فما زال به المنصور الثاني حتى أجلسه معه ، وقد بالغ السلطان في إكرام المنصور الثاني(٢). ورغب المنصور الثاني في زيارة جزيرة الروضة(٣)، وسمح له السلطان بذلك ، ويبدو أن تلك الزيارة تمت في الليل ، إذ أمر السلطان بإيقاد النار في البرين - بر مصر، وبر الروضة - وعبر المنصور النيل إلى الروضة(٤).

وعندما انتهت زيارة المنصور الثاني لمصر ، وأراد العودة إلى حماة ، خرج السلطان لتوديعه ، وسار في صحبته حتى قارب الكرك ، وهناك ودّعه وعاد إلى القاهرة.(٥)

= اليوم . ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٥٢ ب ؛ ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مراجعة : سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، حاشية رقم ٦ .

(١) الأمير آقسنقر (آق سنقر) بن عبدالله النجمي الفارقاني ، كان استاذدار الظاهر بيبرس ، ثم نائباً للسلطنة وسجن بعد وفاة الظاهر بيبرس ، ولبث في السجن إلى أن توفي سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م ، وله مدرسة عند داره داخل باب سعادة في القاهرة . ابن تغري بردى : الدليل الشافي ، ج ١، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس، ج ٢ورقة ٥٢ أ ب ؛ البرزالي : المقتفي لتاريخ ابن شامة ، ج ١ ، ورقة ٤٣ ب - ٤٤ أ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٧٦ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٢٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ق ٢ ، ص ٦١٤ .

(٣) جزيرة بالنيل ، يواجه طرفها الشمالي ما يسمى الآن "جاردن سيتي" ، والطرف الجنوبي ، أمام مصر القديمة ؛ أحمد مختار العبادي وسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ١٩٨١م ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٧٦ .

(٥) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج١ ، ورقة ١٤٤أ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٣٠ ، ص ٢١٥ .

وكان السلطان الظاهر بيبرس يُعِدُّ ابنه السعيد بركة خان لتولي الحكم من بعده ، ويحرص على استمالة زعماء الدولة ، ليقفوا إلى جانبه ، فيأمن بذلك من تمردهم عليه ، إذا آلت أمور الدولة إليه ، فقام السلطان في هذا الإطار بتزويج وليّ عهده من ابنة سيف الدين قلاوون أكبر أمرائه ومستشاريه ، وأقيمت مراسم حفل الزواج في القاهرة سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م ، ولم يترك المنصور الثاني تلك المناسبة تمر دون أن يشارك فيها بنفسه ، ليكسب رضى ولي العهد وسلطان المستقبل ، فقَدِم من حماة بهدية سنية ، ولما شارف على القاهرة ، خرج الملك السعيد لاستقباله والترحيب به(١). وأنزل المنصور – كما هي عادته – بمناظر الكبش ، وبعد انتهاء مراسم الزواج عاد المنصور الثاني إلى بلده(٢).

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن توفي سنة ٦٧٦ هـ/١٢٧٧م، وتوفي بعده بقليل شيخه المعروف بالشيخ خضر(٣) . وكان الظاهر يحترمه ، وبنى له زاويةً بحماة أسوة بما فعله في غيرها من أنحاء دولته(٤). وكان الشيخ خضر مسموع الكلمة ، ومعظماً في دولة الظاهر بيبرس ، وكان يكتب إلى المنصور الثاني وإلى غيره من كبار رجال الدولة إذا أراد منهم شيئاً(٥).

---

(١) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ١٠٧ أ .

(٢) ابن شداد :تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢، ورقة ١٠٧ أ ؛ اليافعي: جامع التواريخ المصرية، ورقة ٢١٩ ب ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٦ ؛ العيني :عقد الجمان ،عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٦.

(٣) خضر بن أبي بكر بن موسى العدوي المهراني ، شيخ الملك الظاهر بيبرس ، يقال إنه أخبره بأن المُلْك سيصير إليه ، وأخبره عن أمور أخرى " واتفقت له معه أشياء ، إما عن اطلاع وإما صدفات ، والله أعلم " لذلك اعتقد فيه الظاهر بيبرس وقربه منه ، لكنه نقم عليه وسجنه ومات في السجن سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ص ٢٢٠ – ٢٢٤ .

(٤) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٢١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٢ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣٧٨ – ٣٨٠ .

وبعد وفاة الظاهر بيبرس اعتلى ابنه الأكبر السعيد بركة خان سدة الحكم ، لكنه ما لبث أن خلع سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، وعُيّن أخوه بدر الدين سلامش(١) سلطاناً للدولة المملوكية ، ولُقّب بالعادل ، وكان صغيراً فلزم تعيين أتابك له ، فاختير سيف الدين قلاوون لهذا المنصب ، لكن قلاوون سرعان ما خلع السلطان الصغير واستبدّ بالحكم وتلقّب بالمنصور(٢).

وجاء المنصور الثاني للسلام على السلطان الجديد ، وكَسْب وده ، فوصل القاهرة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠م وكان على رأس مستقبليه السلطان قلاوون ، وأقام المنصور الثاني بمناظر الكبش ، واهتم السلطان به اهتماماً شديداً . وفي يوم الجمعة الخامس من شهر ذي القعدة / فبراير ، بعث السلطان قلاوون إلى المنصور الثاني

---

(١) الملك بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس السلطان السادس لدولة المماليك البحرية، نُصّب سلطاناً وعمره سبع سنين وشهراً ، وخلع بعد خمسة شهور ، ونفي إلى اسطنبول وبها توفي سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م. ابن أيبك الدرة الزكية ، ص ٣٢١ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٧٦ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٣٣ أ ؛ البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة، ج ١ ، ورقة ٨٤ ب ؛ ابن عبد الظاهر (محي الدين عبدالله بن رشيد الدين عبدالظاهر، ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق : مراد كامل، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٦١ .

تقليداً بحماة ، وبارين ، وسَيّر له السناجق(١) السلطانية ، وأربعة صناديق ملأى بالذهب والفضة ، وأربعة أخرى تحوي قماشاً من أفخر الأنواع . كما أهدى السلطان للمنصور الثاني خيلاً أصيلة . وتولى جماعةٌ من كبار الأمراء إيصال هدايا السلطان قلاوون إلى المنصور الثاني ، الذي ألبسهم الخلع، وشكرهم على مجيئهم ، ثم استأذن في العودة إلى بلاده ، فأذن له السلطان؛ وخرج لوداعه في اليوم التاسع من ذي القعدة سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠ م ، وأقام السلطان قلاوون ذلك النهار في بهتيت(٢) ، ليودع المنصور الثاني ، ثم عاد إلى قلعة الجبل في آخر النهار.(٣)

وعندما أعلن قلاوون عن استيلائه على الحكم ، طمع نائبه في دمشق شمس الدين سنقر الأشقر(٤) في الاستقلال بها ، ونصّب نفسه سلطاناً في نهاية عام ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م واتخذ " الكامل " لقباً له، وبعث إلى نواب الشام

---

(١) السنجق : لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح ، وهي راية صفراء صغيرة يحملها السنجقدار ، ويركب بها السلطان في موكبه زمن السلم . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤ ، حاشية "١".

(٢) بهتيت : هناك بلدتان اسم أحدهما بهبط أو بهتيت الحجارة وهي بلدة قديمة شمال المنصورة ، والثانية بهتيم وهي قرية من مديرية القليوبية بضواحي القاهرة ، والبلدة الثانية أقرب إلى الصحيح . المقريزي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٦، حاشية ١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٨-٦٦٩.

(٤) الأمير سنقر الأشقر الصالحي النجمي من أكابر المماليك البحرية ،قبض عليه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، وقتله في سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م ؛ ابن تغري بردى : الدليل الشافي ، ج ١، ص ٣٢٧ .

يدعوهم إلى الاعتراف به سلطانا(١).

وكان من الطبيعي أن يتحرك السلطان قلاوون لإخماد تمرد سنقر الأشقر، فبعث جيشاً إلى الشام ، وعندما وصل جيشه إلى غزة ، اصطدم بفرقة عسكرية ، كان سنقر الأشقر قد بعثها إلى هناك ، ليمنع جيش السلطان من التقدم إلى دمشق ، وكانت فرقة سنقر الأشقر العسكرية تضم قوات من حماة، وقد تمكن جيش السلطان من إلحاق الهزيمة بقوات سنقر الأشقر في غرة المحرم سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، وعادت فلول المنهزمين إلى دمشق(٢).

ولما وصلت فلول المنهزمين إلى دمشق ، أخذ سنقر الأشقر يستعد للمواجهة ، وبعث في طلب النجدات من المناطق المجاورة له في الشام ، فجاءته نجدة من حماة بقيادة الملك الأفضل شقيق المنصور الثاني.(٣)

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٢٣ أ ؛ البرزالي : المقتفى لتاريخ أبي شامة، ج ١ ، ورقة ٨٤ ب ؛ الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ج ٢ ، ورقة ١٨١ ب ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٦١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ١١؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٩٢ ؛ الذهبي : العبر، ج ٣ ، ص ٣٣٨ ب ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣، ص ٣٠٥-٣٠٦؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٧، ص ١٦٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٢٣ ب ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٦٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٧ .

(٣) ابن قاضي شهبة : الإعلام بتاريخ الإسلام ، ج٥ ، ورقة ٢٣٦أ – ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٦ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ ، وقد ذكر أنّ نجدة حماة كانت بقيادة ملكها المنصور الثاني ، وليس هذا بصحيح .

وبعد أن تكاملت الاستعدادات لدى سنقر الأشقر خرج بقواته إلى ظاهر دمشق ، والتقى هناك بجيش السلطان قلاوون في منتصف صفر سنة ٦٧٩ هـ/ ابريل ١٢٨٠ م ، وعندما بدأ الاشتباك ،انسحبت نجدة حماة متظاهرة بالهزيمة فأثّر هذا الانسحاب على موقف سنقر الأشقر ، فلم تسعفه شجاعته وصموده ، فانهزم وتقهقر إلى صهيون ، والتجأ بها(١).

ولم يكن انضمام قوات حماة إلى سنقر الأشقر تغييراً في سياسة المنصور الثاني تجاه السلطان قلاوون : إذ لا يزال المنصور يرفع شعار " أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان " لكنّ قوة سنقر الأشقر وسطوته جعلت المنصور الثاني يتظاهر بتأييده اتقاءً لشره ، ولقد كان لانسحاب النجدة الحموية قبيل اندلاع المعركة أثر كبير في إحباط الروح المعنوية لدى قوات سنقر الأشقر ، فلم تلبث نجدات حلب ودمشق أن سلكت طريق نجدة حماة ، مما سهل على جيش السلطان قلاوون تحقيق الانتصار(٢). ولم يقتصر دور العسكر الحموي على الانسحاب أمام قوات السلطان قلاوون، بل انضم إليها في قتالها لسنقر الأشقرومن صمد معه.(٣)

ومن غير المستبعد أن تكون عملية الانسحاب ، التي نفذتها عساكر حماة سارت وفق خطة جرى الاتفاق عليها مسبقاً بين قائد تلك العساكر – الأفضل علي – وأخيه المنصور الثاني صاحب حماة . وقد كان الانسحاب

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٢٣ ؛ الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج ٢ ، ورقة ١٨١ ب ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٦٥ – ٦٨ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٣٦ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٥ – ٦٧٦ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٧، ص ٢٩٦ ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٦٦.

(٣) ابن أيبك ، الدرة الزكية ، ص ٢٣٦.

مشابهاً تماماً للهزيمة ، لدرجة أنّ بعض الشعراء اعتقد أنها هزيمة حقيقية ، ونظم بهذه المناسبة قصائد اتّهم خلالها الحمويين بالجبن والفرار من المعركة(١).

وتقديراً منه لما قام به المنصور الثاني وقواته من دور في هزيمة سنقر الأشقر، بعث إليه السلطان قلاوون تشريفاً على خيل البريد في ربيع الأول سنة ٦٧٩هـ/يونيو ١٢٨٠م(٢).

ولما قدم السلطان قلاوون إلى الشام ، جاء لزيارته المنصور الثاني ، فخرج السلطان لاستقباله خارج دمشق في صفر سنة ٦٨٠ هـ/ مايو ١٢٨١م ، وأكرمه غاية الإكرام(٣). وأقام المنصور الثاني بداره المعروفة بـ " ابن المقدم " داخل باب الفراديس بدمشق(٤). ولما أراد المنصور الثاني العودة إلى حماة في العشر الوسطى من ربيع الأول / يونيو ، خرج السلطان قلاوون لوداعه وسار معه بنفسه إلى القابون(٥) .

---

(١) الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج ٢ ، ورقة ١٨١ ب – ١٨٢ أ ، وأورد أبياتاً لشاعر يُدعى علاء الدين الوادعي منها :

....	في قوله قل سـامي ومزور
هل أفلح الحموي يوم فراره	ألاّ يُلاقي جيش مصر وسنقر

وله أيضاً :

ألم تصبر في صبر عايلاً	ما كنت في فنّ الحجا خبيرا
قد أفلح الحموي يوم فراره	عن سنقر حتى انتهى مكسورا

ويتضح من البيت الأخير أن انسحاب " فرار " قوات حماة كان من أسباب هزيمة سنقر الأشقر. ويلاحظ أن صدر البيت الأول مطموس ، وكذلك كلمات باقي النص كتبتها كما وجدتها في المخطوطة .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٦٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٧٦.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠١ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٨٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٥) اليونيني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

وكانت جيوش المغول تهدد بلاد الشام سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م ، وأخذ السلطان قلاوون يستعد لمواجهتهم ، وبدأ بتوحيد الصف الإسلامي من الداخل، فقام في هذا الإطار باستمالة الملك المسعود خضر(١) بن الظاهر بيبرس الذي كان يقيم بالكرك ، ويحاول إثارة القلاقل في وجه السلطان قلاوون ، ودارت مفاوضات بين الجانبين ، اشترط خلالها المسعود خضر أن يُكاتب من قبل ديوان الإنشاء السلطاني كما يُكاتب صاحب حماة ، وأن تكون الكرك تحت يده ، فأجابه السلطان قلاوون إلى طلبه ، وتم على هذا الأساس عقد الصلح بين الجانبين(٢).

وهنا نلحظ أن " صاحب حماة " كان يُنعت بلفظ " الملك " في المكاتبات الرسمية التي تصله من السلطان(٣) ، وهذا ما سعى المسعود بن السلطان السابق (الظاهر بيبرس) للحصول عليه .

وكما هي عادة المنصور الثاني في القيام بزيارات متعددة للسلطان المملوكي ، نجده يدخل دمشق في يوم الأضحى سنة ٦٨١ هـ /١٢٨٢م وهو

---

(١) الملك المسعود خضر بن الظاهر بيبرس ، سيطر على الكرك سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م ، وانتزعت منه سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م ونفي ، ثم عاد إلى مصر ، وتوفي بها سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨ م ، ابن حجر (شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٨ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص ١٧٨ ؛ التحفة الملوكية ، ص ٩٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ . ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٨ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ١٢٢؛ محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية ، العصر المملوكي ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

في طريقه إلى القاهرة ، حيث أقام بها يومين بداره داخل باب الفراديس ، ثم غادرها بعد ذلك إلى مصر(١).

وفي المحرم سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م ، وصل المنصور الثاني إلى مصر ، وهو يحمل تقادم(٢) كثيرة منها أقمشة وأمتعة وتحف وخيول(٣) . وخرج السلطان قلاوون في موكبه ليستقبله ، حيث رحب به ، وأنزله بمناظر الكبش كما جرت به العادة(٤). وأهدى إليه السلطان خيلاً مسومة وأقمشة وأمتعة وأشياء حسنة كثيرة(٥). وكان بصحبة المنصور الثاني أخوه الأفضل وابنه المظفر ، وقد استقبل السلطان قلاوون المنصور الثاني يوماً – خلال زيارته هذه – وسأله عن حوائجه ، فأجابه المنصور الثاني قائلاً : "حاجتي أن أُعفى من هذا اللقب ، فإنه ما بقي لي أن ألقب بالملك المنصور وقد صار هذا لقب مولانا السلطان الأعظم ، فأجابه السلطان : بأنّي ما تلقبت بهذا الاسم إلاّ لحُبيٍّ فيك ، ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقبت به ، فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره"(٦).

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٢) التقادم : ما يقدمه أصحاب الاقطاعات للسلطان ، ومنها ما هو سنوي ومنها ما هو طارئ بحكم الظروف والمناسبات وتشتمل التقادم على : خيول ، وقماش ، وأثواب مختلفة ، وأسلحة ، وطيور ، وحيوانات مختلفة . عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ٣١٠ .

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢١٥ .

(٤) بيبرس المنصوري : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢١٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص١٧؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ (الطبعة الثانية، ١٩٧٠) ص ٧١٢ – ٧١٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج٢ ، ص ٢٩٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٣ .

(٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٣ .

ومن خلال الحوار السابق الذي دار بين المنصور الثاني ، والسلطان المنصور قلاوون ، نلمس مدى العلاقة الطيبة التي كانت تربط بين الرجلين ، كما نلحظ الإعجاب الصادق الذي يحمله السلطان قلاوون للمنصور الثاني ، ونستطيع القول أنّ السلطان كان صادقاً في رده على طلب المنصور الثاني ، فهو سلطان الدولة وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها فما الذي يحمله على مجاملة شخص يُعَدّ من نوّابه ؟!

ودلل السلطان قلاوون على محبته واحترامه للمنصور الثاني بعمل آخر حدث أيضاً خلال هذه الزيارة . فقد شفع المنصور الثاني في شخص يدعى إبراهيم كان معتقلاً بأمر السلطان قلاوون . فوردت كتب السلطان إلى المسؤولين في سجن القلعة يأمرهم بإطلاق سراح المذكور ، وإذا لم يكن معتقلاً في سجن القلعة فيتم البحث عنه في أي معتقل كان ، ويُخلي سبيله فوراً(١).

واشترك المنصور الثاني – خلال زيارته هذه – مع السلطان قلاوون في حفر خليج الطيرية(٢) واستغرق الحفر عشرة أيام(٣). كما حضر المنصور الثاني ورفاقه إلى الميدان حيث شاهدوا السلطان وهو يلعب بالكرة(٤). وفي نهاية الزيارة أهدى السلطان للمنصور الثاني مزيداً من التحف والخيول، وأعطاه في مجلس واحد مائةً وعشرين ألف درهم(٥).

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٠ .

(٢) خليج الطيرية (ترعة الطيرية) تخرج من النيل قرب قرية الطيرية وتسمى اليوم "ترعة الحاجر" . انظر : ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٤ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٤ – ٢٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٧ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٩٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٥ .

(٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٥ .

وفي يوم الاثنين الرابع من صفر سنة ٦٨٢ هـ / ابريل ١٢٨٣م ، غادر المنصور الثاني القاهرة ، وخرج السلطان قلاوون لتوديعه(١) ، ووصل المنصور الثاني إلى دمشق في الرابع عشر من الشهرنفسه ، وأقام بها إلى يوم الجمعة الثاني والعشرين منه ، حيث غادرها عائداً إلى حماة(٢).

وبعد أربعة أشهر على هذه الزيارة - وبالتحديد في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة ٦٨٢ هـ / أغسطس ١٢٨٣م - قام المنصور الثاني بزيارة أخرى للسلطان قلاوون ، ولكن في دمشق هذه المرة ، حيث استقبله السلطان - وكما هي عادته - بالحفاوة والإكرام . وقدّم له الهدايا والتشاريف ، وعاد المنصور الثاني إلى حماة في التاسع عشر من رجب سنة ٦٨٢هـ/ سبتمبر ١٢٨٣ م .

وفي أوائل عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م التقى المنصور الثاني بالسلطان قلاوون في دمشق وكان هذا آخر لقاء بينهما(٤).

وفي العام نفسه (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) جاء الأمير ناصر الدين محمد

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧١٣.

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) البرزالي ، المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١١٥ ب - ١١٦ أ ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢١ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ .

بن الملك الأفضل على (شقيق المنصور الثاني) لزيارة السلطان قلاوون في دمشق ، وعاد بعد انتهاء الزيارة متوجهاً إلى حماة ، لكنّ المنية وافته في الطريق بين حماة ودمشق ، فبعث السلطان قلاوون كتاب تعزية إلى المنصور الثاني(١) . ويتضح من هذه الحادثة أن أفراد الأسرة الأيوبية الحاكمة في حماة كانت على علاقة طيبة مع السلطان قلاوون .

أشرنا إلى أنّ أوائل عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م شهد اللقاء الأخير بين السلطان قلاوون والمنصور الثاني ، إذ مرض الأخير في رمضان من العام نفسه ، فوصلت كتب السلطان إلى نائبه بدمشق ، تتضمن استفساره عن صحة المنصور الثاني ، كما قام نائب السلطنة في دمشق بإيفاد أحد الأمراء إلى حماة للاطمئنان على صحة صاحبها(٢).

أما المنصور الثاني فقد اشتدت به وطأة المرض ، فلما شعر بدنو أجله، بعث إلى السلطان قلاوون يُناشده الموافقة على تعيين ابنه المظفر ولياً لعهده ، وكانت أكبر أمانيه أن يسمع موافقة السلطان على طلبه(٣).

ولما وصل جواب السلطان – متضمناً تمنيّاته ودعواته للمنصور بالشفاء – كانت قد مضت ستة أيام على وفاة المنصور الثاني(٤).

---

(١) تاريخ ابن الفرات : ج ٨ ، ص ٧ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٣ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٤.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص٤٤٤ .

ومـن الملاحـظ أن عـلاقـة المنصـور الثـاني بالسلطان قـلاوون كـانت دوماً علـى درجـة عالية من الـودّ والاحـترام ، بعكس عـلاقته مـع السلطان الظاهـر بيبرس التي تخللتها مراحل من الفتور ، وصلت في بعض الأحيان إلى درجة الخلاف .

جهاد المنصور الثاني ضد المغول

في البداية لا بد من الإشارة إلى أن " المغول " و " التتار " اسمان لقبيلتين تقطنان الشطر الشرقي من آسيا الوسطى ، والمنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من الصين ، على روافد نهر عامور ، وأخذ المغول اسم التتار لانتمائهم إلى التتار السود ، وربما لشهرة التتار ، حيث عُرفوا في التاريخ منذ القرن السادس الميلادي (الأول قبل الهجرة) بينما لم يرد ذكرٌ للمغول إلاّ في القرن الثاني عشر الميلادي(السادس الهجري)(١) .

وبعد أن أسقط المغول الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وما تلا ذلك من مذابح وفظائع ، عمّ الحزن والخوف أرجاء العالم الاسلامي . كان طبيعياً أن يتقدم المغول – بعد العراق – إلى بلاد الجزيرة ثم إلى الشام ، وقبل أن تطأ جحافلهم تلك الأراضي ، بعث قائدهم هولاكو(٢)

---

(١) السيد الباز العريني : المغول ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٣٤ ، ٤٠ ، ولقد اكتسح هؤلاء المغول مناطق واسعة من العالم ، فبعد استيلائهم على مملكة الصين قضوا على مملكة « كوجلك خان » الإسلامية سنة ٦١٥هـ/١٢١٨ م ومن مدنها : كاشغر وختن ، ثم هاجموا الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ، واستولوا منها على مناطق ما وراء النهر حيث دخلوا : بخارى وسمرقند ، ثم اقليم خوارزم ، واقليم غزنة . وقضوا على السلطان جلال الدين الخوارزمي ودولته سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م ، وقسموا قبواتهم إلى ثلاثة جيوش : الأول : استولى على ديار بكر وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار . والثاني : استولى على بدليس ونواحي خلاط . والثالث : زحف على أذربيجان . وتمكنوا من دخول اربل سنة ٦٣٢-٦٣٣هـ/١٢٣٤-١٢٣٥م ثم هاجموا العراق وعبر جيش منهم إلى أوربا وعاشوا في روسيا وبولندا والمجر والنمسا وألمانيا . وخضعت لهم الأناضول سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م بعد هزيمتهم لسلاجقة الروم .
انظر : فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول .

(٢) هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان ، تولى زعامة المغول في فارس ، وقاد حملاتهم المدمرة ، ضد العراق والشام ، توفي يوم الأحد ١٩ / ربيع الثاني سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، جنوب بحيرة أورمية . فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ج ١ ، ص ٣٢٤.

رسلاً إلى الممالك الأيوبية بالشام ، وكان أعظمها شأناً تلك التي تخضع لسلطة الناصر يوسف والتي تضم دمشق ، وحلب ، وحمص ، وأجزاء من فلسطين، فترددت رسل المغول على الناصر يوسف في دمشق . وفي إحدى المرات، دخل بعض رسل المغول إلى حماة ، فقُتلوا فيها جميعاً ، فاستشاط المغول غضباً ، إذ كيف يتجرأ الحمويون على قتل رسل المغول الذين كانوا في مهمة رسمية؟(١) ، وبعث المغول رُسلاً آخرين إلى الناصر يوسف ، الذي بعث معهم بدوره وفداً يحمل رده على رسالتهم ، ويتولى مهمة التفاوض نيابة عنه مع هولاكو ، وكان الوفد الإسلامي يضم عدداً من المسؤولين ، على رأسهم المؤرخ ابن شداد(٢) . وانطلق الوفدان الإسلامي والمغولي من دمشق متوجهين إلى حيث يقيم هولاكو . وعندما وصلوا حماة ، دخل إليها أعضاء الوفد المغولي ، وعاثوا في نواحيها فساداً ، وتمكنوا من القبض على الطواشي شجاع الدين مرشد ، وشيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، وأخذوا يطالبون بحضور المنصور الثاني بنفسه ، ليقبضوا عليه ، ويسلموا الجميع لقائدهم هولاكو ، لينتقم منهم ، ويثأر لرسله الذين قتلوا في حماة ، وقام ابن شداد بالوساطة بين المنصور والمغول ، وتم الاتفاق في نهاية الأمر ، على أن يدفع المنصور الثاني للمغول ، مبلغ ألفي درهم ديةً لقتلاهم ، كما يقوم بواجب الضيافة لمن يمرّ بحماة من مبعوثي المغول . وفي المقابل يتم الإفراج عن شجاع الدين مرشد وشيخ الشيوخ ، وتم الاتفاق على تسوية هذه القضية في محرم سنة ٦٥٧هـ / ديسمبر ١٢٥٨م(٣).

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٩١ .

(٢) عز الدين أبو عبدالله بن علي بن ابراهيم الحلبي المتوفي سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م. كان فاضلاً مشهوراً ، معتنياً بالتاريخ له كتاب في سيرة الملك الظاهر بيبرس بالإضافة إلى كتاب الأعلاق الخطيرة . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٣.

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٩١ . وذكر أن ملك حماة في تلك الفترة " المظفر " والصواب أنه المنصور الثاني .

ومهما يكن من أمر فإنّ المغول زحفوا على بلاد الشام ، فاستولوا على حلب ، ثم دمشق ووصلوا إلى المعرة ، وعاثوا في أطرافها فساداً(١). وكان الناصر يوسف قد خرج قبل سقوط حلب ، وعسكر خارج دمشق ، واستدعى المنصور الثاني لينضم إليه(٢) . فخرج المنصور الثاني من حماة بأهله وماله ، في النصف من صفر سنة ٦٥٨ هـ / يناير ١٢٦٠ م ، وترك بحماة الطواشي شجاع الدين مرشد(٣). ويقال أنه أوصاه بعدم إثارة غضب المغول(٤) ، ويبدو أنه قصد بذلك تجنيب حماة التدمير الحتمي الذي كان يمارسه المغول في كل المناطق التي حاولت مقاومتهم .

وما أن وصلت أنباء سقوط حلب بأيدي المغول إلى حماة ، حتى خرج منها الطواشي شجاع الدين مرشد، لينضم إلى المنصور الثاني المقيم مع الناصر يوسف خارج دمشق(٥) . ويبدو أن الطواشي مرشد كان يخشى من نقمة المغول عليه ، بسبب دوره في حادثة قتل الرسل الآنفة الذكر .

وبعد خروج الطواشي مرشد من حماة ، اتفق زعماؤها على تسليمها للمغول بدون قتال . لأن الصمود أصبح غير مُجْدٍ ، خاصة بعد سقوط حلب ، وهي من أمنع المعاقل في بلاد الشام(٦) . فسافر وفدٌ من وجهاء حماة إلى

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٢٥ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٢ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٧٣ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٩٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٥١ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٢ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٦) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٢ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

حلب ، واجتمعوا هناك بهولاكو، وسلّموا إليه مفاتيح مدينتهم ، وطلبوا منه الأمان لسكانها ، وأن يبعث معهم "شحنة"(١) يتولى إدارة شؤونها ، فاستجاب هولاكو لطلبهم ، وأمّن المدينة وأهلها ، وبعث معهم رجلاً أعجمياً ، اسمه خسرو شاه – ويزعم أنه من نسل خالد بن الوليد رضي الله عنه – ليكون شحنة" على حماة ، فجاء خسروا شاه وأمّن أهل حماة ، وأحسن إليهم ، وتسلّم القلعة من الأمير مجاهد الدين قايماز أمير جاندا ، الذي كان يتولى أمورها .(٢)

وبهذا تكون عواصم الشام : دمشق ، وحلب ، وحماة ، قد سقطت في أيدي المغول ، أما حمص فقد سارع صاحبها السابق الأشرف موسى إلى إعلان خضوعه للمغول . واجتمع بهولاكو الذي أعاد إليه حمص ، بل جعله نائباً عنه في الشام(٣) . وأمره بتدمير أسوار القلاع بلا استثناء ، فتوجه الأشرف إلى حماة ، ونزل بدار المبارز ، وشرع في تخريب أسوار قلعة حماة ، وأحرق زردخانتها(٤) . وتشتت الكتب التي كانت تضمها دار السلطنة ، وبيعت

---

(١) شحنة : رجل شرطة ، أو رئيس يتولى حفظ الأمن في البلاد ، بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٥٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٢ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧٣ أ ، ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٤٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٣١ ، وانظر أيضاً : ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٩٧٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٤٨ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٢٩٠ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٨٧ ، ٤١٢ ؛ فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤) زرد خانة : معناها بيت الزرد سميت بذلك لما تشتمل عليه من دروع الزرد والسيوف والقسي والنشاب وسائر أنواع السلاح . بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٩٨ ، حاشية ٨ .

بأبخس الأثمان(١).

أما أسوار مدينة حماة نفسها ، فقد صدرت الأوامر إلى شحنتها خسروشاه بتدميرها ، ولمّا بدأ عملية الهدم ، تقدم إليه رجل من أهل حماة ، يُدعى إبراهيم بن الفرنجية – وكان ضامناً للجهة المفردة – ودفع له مبلغاً كبيراً من المال ، وأقنعه بصرف النظر عن تخريب الأسوار ، بحجة قرب الصليبيين (الاسبتار) المتمركزين في حصن الأكراد من حماة ، والذين يشكلون خطراً كبيراً على أهلها ، لولا تحصنهم خلف أسوارها ، فألغى خسرو شاه مشروع الهدم ، وسلِمَت بذلك الأسوار(٢).

وكان لسياسة زعماء حماة ، المتمثلة في تسليمها للمغول بالأمان ، وللجهود التي بذلها إبراهيم بن الفرنجية ، الدور الأكبر في نجاة حماة من الدمار، الذي كان يمارسه المغول في المدن التي كانت تحاول مقاومتهم ، ثم تسقط تحت سنابك خيلهم .

ولم يُخْفِ بعض الصليبيين استياءهم من سقوط حماة وحلب وحمص ، في أيدي المغول ، وتشتت الأسرة الأيوبية ، التي كانت فروعها تحكم في تلك المدن(٣). ويبدو أنّ الصليبيين كانوا يخشون مجاورة المغول ، لِمَا عُرفوا به من غدر وخيانة ، كما أنّ الأسرة الأيوبية الحاكمة في حماة ، كانت تدفع ضريبة مالية لطائفة الاسبتارية منذ عهد المظفر الثاني(٤) .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ١٥٤ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٢٠٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٩٤ ، ٨١٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٣) السيد الباز العريني : المغول ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٤) انظر ما سبق ، الفصل الثالث ، ص ١٩٦

وإبّان احتلالهم لحماة ، طاف المغول برأس الشهيد الكامل(١) بن المظفر غازي الأيوبي في حماة - كما في غيرها من كبريات مدن الشام - وكان الكامل المذكور قد قاومهم في ميافارقين مدة سنتين(٢) . وما من شك أنهم قصدوا بذلك تذكير الناس بما سيحل بهم إذا ما فكروا في الثورة ضدهم.

أما المنصور الثاني صاحب حماة فقد اجتمع مع الناصر يوسف في برزة(٣) - خارج دمشق - ثم ساروا جميعاً إلى نابلس بعد سماعهم بسقوط حلب ، ومن نابلس دخلوا إلى غزة ، فجاءتهم الأنباء بدخول المغول نابلس ، فتركوا غزة وتوجهوا إلى العريش(٤) ومنها إلى قطية(٥)، حيث عسكروا فيها، وكان الناصر يوسف يخشى من انتقام المماليك منه ، فتوقف في قطية . بينما سار المنصور الثاني بالعساكر إلى القاهرة ، حيث استقبلهم السلطان قطز بالصالحية(٦) . وطيّب قلوبهم وأرسل إلى المنصور الثاني سنجقاً ، وبالغ في احترامه ، واحتفى به ، ودخلا القاهرة معاً(٧). ولا

---

(١) الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الأيوبي . خلف والده على ميافارقين سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م حاصره المغول نحواً من عشرين شهراً ، وقتلوه سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٨٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٤٠٨.

(٣) برزة : قرية من قرى غوطة دمشق . ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٤) العريش : أول عمل من مصر ناحية الشام وهي مدينة على ساحل البحر . ياقوت : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) قَطْيَةُ : قرية في طريق مصر ، في وسط الرمل ، قرب الفرما . ياقوت : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٨ .

(٦) الصالحية : قرية بناها الصالح أيوب لجنده في منطقة السائح على طرف المنطقة الرملية في الطريق بين مصر والشام ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٦٣ ، حاشية رقم ٢ .

(٧) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٣ أ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي ، =

أميل إلى الرأي القائل بأنّ اغراءات السلطان قطز هي التي دفعت المنصور الثاني على التوجه إلى مصر ، وعدم البقاء في قطية كما فعل الناصر يوسف(١). بل إنّ رأيه في أنّ الأمل الأخير في إيقاف الاجتياح المغولي منوطٌ بالدولة المملوكية ، هو الذي دفعه للمسير إلى القاهرة .

ومهما يكن من أمر فقد اكتملت الاستعدادات لدى السلطان قطز ، فخرج بالجيوش من القاهرة . وكان في معيته المنصور الثاني – الذي يعتبر قائد الجيش الشامي المشارك للسلطان قطز في عملية التصدي للمغول – وعندما كان الجيش الإسلامي في الطريق متوجهاً إلى الشام ، بعث السلطان قطز رسالة إلى المنصور الثاني، يحثه فيها على عدم الاعتناء بمد السماط ، عند تناول وجبات الغذاء ، وأن يكتفي كل جندي بقطعة لحم في " صولقة "(٢) واختتم السلطان رسالته إلى المنصور الثاني بقوله : " العجل العجل "(٣) ويبدو أنّ السلطان قصد برسالته إلى المنصور الثاني بث الاستعداد في نفوس الجند، وعدم الانشغال بموائد الطعام ، لا سيما وأن العدو الذي سيواجههم فيه من الشراسة والجلافة الشيء الكثير .

وفي عين جالوت ،التقى الجيشان الإسلامي والمغولي ، في الخامس

= ورقة ٧٤ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٣ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٤٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٩٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك، ج ١ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(١) مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٥٦ .

(٢) الصولقة : مخلاة من جلد يضعها الشخص في حزامه من الجهة اليمنى . ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٨ ، حاشية رقم ٢ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٩ أ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ / الثالث من أيلول ١٢٦٠م ، وكان جيش الشام الذي يتزعمه المنصور الثاني يضم طوائف من الخوارزمية(١) . وكان الأفضل علي بصحبة شقيقه المنصور(٢) . وقد أبلى المنصور الثاني في معركة عين جالوت بلاءً حسناً(٣).

ونصر الله المسلمين في عين جالوت نصراً مؤزراً . ولما وصلت أنباء ذلك الانتصار إلى حماة ، فرّ منها شحنتها المغولي خسروشاه ، وتوجه إلى الشرق(٤).

ولما ولّى المغول الأدبار منهزمين ، ركب المسلمون أقفيتهم ، وتولت فرقة من الجيش الإسلامي ، بقيادة بيبرس البندقداري ، مطاردتهم ، وكان مبارز الدين أقوش – أستاذدار الملك المنصور الثاني – ضمن الفرقة الإسلامية التي طاردت المنهزمين .، ولما عادت تلك الفرقة ، طلب زعيمها بيبرس البندقداري من مبارز الدين أقوش فرساً كان بحاجة إليه ، فامتنع مبارز الدين من إعطائه إياه ، فسمع شجاع الدين مرشد المنصوري بذلك ، فبعث إلى بيبرس فرسين ، ولم ينسَ له بيبرس ذلك ، فلما أصبح سلطاناً قرب أليه شجاع الدين مرشد فعاش في دولته معززاً مكرماً(٥).

وبعد انتهاء عملية تعقب المغول ، بعث بيبرس البندقداري إلى السلطان قطز، وإلى أهالي حماة وغيرها ، يبشرهم بما تحقق من نصر ، وبما تم

(١) السيد الباز العريني : المغول ، ص ٢٥٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٩٥ ، ٨١٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٤ ؛ السيد الباز العريني : المغول، ص ٩٧.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٥) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ٢٠٩ أ .

استعادته من مناطق من أيدي المغول(١).

أما السلطان قطز فقد تقدم بجيشه إلى دمشق ، حيث دخلها ويصحبته المنصور الثاني ، وهناك أحسن إليه قطز ، وأقرّه على بلده(٢).

وعندما أراد المنصور الثاني العودة إلى حماة ، أمر أستاذداره مبارز الدين أقوش أن يسبقه إلى هناك(٣) . ثم سار هو في أثره ، وبمعيته أخوه الأفضل. وما أن دخل حماة حتى اعتقل جماعة من الحمويين الموالين للمغول ، والذين عَملوا لحسابهم إبّان احتلالهم للبلد، وبعد أن استقرت الأوضاع للمنصور الثاني في حماة ، بعد عملية تطهيرها من الموالين للمغول ، هنّأه شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري بقصيدة طويلة ، أشار فيها إلى الانتصار الذي تحقق في عين جالوت وإلى استعادة المعرة من الحلبيين(٤).

ويُظْهِرْ إلقاء القبض على المتعاونين مع المغول في حماة ، صواب فكر المنصور الثاني ، فهم فريق لا يُؤمَن جانبه ، وربما لو تعرضت حماة لغزو مغولي آخر لسعى هؤلاء العملاء إلى الاتصال بالغزاة وتمهيد الطريق لهم لاحتلال البلد مرةً أخرى . والحقيقة أنّ الخوف والاغراءات المختلفة كانت – ولا تزال – مما يدفع كثيراً من ضعفاء النفوس إلى خيانة الدين والوطن .

وبعد أن رتب السلطان قطز أوضاع بلاد الشام قفل عائداً إلى مصر ، ولكنّه أُغتيل في الطريق ، واعتلى بيبرس البندقداري سدة الحكم ، وتلقب

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٦٦ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٦ أ – ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٠– ٤٤١.

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٥٦ أ – ب ؛ أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص٢٠٦، العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

بالظاهر، ولما تناهت تلك الأنباء إلى مسامع المغول ظنوا أن فرصة الثأر لهزيمة عين جالوت قد حانت(١) . فتقدمت حاميتهم التي كانت ترابط في بلاد الجزيرة بقيادة (بدرا) نحو حلب ، فجفل عامة أهلها إلى حماة(٢) . وكذلك خرج نائبها حسام الدين الجوكندار(٣) بعساكرها وتوجه نحو حماة ، حيث عسكر بظاهرها ، فقام المنصور الثاني بما يمليه عليه واجب الضيافة نحوهم(٤). وأشار الجوكندار ومن معه من كبار الأمراء على المنصور الثاني أن ينضم إليهم بعسكره ، ليتمكنوا من صد العدو(٥). لكن المنصور تردد في الخروج ، وساورته الشكوك في صدق نوايا الجوكندار ومن معه ، فلم يخرج إليهم بنفسه . فغادروا معسكرهم بظاهر حماة متجهين إلى حمص(٦) . وكان المنصور الثاني محقاً في تخوفه من الجوكندار ورفاقه ، ذلك أنّ الأوضاع العامة للدولة كانت مضطربة ، فبيبرس قتل قطز واستولى على السلطة ، وسنجر الحلبي نصّب نفسه سلطاناً في دمشق ، والجوكندار – نائب حلب –

---

(١) عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٣١ .

(٣) الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزي من كبار أمراء دمشق . توفي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨٠٥ ؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٠ أ – ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٤ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٤٠ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٦٥ .

(٦) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٠ أ – ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٤٨ .

قبض على نائب حلب السابق والمُعَيّن من قبل قطز ، واستبد بالنيابة مكانه ، وجحافل مغولية جديدة تزحف نحو الشام . ويبدو أن بعد خطرهمعن حماة حتى الآن شجع صاحبها على عدم الخروج منها .

أما المغول فقد استولوا على حلب ، وعزموا على التوجه نحو حماة ، عندها تأكد المنصور الثاني أنهم يقصدونه ، فخرج بعساكره ، ومعه أخوه الأفضل، وأستاذداره مبارز الدين أقوش وانضم إلى قوات حلب المرابطة خارج حمص(١).

وواصل المغول زحفهم من حلب إلى حماة ، وفرضوا عليها الحصار أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، وطلبوا من أهلها فتح أبوابها التي أغلقت دونهم ، مقابل تأمينهم على أنفسهم ، لكنّ الحمويين رفضوا الاستجابة لطلب الغزاة ، ولم يكونوا على ثقة مماعرضه المغول عليهم من أمان ، خاصة وأن خسرو شاه - شحنة حماة السابق - لم يكن ضمن الجيش المغولي الذي يدق أبواب حماة ، وكان هذا الرجل يحظى بثقة الحمويين ، الذين سبق لهم أن جرّبوه ولمسوا حسن تعامله معهم ، ولم يطل مكث المغول خارج أسوار حماة ، إذ أخرج لهم أهلها بعض المواد الغذائية والمؤن(٢). وعندما تزود الجيش المغولي بتلك المؤن ، ترك حماة وشأنها ، وقصد حمص ، ليشتبك مع القوات الإسلامية المرابطة هناك(٣).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٠ أ - ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ ؛ ج ٢ ، ص ٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٦٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٣ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٤٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٦ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٦ ؛ وأيضاً اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧ .

وكان المنصور الثاني قد وصل بقواته إلى حمص ، التي سبقه إليها عسكر حلب بقيادة الجوكندار ، الذي عزم على المسير إلى دمشق عندما أقبلت طلائع المغول على حمص ، وبذل المنصور الثاني والأشرف موسى – صاحب حمص – جهوداً أثمرت عن إقناع الجوكندار بالصمود معهم في وجه المغول ، كما حرضاه على الجهاد ، وحذّراه من عاقبة الفرار ، وما زالا به حتى اقتنع برأيهما ، وكان هذا الجوكندار على خلاف مع بعض أمراء الجيش الحلبي الذي يتولى قيادته ، وقد قام المنصور الثاني والأشرف موسى بمهمة إصلاح ذات البين حتى ،احتويا تلك الخلافات(١).

ومما سبق نرى أن المنصور الثاني اشترك مع الأشرف موسى في التحضير لميدان المعركة ، التي أصبحت حتمية ، وكان من الطبيعي أن يتولى الأشرف موسى قيادة الجيش الإسلامي الذي لم يتجاوز عدده الألف وأربعمائة فارس ، بحكم أن أرضه ستكون ميداناً للقتال ، وأقبل الجيش المغولي في ستة آلاف فارس ليلتقي بالجيش الإسلامي في يوم الجمعة الخامس من محرم سنة ٦٥٩ هـ / ١٠ ديسمبر ١٢٦٠م ، وكان المنصور الثاني يقف على رأس الميمنة الإسلامية ، ومنذ بداية المعركة حمل المسلمون حملة قوية زاد من عنفها الضباب والرياح التي كانت تلفح وجوه المغول حتى أنزل الله نصره على المؤمنين ، وفرّ من نجا من المغول مخلفين وراءهم أعداداً من الأسرى والقتلى(٢).

---

(١) اليونيني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٥ – ١١٦ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٠ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧٦ ب – ٧٧ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٩٧ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج ١ ، ص ٤٣٥ – ٤٣٦ ، ج ٢ ، ص ٨٩ – ٩٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٦٩ ، المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ ؛ الذهبي : العبر، ج ٢ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ؛ دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ؛ ابن كثير : =

وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن طيوراً بيضاً كانت تضرب بأجنحتها وجوه المغول(١). ولا غرابة في ذلك ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(٢).

ويعطي البعض هذه المعركة (معركة حمص الأولى) أهمية أكبر من تلك التي اكتسبتها معركة عين جالوت ، وذلك بسبب البون الشاسع في العدد بين القوات المغولية والإسلامية(٣) . إضافة إلى أنّ المغول فقدوا خلالها عدداً كبيراً من أبطالهم(٤) .

وعندما وصلت أنباء الانتصار إلى حماة ، عمّ الفرح أهلها ، وسارعوا بالقبض على بعض الحمويين الذين كانوا يتعاطفون مع المغول ، بل إنّ منهم من حاول نقب أسوار البلد من الداخل ، لإحداث ثغرة يتمكن المغول بواسطتها من الدخول إلى البلد ، وكان من بين هؤلاء رجل من أطراف الناس يقال له : ابن دخان ، وقد قَتَلَ أهل البلد هذا الرجل مع بعض أصحابه بعد إلقاء القبض عليهم(٥).

= البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٣ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٥٠ – ١٥١ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٤٩ – ١٥٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٦ .

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٢٥٩– ٢٦٠ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٦٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٤١ ، وقال معلقاً على ذلك " وقد ذكر ذلك جماعة كثيرة حتى بلغ حد التواتر".

(٢) سورة الفتح ، آية : ٧ .

(٣) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٦٨ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٩٧ ، وذكر من أبطال المغول الذين سقطوا في أرض المعركة : عليجق ، قجر ، كلفانوس ، بلاغا ، فوارغا .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

وبعد انجلاء غبار المعركة ، عاد المنصور الثاني إلى حماة ، وهنّأه شيخ الشيوخ بقصيدة جسّد فيها ذلك النصر المؤزر(١).

وتَفَرَّق من نجا من المغول إلى فرقتين ، إحداهما توجهت إلى حلب ، والأخرى قصدت سلمية ، حيث كانت ترابط هناك قوات مغولية لم تشترك في معركة حمص ، فسار هؤلاء جميعاً وحاصروا حماة ، وكان بها صاحبها المنصور الثاني ، ولم يدم الحصار المغولي لحماة أكثر من يوم واحد ، بسبب اليأس والخوف اللذَيْن سيطرا على قلوب المغول مما أجبرهم على فك الحصار والتوجه إلى أفامية(٢). ويبدو أنّ المغول قصدوا حماة في هذه المرة للانتقام من صاحبها المنصور الثاني الذي ساهم بشكل فعّال في هزيمتهم في عين جالوت أولاً ، ثم في حمص ثانياً .

على أن المنصور الثاني كان يخشى من تكرار هجمات المغول على حماة في هذه الفترة ، خاصة وأنهم مستمرون في حصار حلب منذ هُزِموا في معركة حمص ، لذلك سعى المنصور للحصول على النجدات من جيرانه ، وبناءً عليه خرج من حماة وتوجّه إلى دمشق ، وهناك تزامن وصوله مع

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٥ – ١١٦. وذكر عبدالله الغامدي في كتابه : جهاد المماليك ص ١٣٠ ، أن المنصور الثاني توجه فور انتهاء المعركة إلى حلب . والصحيح هو ما أثبتناه .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٦٠ ب – ١٦١ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ – ٢١٠؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق٤ ص ٨٢٣ – ٨٢٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٢٦٩؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤١ – ٤٤٢ .

وأفامية : وتكتب فامية أيضاً ، مدينة قديمة من أعمال شيزر ، على نشز من الأرض ويمر بها نهر العاصي . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

تمرد سنجر الحلبي الآنف الذكر(١).

وكان المنصور لما أراد الخروج من حماة منعه أهلها من ذلك ، حتى تعهد لهم بأن يعود إليهم في وقت قصير ، عندئذ سمحوا له بالتوجّه إلى دمشق ، ومعه عدد قليل من خواصه ومماليكه ، وترك عسكره بحماة ، كما كلّف شجاع الدين مرشد بإدارة شؤون البلد خلال فترة غيابه(٢).

ويُدلّل تَشبّث أهالي حماة بصاحبها المنصور الثاني على مدى محبتهم له، ورغبتهم باستمرار حكمه ، وربما كان ذلك أيضاً رسالةً غير مباشرة إلى سلاطين الدولة المملوكية كي لا يفكروا في إخراج حكم حماة من أيدي الأسرة التقوية الأيوبية .

وبعد أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من القضاء على تمرد سنجر الحلبي ، بعث فرقة عسكرية من جيشه إلى حلب ، حيث تمكنت من طرد المغول وإبعاد خطرهم ، عندها عاد المنصور الثاني من دمشق إلى حماة(٣).

وأراد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها في بغداد(٤)، فاستدعى أحد أفراد البيت العباسي و بايعه بالخلافة ، وتلقّب الخليفة الجديد بالمستنصر الثاني(٥) ، وشجعه السلطان على القيام بمحاولة

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢١١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ؛ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٤٨. وانظر ما سبق ص ٢٤٧-٢٤٩ من هذا الفصل .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١١٧ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج٣ ، ص ٢٠٩ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٩ من هذا الفصل وما بعدها

(٤) عن مشروع بيبرس لإحياء الخلافة العباسية انظر : محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٥٠ - ٦٢ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٤٦ - ٥٥ .

(٥) المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد. السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

طرد المغول من العراق ، وزوده بفرقة صغيرة من الجيش(١) ، وخرج الخليفة من مصر، وعبر الشام ، وهناك انضمت إليه مجموعة من عساكر حماة تقدر بثلاثين فارساً ، تولى قيادتها أمير يدعى عز الدين بركة ، وسار الخليفة بمن معه متجهاً نحو العراق ، لكنه اصطدم بجيش مغولي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م ، وأسفر الصدام عن فناء تام للخليفة ومن معه.(٢)

وكانت الشائعات تروج في الشام بين الفينة والأخرى عن هجوم مغولي وشيك ، مما يدفع الناس إلى ترك بلدانهم واللجوء إلى أماكن آمنة ، من ذلك ما حصل سنة ٦٦٠ هـ /١٢٦١م إذ جفل الناس من حماة وحمص وتوجهوا إلى دمشق(٣).

ولم يتردد المغول في إثارة المشكلات في وجه المماليك ، كلما سنحت لهم الفرصة بذلك ، ففي سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٤ م حاصروا البيرة ، ونَصَبُوا عليها سبعة عشر منجنيقاً(٤) وكانت هذه المدينة من خطوط الدفاع الأمامية للدولة المملوكية(٥) . لذلك حظيت باهتمام خاص من قبل سلاطين المماليك ، ولما وصل نبأ وقوعها تحت الحصار إلى السلطان الظاهر بيبرس ، جرّد . حملة عسكرية أسند قيادتها إلى عز الدين إيغان (٦) – الشهير بسم الموت –، وجمال الدين أقوش المحمدي(٧) وأمرها بالمسير إلى البيرة ، كما كتب إلى

(١) يرى البعض أن السلطان بيبرس كان ينوي التخلص من الخليفة العباسي وليس مساعدته لذلك شجعه على الخروج لملاقاة المغول بعدد قليل من الجنود . انظر
(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٢ ؛ مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ص ١٨٦ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ١٤٢ .
(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢١٩ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص٤٨٧.
(٤) العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .
(٥) فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، دار المعارف ، ص ٨٤ ؛ حامد غنيم ؛ الجبهة الاسلامية ، ج ٣ ، ص ٩٧ .
(٦) عز الدين ايغان بن عبدالله الركني بيبرس المعروف بسم الموت مات في سجن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م. ابن تغري بردي : الدليل الشافي، ج١ ، ص ١٧١.
(٧) أقوش عبدالله المحمدي الصالحي النجمي كان من أكابر أمراء الملك الظاهر بيبرس توفي سنة ٦٧٦ هـ/١٢٧٧م . ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج ١، ص ١٤٥.

المنصور الثاني يأمره بالانضمام بعساكره إلى تلك الحملة ، فاجتمعت تلك القوات وتوجهت إلى البيرة ، ولما قاربتها تخلى المغول عن حصارها(١). ووصلت إلى السلطان بطاقة(٢) من المنصور الثاني يصف فيها كيفية وصولهم إلى البيرة ، حيث ذكر أنّ المغول انهزموا فور رؤيتهم للقوات الإسلامية ، وخلّفوا وراءهم عدداً من المنجنيقات ، كما عمدوا إلى إحراق بعض مراكبهم التي لم يتمكنوا من أخذها معهم عند عبورهم لنهر الفرات(٣).

وعندما تسلّم السلطان بطاقة المنصور الثاني ، بعث إليه يأمره بالبقاء بمن معه في البيرة ، والعمل على تنظيف خندقها ، من الحجارة التي كان المغول قد رموها فيه ، أثناء محاولتهم اقتحام البلد(٤) ، كما كلّفهم السلطان بزيادة تحصين القلعة ، وذلك بحمل الحجارة إليها ، وحدد لكل أمير وجندي مقدار ما يساهم به من حجارة في هذا العمل ، كما أمر السلطان

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٨٦ ب ؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢٤ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١١٣ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ١٧٩؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣١٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

(٢) البطاقة :رسالة تكتب على ورقة صغيرة يحملها الطير المعروف بذلك ، وتؤرخ بالساعة واليوم ، ولا يعمل لها هامش ولا عنوان إلا إذا كانت منقولة قبل أن تسرح إلى السلطان في مكان بعيد فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد وكل وال تصل إليه يكتب في ظهرها أنها وصلت إليه ، وللحمام الذي يحملها أبراج خاصة في القلعة . بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ج ٩ ، ص ١٨٣ ، حاشية "١".

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٨٦ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٢٤ ؛ شافع بن علي : حُسن المناقب ، ص ١٧٩ ؛ المقريزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ ؛ العيني: عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٩٦ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٩٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٢٦ ، شافع بن علي : حسن المناقب، ص ١٨٠؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٥ ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٩٤ ، سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ، ص ٩٤ .

الجنود بنقل السهام وأعواد المنجنيقات إلى داخل القلعة(١).

وتعرضت الشام بدورها لحملة مغولية قادمة من آسيا الصغرى ، وبمعاونة سلاجقة الروم ، الذين كانوا قد خضعوا لسلطة المغول وذلك سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١ م ، فاضطر أهل حماة وحمص وحلب إلى ترك ديارهم والتوجّه إلى دمشق للاحتماء بها(٢). أما القوات الغازية فزحفت في عشرة آلاف مقاتل إلى حارم - بين حلب وأنطاكية - ونشرت الرعب والخراب في أرجائها ، واضطرت حامية حلب إلى التقهقر أمام الغزاة والتوجّه إلى حماة(٣).

ونهض السلطان الظاهر بيبرس لمواجهة هذا الاعتداء ، واستدعى قوات من مصر ، ولما تكاملت عنده ، خرج من دمشق قاصداً حلب ، ومرّ في طريقه على حماة ، واستصحب معه ملكها المنصور الثاني بعسكره ، ولما بلغ المغول ومن معهم نبأ تحرك السلطان نحوهم ، تراجعوا عن حارم ، وانكفؤوا إلى آسيا الصغرى ، فيما واصل السلطان سيره حتى نزل على حلب ، في ربيع الأول سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١م ثم عاد إلى دمشق(٤).

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٢٨ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب، ص ١٨٠ .

(٢) البرزالي : المقتفى لتاريخ أبي شامة ، أحداث سنة ٦٧٠ هـ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٠٨ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٩٥ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ؛ التحفة الملوكية ، ص ٧٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٩١ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١٨٧ .

(٤) البرزالي : المقتفى لتاريخ أبي شامة ، أحداث سنة ٦٧٠ هـ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ص ١٦٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

ويبدو أنّ بعض الأُسَرْ الحموية التي جفلت من حماة عند اقتراب المغول منها بقيت في دمشق حتى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ومن هذه الأسر أسرة الأفضل علي شقيق المنصور الثاني ؛ إذ وُلِدَ في هذا التاريخ ابنه – المؤيد – أبو الفداء ، إسماعيل – مُصَنِّف كتابي : المختصر في أخبار البشر ، وتقويم البلدان – وذلك بدارهم المعروفة بالزنجيلي(١) .

ويظهر أن المغول وأتباعهم من سلاجقة الروم ، قد أدركوا عجزهم عن تحقيق نصرٍ على المماليك ، طالما كانت كلمة هؤلاء متحدة في ظل سلطان قوي ، فآثروا سلوك سبيل التفاوض . فبعثوا في صفر سنة ٦٧١هـ/ اغسطس١٢٧٢م وفداً مشتركاً (من المغول والسلاجقة) لينقل رسالة إلى السلطان الظاهر بيبرس . لكنّ السلطان لم يعبأ بذلك الوفد ، وأمر أعضاءه بضرب الجوك(٢) ثلاث مرات أمام المنصور الثاني في حماة ، وكذلك أمام نائب السلطنة بحلب ، قبل السماح لهم بالاجتماع به في دمشق(٣).

ولم ينس السلطان الظاهر بيبرس لسلاجقة الروم تحالفهم مع المغول ، وانصياعهم لأوامرهم واشتراكهم معهم في تهديد الدولة المملوكية ، وكان يتحيّن الفرص للانتقام منهم ، فواتته الفرصة عندما بعث إليه بعض أمراء السلاجقة ، يستدعونه ليخلصهم من سلطة المغول (٤) . فزحف بقواته من الشام إلى آسيا الصغرى ، وعرّج على حماة ، وخرج معه صاحبها المنصور الثاني بعساكره ، وسار السلطان بجيشه حتى أشرف على صحراء

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ .

(٢) الجوك : نوع من التحية يقوم بها الفرد المغولي أمام رئيسه تنم عن الخضوع والاحترام ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٠٤ ، حاشية رقم ٢ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٠٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥.

(٤) فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٠٤ .

أبلستين(١)وهناك وجد قوات من المغول والكرج والسلاجقة في انتظاره ، فأمر جيشه بالانقضاض عليهم ، فدارت رحى معركة طاحنة بين الجانبين ، في التاسع من ذي القعدة سنة ٦٧٥ هـ / فبراير ١٢٧٧م ، وفي خضم المعركة ، حملت ميمنة المغول ، على ميسرة المسلمين ، وكادت أن تلحق بها الهزيمة ، لولا الهجوم العنيف ، الذي قام به المنصور الثاني وقواته ، بعد أن أمره السلطان بذلك ، وحملت العساكر الإسلامية في إثر المنصور الثاني فمزّقت جموع المغول ، وألحقت بهم هزيمة نكراء(٢) .

وبعد انتهاء المعركة التي فقد فيها المغول ما يزيد على ستة آلاف قتيل(٣) ، دخل السلطان الظاهر بيبرس بقواته إلى قيصرية(٤) عاصمة دولة سلاجقة الروم ، وصلّى بها صلاة الجمعة ، في السابع عشر من ذي القعدة سنة ٦٧٥ هـ / فبراير ١٢٧٧ م ، حيث أقيمت له الخطبة في أرجائها ، ثم قفل عائداً إلى الشام بعد أن لقّن الروم وحلفاءهم درساً لن ينسوه(٥) .

وبعد أشهر من هذه الغزوة توفي السلطان الظاهر بيبرس ، ومرت الدولة بعده بفترة من عدم الاستقرار . وكان المغول - كما هي عادتهم - ينتظرون فُرصاً كهذه ، ليتذوقوا طعم النصر ، الذي افتقدوه منذ معركة عين جالوت . وزاد من طمعهم التمرد الذي قاده سنقر الأشقر(٦) . وكان هذا

---

(١) أَبُلُسْتَين : مدينة ببلاد الروم إسمها الحالي البستان وهي قريبة من أقسوس ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص٩٨ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص١٩٩ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٦ ، ١٧٤ .

(٤) قيسارية أو قيصرية : اسم لبلدان كثيرة من الامبراطورية الرومانية ، والمقصود هنا قيصرية الروم وتقع على نهر قاراصو أحد فروع نهر قزل إرمك وهي عاصمة سلاجقة الروم ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٩٩ ، حاشية رقم ١ .

(٥) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص١٩٨ - ٢٠٢ .

(٦) انظر ما سبق ص   من هذا الفصل .

المتمرد قد كاتب المغول ، وأخذ يحثهم ليتقدموا لغزو الشام(١).

وبالفعل تقدّمت جموع المغول نحو الشام ، في جمادى الآخرة سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، فارتحل الناس من حماة ، وحلب ، وحمص إلى دمشق ، وبعلبك(٢) ، فيما خرجت الحاميات الإسلامية من دمشق وغيرها ونزلت بظاهر حماة ، كذلك عاد الجيش الذي كان يتعقب فلول سنقر الأشقر ، وبعث قادة الجيش يطلبون المدد من مصر ، فجاءت فرقة عسكرية ونزلت معهم بظاهر حماة ، كما كاتب قادة الجيش سنقر الأشقر ، وحثّوه على توحيد الكلمة ، فاستجاب لهم . أما المغول فقد دخلوا حلب بدون مقاومة ، وعاثوا فيها يومين كاملين ، ثم انسحبوا منها بعد سماعهم باستعداد السلطان قلاوون للخروج إليهم ، واتحاد كلمة المسلمين ضدهم(٣).

ويبدو أن المغول أعادوا رسم خططهم ، وترتيب صفوفهم ، وعقدوا تحالفات مع الأرمن والكرج وحتى مع الاسبتارية ، بهدف الدخول في معركة

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٧٦ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٦٥ ؛ ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني ، ت ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة ، تصحيح وتعليق : مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١ هـ ، ص ٤٥١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٧، ص ١٧٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ورقة ٨٨ ب ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٧٦ .

(٣) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ٨٨ ب ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٧٦ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٤٤ – ٤٥ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٧١ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢، ص ١٨١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٨٥ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢١ ، ص ٢١٢ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨١ – ٦٨٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٩٨-٣٠٠.

فاصلة مع المسلمين(١).

وعندما علم السلطان قلاوون بما يخطط له المغول ، بدأ يستعد للمواجهة ، وكان إذ ذاك بدمشق ، فوفد إلى خدمته المنصور الثاني صاحب حماة بعساكره ، فخرج السلطان بموكبه ليكون في استقباله خارج دمشق ، حيث رحّب به ، ونزل المنصور الثاني بداره داخل باب الفراديس(٢).

أما المغول فقد أقبلوا بقضهم وقضيضهم ومن تحالف معهم ، في أعداد تجاوزت الثمانين ألف مقاتل ، وقصدوا حلب ، حيث نفر أهلها منها، وتوجهوا إلى حماة(٣) . وبعد حلب تقدم المغول بشكل بطيء – خلافاً لعادتهم – حتى وصلوا حماة ، فأفسدوا نواحيها ، وأحرقوا بستان المنصور الثاني وجوسقه ودوراً مجاورةً له كانت خارج أسوار البلد(٤) . ثم وردت الأنباء برحيلهم عن حماة متوجهين نحو حمص(٥) .

أما السلطان قلاوون ، فخرج بالجيش الإسلامي من دمشق ، وعسكر بالقرب من حمص ، وكان عدده يناهز الخمسين ألف . ورتّب السلطان جيشه

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ – ٢٨٩ ؛ السيد الباز العريني : المغول ، ص ٣٠٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١١ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩١ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ٣ ، ٦٩٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣١ .

(٤) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج١ ، ورقة ٩٧ ب – ٩٨ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩٣ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٧٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١، ق ٣ ، ص ٦٩٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ٢٤١ .

(٥) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ٩٨ أ .

في وضعٍ قتالي ، فقسّمه إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وجعل المنصور الثاني على رأس الميمنة(١) ، وهو المكان الذي طالما وقف فيه آباؤه من قبله في المعارك التي خاضوها ضد أعداء الإسلام .

وقبل أن يرحل المغول عن حماة في الخامس عشر من رجب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م لمواجهة الجيش الاسلامي قرب حمص(٢) . دخل أحد جنودهم إلى حماة ، وطلب من نائبها أن يكتب للسلطان قلاوون يصف له جيش المغول ، ويُبَين له نقاط الضعف والقوة فيه ، والخطة التي سيدخل بها المعركة . وعلى الفور كتب نائب حماة إلى السلطان كتاباً تضمن تلك المعلومات التي أمَدّه بها الجندي الذي تسلل إلى حماة ، وتقدر تلك المعلومات جيش المغول بثمانين ألف مقاتل ، في القلب منهم أربعة وأربعون ، جُلّهم من المغول ، وسيكون قلب الجيش الإسلامي هدفاً لهم . وميمنتهم (أي المغول) قوية جداً ، فلزم تقوية ميسرة المسلمين ، التي ستواجههم ، كما تضمنت تلك المعلومات نصيحةً للمسلمين بالاحتراز على السناجق السلطانية ، لأنها من الأهداف الأكيدة للهجوم المغولي عند اندلاع المعركة ، ولما وصل كتاب النائب بحماة إلى السلطان قلاوون بواسطة الحمام الزاجل ،اهتم به ، وأخذ في ترتيب جيشه على أساسه(٣).

---

(١) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٩٨ أ – ب ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٨٠ ؛ التحفة الملوكية ، ص ٩٩ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٥ – ٢١٦ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٥٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٣ .

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٨٠ ؛ التحفة الملوكية ، ص ٩٩؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢، ص ٢٧٢ .

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٨٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٢ .

وكان لتلك المعلومات دورٌ كبير في تحديد مسار المعركة ، وبالتالي النتيجة التي أسفرت عنها ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن ذلك الجندي الذي تمكن من دخول حماة وباح لنائبها بتلك الأسرار المهمة ، كان من مغول القبيلة الذهبية وهؤلاء مسلمون ومن البدهي أن يساندوا إخوانهم في الدين ضد الكفار وإن كانوا من جنسهم .

وعندما اقترب المغول وحلفاؤهم من حمص ، أخذوا في وضع اللمسات الأخيرة على قواتهم ، التي كانت تضم طائفة كبيرةً من الأرمن بقيادة ملكهم ليو الثالث ، وفرقة أخرى من الكرج على رأسها ملكهم دمتري الثاني (Dmittri II)(١). والتقى الجمعان يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هـ / ٣٠ اكتوبر ١٢٨١ م ، قرب حمص ، بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه والرستن ، وفي بداية المعركة ، انهزمت ميسرة المسلمين ، وطاردهم المغول حتى حمص ، بينما اضطربت الميمنة الاسلامية (٢) ، ثم تماسكت وصمدت في وجه الهجوم المغولي العنيف ، وتمكنت من رد المهاجمين على أعقابهم ، وأخذت في مطاردتهم ، ووقف السلطان في القلب ، ثابت الجأش ، حتى عادت الميسرة الإسلامية المنهزمة وساهمت في دحض المعتدين ، وتحقق النصر للقوات الاسلامية(٣) . ومن الملاحظ أن النصر

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٢ ، حاشية رقم "١".

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩٣ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢، ص ١٨٣ ؛ العبر ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٩١ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(٣) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٢٤٢ أ - ٢٤٣ ب ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١٠٠ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ٢٤٤ .

تحقق بمشيئة الله أولاً ثم بصمود الميمنة التي تولى قيادتها - مع بعض الأمراء - المنصور الثاني(١). وبعد انتهاء المعركة عاد المنصور الثاني بجيشه إلى حماة(٢).

وكانت تلك المعركة (معركة حمص الثانية) آخر صفحات الجهاد التي سجلها التاريخ للمنصور الثاني ضد المغول .

---

(١) السيد الباز العريني : المغول ، ص ٣٠٠ .

(٢) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٨٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

جهاد المنصور الثاني ضد الصليبيين والأرمن

لم يقتصر جهاد مملكة حماة في عهد المنصور الثاني على المغول وحدهم ، بل تعداهم ليطال أيضاً الصليبيين والأرمن .

ولقد ورثت الدولة المملوكية جهاد الصليبيين عن الدولة الأيوبية ، وكان السلطان الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكي ، يحمل راية الجهاد ضد الصليبيين، وحلفائهم الأرمن، حيث جرّد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م حملة اشترك فيها المنصور الثاني وأسند إليها مهمة مهاجمة أنطاكية ، فتحركت الحملة إلى هناك حيث هاجمت أنطاكية واقتحمت ميناءها المعروف بالسويدية، وأحرقت ما به من مراكب ، وصادرت ما به من محاصيل ومؤن ، ثم انسحبت تلك الحملة بعد أن أصابت أنطاكية بصدمة عنيفة لم تتعرض لمثلها منذ وقت طويل ، وعادت القوات المصرية التي اشتركت في تلك الحملة إلى القاهرة أواخر رمضان سنة ٦٦٠هـ /١٢٦٢م ، ومعها ما يربو على مائتين وخمسين أسيراً من الصليبيين ، واستقبلهم السلطان بالترحاب ، وبعث الخلع إلى المنصور الثاني وغيره من الأمراء الشاميين الذين اشتركوا في الهجوم الناجح على أنطاكية(١).

وكانت مملكة أرمينية الصغرى(٢) على علاقة تحالف وثيق مع

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٨٢ ب – ١٨٣ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٧٣ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص ١٣٢ – ١٣٣ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكر ، ج ٩ ، ص ٩٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ١٦٤ .

(٢) قامت مملكة أرمينية الصغرى في اقليم قليقية في الجنوب الشرقي من آسيا ═

المغول، وساهمت معهم في حملاتهم على بلاد الشام(١) ، من ذلك ما حدث سنة ٦٦٢ هـ /١٢٦٣ م ، حين أمر المغول حلفاءهم الأرمن وسلاجقة الروم ، بمهاجمة أراضي دولة المماليك ، فسارت قواتهما المشتركة ومعها فرقة مغولية إلى عينتاب(٢) ، ونزلت تلك القوات بجوار قلعة سرفندكار(٣) ، لقضاء ثلاثة أيام من الراحة هناك ، قبل مواصلة الزحف ، وعندما علم السلطان الظاهر بيبرس بأمرهم ، أمر عساكر حماة وحمص بالمسير إلى حلب ، لصد المعتدين عنها . وفاجأت القوات الإسلامية الأرمن ومن معهم بهجوم خاطف وهم لا يزالون في معسكرهم ، فقتلت منهم ما يناهز الثلاثين شخصاً ، وأسرت أمراءهم . كما جُرح صاحب حموص(٤) (باروم بهرام) وهو من أقارب ملك الأرمن ، وغنمت القوات الإسلامية غنائم كثيرة كان الأرمن وحلفاؤهم قد خلّفوها في معسكرهم بعد فرارهم منه(٥).

== الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط ،وامتدت حتى حدود إمارة انطاكية ، وهي ذات أهمية استراتيجية بالغة ، إذ تشتمل على خليج الاسكندرونة ، ومدن هامة منها : طوروس ، وأذنة ، والمصيصة ، وعين زربة ، وغيرها ، وغالب أرضها جبال وعرة تنتهي معظمها بألسنة صخرية داخل البحر، تشكل مرافئ صغيرة محمية . ولقد لعب الأرمن دوراً خطيراً في الحروب الصليبية . علي الغامدي : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قليقية بحث ضمن كتاب بحوث تاريخية (١ - ٢) من اصدار الجمعية التاريخية السعودية ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٦١ .

(١) لقد كان الملك الأرمني هيتوم ، وصهره بوهيمند السادس الصليبي أمير أنطاكية على علاقة تحالف قوي مع المغول ضد المسلمين في بلاد الشام ويقال إن هولاكو وضع خطة اجتياح بلاد الشام بالاتفاق مع هيتوم ملك أرمينيا الصغرى وأنّ نجدةً أرمنية كانت مع المغول في معركة عين جالوت . المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٥١٠ ، حاشية (١) ، فؤاد الصياد : المغول ، ص ٢٩١ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) عينتاب : مدينة حسنة من جندقنسرين . وهي قاعدة ناحيتها ، تقع شمال حلب وتبعد عنها بثلاث مراحل . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٣) سرفندكار: قلعة حصينة في وادٍ من بلاد الأرمن ، إلى الشرق من تل حمدون وبينهما أربعة أميال . أبو الفداء : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٤) حموص : حصن في بلاد الأرمن إلى الشرق من تل حمدون ؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٨٤ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر=

وفي العام نفسه (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) أراد الأرمن أن يثأروا لهزيمتهم السابقة ، فحشدوا قوة من جيشهم ، وألبسوها أزياء مغولية ، لإيهام المسلمين بأنهم فرقة من المغول ، ليستفيدوا من الاضطراب الذي يصيب بعض المسلمين عند رؤيتهم لفرسان المغول . لكنّ السلطان الظاهر بيبرس اكتشف الخطة ، وعلى الفور أمر عساكر حماة ودمشق بالمسير إلى حمص ،استعداداً لمواجهتهم، فيما أوعز إلى بعض الفرق العسكرية بشنّ الغارات على بلاد الأرمن ، الذين ما إن رأوا ما يُعِدّه السلطان لهم ، حتى فترت عزائمهم ، وتلاشت قوتهم(١).

وفي إطار مشروعه لاجتثاث الوجود الصليبي من بلاد الشام ، نزل السلطان الظاهر بيبرس بقواته على صفد – وهي من قلاع الداوية – في شعبان سنة ٦٦٤هـ / يونيو ١٢٦٥م . وأقام محاصراً لها ، وهناك قدم عليه المنصور الثاني صاحب حماة بعساكره . ومكثوا يحاصرون صفد حتى الثاني من شوال سنة ٦٦٤ هـ / منتصف يوليو ١٢٦٥م . ففي ذلك اليوم اتفق السلطان الظاهر بيبرس ، مع المنصور الثاني ، وغيره من كبار القادة ، على شن الهجوم على المدينة ، واستمر الهجوم الضاري حتى منتصف شوال ، الموافق لأواخر يوليو ، عندها طلب الصليبيون الأمان مقابل تسليم المدينة ، فوافق السلطان على طلبهم وتم تحرير صفد(٢).

= ص ١٩٢ ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٠٥ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٣٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ؛ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٠٧ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ١٩٦؛ المقريزي :السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٠-٥١١.

(٢) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧٩ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٥٨؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ١٨٣ –١٨٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ ؛ سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق، ص ٦١١ .

Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p. 117 - 120 .

أما الأرمن فما فتئوا يحاولون الضغط على دولة المماليك ، تلك الدولة التي لا تتردد عن معاقبتهم كلما أحست منهم تحركاً مريباً . وقد اضطر الأرمن إلى توقيع معاهدة مع المماليك كان من شروطها ألاّ يعيدوا بناء القلاع وتحصينها ، وأن يضمنوا حرية التجارة ، ويؤمّنوا طرقها التي تمر عبر أراضيهم ، لكنّ الأرمن انتهكوا تلك المعاهدة(١). إضافة إلى أنهم منعوا وصول الأخشاب إلى أسواق الدولة المملوكية(٢). حيث تضم الأراضي التي يسيطرون عليها غاباتٍ كانت تمدّ مصر وبلاد الشام بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن(٣). وقد أثارت تصرفات الأرمن تلك غضب السلطان الظاهر بيبرس ، وزاد من غضبه ما كان يظهره الأرمن من تعلّق وولاء للمغول ، فقرر السلطان تلقينهم درساً قاسياً ، فجرد لذلك حملة قوية أسند قيادتها إلى المنصور الثاني – صاحب حماة – وأمده بمعاونين من كبار الأمراء ، أمثال : سيف الدين قلاوون – السلطان فيما بعد – وعز الدين إيغان – المعروف بسمّ الموت – وأمر السلطان كافة الأمراء المشتركين في الحملة " بتعظيم صاحب حماة"(٤) لأنه قد اختاره ليكون " مقدماً على العساكر " وأوصاه بما يعتمده "(٥).

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧، ص ٢٨. وكان الصلح بين الأرمن والمماليك قد تم الاتفاق عليه سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٣م . انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٨ ؛ سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٤٢ ؛ الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٠ ؛ السيد الباز العريني : المغول ، ص ٢٨٤ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٣) علي الغامدي : سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قليقية ، ص ٣١٠ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٦٩ ؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٠ .

(٥) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٦٩ .

وتوجهت الحملة في الخامس من ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ / أغسطس ١٢٦٦ م ، وهي تحمل تعليمات السلطان بما يجب اتخاذه من تدابير ضد الأرمن(١) . ووصلت إلى حلب ، ثم انحرفت صوب الغرب(٢). وتقدمت إلى دربساك ، فوجدت الأرمن قد سدوا دروب جبال الأمانوس (اللكّام - كما تسميها كتب الجغرافية الاسلامية)(٣) المؤدية إلى الشام ، وشحنوها بالمقاتلة والمنجنيقات(٤). وتولى " ليو " و " ثوروس " ابني الملك الأرمني " هيثوم " قيادة تلك الحشود الأرمنية ، في حين تولى فرسان الداوية في بغراس حراسة جناحيها(٥). فقام المنصور الثاني - قائد الجيش الاسلامي - بتغيير خط سيره ، فتوجه نحو الشمال ، ليدخل إلى بلاد الأرمن عن طريق إحدى دروب جبال الأمانوس القريبة من قلعة سرفندكار(٦). فتجنب بذلك سلوك الطرق المعروف والمألوفة في جبال الأمانوس(٧).

أما الجيش الأرمني فترك مواقعه التي يتحصن بها وتوجه إلى الشمال، ليقطع على المسلمين الطريق(٨) . وهناك في سهل قيليقية ، التقى

---

(١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٢٨.

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ .

(٣) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٣٠ .

(٤) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩١ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٢١٤ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٥٨ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١٨؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ .

(٦) المرجع نفسه والجزء والصفحة ، وانظر أيضاً : السيد الباز العريني: المغول، ص ٢٨٤.

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦١٠ ؛ السيد الباز العريني : المغول، ص ٢٨٤ .

(٨) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ ؛ السيد الباز العريني: المغول ، ص ٢٨٤ .

المسلمون والأرمن وجهاً لوجه ، فبعث المنصور الثاني إلى الأرمن يطالبهم بإعلان الخضوع للسلطان الظاهر بيبرس، ليُجَنِّبوا بلادهم حرباً ضروساً ، توشك أن تقع ، لكنّ الأرمن اعتقلوا رسل المسلمين ودقوا طبول الحرب(١) . فالتحم الجيشان في معركة رهيبة .(في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٢٦٦ م)(٢)، مُنِيَ الأرمن خلالها بهزيمة ساحقة ، إذ قتل الأمير " ثوروس " وأسر أخوه " ليو "(٣) . كما قتل أيضاً أحد أخوة الملك هيثوم ، بينما انهزم الآخر ، وأسر أحد أبنائه ، وانهزم أيضاً صاحب حموص ، واثنا عشر ملكاً من ملوكهم كانوا قد شهدوا المعركة(٤) .

وسقط عدد كبير من الأرمن قتلى في أرض المعركة ، فيما زحف الجيش الإسلامي إلى مرّي(٥) فاستولى عليها ، ثم استولى على كرنجيل ، وتل حمدون(٦) ، وحموص ، وعبر نهر

---

(١) شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٣٧ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩١ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٢١٤ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٥٨ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١١٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ العيني : عقد الجمان عصر سلاطين المماليك ، ج ١، ص ٤٤٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩١ .

(٥) مري : إلى الشرق من تل حمدون . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٦) تل حمدون : قلعة حصينة من بلاد الأرمن ، تقع على تل عال ، ولها ربض وبساتين ، ونهر يجري عليها ، وهي اليوم في سهل أضنة جنوب تركيا ، وتسيطر على الأراضي المتصلة بالسفوح الغربية لجبال أمانوس . وسيطر عليها الأرمن سنة =

جهان(١) حيث نازل قلعة العمودين(٢) – وهي من قلاع الداوية – واقتحمها وسبا أهلها ، كما قتل طائفة من المغول كانوا موجودين بها(٣) . وفي هذا برهان ساطع على عمق التحالف الذي جمع بين الأرمن والصليبيين والمغول ، ورغم اختلاف أجناس هؤلاء ، وتباين دياناتهم ومذاهبهم إلاّ أنهم اتفقوا على شيء واحد هو رَميْ الاسلام عن قوس واحدة.

ولم يمكث المنصور طويلاً في المناطق التي احتلها ، بل أشعل في أطرافها النار . فالتهمت قلعة العمودين بما فيها من ذخائر ومؤن، وكذلك فعلت بحموص(٤) . وتوغل المنصور بجيشه في قلب مملكة أرمينيا الصغرى ، إذ إنّ هدفه كان الوصول إلى عاصمتها سيس ، وبالفعل دخل الجيش الاسلامي العاصمة الأرمنية ، وأوسع أهلها قتلاً وأسراً ، وارتفعت ألسنة اللهب في جميع أجزائها(٥) ، ولم تكن كتدرائيتها ولا قصرها الملكي بمنأى عن هجمات

= ٥٩١ هـ / ١١٩٤م . وحصنوها تحصيناً جيداً ، وخربها المسلمون في غزوهم – ربما سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ؛ فولففانغ : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(١) ويُسمى أيضاً : نهر جيحان ، ينبع من قرية " كيزميت " بآسيا الصغرى ، ويمر ببلاد الأرمن ويصب في البحر المتوسط . ابن العديم: بغية الطلب ، ج ١، ص ٣٧٣ .

(٢) قلعة العمودين : قلعة حصينة للداوية بأرمينية الصغرى . ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ، حاشية ٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٢١٤ ب ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩١ ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٨٠ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية . ص ٥٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩١ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ١٩١ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٥٨ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١١٨ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣٣٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٢٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٤٤٣.

المسلمين ولا نيرانهم المتقدة(١) . واتخذ المنصور الثاني سيس قاعدة له ، فيما سارت فرقتان من الجيش ، لتنكّل ببقية مقاطعات الأرمن ، فالفرقة الأولى قادها سيف الدين قلاوون واكتسحت المصيصة(٢) ، وإياس(٣)، وطرسوس(٤)، وأذنة(٥) ، وأحرقتها بعد أن أخذت ما بها من غنائم ، كما هاجمت هذه الفرقة قلعة الثنيات(٦) – وهي تابعة للداوية – فهدّمتها ، كما هاجمت قلاعاً أخرى للداوية في تلك المنطقة منها قلعة تسمى الساب ، وأشعلت فيها النيران ، ثم عادت الفرقة إلى حيث القيادة العامة في سيس(٧). أما الفرقة الثانية فتولى قيادتها عزالدين إيغان حيث جاست خلال الديار الأرمنية ، ولم يمنعها من التقدم إلاّ حدود سلاجقة الروم ، وأيضاً نشرت هذه الفرقة الرعب والدمار فيما اعترض طريقها من مواقع ، ثم عادت إلى سيس(٨).

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٤ .

(٢) المَصِّيصَة : مدينة من ثغور الشام على شاطئ جيحان بين أنطاكية وبلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٤٥ .

(٣) إياس : مدينة على ساحل بحر الروم . ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٣٥.

(٤) طَرَسُوس : من ثغور الشام ، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٥) أذنَة : بلد من الثغور قرب المصيصة . ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٦) الثنيات : قلعة من قلاع الداوية في أرمينية الصغرى . ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٧) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩١ ب ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٥٨ ؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٢ ، ص ٥٥٢ ؛ العيني : عقد الجمان : عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٤٢٣.

(٨) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٢ .

وبعد أن تكامل حضور الجيش الاسلامي في سيس . أمر قائده المنصور الثاني بتقييد كبار الأسرى والاهتمام بهم ، ودفع إلى أخيه الأفضل علي ، أكبر الأسرى شأناً ، وهو الأمير " ليو " ابن الملك " هيثوم " ، وأوصاه بالاهتمام به حتى يُسلّمه إلى السلطان(١) . ثم أصدر أمره بالانسحاب ، وانسحب الجيش في ذي الحجة / أواخر سبتمبر بعد عملية عسكرية ناجحة استغرقت ما يقرب من شهر ، قُدِّر عدد أسرى الأرمن فيها بأربعين ألف شخص (٢) إضافة إلى غنائم لا تحصى ، كان من جملتها أعداد كبيرة من الماشية ، إذ كان يتغذى الجيش بذبح أعداد من البقر والغنم كل يوم ، ومع هذا فقد أحضر معه ما لا يعد منها ، حتى بيع الرأس من البقر بدرهمين فقط ، ولا يوجد من يشتريه لكثرته(٣).

وعندما وصلت بشائر عودة الجيش الاسلامي منتصراً إلى السلطان - وكان يتصيد خارج دمشق - فرح فرحاً غامراً ، وأعطى البشير بذلك ألف دينار ، وعاد إلى دمشق ، وتجهز وخرج لاستقبال جيشه الظافر . ومرّ في طريقه على حماة ، ثم التقى بجيشه في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٦٦٤هـ / ديسمبر ١٢٦٦ م ، ووزع الغنائم والسبايا على العساكر ، ثم عاد إلى دمشق ، وملوك الأرمن مصفدة بين يديه ، فخرج الناس لمشاهدة هذا

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ -٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٢ .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١١ ؛ السيد الباز العريني : المغول ، ص ٢٨٥ ؛ سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٦ ، ورقة ٢١٤ ب، اليافعي :جامع التواريخ ، ورقة١٩١ب ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين الممالك ، ج ١ ، ص ٤٢٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٢ .

المنظر العجيب ، فكان بحق يوماً مشهوداً(١). ثم خلع السلطان الظاهر بيبرس على المنصور والأمراء المساهمين معه في قيادة الحملة وخص المنصور الثاني بخيول وخلع له ولأصحابه وودعه ، فعاد المنصور الثاني إلى حماة محاطاً بهالات من العز والسؤدد(٢).

وكان هيثوم (Hethum) (٦١٩ هـ /١٢٢٢ م - ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ملك الأرمن غائباً عن بلاده أثناء هذه الغزوة - وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد أنّ وقت تنفيذها كان مختاراً بدقة - إذ كان ضيفاً على مغول فارس ، يطلب منهم العون ، بعد أن أحسّ بنية المماليك في توجيه ضربة عسكرية له(٣). وعندما عاد إلى بلاده " ألفى ولي عهده أسيراً ، وعاصمته خراباً ، وبلاده بأكملها مستباحة"(٤) .

وتُعدّ هذه الغزوة من أروع ما سطره التاريخ للمنصور الثاني من أعمال . أما الأرمن فقد كانت ضربة قاصمة لهم ، لم تفق منها مملكتهم في قليقية مطلقاً " ولم يعد بوسعها إلاّ أن تقوم بدور سلبي في الأمور السياسية بآسيا"(٥).

وكان ولي عهد مملكة أرمينيا الصغرى الأسير ، ورقةً رابحة في أيدي

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ١٩١ ب ، تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٨٠ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٥٨ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ١١٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٩٤ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٥ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٣ .

(٤) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ .

(٥) المرجع نفسه والجزء والصفحة .

المسلمين ، إذ لم يتم اطلاق سراحه إلا بعد أن تنازل قومه عن دربساك ، وبهسنا(١) ، ورعبان ، ومرزبان(٢) ، والدرب(٣) ، وشيح الحديد(٤) . ويعني هذا تجريد قليقية من دفاعاتاها وعزلها عن حلفائها من المغول والصليبيين(٥).

وشهد عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦م ، أيضاً سعى الاسبتارية للتصالح مع الدولة المملوكية ، إذ جاء مندوبهم إلى السلطان الظاهر بيبرس للتفاوض بهذا الشأن ، فاشترط عليه السلطان إبطال ما كان لهم من الضرائب على بعض المناطق الإسلامية ، ومنها حماة إذ كان لهم عليها ضريبة سنوية تقدر بأربعة آلاف دينار ، فوافق الاسبتارية على شرط السلطان ، وعقدوا معه صلحاً على هذا الأساس(٦) . والجدير بالذكر هنا أن ضريبة الاسبتارية على حماة تقررت منذ عهد المظفر الثاني واستمرت إلى هذا التاريخ(٧) .

---

(١) بَهَسْنا: قلعة حصينة عجيبة قريبة من مرعش وسميساط وهي من أعمال حلب .ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥١٦ .

(٢) مرزبان : مدينة في اقليم مرعش الذي يتحكم في الطريق بين الجزيرة وأرمينية الصغرى . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١١ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٢٨ ، شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣٦١ .

(٤) السيد الباز العريني : المغول ، ص ٢٨٥ ؛ مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٣١ ؛ عبدالله الغامدي : جهاد المماليك ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٦٦ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ ، ٥٦٠؛ النويري : نهاية الأرب ،ج ٣٠ ، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢ ، ص ٩١٥ ؛ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٦ ، ٩١ ؛ عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس ، ص ٩٥ .

Selections From Tarihk Ibn Al-Furat , p. 131.

(٦) انظر ما سبق الفصل الثالث ، ص

(٧) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p. 141

وواصل السلطان الظاهر حركات الجهاد ضد الصليبيين ، فعزم على استعادة " شقيف أرنون " منهم سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ، فتحرك بقواته إليه وهناك وافاه المنصور الثاني بعساكره ومعه أخوه الأفضل ، فحاصر الجيش الاسلامي الشقيف إلى أن سلمه أهله بالأمان ، فأحسن السلطان إلى المنصور الثاني ، وودّعه ، فعاد إلى عاصمته حماة في شعبان سنة ٦٦٦ هـ / مايو ١٢٦٨.(١)

ولم يلتزم الاسبتارية باتفاقهم السابق مع السلطان الظاهر بيبرس ، إذ ساروا تحت زعامة مقدمهم(٢) ومعهم بعض صليبيّ طرابلس إلى جبلة ، فهاجموها ، وقبضوا على نائبها وقتلوا جماعة من أصحابه ، ولمّا شعروا بفداحة جُرمهم ، بعث مقدمهم إلى المنصور الثاني يناشده التوسط لهم عند السلطان الظاهر بيبرس ، محتجاً بأنّ نائب جبلة هو الذي بدأهم بالعداوة ، وأنّه كثير الإيذاء لهم ، لكنّ السلطان رد على هجومهم هذا بقتل عدد من أسراهم ، كانوا معتقلين بسجن حمص ، أما نائب جبلة فقد عاد إلى نيابته(٣) . ومن المرجح أنّ عودة ذلك النائب كانت ثمرة لوساطة المنصور الثاني ، رغم إقدام السلطان على إعدام أسرى الاسبتارية ، وتدل هذه الحادثة ، على إدراك الاسبتارية للمكانة الكبيرة التي يحتلها المنصور الثاني في نفس السلطان الظاهر بيبرس .

وكان تنازل الأرمن عن بعض الحصون – فداءً لولي عهدهم الأسير – قد أضربالصليبيين ،إذ كان استعادة المسلمين لتلك الحصون يعني تمهيد الطريق لمهاجمة أنطاكية(٤) ، فلما عزم السلطان الظاهر بيبرس على ذلك

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ٢٩٨-٢٩٩ ،
Selections From Tarik Ibn Al .Furat,p.141؛

(٢) كان مقدم الاسبتارية في تلك الفترة " هيوريغل " . انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨٤٧ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٣١ ؛ Selections From Tarik Ibn Al .Furat,p.163

(٤) السيد الباز العريني ، المغول ، ص ٢٨٥ .

ساق بعساكره إلى أن دخل حماة . وهناك قسّم جيشه إلى ثلاث فرق ، وحدد لكل فرقة طريقاً ، على أن يكون الملتقى تحت أسوار أنطاكية(١). ومن المرجح أن يكون المنصور الثاني قد اشترك في عملية استعادة أنطاكية من الصليبيين . وبعد الفراغ من استعادة أنطاكية ، رغب السلطان في قضاء وقت من الراحة ، فخرج مع بعض خواصه للصيد ، ويبدو أنّ المنصور الثاني كان مرافقاً للسلطان في هذه الرحلة(٢) . أما العساكر فعادت من أنطاكية ، ودخلت حماة وهي في طريقها إلى أوطانها(٣).

وشجع فتح أنطاكية المسلمين على السعي الحثيث لطرد الصليبيين من كافة بلاد الشام ، فجاء السلطان الظاهر بقواته إلى حماة سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م ، وخرج منها بالفرسان وأصحاب الخيول الجيدة فقط ، وترك الثقل بها (٤) . وجعله تحت رقابة اثنين من الأمراء أحدهما الطواشي شجاع الدين مرشد(٥) . وقصد السلطان بمن معه من الفرسان حصن المرقب ، لكنّ الثلوج أعاقت تحركهم ، فعادوا إلى حماة ، وأقاموا بها تسعة عشر يوماً ، ثم حاولوا – بقيادة السلطان أيضاً – الإغارة مرة ثانية على حصن المرقب ،

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩٦ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٧ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ٦٢ – ٦٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣٦٠؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ – ٥٦٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج٢، ص ٢١ – ٢٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج ٧ ، ص ١٤٣ –١٤٤ ؛ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٧ . Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p.153.

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٣٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٣٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٤) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٦٤ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب، ص ٣٠٧؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٥ .

Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p.176

(٥) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٦٤ .

ولكن دون جدوى ، حيث حالت الأحوال الجوية السيئة مرة أخرى بينهم وبين الوصول إلى هدفهم ، فعادوا مرة ثالثة إلى معسكرهم بحماة . ولم يُقِمْ السلطان بها طويلاً ، ويبدو أنه أراد الاستفادة من حماسة فرسانه ، فخرج بهم من حماة وتوجه إلى حصن الأكراد ، وعاث بنواحيه ، ثم لحقت به بقية العساكر ومعهم المنصور الثاني حيث نازلوا الحصن(١).

ونلحظ أن السلطان اتخذ من حماة قاعدة لتحركاته في هذه الفترة ، وذلك بسبب موقعها المهم والقريب من حصن الأكراد ومعاقل الاسبتارية الأخرى القريبة منه .

وقد أجّل السلطان الظاهر بيبرس مشروعه في الاستيلاء على حصن الأكراد ريثماتتحسن أحوال الطقس ، فتوجه اليه بجيشه في رجب سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م ، وأقام محاصراً له، فانضم إليه المنصور الثاني بعساكره(٢). وعند اقتراب المنصور منه، خرج السلطان لاستقباله ، فالتقاه ملتقى حسناً . وترجّل السلطان له ، ومشى تحت سناجقه ، بغير جمدارية ولا سلاح دارية ، تأدباً معه واحتراماً له ، ثم سيّر إليه السلطان دهليزاً ليقيم فيه(٣) واستمر الحصار على الحصن حتى سقط في أيدي المسلمين في

---

(١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٦٤ – ٣٦٥ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٥ – ٥٨٦ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٧١ . Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p. 177

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٧٥ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٢، ص٥٩١ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٢ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٧١.

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٧٥ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠، ص ٣٢٦ .
Selections From Tarik Ibn Al-Furat, p. 183.

رمضان سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م(١).

ثـم أُعطِيَ صـاحب حـمـاة إذناً بالعـودة إلى بلاده في شـوال سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م(٢).

وكان السلطان الظاهر بيبرس رغم انشغاله بقتال الصليبيين ، يرقب عن كثب تحـركات الأرمن ، فبدر منهم مـا يناقض شروط الهدنة التي عقدت معهم سابقاً ، فأعلن التعبئة العامة ، ثم خرج بالجيش من دمشق ، فدخل حـمـاة في رمـضـان سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥م(٣). فـعـزم المنصـور الثـانـي على الخروج لاستقباله بعساكره ، وأخذ يتجهز لذلك ، لكنّ حركة السلطان مكنته من دخول حماة قبل خروج صاحبها لتلقيه " فما أحسْ به صـاحب حماة إلاّ وهو سـائق في مـوكبـه خدمـة له ، وإقـامـة لحـرمـتـه في بلده"(٤) . ولـم يلبث السلطان أن سار بالجيش من حماة وفي صحبته المنصور الثاني ، فتقدم نحو بلاد الأرمن . فـدخل الصـبـيـبة(٥). وتجـاوزهـا إلى سيس ، فـأدركه هناك عيد الفطر ، أمّا سكان عـاصـمـة الأرمن فـقـد تـحـصنوا بقلعـتـهـا ، وتركـوا دورهم وأمـلاكـهم الأخـرى طعـمـة للنار التي أشـعلـهـا المسلمـون في أرجـائـهـا . وبقي المسلمـون هناك عدة أيام ، كانت الكتائب الاسلامية خـلالها تُغِيرُ على الجبال

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٢ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٣٣ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٣٢٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ .

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ٤٣٣ ؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٩-٣٢.

(٥) الصبيبة : اسم لقلعة بانياس وهي من أعمال دمشق وعلى بعد مرحلة ونصف إلى الجنوب الغربي منها . أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .

والشعاب ، وتقتل وتغنم وتأسر ، ثم انسحب السلطان بجيشه إلى بلاده(١).

وعندما تولى السعيد بركة خان الحكم خلفاً لوالده الظاهر بيبرس ، قدم إلى الشام . وجرّد حملة عسكرية سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وأسند قيادتها إلى سيف الدين قلاوون والمنصور الثاني ، وأمرها بشن الغارة على بلاد الأرمن . فتحركت الحملة إلى هناك ، ودخلت مملكة أرمينيا الصغرى، وتوغلت حتى وصلت عاصمتها سيس ، فعاثت في نواحيها ، ثم عادت إلى دمشق تحمل معها الغنائم والأسرى(٢) . والجدير بالذكر هنا أن بلاد الأرمن التي كانت من أحصن البلاد أصبحت منذ الحملة الإسلامية الأولى التي هاجمتها سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م حمىً مستباحاً بإمكان أي حملة عسكرية أخرى أن تدخل إليه ، وتصل إلى العاصمة دون وجود مقاومة فعّالة .

وبعد أن آل أمر السلطنة إلى سيف الدين قلاوون ، واصل سياسة الضغط على الصليبيين فاضطروا إلى عقد صلح معه سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م ، اشترط بموجبها السلطان ألاّ يهاجموا " مملكة حماة ، ومدينتها ، وقلعتها ، وبلادها ، وحدودها"(٣) وكان هذا الشرط أيضاً ضمن بنود المعاهدة التي عقدها السلطان قلاوون مع كل من الأرمن ، وصاحب صور الصليبي سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م.(٤)

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٤٣٥ ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص ٣٢١ – ٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ ؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٢) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٩١ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١١ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٣٤ ، ٣٨ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٩٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٩٧ ، ١٠٤ .

وجدير بنا وقد أوشك هذا الفصل على نهايته ، أن نلقي نظرة على نهاية المنصور الثاني ،إذ ألَمَّ به المرض في شعبان سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م ، فور عودته من لقاء جمع بينه وبين السلطان قلاوون في دمشق(١). وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق ، ثم تحسنت حالته قليلاً ، فنصحه الأطباء بدخول الحمام ، فلما دخلها عاوده المرض ، فجاءه أطباء من دمشق إضافة إلى من كان عنده منهم ، فما نفعه ذلك ، واشتدت به ذات الجنب ، فلما شعر بدنو أجله ،أعتق مماليكه ، وتصدق بأموال طائلة ، ثم أسلم روحه إلى بارئها في الحادي عشر من شوال سنة ٦٨٣ هـ / يناير ١٢٨٥م(٢) . وصلّى المسلمون عليه صلاة الغائب في دمشق ، في السادس والعشرين من شوال (٣) . ودُفن في تربة عُملت له بجوار الجامع الأعلى بحماة ، وكذلك نُقل إليها رفات كل من كان مدفوناً في القلعة من أسرة تقي الدين عمر(٤) .

وقد عاش المنصور الثاني واحداً وخمسين عاماً وبضعة أشهر(٥) ، قضى في الحكم منها واحداً وأربعين عاماً(٦) ، وكان – يرحمه الله – فطناً

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٣ .

(٢) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١١٨ أ ؛ العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا ....، ورقة ١١٧ أ ؛ بيبرس المنصوري ؛ زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص١٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص٤٤٣ – ٤٤٤ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٩ ؛ وفي تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٦٠ أن وفاته كانت سنة ٦٨٢ هـ وليس هذا بصحيح .

(٣) البرزالي : المقتفى لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١١٨ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٥) العليمي:كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا...، ورقة ١١٧أ ؛أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص١٨ ؛ تاريخ ابن الفرات : ج ٨ ، ص ١٤ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٥٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٢٥ – ٧٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٤.

(٦) العليمي : كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا ....، ورقة ١١٧ أ ؛ أبو الفداء : =

ذكياً ، محبوب الصورة ، محترماً عند سلاطين المماليك . وكان غايةً في الحلم ، وذا شجاعة وإقدام ، وجود وكرم(١) . وكان يحب العلماء ويُجِلّهم(٢). ويُعاب عليه إغراقه في تناول الملذات والسعي لها ، وطالما أوقعه ذلك في الحرج ، خاصة مع السلطان الظاهر بيبرس ، غير أنه تاب في مرضه الذي توفي فيه(٣).

== المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ١٨٦؛ ابن الشحنة: روضة المناظر، ص ١٥٩ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٩ ، نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٣٦٦ ، عن نسخة شستربيتي رقم ٤٢٥٧، ورقة ٣ أ ؛ ابن حبيب : جهينة الأخبار ، ورقة ٥٤ أ ؛ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٢٥٦ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٠ ب ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية، ص ٢٦٦ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤، ص ١٩ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٨٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٥ ، ص ١٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٥ .

(٢) الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٤ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٨٤ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٤ .

الفصل الخامس

نهاية مملكة حماة

(٦٨٣هـ/١٢٨٥م ـ ٦٩٨هـ/١٢٩٩م)

* عهد الملك المظفر الثالث محمود بن المنصور الثاني .
* العوامل التي أدت إلى انهيار مملكة حماة .
* دور المماليك في إضعاف مملكة حماة .
* نهاية الحكم الأيوبي في حماة .

عهد الملك المظفر الثالث
محمود بن المنصور الثاني

كانت آخر أمنيات المنصور الثاني – كما سبق أن ذكرنا – أن يسمع ردأ إيجابياً من السلطان قلاوون ، على طلبه في أن يخلفه ابنه المظفر محمود على عرش حماة. لكنّ رد السلطان وصل إلى حماة متأخراً؛ إذ توفي المنصور الثاني قبل ذلك بعدة أيام(١). ومن الواضح ، أن المنصور الثاني ، كان يُعدّ ابنه المظفر محمود ليخلفه على مملكته ، فقد رأيناه يستصحبه معه ، في زياراته للسلطان المملوكي ، إنْ في القاهرة أو دمشق(٢).

وكان المظفر محمود ، حين توفي والده ، يبلغ السادسة والعشرين من عمره ، فقد وُلد سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، وأمه هي عائشة خاتون بنت العزيز – صاحب حلب – وكان المنصور الثاني قد بنى بها سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م ، وتأخرت ولادة المظفر هذا حتى التاريخ الذي ذكرناه ، وقد كانت الصاحبة " غازية خاتون " – والدة المنصور الثاني – تتوق إلى أن ترى ، حفيداً لها ، من ابنها المنصور ، لكنها توفيت سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، دون أن ترى هذا الحفيد(٣).

ومهما يكن من أمر فإن السلطان قلاوون وافق على أن يخلف المظفر محمود والده في حكم حماة ، وأمر موظفي الدولة أن يعاملوه بالطريقة التي كان يعامل بها سلفه(٤). وأصبح المظفر محمود الملك السادس من ملوك

---

(١) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٢٧٨

(٢) انظر ما سبق الفصل الرابع.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ أ.

(٤) أبو الفداء : التبر المسبوك ، حوادث سنة ٦٨٣هـ؛ العليمي : التاريخ المعتبر ج١، =

الأسرة التقوية الأيوبية الذي يحكم حماة ، كما كان الثالث منهم الذي يُلقب بلقب " المظفر " .

وكان المظفر محمود ، وعمه الأفضل ، قد بعثا إلى السلطان قلاوون كتابي تعزية ، حال وفاة المنصور الثاني ، فردّ السلطان بدوره على كتابيهما ، وأقر المظفر الثالث على حكم حماة ، وكلّف السلطان أحد أمرائه وهو جمال الدين أقوش(١) الموصلي بحمل الجواب إلى حماة ، كما بعث معه التشاريف لصاحب حماة ، وعمه وأفراد أسرته ، وكبار أصحابه(٢) . كما منح السلطان قلاوون ناظر أوقاف وأملاك الأسرة التقوية بمصر تشريفاً(٣). مدللاً على ذلك، بأنّه لن يتعرض لتلك الأوقاف والأملاك بسوء .

وسار رسول السلطان (جمال الدين أقوش) إلى حماة عشية الجمعة

= ورقة ٧٧ ب ؛ تاريخ من ملك مصر وعكا ... ، ورقة ١١٧ ب ؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ، ص ٧٣ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١١٠ ؛ زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٣١٥ ؛ أبو الفداء المختصر ، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٨٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٤ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٤٠٩ .

(١) الامير جمال الدين أقوش الموصلي الحاجب ، أتهم بالاشتراك في مؤامرة اغتيال السلطان الأشرف سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤م . وقبض عليه بسبب ذلك ، واعدم في نفس السنة . ابن أيبك : الدرة الزكية ص ٣٥١ .

(٢) العليمي : التاريخ المعتبر ، ج ١ ، ورقة ٧٧ ب ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٣ - ٧٤ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ ؛ أبو الفداء: المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٤ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٤ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٥ .

التاسع عشر من شوال ، سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ، وفي الطريق التقى بعلم الدين سنجر الحموي الشهير " بأبي خرص "(١) وكان هذا الأخير قد جاء قاصداً مصر من حماة وقد بعثه كبراؤها إثر وفاة صاحبها المنصور الثاني . وأخذ أبو خرص التشريف الخاص به من جمال الدين أقوش ولبسه ، وواصل سيره إلى القاهرة ، حيث التقى بالسلطان قلاوون ، وأبلغه بوصية المنصور الثاني والمتضمنة رغبته في الحصول على موافقة السلطان على جعل ابنه المظفر خليفة له في حماة(٢) . وكرر السلطان لأبي خرص ما سبق أن أصدره بهذا الشأن . ووعده بالقدوم إلى الشام ، والاجتماع بصاحب حماة الجديد هناك ، وإعطائه التقليد بمملكة حماة ، وإقامة المراسم المعتادة في مثل هذه المناسبات(٣).

أما مبعوث السلطان – جمال الدين أقوش – فقد وصل إلى حماة، وبلّغ الرسالة ، وأعطى المظفر الثالث التشاريف الخاصة به ، كما فرق على باقي الأمراء تشاريفهم(٤) . وفي ذلك يقول أبو الفداء :

---

(١) الأمير علم الدين سنجر الحموي الشهير بأبي خرص . من كبار الأمراء في عهد الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون وابنه الأشرف . قبض عليه سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م ، وتوفي في السجن في العام نفسه ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٤٠ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٤ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٤ –٤٥٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج٢، ص ٣١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٥ .

(٤) العليمي: التاريخ المعتبر، ج ١، ورقة ٧٧ ب ؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٧٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج٢، ص ٣١٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٥ .

"وصلت التشاريف ولبسناها في العشر الأخير من شوال "(١) .

والجدير بالذكر هنا ، أن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري – أصبح سلطاناً فيما بعد – كان يتولى نيابة السلطنة بدمشق خلال هذه الفترة ، ولما بلغه خبر وفاة المنصور الثاني ، كتب إلى السلطان قلاوون يخبره بذلك ، " واستمطر صدقاته في إقرار ولده المظفر محمود عوضه ، فورد عليه الجواب بذلك "(٢) .

ولما عاين لاجين جواب السلطان بعث إلى المظفر الثالث يهنئه على الثقة التي أولاها إيّاه السلطان قلاوون(٣).

أما أبو خرص فقد اختاره السلطان قلاوون ليكون أتابكاً للعسكر الحموي(٤).

وفي المحرم سنة ٦٨٤ هـ / مارس ١٢٨٥م ، جاء السلطان قلاوون إلى دمشق ، وهناك وافاه المظفر الثالث ، وعمه الأفضل ، فاستقبلهما استقبالاً حافلاً(٥)، ويقال إنه خرج على رأس جيشه ليستقبلهما(٦) . وفي اليوم الثالث من وصول المظفر ، بعث إليه السلطان تقليداً بحماة ، ومعرة النعمان ، وبارين

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ .

(٣) اليونيني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١، ص ٨٦ .

(٤) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٦٦ .

(٥) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١٢٠ أ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٤ ، ص ٢١ ،العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٥ .

(٦) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١٢٠ أ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .

، وتشريفاً يليق به(١). كما بعث إليه شعار السلطنة كاملاً(٢). فلبس المظفر الثالث التشريف ، وركب بشعار السلطنة وسار الأمراء ، ومقدموا العسكر ، في معيته ، وحملوا الغاشية بين يديه(٣) . وتحرك موكبه من داره المسماة " الحافظية " الواقعة داخل باب الفراديس ، متجهاً إلى حيث يقيم السلطان بقلعة دمشق ، ولما انتهى إليها أدخل على السلطان الذي أكرمه " وأجلسه إلى جانبه على طراحة وطيب خاطره ، وقال له : أنت ولدي وأعز من الملك الصالح عندي"(٤) وأمره بالعودة إلى حماة ، والتجهز لغزو حصن المرقب الخاضع للصليبيين ، وقال له : " أنتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان إلا وكان النصر معكم."(٥) والحقيقة أن هذه العبارة تبين سبباً من أسباب تمسك المماليك باستمرار حكم الأسرة التقوية في حماة ، حيث كان هؤلاء المماليك يتفاءلون بوجود أفراد تلك الأسرة إلى جانبهم في المعارك التي يخوضونها ضد أعداء الإسلام.

ومهما يكن من شأن ، فقد عاد المظفر الثالث وعمه إلى حماة

---

(١) كان هذا التشريف عبارة عن أطلس أحمر فوقاني ، بطراز زركش ، وسنجاب ، ودائرة قندس ، وقباء أطلس أصفر تحتاني ، وشاش تساعي، وكلوته زركش ، وحياصة من ذهب ، وسيف محلى بالذهب ، وتلكش وعنبرينا ، وثوب بطرز مدهشة ولباس . انظر أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٢٠ .

(٢) ويتكون شعار السلطنة هذا من سنجق بعصائب سلطانية، وفرس بسرج مذهب ، ورقبة ، وكبوش . أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٣) وكان على رأس الأمراء الذين حملوا الغاشية بين يدي المظفر الثالث ، نائب السلطنة في ذلك الوقت الأمير حسام الدين طرنطاي . راجع الذهبي : دول الإسلام ،ج٢، ص١٨٦.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ، وانظر أيضاً : الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣٣٧– ٣٣٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦ .

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ؛ وأيضاً ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦.

وشرعا في الاستعداد للمشاركة في حركة الجهاد القادمة ضد الصليبيين في حصن المرقب(١).

وبعد اكتمال الاستعدادات عند السلطان قلاوون ، خرج بالجيوش من دمشق ، ونازل حصن المرقب في ربيع الأول سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م وكان هذا الحصن من معاقل الاسبتارية الحصينة ، لكنه لم يستطع الصمود أمام الهجمات الاسلامية ، ولم يلبث أن سقط بأيدي المسلمين(٢). وبعد أن رتب السلطان أوضاع حصن المرقب ، رحل باتجاه حصن الأكراد ، ومنه توجه إلى بحيرة حمص ، وهناك أعطى المظفر الثالث الإذن بالعودة ، فعاد بجيشه إلى بلده(٣).

وانتهز المظفر الثالث زيارة قام بها السلطان قلاوون إلى الشام في شوال سنة ٦٨٥ هـ /١٢٨٦م ، فجاء ويرفقته عمه الأفضل وبعض أصحابه للسلام عليه ، فاجتمعوا به في غزة ، فأحسن السلطان - كما هي عادته - استقبالهم ، وعندما أراد السلطان العودة إلى مصر ، اصطحب معه المظفر الثالث وأصحابه ، وهناك افتتح السلطان " قبة الرحبة الحمراء " بقلعة الجبل ، التي كان قد أمر ببنائها ، وحضر حفل الافتتاح المظفر الثالث ورفاقه ، وقد شملهم السلطان بإنعامه ، وأغدق عليهم النفقات ، وبعث إليهم الكثير من

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٧ - ٨٠ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٤ ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١١٣ - ١١٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٤ - ٣١٧ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦ .

التشاريف، وأصنافاً شتى من الأقمشة ، والملابس ، حتى " امتلأت حقائبهم من كل نوع " ثم أذن لهم بالعودة إلى حماة ، وخرج بنفسه لوداعهم في ذي القعدة سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م(١).

وكان فتح المرقب ممهداً لفتح طرابلس ، لأن المرقب يعد أحد خطوط الدفاع الرئيسية عنها ، وكان المماليك يبحثون عن سبب مباشر يستطيعون من خلاله مهاجمة طرابلس وفتحها ، وحصل لهم ذلك ، عندما نقض صليبيو طرابلس صلحهم مع المسلمين ، وذلك بقتل تجار المسلمين داخل المدينة(٢). فاستنفر السلطان الجيوش فجاءت من كل مكان ، وجاء المظفر الثالث بجيشه ، حيث انضم إلى القوات الاسلامية التي حاصرت طرابلس وتمكنت من الاستيلاء عليها . وبعد أن أصبحت طرابلس بحوزة المسلمين ،أعطى السلطان قلاوون المظفر الثالث وعمه الإذن، فعاد بالعسكر الحموي إلى بلده(٣).

وبالاضافة إلى طرابلس كانت عكا أيضاً أكبر المعاقل الشامية، التي لا تزال بأيدي الصليبيين ، وما أن وصلت الأنباء بنقض أهلها لصلحهم مع المسلمين ، حتى أخذ السلطان قلاوون يستعد لغزوها ، لكن الأجل لم يمهله ؛ إذ توفي سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠م وهو بمعسكره خارج القاهرة(٤) . فخلفه على دست السلطنة ابنه وولي عهده الأشرف خليل ، وكان حريصاً على تحقيق أمنية والده ، فاستنفر عساكر الشام ، وغيرها من أجزاء

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١٢٠ ؛ زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٨٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٨٠ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٨٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢، ص ٣٨٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٩ ؛ الحريري : الإعلام والتبيين ، ص ٦٩ .

السلطنة ، ليسير بها إلى عكا ، وجاء إلى حماة لهذا الغرض الأمير سيف الدين طغريل الإيغاني(١).

واستجاب المظفر الثالث لأوامر السلطان ، وخرج وبصحبته عمُّه ، والعسكر الحموي ، وقصدوا حصن الأكراد، وأخذوا من الحصن منجنيقاً ضخماً يُطلق عليه اسم " المنصوري ". وكان هذا المنجنيق ضخماً حتى أن عجلاته بلغ عددها المئة ، تم تفريقها بين أفراد الجيش الحموي ، وكانت إحداها من نصيب الملك والمؤرخ المعروف أبي الفداء(٢) ، وبعد حصن الأكراد توجه العسكر الحموي إلى دمشق، واجتمع بجيوش الشام(٣) ، وتحرك الجميع نحو عكا ، وقد لاقى الجيش الحموي صعوبات جمّة بسبب رداءة الطقس ؛ إذ كان الوقت أواخر الشتاء ، والثلوج والأمطار تنهمر بشدة ، إضافة إلى أجزاء المنجنيق الضخم التي ساهمت بدورها في بطء حركة الجيش فقطع المسافة بين حصن الأكراد وعكا في مدة شهر ، بينما كانت

---

(١) الأمير سيف الدين طغريل الايغاني تولى نيابة الساحل سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٤٤ . بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٥٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٤ .

(٣) ابن الجزري: (شمس الدين محمد بن ابراهيم بن أبي بكر الجزري ، ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)؛ جواهر السلوك ، نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٠٥٩ ، عن نسخة مكتبة تيمور برقم ٢١٥٩ ، الجزء الأول ، لوحة ٤١ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي ، ورقة ١٠٢ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية ، ص ١٢٦ ؛ زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٢٥٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٠٧ ؛ العيني :(بدر الدين محمود العيني ، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، نسخة مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٨١ ، عن نسخة مكتبة أحمد الثالث باسطنبول ، برقم ٢٣٩٢ ، ج ٢٨ ، لوحة ١٧ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١١ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٣ .

الخـيل تقطعها في الظروف العادية في ثمانية أيام(١) .

ومهما يكن من أمر فقد اتخذت الجيوش الاسلامية مواقعها حول عكا في أوائل جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ /١٢٩١م ، وكان موقع الحمويين في الميمنة ، وبمحاذاة البحر ، فكان البحر عن يمينهم وهم في مواجهة عكا ، فكان عليهم أن يقاتلوا على جبهتين(٢) .

أما الصليبيون فقد حشدوا كل قواهم في عكا ، فهي أعظم القلاع التي لا تزال بقبضتهم فتناسوا مؤقتاً خلافاتهم ، وتجمعت عساكر انجليزية وفرنسية ، وبنادقة ، وبيازنة ، وفرسان التيوتون (٣)، إضافة إلى الداوية والاسبتارية ، وصار الجيش الحموي في مواجهة الداوية التي تكفلت بالدفاع عن الزاوية التي يلتقي فيها السوران الشمالي والشرقي لعكا(٤).

إضافة إلى الجموع الصليبية المتمركزة في عكا ، كانت المراكب الصليبية تجوب ساحل المدينة ، وتُناوش المسلمين المرابطين بالساحل ، الذين كان عليهم مواجهة تلك القوات البحرية إضافة إلى القوات البرية داخل عكا . وكان أحد المراكب الصليبية يحمل منجنيقاً قوياً كانت حجارته تطال خيام عسكر حماة ، مُحدثةً فيه إصابات مباشرة ، وقد لاقى الحمويون من جرّاء ذلك مشقة عظيمة . ولم يتمكنوا من إبعاد خطر ذلك المنجنيق إلى أنْ أرسل الله عليه ريحاً قاصفاً دمرته ، فلم تقم له بعد ذلك قائمة(٥)

ورغم قصر مدة حصار عكا – لم تتجاوز بضعة أيام – إلاّ أنه تخللته

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٣) التيوتون جماعة من الفرسان الصليبيين كان لها دور في تثبيت الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وبدأت الجماعة نشاطها بتقديم الخدمة العلاجية للجنود ثم تحولت إلى الناحية العسكرية . انظر : حسن عبد الوهاب حسين : التيوتون ، الاسكندرية ١٩٨٩م.

(٤) السيد الباز العريني : المغول ، ص ٣١٦ .

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

معارك شرسة ، كانت إحداها عبارة عن غارة ليلية شنتها طائفة الداوية ومن معها على مواقع الجيش الحموي ، وهناك اضطراب في الروايات بشأن هذه الغارة . فالمؤرخ المعاصر وشاهد العيان الملك المؤيد أبو الفداء إسماعيل ، يذكر أن الصليبيين خرجوا من عكا ذات ليلة ، وتغلبوا على الدوريات الإسلامية المنوطة بها مسؤولية الحراسة ، وتوغلوا داخل معسكر المسلمين ، حتى تعلقوا بأطناب الخيام ، فتكاثر عليهم المسلمون فولى الصليبيون منهزمين ، وعادوا إلى عكا ، وقد قتل منهم جماعة بين خيام العسكر الحموي ، وقام المظفر الثالث بتعليق رؤوس القتلى على رقاب خيولهم ، وبعث بها إلى حيث يقيم السلطان الأشرف خليل(١).

ويضيف مؤرخ إسلامي آخر – هو العيني – تفاصيل أخرى لهذا الحادثة ، فيؤكد أن المسلمين كانوا على علم بموعد الغارة ، إذ وصل إليهم سهم من داخل عكا يحمل رسالةً تحذرهم من قيام الصليبيين بهجوم ليلي . وقد تضمنت الرسالة خطة الهجوم ووقت تنفيذه ، فأخذ المسلمون حذرهم ، وقد شمل الهجوم الصليبي ميمنة وميسرة الجيش الاسلامي ، وقد تصادف وقوعه وسط ظروف جوية سيئة ، إذ هبت الرياح ، وأظلم الجو ، وكان هذا عاملاً مساعداً للصليبيين ليحققوا عنصر المفاجأة لولا الرسالة الآنفة الذكر. وفي الوقت المحدد خرجت جموع من الداوية والاسبتارية من مخارج يعرفونها في أسوار عكا، فيما استقلت طائفة أخرى منهم المراكب حت رست بهم على الشاطيء ، واندفعوا نحو المعسكر الاسلامي وهم يطلقون صيحات منكرة ، وكان وصولهم إلى الميسرة الاسلامية أولاً ، والتي كان جنودها على ظهور خيولهم ينتظرون وصول المهاجمين ، فما أن اختلطوا بهم حتى أوقعوا بهم

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٥ ؛ وانظر أيضاً : تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٣ أ ، ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .

الهزيمة . أما الميمنة الإسلامية فكان قائدها العام الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، وقد استعد بجنوده للقاء الأعداء ، وحاول نصب كمين لهم فأمر جنوده بإخلاء الخيام بعد أخذ الأشياء المهمة منها ، والتجمع بالقرب من الطريق المؤدية إلى عكا ، وكان هدفه قطع خط الرجعة على الأعداء ، لكنّ الصليبيين أدركوا ما رمى إليه الحلبي عندما وصلوا إلى الخيام فوجدوها خاوية ، واستطاعوا الاستيلاء على بعض الأسلحة والعودة بسرعة إلى عكا ، ولكن مع طريق آخر غير الذي جاؤوا منه ، فأسقط في يد سنجر الحلبي وجنوده ، الذين ينتظرون على طريق عودة المهاجمين دون جدوى ، حتى طلع الصباح(١).

وتشكل هاتان الروايتان وجهة النظر الإسلامية ، ولا يقلل من أهميتها الاختلاف في أي الجهتين في الجيش الاسلامي التي أوقعت بالصليبيين وأفشلت هجومهم أهي الميمنة أم الميسرة ؟ لأن كلتيهما تصبّ في شئ واحد.

وليس من المنطق التسليم بوجهة النظر الاسلامية حول هذه القضية ، دون التعرض إلى وجهة النظر الغربية ، وتفنيد مزاعمها ، واضعين نصب أعيننا هدفاً معيناً ، هو الوصول إلى أقرب الروايات إلى الحقيقة إن لم يكن إلى الحقيقة نفسها . وقد جسد رنسيمان بوضوح وجهة النظر الغربية تلك ، إذ يؤكد أن الهجوم الذي تزعمته الداوية ، والذي استهدف المعسكر الحموي ، كان مفاجئاً للمسلمين ، ويستطرد في وصف ذلك فيقول : " ليلة الخامس عشر من ابريل سنة ١٢٩١م، والقمر يتلألأ في كبد السماء ، قام الداوية وتوجرانسن بشن هجوم مباشر على معسكر جيش حماة ، فَأُخذ المسلمون

---

(١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٧-١٩ .

على غرة ، غير أنّ عدداً كبيراً من الداوية تعثرت أقدامهم في حبال الخيام عند الأصيل !!، حيث أخذ الضوء يخبو فهَوَوْا إلى الأرض ، ووقعوا في الأسر فارتد الآخرون على أعقابهم إلى المدينة ، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة "(١).

ومن الواضح أنّ هذه الرواية تعزو سبب فشل الهجوم الصليبي ، إلى تعثر المهاجمين بأطناب الخيام ! ، وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية نجدها تحمل تناقضات بين أجزائها ، كما أنها تتناقض مع الرواية الإسلامية السابقة في جملة أشياء .

أما التناقض الوارد داخل الرواية نفسها ، فرنسيمان يعزو فشل الهجوم إلى سبب واحد ، وهو تعثر المهاجمين في أطناب الخيام ، وذلك بسبب خُبُو الضوء ، وحلول وقت الأصيل . ولنا أن نتساءل هنا : إذا كان الهجوم وقع ليلاً فما علاقته بوقت الأصيل ؟! ثم كيف لم يحسب المهاجمون حساباً لأطناب الخيام . أم أنه لم يسبق لهم أن رأوا خياماً قبل ذلك ؟!

أما تناقض الرواية الغربية مع الرواية الإسلامية ، فيظهر في عدة نقاط ، منها : حالة الطقس وقت الهجوم فبينما تصفه الرواية الغربية بالصفاء وبأن "القمر يتلألأ في كبد السماء" نجد وصفاً مغايراً عند العيني ، الذي ذكر أن تلك الليلة كانت عاصفةً مظلمة ، وهذا ما أسعد الصليبيين ، وجعلهم يتيقنون بنجاح هجومهم . ومنها أيضاً : وضع الجيش الاسلامي في ساعة وقوع الهجوم ، فيرى رنسيمان أنّ المسلمين أُخِذوا على غِرّة وفوجئوا تماماً بالهجوم، بينما يُؤكد العيني أنّ المسلمين قد تلقوا إنذاراً مسبقاً بوقوع الهجوم ، وكانوا على أُهبة الاستعداد ، وهذا هو سبب فشل الهجوم .

وأخيراً فقد اتفقت الروايتان – الاسلامية والغربية – على فشل

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٠٢ .

الهجوم ، وتكبد المهاجمين لعدد من الخسائر .

والراجح أن الرواية الاسلامية هي الأقرب للحقيقة ، إذ كان أحد مصادرها شاهد عيان لما حدث ، إضافةً إلى التناقضات التي تضمنتها الرواية الغربية .

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت الجيوش الإسلامية اقتحام أسوار عكا ، ودخول المدينة عنوة(١).

وبسقوط عكا انفرط عقد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وتهاوت بقية حصونهم ومعاقلهم تباعاً حتى " لم يبق للفرنج على ساحل البحر حجرٌ على حجر "(٢).

وبعد أن نجح السلطان الأشرف خليل في اجتثاث الوجود الصليبي من بلاد الشام ، اتجه إلى معاقبة حلفاء الصليبيين التقليديين ، أعني الأرمن ، ولكن ليس عن طريق أرمينيا الصغرى هذه المرة . إذ قَدِم السلطان الأشرف إلى دمشق سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م ، فجاء إلى خدمته صاحب حماة وعمه ، فأبلغهما السلطان بأنه ينوي زيارة حماة ، فعادا إليها على عجل واستعدا لاستقباله(٣).

وسار السلطان بركبه إلى حماة ، وضرب دهليزه في شماليها ، بالقرب من ساقية سلمية ، فيما أمر المظفر الثالث بنصب خيام تليق بالسلطان داخل حماة ، ومدّ له سماطاً عظيماً بميدانها . فجاء السلطان إلى الميدان وقوائم

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٥ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٥٩ – ٢٦١ .

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٤ .

(٣) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١١٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٦ ؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٧ .

فرسه تطأ على الشقق الفاخرة التي أمر المظفر بفرشها هناك(١) . ودخل السلطان إلى دار المظفر المسماة " دار السعادة "(٢) . كما دخل السلطان يوماً إلى الحمام ، وخرج منه إلى ضفة العاصي و مكث هناك بعض الوقت ثم عاد إلى حماة وجلس في مكان أعدّ له على سور باب حماة المعروف بالثقفي، ويطلق على المكان الذي جلس فيه السلطان هناك " الطيارة الحمراء"(٣) .

ولما أراد السلطان مغادرة حماة ، أمر جيشه بالمسير إلى حلب ، أما هو فقد اصطحب معه المظفر الثالث وعمه الأفضل وتوجهوا لزيارة "المشهد"(٤)، ومنه خرجوا إلى البرية في رحلة صيد . وقد وُفِّقوا في اصطياد أعداد كبيرة من الغزلان والحمر الوحشية(٥).

وبعد انتهاء رحلة القنص هذه ، سار السلطان ومن معه إلى حلب ، واجتمعوا هناك بالعساكر الإسلامية ، حيث توجه الجميع إلى

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

(٢) دار السعادة : هي الآن بستان غربي العاصي بجانب حمام السلطان ، ويحدها من الشمال محلة باب الجسر ، الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٧٤ ، حاشية رقم ٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٤) ربما كان المقصود ضريح الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

قلعة الروم(١) ، وكانت من معاقل الأرمن على الفرات ، ونزل عليها الجيش الاسلامي في العشر الأول من جمادى الآخرة سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م(٢).

وتم تحديد مواقع القوات الاسلامية حول القلعة ، فجاء موقع العسكر الحموي على رأس جبل يطل على القلعة من ناحيتها الشرقية ، وكان بإمكان الجنود الحمويين رؤية الأرمن وهم يتنقلون بين أرجاء القلعة ويناوشون المسلمين القريبين منهم(٣).

ورغم كثرة المنجنيقات التي تحيط بالقلعة من كل مكان إلاّ أن واحداً منها فقط كان باستطاعته إيصال مقذوفاته إليها(٤). وقد ذكر ابن أيبك أن صاحب حماة قد نصب منجنيقه على الجبل المطل على القلعة بعد مشقة كبيرة ، وأخذ يرمي حجارته وسط القلعة(٥) وكان كلما أصاب حجرٌ هدفه دَقّت الكوسات السلطانية فرحاً(٦).

واستغرقت فترة الحصار أكثر من شهر، قام المسلمون في نهايتها بهجوم كاسح ، استطاعوا خلاله اقتحام أسوار القلعة ، التي اعتصم الملأ من أهلها في قُلتها ، وكان من بينهم بطريرك الأرمن - أو " خليفة الأرمن " كما

---

(١) قلعة الروم : حصن على جانب الفرات في غاية الحصانة ، وأهله نصارى أرمن ويدينون بالولاء للمغول . أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٧٥.

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج١ ، لوحة ١٠٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٤٣ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٣ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٢٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٧٧.

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١١٩ ، تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٣ أ - ١٠٤ ب ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٢٣ .

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٤١ .

(٥) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٢٣ .

(٦) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٤١ .

أطلقت عليه المصادر الاسلامية – المدعو " كيثاغيكوس "(١).

ولا بد أن السلطان الأشرف كان على دراية بما أحدثه منجنيق صاحب حماة من تأثير في القلعة ، وهو الأمر الذي سهل على الجيش الاسلامي اقتحام القلعة ، وبناءً عليه فقد أصدر السلطان أمراً إلى المظفر الثالث ليستأنف الرمي ، والتركيز على قلة القلعة لإجبار المتحصنين داخلها على الاستسلام ، وعندما شرع الجنود الحمويون في إعداد منجنيقهم للعمل ، وصل مبعوث من الأرمن المتحصنين في قلة القلعة ، يطلبون الأمان لأنفسهم(٢)، ويبدو أنهم أبصروا الجنود وهم يعدون المنجنيق للعمل ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا الصمود .

وبعد أن غدت القلعة في قبضة الجيش الإسلامي رتب السلطان الأشرف أمورها ، وأمر بتحويل اسمها من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين(٣). ثم ارتحل عنها عائداً إلى حلب ، ومنها توجه إلى حماة ، فسارع صاحبها بتقديم الخدمة والإقامة له ولأصحابه . ثم سار السلطان إلى دمشق ، وأعطى المظفر الثالث الإذن فأقام في بلده(٤).

ولما كان السلطان الأشرف يخشى من ردة فعل الأرمن ، أو أسيادهم المغول ، بعد استيلائه على قلعة الروم ، فقد أصدر أمره إلى بعض العساكر بالمرابطة في حلب ، وقد وصل أمره بذلك إلى حماة ، فخرج المظفر الثالث

---

(١) العيني : المصدر السابق والجزء واللوحة ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٢٣ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ؛ وانظر أيضاً : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨، لوحة ٤٣ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٣) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٦٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٤٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٣٧ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٧٨ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٧ .

بعسكره من حماة ، وبرفقته أيضاً عمه الأفضل وأولاده ، وتوجهوا إلى حلب ، حيث رابطوا فيها من أواخر شعبان سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م حتى صدرت إليهم الأوامر بإنهاء المرابطة وعودة العساكر إلى أوطانها ، في أوائل ذي القعدة من السنة نفسها(١).

ورغم النجاحات التي تحققت في عهد السلطان الأشرف خليل ، إلاّ أن مدة حكمه لم تطل ؛ إذ أُغتيل سنة ٦٩٣ هـ /١٢٩٣م ، وآل عرش السلطنة لأخيه الأصغر الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يفت السلطان الجديد أن يبعث أميراً إلى حماة يحمل التقليد إلى صاحبها المظفر الثالث(٢).

لكنّ السلطان الجديد لم يلبث أن خُلع على يد مملوك يدعى زين الدين كتبغا(٣) ، واستولى كتبغا على السلطنة وتلقب بالسلطان العادل(٤) .

وما أن استقر العادل كتبغا على رأس السلطنة حتى أقرّ النواب الذين يتولون إدارة أجزاء السلطنة(٥). وبعث مندوبين عنه ليجوبوا أطراف الدولة ، ويأخذوا البيعة له من نوابها ، وكان مبعوثه إلى حماة الأمير سيف الدين طغجي الأشرفي(٦) الذي وصل حماة في المحرم سنة

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٨ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ٢٣٤ .

(٣) كتبغا بن عبدالله المنصوري ، السلطان الملك العادل زين الدين التركي تولى السلطنة ثم خلع وتولى نيابة صرخد ، ثم حماة وبها توفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢ م. ابن تغري بردي؛ الدليل الشافي ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣١ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٣١٩-٣٢٢.

(٥) تاريخ ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٩٤ ، حاشية رقم ٢.

(٦) الأمير طغجي بن عبدالله الأشرفي مملوك السلطان الأشرف خليل ، تولى نيابة السلطنة واشترك في اغتيال السلطان لاجين سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م فقتل بعد ذلك بأيام؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٣٦٥ .

٦٩٤هـ/ نوفمبر ١٢٩٤م(١).

وفي شوال سنة ٦٩٥ هـ /١٢٩٥م ، جاء السلطان العادل كتبغا لزيارة الشام ، ولما وصل دمشق وفد عليه صاحب حماة ، فاستقبله السلطان بحفاوة بالغة ، واختار المظفر الثالث النزول بداره داخل باب الفراديس(٢) . وأدى السلطان صلاة الجمعة في مقصورة خاصة بالجامع الأموي(٣) . وكان عن يمينه داخل المقصورة صاحب حماة(٤)، وفي أحد الأيام لعب المظفر الثالث الكرة مع السلطان كتبغا بميدان دمشق(٥).

وبعد أيام خرج السلطان كتبغا للصيد نواحي حمص ، وكان برفقته المظفر الثالث(٦) . وكان السلطان يخرج من مخيمه كل يوم للصيد مصطحباً بعض خواصه ، من بينهم صاحب حماة . وفي أحد الأيام ، اصطاد السلطان بنفسه غزالاً ، وأحضره إلى مخيمه،

---

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٢ ب ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٠٦ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٣٦٩ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٢٨ أ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٢٠ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٣ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ٣٧٧ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج ١ ، ص ١٨٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨١٦ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٢٠ .

(٤) العيني : المصدر السابق ، والجزء واللوحة ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٩٨ ؛ ابن كثير : البدالية والنهاية ج ١٣ ، ص ٣٦٤ – ٣٦٥ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦٢ وجعلها من حوادث سنة ٦٩٦ هـ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٦٥ .

(٦) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٩ ، ورقة ١٠٥ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٢٠–١٢١ ؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٩٢؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٣٣ .

فحضر عنده أحد المقربين إليه ويدعى حسن القلندري(١) فعرض عليه السلطان أن يأخذ ذلك الغزال الذي اصطاده ، لكن القلندري اقترح أن يُعطى لصاحب حماة ، فوافق السلطان على ذلك ، فأخذ القلندري الغزال وتوجه به إلى خيمة المظفر الثالث ، وعرّفه الموضوع ، فأنعم عليه صاحب حماة بخلعة ، وألزمه بلبسها . فلبسها القلندري وعاد إلى السلطان ، فوجده في مجلسه ، وعندما رأى الحاضرون الخلعة التي يرتديها القلندري ، علت وجوههم الدهشة ، وأخذوا يمازحونه ، لأنهم أدركوا أن المظفر الثالث أجبره على لبس ذلك الزيّ ، وفيما هم غارقون في الضحك أقبل عليهم المظفر الثالث ، فقام إليه القلندري وقال " يا خوند ايش عملت معي ، وقد أنكرت علي الأمراء ...؟ " فما كان من صاحب حماة إلاّ أن منحه مبلغ ألف دينار إرضاءً له(٢).

وبعد تمتعه برحلة الصيد هذه ، عاد السلطان كتبغا إلى دمشق ، وأعطى صاحب حماة الدستور فعاد إلى بلده(٣) .

واستضعف المماليك جانب السلطان كتبغا ، ودبر أحدهم وهو حسام الدين لاجين – نائب دمشق سابقاً – مؤامرة انتهت بخلع كتبغا ، وتسلم حسام الدين لاجين زمام السلطنة و تلقب بالمنصور ، وبعث السلطان الجديد مبعوثين عنه إلى ولايات الدولة ليأخذوا له البيعة ، وفي هذا الإطار جاء إلى

---

(١) الشيخ الصالح حسن الجواليقي القلندري من المقربين لحسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ثم ساند زين الدين كتبغا عند توليه السلطنة فقربه إليه. بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٩٢-٢٩٣ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨، لوحة ١٢١ ؛ وانظر أيضاً : بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٣ .

حماة الأمير سيف الدين سنكو الدويدار الأشرفي(١) ، حيث وصل إليها في ربيع الأول سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ، وأخذ بيعة صاحبها وأهلها للسلطان لاجين(٢).

ومن الصفحات التي يسجلها التاريخ للسلطان المنصور لاجين استئناف حركة الجهاد ضد الأرمن في أرمينيا الصغرى ؛ إذ جهز جيشاً كثيفاً ، أسند قيادته لعدد من الأمراء على رأسهم بدر الدين بكتاش الفخري(٣) وصدرت الأوامر إلى نواب الدولة بالشام للمساهمة في هذه الغزوة ، فسار المظفر الثالث على رأس العسكر الحموي إلى حلب،فوصل إليها في جمادى الآخرة سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م ، وتحرك الجيش قاصداً سيس ، ودخلت القوات الاسلامية إلى بلاد الأرمن من مداخل متفرقة ، فصاحب حماة والأمير علم الدين سنجر الدواداري(٤) – أحد قادة الجيش المجرد من مصر – دخلا بعساكرهما الدربند من جهة مري ، فيما عبرت بقية القوات عن طريق بغراس ، واجتمعت الجيوش الإسلامية كلها على نهر جيحان ، وبدأت بشن سلسلة من الغارات على عاصمة الأرمن (سيس) وما جاورها ، وغنموا خلال تلك الغارات غنائم كثيرة ، واختلف قادة الجيش حول الاكتفاء بتلك الغارات ، أو مهاجمة المدن والاستيلاء عليها ، وفي نهاية الأمر قرر القادة العودة إلى الشام ،

---

(١) الأمير سيف الدين سنكو " وفي جواهر السلوك لابن الجزري ، ج ٢، ورقة ٥٤ أ ، شنكو – بشين معجمة " الدويدار الأشرفي من كبار الأمراء في عهد السلطان الأشرف ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٩٣ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٥٤ أ .

(٣) بكتاش بن عبدالله الفخري ، أمير سلاح الملك الصالح بن قلاوون ، توفي سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م . ابن تغري بردى : الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٤) الأمير سنجر بن عبدالله الدواداري الناصري الشهير بطقصبا من أعيان الأمراء في عهد قلاوون وابنه الأشرف خليل ، مات متأثراً بجرح أصابه خارج حلب في رمضان سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م . ابن تغري بردي : الدليل الشافي، ج ١ ، ص ٣٢٥.

مكتفين بما أحدثته الغارات من أضرار في بلاد العدو ، وانسحبت كل القوات الإسلامية عن طريق بغراس ، ونزلوا بمرج انطاكية في رجب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، وهناك انفصل صاحب حماة بعسكره عن بقية الجيش ، وقفل عائداً إلى بلده ، ولكنه لم يكد يصل إلى تصطون(١) ، حتى وردت إليه أوامر السلطان ، بالعودة – مع بقية العساكر – إلى بلاد الأرمن ، والاستيلاء على بعض المدن وعلى رأسها تل حمدون(٢).

وامتثل المظفر الثالث أمر السلطان ، وسار من تصطون إلى حلب، ومكث بها ينتظر اكتمال عودة الجيوش ، حتى دخل شهر رمضان سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م ، فلما اكتمل وصول القوات الإسلامية ، تحرك الجميع نحو بلاد الأرمن ، ودخلوا إليها من بوابة اسكندرونة(٣) . ونزل معظم الجيش بسهل قريب من حموص ، فيما نزل فخر الدين بكتاش ، والمظفر الثالث بعساكرهما على مدينة حموص ، وحاصراها لتوفير الحماية لبقية الجيش حتى يصل إلى السهل الذي يقصده(٤).

وبمضي الأيام اشتد الحصارعلى حموص التي تحصن داخلها جمع كثير من الأرمن ، هلك كثير منهم لشدة العطش ، كما نفقت آلاف الماشية،

---

(١) لعلها قسطون وهو حصن بالروج من أعمال حلب ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٤٨.

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٩٣ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٥٠ ؛ تاريخ ابن اسباط الغربي ، ورقة ١٠٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٥ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٣٩ ـ النويري: نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٤٠ ـ

(٣) اسكندرونة : مدينة إلى الشرق من انطاكية على ساحل البحر ـ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٨٢ ـ

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٠ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٤٢ ـ

ولتخفيف معاناتهم ، أخرج أهل حموص نحو الف ومائتين من النساء والأطفال ، فغنمهم المسلمون ، واقتسموهم ، وكان نصيب المؤرخ أبي الفداء من تلك الغنيمة جاريتين ومملوك . وقد لاقى المسلمون عناءً أثناء الحصار ، إذ انهمرت عليهم الأمطار ، كما لفهم الضباب بثوبه الأبيض عدة أيام ، ويبدو أن ذلك سبّب إصابة المظفر الثالث بوعكة صحية ، وقد تولى ابن عمه أبو الفداء معالجته لتغيب طبيبه ، وقد برئ من مرضه بعد أيام(١).

ولم يكد المسلمون يفرغون من أمر حموص ، حتى جاءتهم الأوامر السلطانية بضرورة الاستيلاء على قلعة نجيمة(٢) وكانت تلك القلعة بمثابة الدرع لجموع غفيرة من الأرمن ، اعتصمت بالوادي القريب منها(٣) ، وحاول المسلمون مرتين الوصول إلى ذلك الوادي لكن دون جدوى ، وفي المرة الثالثة حمل الجيش كله حملة واحدة ، أجبرت عساكر الأرمن المقيمين في قلعة نجيمة على الدخول إلى القلعة ، والاعتصام بها ، مما جعل الوادي بما فيه مكشوفاً للقوات الاسلامية ، التي أسرعت إلى مهاجمته وسبت وغنمت منه غنائم لا تحصى ، واستقرت القوات الإسلامية في سهل قريب من قلعة نجيمة ، فكانت تلك القلعة مصدر خطر للمسلمين ، فتم فرض الحصار عليها ، ومُنِعَ الأرمن من الدخول إليها والخروج منها ، وتولى الأمير بكتاش والمظفر الثالث قيادة القوات المحاصرة لها، ولمّا أعاد الجيش الإسلامي تنظيم صفوفه ، شن هجمات قوية متتالية على القلعة ، واشترك صاحب حماة في قيادة بعضها، وبعد جهد جهيد نجح المسلمون في إجبار الأرمن على الاستسلام في ذي القعدة سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م(٤).

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١، ق ٣ ، ص ٨٣٩ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٠ - ٨٤١؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ .

ولما عاين الأرمن صدق عزيمة المسلمين ، وتصميمهم على تحقيق ما جاؤوا من أجله ، أيقنوا أنه لا ينجيهم من هذا الخطر إلاّ الاستجابة لمطالبهم ، والنزول عند شروطهم ، فوافقوا على الانسحاب من جميع المناطق الواقعة جنوب نهر جيحان ، وأن يكون ذلك النهر حداً بين دولة المماليك الإسلامية ودولة الأرمن(١). وبناءً عليه أخلى الأرمن أحد عشر حصناً ومدينة وتسلمها المسلمون منها : تل حمدون ، وصرفند كار ، ومرعش(٢) .

وبعد أن تأكد المظفر الثالث من استيلاء المسلمين على تل حمدون – وهو ما أمر به السلطان – انسحب بقواته إلى حلب ، في ذي القعدة سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وبقي هناك بضعة أيام ، حتى وصله الإذن من السلطان لاجين بالعودة إلى حماة(٣).

والجدير بالذكر هنا أن خيمة المظفر الثالث كانت أشبه بمركز القيادة في هذه الغزوة ؛ إذ كان يصعد إليها مقدموا الجيش وكبار الأمراء للتشاور وتبادل الرأي ، ومعالجة ما يستجد من حوادث أثناء الحرب(٤).

هذا ولم تطل أيام السلطان لاجين في الحكم ، فبعد مضي سنتين وبضعة أشهر على توليه الحكم ، وثب عليه جماعة من المماليك فأودوا بحياته،

---

(١) أبو الفداء : المختصر، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج٣١، ص ٣٤٢.

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٩٣ ب ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٥٠ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٧ ب ؛ أبو الفداء : المختصر : ج ٤ ، ص ٣٦ – ٣٧ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤١ ؛ سعيد عاشور : بحوث ودراسات ، ص ٣٦٢ – ٣٦٣ ؛ ومرعش : مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠٧ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج٤ ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

في ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨ م(١) ، وأعقبت مقتله أيامٌ من الاضطراب ، وأخيراً تم الاتفاق بين كبار الأمراء على إعادة السلطان المخلوع (الناصر محمد بن قلاوون) إلى الحكم ثانية(٢) – وكما هي العادة – فقد حدثت تغييرات في مناصب الدولة ، لكنَّ المظفر الثالث صاحب حماة استمر في حكم حماة ، وبعث إليه الناصر محمد تقليداً بذلك في جمادى الأولى من العام نفسه(٣).

وفي شهر رمضان سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م بدأت تحركات المغول تثير القلق في بلاد الشام ، وبأمر من السلطان أرسل المظفر الثالث عساكر حماة لترابط في حلب ، لمواجهة أي طارئ . وكان مع العسكر الحموي المؤرخ الملك أبو الفداء ، وما كاد الجيش الحموي يصل إلى المعرة في طريقه إلى حلب ، حتى وصلت أنباء بتلاشي الخطر المغولي ، فعاد الجيش أدراجه إلى حماة ، لكنه لم يستقر بها ، إذ تجددت الأنباء عن تحركات مغولية جديدة ، فسار العسكر الحموي مرة ثانية إلى حلب ورابط فيها(٤).

وبقي المظفر الثالث في حماة بدون عسكره ، ثم بعث إلى نائب السلطنة بالشام(٥) يطلب منه إرسال ابن عمه أبي الفداء إليه في حماة ، ، فأعطى نائب السلطنة بالشام ، أبا الفداء إذناً فعاد إلى حماة ، مخلفاً الجيش الحموي وراءه في حلب(٦). ولم يلبث المظفر الثالث أن مرض ومات تلك الأيام(٧).

---

(١) بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٣٠٩ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٧٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٠؛ بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٣١١؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٨٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٧٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٧٤ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

(٥) كان نائب السلطنة بالشام في ذلك الوقت الأمير سيف الدين بلبان الطباخي . أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

(٦) أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

(٧) انظر مايلي ، ص ٣٥٧.

العوامل التي أدت إلى انهيار الحكم الأيوبي في حماة

عديدة هي العوامل التي أدت إلى انهيار الحكم الأيوبي في حماة منها عاملان رئيسيان والأخرى عوامل مساعدة ، ويأتي في مقدمتها سقوط الدولة الأيوبية وقيام وريثتها الدولة المملوكية ؛ إذ كان زوال نفوذ الأيوبيين عن مصر أولاً ثم عن بلاد الشام ثانياً ، ذا أثر سيء على بقايا الأيوبيين في حماة . فمن المعروف أنّ الأسرة التقوية الحاكمة في حماة نشأت وترعرعت في ظل السلطان الأيوبي ، الذي كان يتخذ من مصر – في أغلب الأحيان – عاصمة له ، لذلك كان انتهاء الحكم الأيوبي في مصر نذير شؤم على ملوك الأيوبيين في الشام ، كما كان مؤشراً لزوال ما تبقى للأيوبيين من نفوذ هناك .

ورغم التهديد الواضح لمستقبل الأسرة الأيوبية الحاكمة في حماة ، في أعقاب زوال السلطة الأيوبية عن مصر وقيام الدولة المملوكية هناك ، إلا أن هذه الأسرة كانت تشعر بنوع من الأمان ، طالما كانت عواصم الشام (دمشق ، وحلب ، وحمص ، وبيت المقدس ...الخ) تدار من قبل ملك أيوبي ، لكن اجتياح المغول لبلاد الشام وإسقاطهم لدولة الناصر يوسف بن العزيز الأيوبي كان ضربة موجعة حقاً للوجود الأيوبي في حماة .

وترنّح الحكم الأيوبي في حماة إبّان احتلال المغول لبلاد الشام ، لكنه عاد إلى تماسكه بعد طرد المغول من الشام ، إلاّ أنّ حماة أصبحت جزءاً من الدولة المملوكية ، رغم أنّ إدارتها ظلت بأيدي حكامها من بني أيوب ، وكان يشترك معهم في هذا الوضع بنو عمومتهم في حمص . لذلك زاد التقارب والتنسيق بين الفرعين الأيوبيين في حماة وحمص، ، لكن قضاء السلطان بيبرس على الحكم الأيوبي في الكرك ، ثم في حمص،

جعل حماة كجزيرة داخل بحر من النيابات المملوكية .

وكانت حماة منذ عهد السلطان صلاح الدين تتمتع بموقع استراتيجي فريد ؛ إذ هي ثغر من ثغور الإسلام في مواجهة الصليبيين ، خاصة أولئك الذين اتخذوا حصن الأكراد وما جاوره قاعدةً لهم . كما كانت حماة خط دفاع أول ضد طائفة الإسماعيلية في بلاد الشام . وزادت أهمية حماة بعد دخول المغول طرفاً في الصراع في بلاد الشام ؛ إذ كانت الجيوش الاسلامية تتخذ منها قاعدةً في صدّ الهجمات المغولية التي جاءت بعد موقعة عين جالوت . وكان من الطبيعي أن تفقد حماة جزءاً من أهميتها ، بعد نجاح المماليك في القضاء على الصليبيين في الشام . واجتثاث طائفة الاسماعيلية ، من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ، والتي كانت تعرف ببلاد الدعوة . ولا نبالغ إذا قلنا أن حماة فقدت كل أهميتها بعد أن أصبحت في جوف دولة المماليك وهذا أحد عوامل السقوط الرئيسية التي سبق الإشارة إليها ، ومن المعروف في التاريخ الأسلامي ، أن عدداً من الدول قامت لحاجة ثغرية ، في مواجهة أعداء الاسلام ، ولما انتفت تلك الحاجة سقطت تلك الدول(١) .

أما المماليك فقد كان لهم – بلا شك – دورٌ في إضعاف المملكة الأيوبية في حماة ، وسنخصص بمشيئة الله فقرة مستقلة ، لمناقشة هذا الموضوع(٢).

وكان العامل الرئيسي الثاني الذي قضى تماماً على الوجود الأيوبي في حماة ، هو وفاة ملكها المظفر الثالث سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨م ، وعدم وجود ولي عهد له ، أو ابن من صلبه يخلفه في منصبه ، وما لبث الخلاف أن نشب بين ابني عمه ، أسد الدين عمر(٣)

---

(١) وأوضح مثال على ذلك هي الدولة الحمدانية بحلب .

(٢) انظر مايلي الفصل الخامس ، ص ٣٥١ – ٣٥٧ .

(٣) لم أعثر على ترجمة له فيما اطلعت عليه من مصادر .

وبدر الدين حسن(١) ، ابني الملك الأفضل ، وكان الاثنان في حلب عندما توفي المظفر الثالث ، فحضرا إلى حماة ، ولم يتفقا مطلقاً على من يخلف المظفر في الحكم ، ولم يتنازل أحدهما للآخر(٢) . مما جعل المنصب شاغراً ، فاختار المماليك واحداً منهم ليشغله(٣).

ويمكن اعتبار وفاة الأفضل بن المظفر الثاني عاملاً من عوامل انهيار مملكة حماة ، إذ من المعروف أن هذا الشخص ، شقيق للمنصور الثاني ، ويملك من الصفات ما يؤهله لتولي زعامة الأسرة الأيوبية في حماة ، إضافة إلى أنه كان محبوباً من سلاطين المماليك ، حتى إنّ السلطان الأشرف خليل كان يصطحبه معه في رحلات صيده ، وكان شديد الاعجاب به لما يتمتع به من معرفة في أمور الصيد ، وكان يستدعيه لمرافقته دون ابن أخيه المظفر الثالث صاحب حماة(٤). وفي إحدى المرات استدعاه السلطان الأشرف خليل إلى مصر ليرافقه في رحلة قنص ، فسار الأفضل من حلب – وكان مرابطاً بها مع الجيش الحموي – في ذي القعدة سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣م ، لكنه مرض في الطريق ، واشتد به الألم في دمشق ، فتوفي بها في داره المسماة "الدعوة"(٥). وأقيمت عليه صلاة الجنازة ، في الجامع الأموي ، ثم

---

(١) الأمير بدر الدين حسن بن الأفضل علي بن المظفر الثاني، يكبر أخاه الملك المؤيد أبا الفداء اسماعيل بثلاث سنوات ، توفي سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٤، ص ٩٥ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ، ص ١٦٨ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٩٥ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ، ص ١٦٨؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٧٨.

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٥) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١٩٨ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨، لوحة ٧٧.

نقل جثمانه إلى حماة حيث دفن في مقابر أسرته (١) . وكان المظفر الثالث مرابطاً مع جيشه بحلب ، فلما بلغه خبر وفاة عمه الأفضل، أقام له العزاء بحلب(٢) . والحقيقة أن وفاته كانت خسارة للأسرة الأيوبية الحاكمة في حماة .

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١٩٨ – ١٩٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨، لوحة ٧٧ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا ....، ورقة ١١٧ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٩ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٦٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٥٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٦ ، النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

دور المماليك في إضعاف مملكة حماة

الحقيقة أن هذا العامل يدخل ضمن العوامل التي استعرضناها في الفقرة السابقة ، لكن لتشعبه ارتأينا أن نفرد له فقرة مستقلة علماً أنه كان في وسع المماليك اسقاط الأسرة الأيوبية في حماة في أية لحظة لكنهم فضّلوا بقاءها ، ومع ذلك فقد اتخذ عدد من سلاطينهم تدبيرات ساهمت في اضعاف سيطرة الأيوبيين على حماة .

من المعروف أن دولة المماليك ورثت السلطة عن الدولة الأيوبية . وكان سلاطين المماليك الأوائل يكنون بعض الاحترام والتقدير لبقايا أساتذتهم الأيوبيين ، لكن بعد أن رسخت أقدام المماليك في السلطة ، وأمنوا منافسة بقايا الأيوبيين ، أخذوا يعاملون هؤلاء كموظفين في دولتهم . وفي المقابل تزايد شعور الأيوبيين بالخوف للمعاملات التي كانوا يلقونها من الحكام الجدد . وقد رأينا كيف كان السلطان بيبرس يراقب بدقة تصرفات المنصور الثاني في حماة ، لدرجة أنه أخرج قيادة الجيش الحموي عن سلطة المنصور الثاني ، وأسندها إلى الطواشي شجاع الدين مرشد(١).

وذهب السلطان قلاوون خطوة أبعد في هذا الطريق ، وذلك عندما عين علم الدين سنجر " أبا خرص " أتابكاً للعسكر الحموي سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م في الوقت الذي أقر المظفر الثالث خلفاً لوالده(٢) . وندرك الفرق بين هذا التعيين ونظيره الذي تم في عهد السلطان بيبرس ، عندما نعلم أن الطواشي شجاع الدين مرشد كان من مماليك صاحب حماة ويدين له بالولاء والطاعة ، أما أبو خرص هذا فلم يكن كذلك .

ولم يقف السلطان قلاوون عند تعيين أبي خرص أتابكاً للعسكر الحموي فقط ، بل استحدث ما يمكن أن نسميه وظيفة جديدة في حماة تحت

---

(١) انظر ماز سبق الفصل الرابع من هذا البحث .

(٢) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٢٦٦ .

مسمى " نائب حماة " وأيضاً أُختير أبو خرص ليتولاها وكُتب له تقليدٌ بذلك سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م(١) . ورغم الغموض الذي يكتنف مسؤوليات ما عرف بنائب حماة في ظل وجود ملك لها معترف به ، إلاّ أنها - بلا شك - كانت تحد من صلاحيات الملك الأيوبي .

وعلى المستوى الداخلي هناك حادثة تبعث على التساؤل ، ففي سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م اجتاحت موجة من الحر الشديد منطقة حماة " حتى شوي اللحم على بلاط الجامع "(٢) وصادف ذلك اندلاع حريق في قصر المظفر الثالث ، وكان المظفر نفسه خارج حماة حينئذ ، واستمر الحريق مشتعلاً في القصر ، أكثر من يومين ، حتى أتى على القصر بما فيه ، ولم يتقدم أحد لإطفائه(٣). ولنا أن نتساءل : أين كان أهل حماة طيلة هذا الوقت ؟ ولماذا لم يحاولوا إطفاء الحريق ؟ ورغم التبرير الذي ساقه ابن كثير في ذلك إذ يقول : " فلم يتجاسر أحد يدخلها "(٤) إلاّ أنّ ذلك ليس كافياً ، وإذا قارنا هذا الصمت الذي التزمه الحمويون بما قام به أسلافهم سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م عندما جاء السلطان الكامل بجيشه لينتزع حماة من الناصر قلج ، إذ قاوم الحمويون جيش الكامل ، وأعلنوها صريحة بأنهم لن يمكنوا أحداً من اعتلاء عرش حماة إلا إذا كان سليل البيت التقوي(٥).

كما أنه ليس ببعيد موقف الحمويين من ملكهم المنصور الثاني عندما أراد الخروج من حماة والتوجه إلى دمشق لطلب المساعدة ضد المغول سنة

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٤٠ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٣٢.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٣٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٣ . وإن كان الأمر لا يخلو من المبالغة .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٣٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٥ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ١٧٠ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

(٥) انظر ما سبق الفصل الثالث ، ص ١٨٢.

٦٥٩هـ/١٢٦١م إذ لم يسمح الحمويون للمنصور بالخروج من حماة إلا بعد أن أخذوا منه أيماناً مغلظة بأنه سيعود إليهم(١). فهل تغير موقف أهل حماة من الأسرة الأيوبية الحاكمة في عهد المظفر الثالث ؟ وهل تلاشى من نفوسهم ذلك الشعور الذي كان يدفعهم للتمسك بحكم الأسرة التقوية ؟ والحقيقة نعم ! فالحمويون كرهوا حكم المظفر الثالث ، لأنه أبعد من كان يقربه والده ، وقرب من كان يبعدهم ، إضافة إلى بطشه الذي لم يسلم منه حتى أصحابه(٢).

ومهما يكن من أمر فقد خلف السلطان الأشرف خليل والده قلاوون في الحكم ، وواصل ما بدأه أسلافه المماليك من إضعاف للمملكة الأيوبية في حماة ، فقد بعث يستدعي صاحب حماة وعمه إلى القاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م وأمرهما بالحضور مع البريد(٣) . وهذا أمر يحدث لأول مرة إذ كان صاحب حماة يزور برغبته السلطان المملوكي ، في القاهرة أو دمشق ، أو غيرهما، دون أن يستدعيه السلطان ، حتى أنّ السلطان بيبرس عندما كان يتضجر من بعض تصرفات المنصور الثاني كان يستدعي معاونيه كشيخ الشيوخ ، أو الطواشي مرشد ويناقشهم فيما يريد(٤)، ولم يذهب إلى استدعاء صاحب حماة نفسه . ولكن هذه المرة جاء الأمر بطلب صاحب حماة وعمه على أن يكون خروجهما مع البريد، وهذا يعني أنْ يسيرا مع موظفي البريد ولا يصطحبا معهما موكباً أو غلماناً وحاشية كما جرت به العادة . وبالفعل توجه صاحب حماة وعمه إلى مصر ، وكانا خائفين لجهلهما السبب

---

(١) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٢٩٣ .

(٢) ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٧٤٢ ، عن نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ١٣٨١٠ ، ج ٥ ، ورقة ٣٥٩ ب .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٥٩ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٨ .

(٤) انظر ما سبق الفصل الرابع من هذا البحث .

الذي أُستدعيا من أجله إلى القاهرة على عجل(١). ولكن سرّى عنهما عندما وصلا إلى قلعة الجبل ، بعد ثمانية أيام من خروجهما من حماة ، إذ استقبلهما السلطان بالترحاب وأنعم عليهما ، ويبدو أن الحالة التي كانا عليها عند وصولهما تدل على مدى الخوف والإرهاق الذي أصابهما ، مما دفع السلطان إلى أن يأمرهما بدخول الحمام وإحضار ملابس جديدة لهما ليرتدياها بعد فراغهما منه . وبعد أيام خرج السلطان على الهجن قاصداً الكرك ، وأركب صاحب حماة وعمه الهجن أيضاً ، وقضى الجميع أياماً للصيد والنزهة(٢). وعندما وصل السلطان ومرافقوه إلى بركة زيزاء(٣) وصلت إليهما مجموعة من الهدايا كان صاحب حماة وعمه قد جهزاها لتقديمها للسلطان(٤) . ويبدو أنهما استعجلا في الخروج واضطرا إلى تركها في حماة ، فجاء بها مندوب عنهما . وقد قبل السلطان الهدايا ، ثم واصل السلطان سيره إلى دمشق ، ولم يستقر بها ، بل خرج متصيداً نواحي الفرقاس(٥) . وبعد ذلك قرر العودة إلى مصر، ولما وصل إلى القصب(٦) ، أعطى المظفر الثالث الأذن ليعود إلى بلده ، أما عمه الأفضل فكان قد ألم به مرض فاستأذن السلطان فسمح له بالعودة إلى حماة ، لكنه لم ينس أن يبعث إلى السلطان هدية سنية ، نقلها إليه ابنه أبو الفداء ، ووصلت هدية الأفضل تلك إلى السلطان عندما كان نازلاً بالقصب(٧).

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٧-٤٥٨.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٣) بركة زيزاء: من قرى البلقاء على طريق الحجاج. ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٦٣.

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٥٩ ؛ أبو الفداء : المختصر، ج ٤ ، ص ٢٨؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص٤٥٨ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٧٤ .

(٥) الفرقاس : جفار في طرف بلد حمص من الشرق . أبو الفداء : المختصر، ج٤، ص٢٨.

(٦) لم أجد تعريفاً لهذا المكان في كتب البلدان والخطط التي اطلعت عليها .

(٧) أبو الفداء: المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٨.

والجدير بالذكر أن السلطان عند وصوله إلى الفرقاس جاء إلى خدمته مهنا بن عيسى(١) وبعض أفراد أسرته ، فسارع السلطان إلى القبض عليهم(٢). ويبدو أن السبب الرئيسي لخروج السلطان من مصر ، هو القبض على آل مهنا زعماء قبيلة آل فضل بعد الخلاف الذي وقع بينه وبينهم(٣). وهذا يجعلنا نرجح أن السلطان أراد اختبار نوايا المظفر الثالث صاحب حماة ، وعمه من هذه القضية ، لا سيما أن قبيلة آل فضل تقطن قريباً من حماة ، لذلك استدعى صاحب حماة وعمه على البريد ، وسارا معه حتى تمكن من القبض على آل مهنا(٤).

ولقد انخفضت شعبية المظفر الثالث - إذا صح التعبير - بشكل كبير عندما أقدم على طلاق زوجته في شعبان سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م ، إذ كانت زوجته تلك ابنة خاله الناصر يوسف بن العزيز - صاحب الشام - ومما زاد الطين بلة أن الأميرة الأيوبية المطلقة لم تبق في حماة ، بل خرجت منها وتوجهت إلى مصر ، وتوفيت بها بعد مضي أقل من شهر على وصولها. ولم يكن العامة وحدهم الذين استقبحوا هذا الفعل من المظفر الثالث ، بل إن السلطان عندما بلغه خبر ذلك الطلاق أنكره " ونقصت مرتبته عنده "(٥). والطريف في الأمر أن المؤرخ الأيوبي أبا الفداء لم يشر إلى تلك الحادثة في كتابه " المختصر في أخبار البشر " رغم أنه كان معاصراً لها ، وقد سجل

---

(١) مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل توفي في ذي القعدة سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤م . ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢ ، ص ٧٤٧ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ١٣٩.

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ٥٩ - ٦٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٨.

(٣) انظر تفاصيل ذلك الخلاف عند العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨، لوحة ٥٩ - ٦٠ .

(٤) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، لوحة ٥٩ .

(٥) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١٣٢ - ١٣٣ ؛ وانظر أيضاً تاريخ ابن الفرات ، ج٨ ، ص ١٤٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٤٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج٣١، ص ٢٤٤ .

حوادث أخرى دقيقة ، خاصةً ما تعلق منها بالبيت الأيوبي الوحيد الذي كان لا يزال قائماً بحكم حماة ، وكأنه بصمته هذا يستنكر على ابن عمه فعلته .

وبعد اغتيال السلطان الأشرف لم تستقر الأمور إلاّ في يد السلطان العادل كتبغا ، وأيضاً لعب هذا السلطان دوراً في إضعاف حكم الأيوبيين بحماة . إذ قام سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م بعزل الأمير عز الدين أيبك(١) الحموي عن نيابة السلطنة بدمشق(٢) . وقد عُرف عز الدين هذا بأنه من خواص صاحب حماة ، وكان من المقربين عنده(٣)ولا بد أن عزله عن نيابة دمشق أثر بشكل سلبي على البيت التقوي الحاكم في حماة .

وأخيراً فقد تغافل المماليك عن النزاع الذي نشب بين أفراد الأسرة التقوية على عرش حماة ، إثر وفاة المظفر الثالث ، وليس هذا فحسب ، بل بعثوا أحد أمرائهم ليتولى نيابة حماة مسدلين بذلك الستار على سلطة الأيوبيين في حماة(٤).

---

(١) الأمير أيبك بن عبدالله التركي الحموي ، عز العرب ، تولى النيابة في دمشق ، ثم صفد ، ثم حمص ، ، وتوفي بها سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م . ابن تغري بردي : الدليل الشافي ج١ ، ص ١٦١ – ١٦٢ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ، ص ٤٥١ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٣ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

(٤) المقريزي: السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٧٨ .

نهاية الحكم الأيوبي في حماة

كان العسكر الحموي – كما أسلفنا-(١) مرابطاً بحلب ، أما صاحب حماة نفسه فقد بقي فيها ، وكان المظفر الثالث من هواة الرمي بالبندق ، بل من الماهرين فيه ، ويبدو أنه ورث هذه الهواية عن والده ، وعنّ له أن يصطاد نسراً – وهو من الطيور التي يطلق عليها طيور الواجب -(٢) فقصد جبل علاروز(٣) وكان ذلك في فصل الصيف ، وقتل حماراً فوق الجبل ، وترك جثته هناك ، لتكون طُعماً للنسر ، وأقام على مقربة منها كوخاً متواضعاً من أغصان الشجر ، وكان يدخل إلى ذلك الكوخ من وقت السحر ، ويظل قابعاً به إلى الظهر ، دون أن يتحرك أو يتكلم ، وكان معه ابن عمه أبو الفداء ، وأحد مماليكه . وكانت الرائحة النتنة المنبعثة من جيفة الحمار تملأ المكان ، إضافة إلى حرارة الجو ، ونزل النسر يوماً على الطعم ، ولكنّ المظفر الثالث لم يوفق في رميه ، وبعد عدة أيام عاد المظفر ومن معه إلى حماة ، وقد بدأت صحتهم بالاعتلال ، فمرض أبو الفداء حتى أشرف على الموت ، كما مرض المملوك الذي كان معهما، وجاء المظفر لزيارة ابن عمه ، لكن ما لبث أن أصابه المرض ، وكان عبارة عن حمى محرقة ، وتزايدت به حتى أودت بحياته يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨م ، ولما علم ابنا عمه – وكانا مرابطين بحلب – جاءا إلى حماة، واختلفا فيما بينهما(٤). فما كان من الناصر محمد بن قلاوون إلاّ أن بعث إلى حماة أميراً من المماليك

---

(١) انظر ما سبق ص ٣٤٦ من هذا الفصل .

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الرابع ، ص ٢٧٦ ، حاشية رقم " ٥ ".

(٣) جبل مطل على قسطون ـ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ٩٨ .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤١ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، ص ١٠٠.

يدعى قراسنقر(١) . وكان هذا الأمير قد أُخرج لتوّه من السجن، وأُرسل إلى الصبيبة ، ليتولى النيابة بها ، لكنها لم ترق له . وبعث إلى السلطان يناشده نقله من الصبيبة إلى مكان آخر ، وجاءت مناشدة قراسنقر متزامنة مع وصول خبر وفاة صاحب حماة ، واختلاف ابني عمه فيمن يخلفه ، فقام السلطان على الفور بإصدار مرسوم يتولى بموجبه قراسنقر نيابة السلطنة بحماة(٢).

وعندما جاء قراسنقر إلى حماة في ذي الحجة سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨م ، نزل بدار المظفر الثالث ، وصادر كثيراً من أملاكه ، وأملاك أسرته، ولم يتوقف عن مضايقة الأيوبيين بحماة إلا بعد وصول أوامر من السلطان ، تطالبه بالتوقف عن تلك الممارسات ، كما جاءت مناشير إلى أمراء حماة وجُندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الإقطاعات والوظائف(٣).

وكانت تلك نهاية حكم الأسرة الأيوبية في حماة ،الذي استمر أكثر من قرن، وأصبحت حماة حينئذ نيابة من نيابات الدولة المملوكية(٤).

ورغم عودة الأسرة الأيوبية لتولي إدارة شؤون حماة ،

---

(١) قراسنقر بن عبدالله المنصوري مات بمراغة سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٧م ، ابن تغري بردى : الدليل الشافي ، ج ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤١ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

(٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٩٥ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا...، ورقة ١١٧ب ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ١٠٩ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٢ ؛ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ العبر ، ج٢، ص ٣٩٣؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٧٨ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر ، ص ١٦٣ –١٦٤؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٥٨ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٤٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٧٩ .

والتي تمثلت في الملك المؤيد أبي الفداء إسماعيل بن الأفضل (٧١٠هـ/١٣١٠م - ٧٣٢هـ/١٣٣١م) ثم ابنه الأفضل من بعده (٧٣٢هـ/١٣٣١م - ٧٤٢هـ/١٣٤١م) إلا أنهما كانا بمثابة نواب كبقية نواب السلطنة .

ويتضح هذا إذا قارنا الصلاحيات التي كان يتمتع بها المظفر الثالث ومن سبقه من أفراد أسرته بتلك التي كان يمارسها خلفاؤه .

فكان المظفر الثالث ومن سبقه يتمتعون بصلاحيات داخلية واسعة ، لدرجة أن السلطان لاجين عندما تولى الحكم قام بإخراج السلطان المخلوع الناصر محمد بن قلاوون من القاهرة إلى الكرك سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م وبرر عمله هذا بقوله : " لو علمت أنهم يخلوك سلطاناً والله تركت الملك لك ، لكنهم لا يخلونه لك ، وأنا مملوكك ، ومملوك والدك ، أحفظ لك الملك وأنت الآن تروح إلى الكرك ، إلى أن تترعرع ، وترتجل ، وتتخرج، وتجرب الأمور، وتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق وأكون بها مثل صاحب حماة فيها "(١).

ونرى هنا أنّ السلطان اشترط على الناصر محمد بن قلاوون إذا عاد إلى الحكم ، أن يعطيه دمشق يحكمها كما يحكم صاحب حماة فيها .

وهذا دليل على أن صاحب حماة كان يملك من الصلاحيات ما لا يملكه غيره من نواب الدولة ، مع ملاحظة أن السلطان لاجين كان يتولى نيابة دمشق في فترة ما ، لكنه كان مقيد التصرف ، فلا يقدم على شيء إلاّ بأمر من السلطان .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٣٢ .

ويتضح البون الشاسع بين صلاحيات أصحاب حماة زمن المظفر ومن قبله عندما نقارنها بتلك التي مُنحت لأبي الفداء وابنه الأفضل في عهد النيابة، إذ كان الأفضل مثلاً لا يستطيع توظيف شخص في حماة – خاصة الوظائف الكبرى – ولا يُرَقِّى أميراً أو يمنحه إقطاعاً إلاّ بمشورة السلطان ورأيه ، ولو أن السلطان لم يكن يعترض – في معظم الحالات – على من رشحه صاحب حماة لشغل وظيفة ، أو تولّي إمرة(١).

---

(١) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك ص ١٢٦– ١٢٧؛ وانظر أيضاً : النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٤١١ .

الفصل السادس

أهم مظاهر التطور الحضاري في مملكة حماة خلال العصر الأيوبي

* الحياة العلميـــة
* الوظائف الحكومية
* الحياة الاقتصاديــة
* الناحية العمرانيــة

أهم مظاهر التطور الحضاري في مملكة حماة

خلال العصر الأيوبي

لقد تناولنا في الفصول السابقة من هذا البحث تاريخ مملكة حماة الأيوبية من الناحيتين السياسية والعسكرية ، وفي هذا الفصل سنلقي الضوء – بمشيئة الله – على الجانب الحضاري لهذه المملكة ، وخاصة دورها في الحركة الثقافية ، والفنون المعمارية الاسلامية وما يتصل بها .

الحيـاة العلميـة :

لقد شهدت حماة خلال العصر الأيوبي نهضة حضارية علمية كبرى . ومن الجدير بالاهتمام بيان العوامل التي أثرت الحركة العلمية بحماة ، ودفعتها إلى مصاف المراكز العلمية الاسلامية الكبرى في ذلك الوقت .

يأتي في مقدمة تلك العوامل ، عامل العصر، ونقصد به الأثر الذي أحدثته الحركة الفكرية ببلاد الشام ومصر في حماة . إذ من المعروف أن الجانب الفكري بلغ درجة عالية من الازدهار في ظل الدولة الأيوبية ، التي كانت تضم تحت لوائها بلاد الشام ومصر ، فازدهرت العلوم في تلك المنطقة ، ونفق سوقها ، وبرز علماء أفذاذ في شتى فنون العلم والمعرفة ، وانتشرت المدارس وحلقات التعليم في طول الدولة الأيوبية وعرضها(١) . فقلما خلت بلدة في مصر أو الشام من مدرسة أو حلقة علم تعقد في جامع أو منزل شيخ . وكان من الطبيعي أن تتأثر حماة – وهي في تلك الفترة من كبريات مدن الشام – بهذا التيار العلمي الجارف ، فأخذت نصيبها من الناحية العلمية كاملاً .

---

(١) حسن شميساني : مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ١٩ – ٢٠ .

وساهمت في ازدهار تلك الناحية وإثرائها .

وعامل آخر دفع بدوره إلى ازدهار الحركة العلمية في حماة، وهو غير بعيد عن عامل العصر السابق الذكر ، إنه الموقع الجغرافي لحماة ، إذ هي حلقة وصل بين شمال الشام وجنوبه ، ففي الشمال كانت حلب تحمل مشعل الثقافة ، حيث تقوم فيها حياة علمية ضخمة ، بلغت من الضخامة حداً جعلها تنافس بغداد عاصمة العباسيين في تلك الناحية(١). وإلى الجنوب من حماة تقع دمشق ، وهي تلعب في جنوب الشام الدور نفسه الذي تلعبه حلب في الشمال . إذ انتشرت بها المدارس ودور الحديث والقرآن الكريم وحلقات التعليم التي تنعقد في المساجد ، وتكاثرت أعداد العلماء وتشعبت اختصاصاتهم وتزايد انتاجهم(٢) . والحقيقة أن دمشق شهدت خلال العصر الأيوبي تطوراً مذهلاً في جميع جوانب الحياة ، وكان للناحية العلمية القدح المعلى من ذلك التطور(٣).

لذلك نرى أن حماة بهذا الموقع أصبحت بين أهم مراكز الثقافة ليس في الشام وحسب ، بل في العالم الاسلامي قاطبة . وكان لا بد أن ينعكس أثر ذلك على حماة ، فغدت حلقة وصل بين المركزين (حلب ودمشق) واستقطبت العلماء وطلاب العلم منهما خاصة دون أن تقتصر على ذلك . إذ أصبحت مقصداً لطلاب العلم من كل مكان بعد نضوج الحركة العلمية بها .

والعامل الثالث والمهم أيضاً هو تشجيع الأسرة التقوية الحاكمة في حماة للعلم والعلماء ، ودعمها اللامحدود لهم . إذا لم يكن لحماة كبير ذكر قبل

---

(١) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات بالشام ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ٨٣ .

(٢) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ – ٢٥ .

اعتلاء المظفر الأول تقي الدين عمر – وأبناؤه من بعده – سدة عرشها . وكانت جارتها حمص أكثر صيتاً منها ، ولكن حكام حماة من بني أيوب ارتقوا بها إلى مصاف المدن التي يُطلق عليها مسمى " عواصم ". إذ اهتموا بشؤونها العلمية والاقتصادية والعمرانية ، وأغدقوا على كل من يقصدها من العلماء والأدباء والصناع وغيرهم(١). ولم يكن ذلك مستغرباً من أولئك الملوك الذين كانوا على درجة عالية من الثقافة(٢). إضافة إلى شغفهم بالعلم والأدب(٣). ولأهمية هذا العامل وتشعبه فإنه يتطلب منا أن نلقي عليه مزيداً من الضوء ، حيث نتناول دور أولئك الملوك – واحداً بعد الآخر – في دفع الحركة الحضارية في مملكتهم . فمؤسس المملكة المظفر الأول تقي الدين عمر كان كثير الإحسان للعلماء(٤) ، مُحباً لمجالستهم ومناظرتهم . فاجتمع حوله عدد منهم من أمثال عالم اللغة أبي اليمن الكندي(٥) ، الذي كان معجباً بأشعار المظفر الأول ، إذ جمع منها مائتي بيت رتبها على حروف المعجم ، وقال عنها : " جمعت من شعر المولى تقي الدين ما عذب لفظه ، وراق معناه ، وأخذ من الجزالة بطرف ، وتمسك من الرقة بأهداب ..."(٦). وقد عزى أبو اليمن الكندي عذوبة شعر المظفر الأول إلى مجالسته للشعراء والأدباء ، ومناظرتهم(٧) . ولم تقتصر العناية بأشعار المظفر على الكندي وحده ، بل إنّ الكاتب العماد الاصفهاني قد

---

(١) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٦-١٩٧ .

(٢) شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٦٧ .

(٣) ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي ، ت ٨٣٧هـ/ ١٤٥٠م)، ثمرات الأوراق ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٢١ .

(٤) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ .

(٥) انظر في ترجمته مايلي ص ٢٩١-٢٩٣ من هذا الفصل.

(٦) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص ٨٢ .

(٧) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٨٣ .

أبدى اهتماماً كبيراً بما كان ينظمه من قصائد ، وأثنى عليها ثناءً عطراً ، واختار عدداً من تلك القصائد ورتبها على حسب حروف المعجم(١) . والمظفر الأول بدوره كان معجباً بقصائد العماد الأصفهاني وكان يجيزه عليها جوائز سنية(٢).

وخلف المظفر الأول في مُلك حماة ابنه المنصور الأول محمد ، وكان مثل أبيه محباً للعلماء ، وحرص على أن تضم مملكته أبرز العلماء ، وفي شتى فروع العلم(٣) . واجتمع في بلاطه أكثر من مائتي عالم من الفقهاء ، والنحاة ، وأهل اللغة ، والمشتغلين بالعلوم الحكمية ، والمهندسين ، والمنجمين ، والشعراء ، والكتاب ، والأماثل(٤)، ولم يخلُ بلاطه حتى من الفلاسفة(٥) . وكان يغدق عليهم بسخاء(٦). وكان هو نفسه عالماً بالسير والتواريخ وعلم الكلام(٧) . وله مصنفات عديدة منها كتاب " مضمار الحقائق وسر الخلائق"

---

(١) الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٨٤ ومابعدها ؛ وانظر أيضاً : النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٨٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٦٨ – ٧٧ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤، ص ٢٦٠ ؛ ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣ .

(٥) الذهبي : سيرأعلام النبلاء ، ج ٢٢، ص ١٤٧؛ ابن نصر الله الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٢٨ .

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٤٧ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ١٢ ؛ ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٧٨ ؛ ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٩٠ .

وهو تاريخ مرتب على السنين ، وكان يتألف من أجزاء كثيرة(١). وقد وصفه غير واحد ممن طالعه بأنه كبير ونفيس لم يسبق إلى مثله ويدل على فضل مصنفه وغزارة علمه(٢). كما أنه له كتاب آخر في طبقات الشعراء(٣) .

---

(١) تاريخ الجزري ، ورقة ٢٣٦ ب ؛ المنذري : التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٠ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج٣، ص ١٢٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٤٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٠٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣ ، وللأسف فمعظم أجزاء هذا الكتاب مفقودة باستثناء جزء واحد منه حققه د. حسن حبشي ونشره في القاهرة سنة ١٩٦٨م .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، الطبقة ٦٢ ، ص ٣٤٢ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج٤ ، ص ١٢ ؛ ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣ ، حاجي خليفة (المولى مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي ، ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج ٢ ، ص ١٧١٢ - ١٧١٣ . وقد شكك صاحب كشف الظنون في نسبته إلى المنصور الأول محمد صاحب حماة ، وذكر أنّ بعض حاشية المنصور هو الذي ألفه له . أما ابن أيبك فيذكر أنّ مؤلفه الفيلسوف سيف الدين الآمدي الذي أقام فترة بحماة . انظر الدر المطلوب ، ص ٢٦٣ ، هذا وقد ناقش د. حسن حبشي - محقق الجزء الموجود من الكتاب - مسألة نسبته إلى المنصور وأكّد بشكل قاطع أنه من تأليف المنصور الأول محمد صاحب حماة . انظر : مضمار الحقائق ، مقدمة المحقق ، الصفحات : ط - ي - ك .

(٣) اسم هذا الكتاب " أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء والمتقدمين من الجاهلية والمخضرمين و الاسلاميين والمحدثين وذكر لمختصر من أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء إلى هذا الزمان والأوان ". وتوجد نسخة منه في مكتبة ليدن بهولندا تحت رقم ٦٣٩ ، كما توجد صورة منه على ميكروفيلم في مكتبة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، كما توجد صورتين أخريين على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٣٢ ورقم ١١٢٠ تاريخ وتراجم وكلاهما مصور عن نسخة مكتبة لوجانوباتافا بالنمسا برقم ٦٣٩ وعدد أوراق هذه النسخة ٢٩٠ بمعدل ١١ سطر للورقة الواحدة ، وتاريخ نسخها ٦٠٢هـ .
ويستدل من تصفح ما بقي من هذا الكتاب على أنه معجم للشعراء وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان لولا ورود ذكرهم في هذا الكتاب . انظر المضمار مقدمة المحقق ص " ز " ، حاشية رقم ٣ ؛ وانظر أيضاً ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ؛

كماجمعت أشعاره في ديوان(١) ، وقال الذهبي : " شعره جيد"(٢) . وأسس المنصـور الأول خزانـة للكتب بقلـعة حماة ، جمـع فيها كثيراً من الكتب القيمة ، وكان شديد العناية بهـا ، حريصاً علـى مطالعة ما تضمـه مـن كتـب ومراجعتها ، ومناظرة العلماء فيها(٣) .كـمـا أنه صنف كتباً أخرى غير التي ذكرناها(٤).

وعندما استقر المظفر الثاني على عرش حماة ، واصل سياسة أسلافه في تشـجـيع العلمـاء والأدباء والمهندسين ، ليـؤدي دوره في بناء النهـضـة الحضارية . فقد أثر عنه تقديره للعلماء واجلالهم(٥) . وكان يجتمع بهم

= أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ؛ الذهبي : أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ١٤٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ١٢ - ١٣ ؛ ابن نصر الله الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٣٨ ؛ ابن حجة : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١١٠٢ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٨١ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦٢، ص ٣٤٣ ، وللأسف لا يزال هذا الديوان مفقوداً . ولكن هناك مصادر أوردت نماذج مـن شـعر المنصور الأول منها : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٨١ - ٨٦ ؛ ابن أيبـك : الدر المطلوب ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفـيات ، ج ٤ ، ص ٢٦٠ ؛ ابن شـاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦٢ ، ص ٣٤٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ وانظر أيضاً : أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة ٦٢ ، ص ٣٤٢ ؛ أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ص ١٤٧ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٨ . وله "درر الآداب ومحاسن ذوي الألباب " وهو مخطوط . انظر الزركلي : الأعلام ، ج ٦ ، ص ٣١٣ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٦ أ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣؛ ابن نصر الله الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٤٠٦ ؛ ابن حجة : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٣ .

ويناظرهم ، ومن أشهر علماء عصره الشيخ علم الدين قيصر(١) ، وهو عالم بالهندسة والفلك وكان المظفر الثاني يزوره في مقر عمله بقلعة حماة ويسأله أسئلة دقيقة عن الرياضيات والفلك تنمُّ عن خلفيته الجيدة عن هذين العلمين . وعن ما كان يتمتع به من ذكاء وسعة إطلاع(٢) . كما كان المظفر الثاني يلتقي بابن واصل ويتناقش معه في مسائل علمية مختلفة ، وكان ابن واصل نفسه مؤملاً في بلوغ ما يصبو إليه من آمال ، وفي بلوغ درجات علمية عالية في ظل هذا الملك ، لكن ما أصاب المظفر الثاني من فالج – أقعده عن القيام بأكثر أعبائه – كان بمثابة صدمة لطموحات ابن واصل مما دفعه إلى ترك حماة، والانتقال إلى جوار السلطان الصالح أيوب في مصر، راجياً أن يحقق هناك ما عجز عن تحقيقه في مسقط رأسه مدينة حماة (٣).

وكان طبيعياً أن يرث المنصور الثاني – الذي خلف والده المظفر الثاني في الحكم – حب العلماء عن أبائه ، فكان كثير العناية بهم ، وكانت حماة في عهده تعجُّ بالعلماء والفضلاء بمختلف تخصصاتهم . وقد أكثر الشعراء التردد على بلاطه ومدحه بالقصائد(٤) .

والحقيقة أن ما أوردناه من نماذج توضح دور الأسرة التقوية في ازدهار الحياة العلمية والحضارية بشكل عام يدفعنا إلى إلقاء مزيد من الضوء على الناحية العلمية بشكل أوسع ، وذلك من خلال دراسة بعض العلماء

---

(١) انظر ترجمته فيما يلي من هذا الفصل ، ص ٤١٠-٤١١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ ؛ وانظر أيضاً : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩٦أ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ .

(٤) ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٣٦٦ ؛ وانظر أيضاً : ابن حبيب : جهينة الأخبار ، ورقة ١٢٤أ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٩ ، ورقة ٢ب – ٣أ ؛ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٢٥٦ – ٢٥٧ أ .

الذين كان لهم أثر لا يمحى في بناء النهضة العلمية وازدهارها في حماة خلال هذه الفترة .

ولعل ابن واصل هو خير من يجسد ما وصلت إليه الحركة العلمية من تطور في حماة . فمن هو ابن واصل ؟ وما دوره في ازدهار الحياة العلمية في حماة ؟ هو أبو عبدالله جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي ، مولده في حماة سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م(١). كان والده من أعيان الحمويين وعلمائهم ، فنشأ جمال الدين في جو مفعم بالعلم ، فتنقل مع أسرته في بلاد الشام . وقد قام بعدة رحلات علمية شملت عواصم الشام : دمشق ، بيت المقدس ، بيروت ، وغيرها ؛ كما رحل إلى العراق والحجاز ومصر(٢). وتميز ابن واصل بذكاء مفرط إذ كان " من أذكياء العالم "(٣) وساعده ذلك على سرعة التلقي والفهم ، فبعد صيته واشتهر اسمه وأصبح من الأئمة الأعلام(٤).

كان ابن واصل طموحاً ، ويأمل في بلوغ مكانة علمية عالية في ظل ملوك الأسرة التقوية الحاكمة في حماة ، لكن المرض المفاجيء الذي أصاب

---

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ١٠٥ ب ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، نسخة مصورة على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ٤٧٤ ، عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٨١، ج ٧ ، ورقة ٢٥٢ ب – ٢٥٣ أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ، ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، مقدمة المحقق ، ص ٤ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ وانظر أيضاً الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

المظفر الثاني أثر كثيراً في نفس ابن واصل ، وشعر أنّ آماله لن تتحقق إذا بقي في حماة ، فشدّ الرحال إلى مصر ، ليكون قريباً من السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب(١) . وهناك شاهد الحملة الصليبية السابعة ، واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، وما صاحب ذلك من حوادث واضطرابات وغزوات المغول للعراق والشام ، وسقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وانتقالها إلى مصر ، و اتصل بالسلطان الظاهر بيبرس وكان سفيره إلى الامبراطور منفردي بن فردريك الثاني ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة(٢).

ويبدو أن ابن واصل عاد بعد ذلك إلى حماة ، وعكف على التصنيف والتأليف ، إضافة إلى توليه منصب قاضي القضاة ، واستمر على هذا الحال حتى وافته منيته في الرابع والعشرين من شوال سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م. ودفن بتربته بعقبة نقيرين بظاهر حماة(٣).

كان ابن واصل إماماً مبرزاً في علوم كثيرة ، قيل إنه كان يتعرض في حلقته لمناقشة أكثر من ثلاثين علماً(٤). ورحل إليه طلبة العلم ، وأخذوا عنه(٥) ، وتخرج عليه جماعة من العلماء(٦) وكان "من أهل العلم الذين خُتمت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، مقدمة المحقق ، ص ٤ .

(٣) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ١٠٥ ب ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٧ ، ورقة ٢٥٢ ب ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٧ ، ورقة ٢٥٢ ب .

(٥) ابن حبيب : تذكرة التنبيه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٦) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ١٠٦ أ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

بهم المائة السابعة"(١).

وقد صنف ابن واصل العديد من المؤلفات في شتى أنواع العلوم التي كان حاذقاً فيها كالأصول . والعلوم العقلية ، والهندسة ، والحساب والفرائض(٢)، والتاريخ الذي هو بلا شك أحد أعلامه ، وله فيه مصنّفان مشهوران، أولهما سفره الضخم ، الفريد في بابه " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " والذي كان المصدر الأول لبحثنا هذا . وثانيهما : كتاب التاريخ الصالحي ، وقد أهداه للسلطان الصالح أيوب على أن لابن واصل - كما ذكرنا- مؤلفات أخرى منها : شرح الوجيز في المنطق للخونجي(٣) ، وشرح الجُمَلْ في النحو للخونجي أيضاً ، وهداية الألباب في المنطق ، ومختصر الأدوية المفردة لابن البيطار(٤) في الطب ، وتجريد الأغاني في ذكر المثالث والمثاني(٥)، وخفايا الأفكار (شرح الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي) وخصائص الأنبياء عليهم

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ وانظر أيضاً : السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٧ ، ص ٢٥٣ أ.

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ١٠٥ أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٣) الخونجي : محمد بن ناماور بن عبدالملك أبو عبدالله ، أفضل الدين ، عالم بالحكمة والمنطق أصله من فارس . انتقل إلى مصر وتولى قضاءها . له عدة مصنفات . توفي بالقاهرة سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م . أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٨٢ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣٦ ؛ الزركلي والأعلام ، ج ٧ ، ص ١٢٢ .

(٤) ابن البيطار : عبدالله بن أحمد المالقي ، ضياء الدين أبو محمد ، امام النباتيين وعلماء الأعشاب ، كان عالماً بالطب ، وحجة في معرفة أنواع النبات . وله عدة مصنفات . توفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م بدمشق . الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ٦٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن شاكر الكتبي : فوات الوافيات ، ج١ ، ص ٢٠٤ .

(٥) وقد حقق الكتاب ونشره كل من : د. طه حسين ، ابراهيم الأنباري . في القاهرة سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥ م.

السلام ، وشرح قصيدة ابن الحاجب(١) في العروض والقوافي ، ونخبة الفكر في المنطق(٢) وتسمى الأنبرورية ، ومختصر كتاب المجسطي(٣)، وشرح الموجز للخونجي في الطب(٤) ، ونظم الدرر في التواريخ والسير ، والصلة والعائد لنظم القواعد وكلاهما مخطوط (٥) .

وله أيضاً مؤلفات في علم الهيئة(٦) .

وكان أيضاً مهندساً بارعاً ، أشرف على بناء بعض الدور والقصور(٧).

ورغم تبحر ابن واصل في كثير من العلوم ، إلاّ أنه غلب عليه اهتمامه بالمنطق ، والعلوم العقلية بصفة عامة . وغلب عليه الفكر حتى صار يذهل عن أحوال نفسه وعمن يجالسه(٨) . كما كان قارضاً للشعر وناقداً في الوقت نفسه(٩) .

---

(١) عمر بن محمد بن منصور الأميني المعروف بابن الحاجب دمشقي المولد والوفاة، عالم بالحديث والبلدان ، وله عدة مصنفات ، توفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م . الزركلي : الأعلام ، ج ٥ ، ص ٦٢ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٧٧٢ ، ١٨٦٣ ؛ اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين من أسماء المؤلفين والمصنفين من كشف الظنون ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج ٦ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ . الزركلي : الاعلام ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .

(٣) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ . الزركلي : الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ البغدادي : هدية العارفين ، ج ٦ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٥) الزركلي : الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٣٣ .

(٦) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ١٠٥ أ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٣ ، ص ٨٥ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٧ ، ورقة ٢٥٣ أ .

(٧) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، ١٣٩٧ هـ /١٩٧٧ م، ص ١٥٦ .

(٨) ابن الجزري :جواهر السلوك، ج ٢، ورقة ١٠٦ أ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣ ص ٨٥.

(٩) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٣٨ – ٤٣٩ .

مدارس حماة في العصر الأيوبي :

من الركائز الرئيسية لأية نهضة علمية إقامة المدارس والانفاق عليها، والاهتمام بها . وقد تميزت الدولة الأيوبية بالتوسع في إنشاء المدارس ، وفي حماة انتشرت المدارس ، وعُدّ ذلك حسنة من حسنات الأسرة التقوية الحاكمة فيها(١).

ولم تختلف مدارس حماة عن مثيلاتها في بقية بلدان الشام ومصر التي كانت تابعة للدولة الأيوبية . ورغم كثرة المدارس إلاّ أنه لم تكن للدولة سياسة واضحة ومحددة تجاه تلك المدارس . وكانت المدرسة تسير وفق الشروط التي يضعها لها واقفها أو منشؤها ، وكانت تلك الشروط بمثابة اللائحة الأساسية للمدرسة . فهي تضم عادةً الشروط الواجب توفرها في الدارس والمدرس ، والقواعد الإدارية والمالية للمدرسة.(٢)

وكان التخطيط المعماري للمدارس مرتبطاً بنوع الدروس التي تعطى في تلك المدرسة(٣). إلا أنّ هناك أقسام رئيسية تتوفر في كل مدرسة . فعادةً تحتوي المدرسة عدداً من الأواوين يختلف عددها من مدرسة إلى أخرى تبعاً للمذاهب السنية التي تدرس بها . وكثير ما احتوت المدرسة – إلى جانب الأواوين – أيواناً للقراءات والحديث(٤). وتضم المدرسة مرافق أخرى منها المصلى ، والمكتبة(٥) ، كما تضم المدرسة عدداً من الموظفين كالمؤذن والقيم

---

(١) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

(٢) أحمد رمضان أحمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، ص ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٥) أحمد فائز الحمصي : روائع من العمارة العربية الاسلامية في سورية ، دمشق ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، ص ٦٠ .

الذي يشرف على خزانة الكتب(١) . وناظر الوقف ، والخدم الذين يتولون تنظيف المدرسة والاهتمام بها(٢) . وكانت المدرسة تسمى غالباً باسم منشئها(٣).

أما الشيخ أو المدرس فلا بد من توفر بعض الشروط فيه ليكون مؤهلاً للتصدي للدراسة ، في مقدمتها العلم والصلاح ، والتبحر في أحد المذاهب السنية على الأقل ، مع حسن في الهيئة ، مطّلع على مواضع الاختلاف في المذاهب الأربعة(٤).

ويساعد الشيخ أو المدرس شخص يسمى المعيد ، وهو النابغ من التلاميذ ، حيث يجلس مع الطلاب قبل الدرس أو بعده يشرح لهم نقاط الدرس التي تحتاج إلى ذلك ، ويساعدهم على استيعابه(٥) ، وربما كان الشخص معيداً في مدرسة ومدرساً في أخرى نظراً للتفاوت بين المدرستين في المستوى العلمي(٦) .

وكانت المدارس في العهد الأيوبي تهتم بالثقافة الدينية أكثر من غيرها ، رغم أنها تدرس لطلابها إضافة إلى العلوم الدينية (علوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والفقه) علوماً أخرى ، كاللغة ، والأدب ، والتاريخ، والطب، وغيرها(٧).

---

(١) أمينة البيطار : التعليم في الشام في العصر الأيوبي (مقالة نشرت في مجلة : تاريخ العرب والعالم ، العدد " ٧٠ " ، أغسطس ، آب ، ١٩٨٤ م . بيروت ، ص ٦٦ .

(٢) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٤٨ .

(٥) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٦) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٤٤ .

(٧) أمينة البيطار : التعليم في الشام في العصر الأيوبي (مقالة) ، ص ٦٦ ؛ حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٣٢.

ومن المدهش أن التعليم في العصر الأيوبي كان ينقسم إلى مراحل متعددة ، شبيهة بتلك التي عرفها العصر الحديث . فهناك الكتاتيب التي يلتحق بها الأطفال الصغار ، وهي على نوعين : إمّا خاصة يتولى أولياء أمور التلاميذ الانفاق على أطفالهم فيها . وإمّا عامة يوفر لها وقفها ما تحتاجه من موارد مالية . وفي درجة أعلى من الكتاتيب كانت تعقد حلقات دراسية في الجوامع ، ويتصدى للتعليم فيها شيوخ أو معيدون . والمرحلة الثالثة وهي الأعلى شأناً فتعطى دروسها في بيوت العلماء ، وحوانيت الوراقين ، وبعض المدارس الكبرى ، ويتم التدريس فيها عن طريق المناظرة والتأليف والرحلة في طلب العلم(١).

أما عن برنامج اليوم الدراسي فكان يبدأ عادة عند طلوع الشمس ويستمر حتى وقت صلاة العصر ، ويترك للمدرس حرية اختيار الوقت الذي يلائمه خلال النهار ليلقي فيه دروسه ، على أن المدة الفعلية للدراسة لا تزيد على ثلاث ساعات تقريباً . وتتراوح أيام الدراسة بين أربعة أو خمسة خلال الأسبوع . أما الإجازات فتكون أيام الأعياد ، وشهر رمضان ، وأيام التشريق، وشهري رجب وشعبان ، وعشرين يوماً من شوال(٢).

ويفتتح المدرس درسه عادة بالبسملة ، والصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما تليت آية قرآنية ، أو ألقي حديث نبوي شريف ، يحثان على طلب العلم ، والسعي إليه ، والإلتزام بحسن الخلق . ثم يشرع المدرس في إلقاء درسه(٣) وقد يكون الدرس عن طريق التّلْقين أو الإلقاء، أو الإملاء ، وربما دارت مناظرات علمية بين المدرس وتلاميذه(٤).

---

(١) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) أحمد رمضان : المجتمع الإسلامي ، ص ١٤٩ ، وربما كان في ذلك مبالغة لأن وقتاً طويلاً يضيع على العلماء وطالبي العلم بين الإجازات المذكورة.

(٣) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) المرجع نفسه ،ص ٣٩ - ٤٠ .

وفي حالة الإملاء يكون الإلقاء بطيئاً ، ليتمكن الطلاب من الكتابة ، وبعد انتهاء الإملاء ، يعود المدرس إلى شرح وتفسير الكلمات الغامضة ، فيما يقوم الطلاب بكتابة تلك الشروحات على هوامش الأوراق التي سبق أن دونوا الأصل عليها(١).

أما إذا كان الدرس من كتاب يمكن الحصول عليه كلف المدرس طلابه بشرائه ، وفي هذه الحالة يطلب المدرس من أحد طلابه قراءة الموضوع المقرر للدراسة من الكتاب ، ثم يتولى هو نفسه قراءة الموضوع مرة أخرى وطلابه منصتون إليه ، متابعين لقراءته في كتبهم ، وأثناء ذلك يتوقف عند الكلمات المبهمة ويشرح معناها ، ويقوم الطلاب بكتابة الشرح على هوامش الأوراق أو في أوراق خاصة ، وعادةً يطرح المدرس بعض الأسئلة على طلابه ليختبر فهمهم ، ويعيد شرح ما صعب عليهم فهمه(٢) . وهذا ما نسميه في طرق التدريس الحالية باسم " التطبيق " أو " التقييم " .

أما عن نفقات المدارس فكان معظمها يتم توفيره عن طريق الأوقاف ، وكانت كافية لتوفير الإنفاق على المدرسين والطلاب(٣).

وكانت حماة – خلال الفترة موضع الدراسة – تغص بالمدارس ، وسنستعرض فيما يلي أهم مدارس حماة وأشهرها في العصر الأيوبي :

المدرسة النورية(٤):

تحمل المدرسة اسم منشئها نورالدين زنكي ، وكانت قائمة في حماة

---

(١) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٣) كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ ؛ أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٤٧؛ حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٣٢ . ٤٢ .

(٤) تقع في حي الباشورة ، على مقربة من قلعة حماة . ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١٠، ص ٤٥٨١ ، حاشية رقم " ١ " .

قبل أن يتولى المظفر الأول تقي الدين عمر حكمها سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨م، واستمرت في أداء وظيفتها في ظل الحكم الأيوبي . ووجدت من ملوك الأسرة التقوية ما تستحقه من رعاية واهتمام(١).

وجدير بالذكر هنا أنه لم يمض أكثر من ست سنوات على تولي المظفر الأول مقاليد الحكم بحماة حتى وصل عدد المدارس بها إلى ثلاث مدارس(٢).

المدرسة المظفرية :

بناها المظفر الأول بجوار الجامع الكبير من جهته الغربية ، بمحلة المدينة ، وكان لها أوقاف ضخمة في قرية تسمى " الدجاجية " ، وغيرها(٣).

المدرسة المنصورية :

أنشأها المنصور الأول محمد عندما قدم إليه الشيخ سيف الدين الآمدي(٤). وكانت بالقرب من الباب الشمالي لحماة ، المعروف بباب الجسر ، وكان المنصور الأول يحضر درس الشيخ الآمدي فيها(٥).

والجدير بالذكر أن المنصور الأول بنى أيضاً مدرسة بظاهر حماة ، كانت تضم رفاة والده المظفر الأول ، وكان لها أوقاف دارة(٦).

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٣ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٧ ، ص ١٦٣ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٣ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ص ١٢٥ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٣ .

(٤) انظر ترجمته فيما يلي ص ٤٠٦-٤٠٨ من هذا الفصل .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٣.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ ؛ ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٣٥ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٤ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٨١ .

المدرسة العصرونية :

أنشأ هذه المدرسة نور الدين زنكي إكراماً لشرف الدين بن أبي عصرون(١) لكنّ أميراً يدعى نجم الدين التوتان بن ياروق ورد اسمه في نقش على أحد جدرانها، ويفيد النقش المذكور أنها أسست سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨(٢). وهي بلا شك أنشأت قبل سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م (سنة وفاة نور الدين زنكي) ، وهناك تفسيران لهذا التباين ، إما أن يكون الأمير نجم الدين التوتان قد أنشأ هذه المدرسة بأمر من نورالدين زنكي ، أو إنه أضاف اسمه إليها بعد وفاة نور الدين لتنسب المدرسة إليه(٣).

وتتكون المدرسة من إيوانين – وهي من المدارس القليلة التي تتصف بهذه الصفة –(٤) وتقع على ضفة نهر العاصي ، قرب بستان الجبل ،قريباً من باب حمص ، وملحق بها جامع ، ولها أوقاف كثيرة جداً ولا سيما نواحي شيزر ، ولا زالت آثارها باقية(٥).

والمدرسة مخصصة لتعليم القرآن الكريم ، ويوضح النقش المحفور على أحد جدرانها(٦) ، الشروط واللوائح التي تسير بموجبها المدرسة ، فهي تضم

---

(١) شرف الدين أبو سعد ، عبدالله بن محمد بن هبة الله علي بن المطهر أبي عصرون ، ت ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م وقد استقدمه نور الدين من سنجار ، وأقام له مدارس في دمشق وحماة وحمص ومنبج وبعلبك ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص : ٩ ، ١٧-٤٢ ؛ وانظر أيضاً : النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤-١٢٥.

(٣) صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٣ .

(٤) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي، ص ١٤٥ ؛ وقد ورد اسم حمص خطأ والصحيح : حماة.

(٥) الصابوني : تاريخ حماة ،ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤ – ١٢٥ ؛ أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٤٥ ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٣-١٨٤.

(٦) انظر نص النقش في الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤-١٢٥ ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٣-١٨٤.

سكناً لإيواء الطلاب الفقراء القادمين من خارج حماة ، ويتولى التدريس بها شيخان . وحُددت مدة الإقامة لكل طالب مغترب بخمس سنوات ، فإن ختم القرآن الكريم أو انقضت المدة المحددة فيكسى ثوباً أو جبة ، كما ورد بالنقش عبارة تناشد الطلاب الدعاء لواقف المدرسة ولوالديه وللمسلمين (١). ويتبين من النقش أن بعض الطلاب يأتون من خارج حماة ، وأن المدرسة توفر لهم الإقامة ، والنفقة .

المدرسة الخاتونية :

تنسب إلى مؤنسه خاتون بنت المظفر الثاني ، وكانت داراً لها ، وتسمى أيضاً دار الإكرام ، فأوقفتها مدرسة ، وزودتها بالكتب ، وأوقفت عليها أوقافاً جليلة(٢).

المدرسة الطواشية :

بانيها الطواشي شجاع الدين مرشد المنصوري ، وبدأ العمل بها سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م، وموقعها بإزاء الباب الشمالي الكبير ، بجانب حمام الذهب الشرقي ، وكانت متسعة جداً ، ولها أوقاف كثيرة ، وقد اندرست بعد الألف الهجري ، ولم يبق منها إلا آثار الجدران في أحد البساتين(٣).

---

(١) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ؛ أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٤٥ ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٤.

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ، ص ٧٩ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١١ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٣ ، ومكان المدرسة الآن بستان في أول طريق محلة البراجمة ، على يسار المنحدر إلى العاصي ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١١ .

(٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٦ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ، ص ٨٨ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١١-١١٢ ، وحاشية رقم ١ ، ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج٦ ، ص ١٢٤.

مدرسة الشيخة :

كانت تسمى زاوية السفاحية، ومنشئها قاضي القضاة نجم الدين عبد الظاهر بن السفاح الحلبي(١) ، وأطلق عليها اسم " مدرسة الشيخة " ، وكان وكيل ورثة ابن السفاح، يحضر من حلب إلى حماة في كل عام ،ليتفقد أوقافها ويؤجر عقاراتها(٢).

المدرسة البارزية :

وبيت البارزي من بيوت حماة المشهورة بالعلم والفضل(٣)، وقد أنشأ أحد البارزيين مدرسة بحماة ، وعندما توفي دفن بها ، وكانت مخصصة لتدريس المذهب الشافعي(٤).

المدرسة العزية :

تنسب إلى بانيها محمد بن حمزة العزي ، كانت بمحلة باب الجسر بجوار جامع العربي من الجهة الشرقية ، كانت مدرسة رحبة ، وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق منها إلا جدار نقشت عليه العبارة التالية : " أنشأ هذه المدرسة المباركة الفقير إلى الله تعالى أبو سالم يحيى بن حمزة العزيبي سنة سبع وخمسين وستمائة "(٥).

---

(١) لم أعثر له على ترجمة في المصادر التي توفرت لدي .

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٣ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٧٤٢ ، عن نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ١٣٨١٠ ، ج ٥ ، ورقة ٥٣ب .

(٤) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٢ ؛ كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٤ ، وانظر مايلي ص ٤٢٣ - ٤٢٦ .

(٥) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٢ - ١١٣ ، حاشية رقم ١ ، ص ١١٣ .

مدرسة أبي الفوارس بمعرة النعمان :

وهي مدرسة مخصصة لتدريس المذهب الشافعي ، أنشأها أبو الفوارس نجا بن عبد الكريم بن معافا سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م ، في زمن المنصور الأول محمد صاحب حماة . وكانت إلى الجنوب من الجامع الكبير بمعرة النعمان ، ونقش تاريخ بنائها واسم بنّائيها ، والمذهب الذي خصصت لتدريسه(١).

مدرسة ابن موهوب :

وتنسب إلى مؤسسها زين الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبد القاهر بن موهوب (٢) . وصفت بأنها مدرسة جليلة ، ولها أوقاف كبيرة(٣).

المدرسة المخلصية (القرناصية) :

منشؤها أحد أفراد بيت ابن قرناص وهو مخلص الدين اسماعيل(٤)، وموقعها بالقرب من جامع الشيخ ابراهيم في حي الحاضر بحماة(٥).

دار الحديث :

ويبدو – كما هو واضح من اسمها – أنها مختصة بتدريس علوم الحديث النبوي الشريف(٦).

---

(١) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٤٣ ؛ وانظر أيضاً : كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٨؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٤ .

(٢) انظر ترجمته فيما يلي ص ٤٠٤ من هذا الفصل .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٤) انظر ترجمته فيما يلي ص ٤١٧ – ٤١٨ من هذا الفصل .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٨٣ .

(٦) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

مدرسة ابن المشطوب :

تنسب إلى الأمير سيف الدين علي بن المشطوب(١).

المدرسة الجلدكية :

أقامها بحماة الأمير شجاع الدين جلدك(٢) ، عتيق المظفر الأول تقي الدين عمر صاحب حماة(٣).

وهناك المدرسة المؤيدية(٤) ومدرسة تنسب إلى الشيخ تقي الدين بن البققي(٥).

ولم يقتصر اهتمام ملوك حماة على إقامة المدارس داخل عاصمة مملكتهم، بل امتد ليشمل مناطق كانت في يوم من الأيام تحت اداراتهم ، منها :

مدرسة الرها :

وقد بناها المظفر الأول تقي الدين عمر عندما كانت الرها ضمن إقطاعاته(٦).

المدرسة التقوية بدمشق :

ومؤسسها هو المظفر الأول تقي الدين عمر ، وذلك سنة

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٣ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٨٢ .

(٢) الأمير شجاع الدين جلدك بن عبدالله المظفري ، كان مملوكاً للمظفر الأول تقي الدين عمر صاحب حماة ، فأعتقه وتقدم في الدولة الأيوبية تولى عدة نيابات منها : دمياط ، الاسكندرية ، توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م؛ الصفدي : الوافي بالوفيات : تحقيق : شكري فيصل ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨١ م ، ج ٦ ، قسم ١١ ، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج١ ، ص ٣٠٠ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٨٢ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ١٤٨ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٧٢ ؛ المقريزي : الخطط ، ج٣، ص ٣١٧ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٧٤ .

٥٧٤هـ/١١٧٤م ، وهي من أجَلّ مدارس دمشق ، وأكثرها شهرة(١).

مدرستا المظفر بالفيوم :

وبانيهما أيضاً هو المظفر الأول تقي الدين عمر ، وأقامهما بالفيوم عندما كان نائباً لعمه السلطان صلاح الدين ، وجعل إحداهما لتدريس المذهب الشافعي ، والأخرى لتدريس المذهب المالكي(٢) .

وتدلل كثرة المدارس التي أنشأها المظفر الأول على اهتمامه الكبير بنشر العلم ، وإدراكه لأهمية المدرسة ودورها في المجتمع .

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٩ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٧٢-٧٤ ؛ أحمد بدوي : الحياة العقلية ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٤٢ ؛ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢١٧ .

مظاهر الإزدهار العلمي بحماة :

نتيجة للعوامل الآنفة الذكر ، ازدهرت الحياة العلمية في حماة ، وتجسد هذا الازدهار في ظهور تيارات علمية مختلفة ، سارت جميعها جنباً إلى جنب ، وبرز في كل فن من فنون المعرفة علماء أجلاّء ، استقطبوا طلاب العلم ومريديه ، وتركوا للطلاب حرية اختيار العلم الذي يرغبون تعلمه ، فهناك علوم الشريعة التي تضم القراءات ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والأصول ، وعلوم العربية ، كاللغة ، والنحو ، والشعر ، والأدب ، والنثر ، والخطابة ، وعلوم الأوائل من فلسفة ، وعلم كلام ، وغيره ، وهناك العلوم التطبيقية مثل الطب ، والصيدلة ، والرياضيات ، والفلك ، وغيرها . وكان بعض العلماء متبحراً في عدة علوم وليس في علم واحد فقط ، وهذه ميزة اتصف بها عدد غير قليل من علماء الحضارة الإسلامية(١).

والحقيقة أن العلماء الحمويين – في هذه الفترة – كانت لهم آثار طيبة ، واسهامات بارزة ، في الحضارة الإسلامية بشكل عام ، سواء في عصرهم ، أو في العصور التالية له ، وسنحاول تلمس تلك الآثار والإسهامات ، وابرازها ، من خلال التأريخ لأهم أولئك العلماء ، وبيان أهميتهم ، ومعرفة إنتاجهم في حقل تخصصهم ، وكذلك الإشارة لأشهر تلاميذهم ، والذين حملوا راية العلم عنهم .

علوم الشريعة :

لعل من المنطقي أن نبدأ بعلوم الشريعة ،لامتزاجها بالعبادة ، التي هي الهدف الأسمى الذي خُلق من أجله الثقلان . قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾(٢).

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ،ص ٤١٠ .

(٢) سورة الذاريات ، آية ٥٦ .

وكان من أبرز علماء الشريعة في حماة خلال هذه الحقبة زكي الدين محمد بن يوسف البرزالي ، الحافظ(١) ، الرحالة الذي جاب الآفاق طلباً للعلم، حيث زار الحجاز ، ومصر ، والعراق ، وأصبهان ، وخراسان ، والجزيرة(٢) . وتنقل بين بلدان الشام ، وسكن دمشق مدة طويلة ، ثم انتقل إلى حماة واستوطنها حتى توفي بها سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م . وكان متعمقاً في علم الحديث ، وبزّ فيه الأقران حتى غدا " محدث الشام ومفيده "(٣). وقصده طلاب العلم ، وتخرج على يديه جماعة منهم ، حملوا راية هذا العلم من بعده(٤). ومن البدهي أنه عندما يستقر محدث الشام في حماة ، فإن أعين طلاب العلم تتجه إلى ذلك البلد ، فيقصدونه ، فتغدو حماة بذلك مركزاً من مراكز الثقافة الاسلامية .

كما انتفع طلاب العلم – وخاصة علم الحديث – بعالم آخر كان يقطن حماة ، هو الشيخ بدر الدين عبد اللطيف بن محمد بن نصر الله العبدي ، المتوفى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م كان عالماً فاضلاً ، وله سماع عال . وكان ملماً أيضاً بالأدب ، وله نظم جيد(٥).

ومن فقهاء حماة المشار إليهم بالبنان الشيخ أبو عبدالله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العمري الحموي

---

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٢٤٠أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٦٨ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٢٤٠أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، والجزء والصفحة ؛ وانظر أيضاً ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٢٠٤أ .

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٦٨ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

(٥) ابن الجزيري : جواهر السلوك، ج ١ ، لوحة ١٠٧ .

(٦٠٣هـ /١٢٠٦م – ٦٨٠هـ / ١٢٨١م)(١) مولده بحماة ، وخرج منها وهو صغير لطلب العلم ، وعاد إليها وقد أصبح عالماً خاصة في فقه الإمام الشافعي(٢) ، وتصدى للافتاء بها وهو لم يتجاوز بعد الثامنة عشر من عمره(٣) . وكان مرجعاً في الفتوى ليس في حماة وحدها ، إذ أن الأسئلة المتعلقة بالفتاوي كانت تنهال عليه من كل مكان(٤) . وإلى جانب الفقه كان ابن رزين عارفاً بالقراءات ، والنحو ، وبرع في التفسير ، وشارك في المنطق ، والبيان ، والحديث(٥) ، وتخرج على يديه عدد غير قليل من العلماء(٦) . وكان يلقى التقدير في كل مكان يحل به ، من ذلك أنه انتقل إلى حلب ، واستقبله ملكها الناصر يوسف بالحفاوة والترحاب ، وقلده وكالة بيت المال بها(٧) . وهو منصب مهم ، يشترط فيمن يتصدى له الأمانة إضافة إلى العلم والتقوى . ومكث ابن رزين في حلب حتى بدأت جحافل المغول تدق أبوابها ، فخرج منها إلى مصر ، وهناك أعطي حقه من التقدير والاحترام ، وأسند إليه منصب " قاضي القضاة " وظل يشغله حتى وفاته(٨) .

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٤ ؛ وانظر أيضاً : السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٨ ، ص ٤٦ – ٤٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٢ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ . ص ٢٤٣.

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ .

(٥) المصدر السابق ، والجزء والصفحة .

(٦) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ .

(٧) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ ؛ ابن قاضي شهبة (تقي الدين بن قاضي شهبة الأسدي ، ت ٨٥١ هـ/١٤٤٨م) طبقات النحويين واللغات ، تحقيق : محسن غياض ، مطبعة النعمان ، النجف ، ص ١٠٢ .

(٨) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ؛ السبكي : طبقات الشافعية

وقد تتلمذ على يدي ابن رزين عدد من الأئمة الأعلام ، أخذوا العلم ، والسمت والورع عنه ، وقيل : إن له فتاوي مجموعة(١).

ومن علماء حماة الذين قصدهم طلاب العلم ، وجاؤوا إليهم من خارج حماة ، الشيخ تاج الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن محمد بن أبي الفرج الحموي (٦٤٣ هـ /١٢٤٥م – ٧٣٣ هـ /١٣٣٢م) وقد تتلمذ هذا الشيخ على علماء حماة السابقين له ، وكان ديناً ، وقوراً ، صاحب رئاسة ورُشحَ في بعض الفترات للوزارة بحماة ، وامتاز بحسن الخط ، واستغل هذه الميزة في نسخ الكثير من الكتب(٢) .

وكان الشيخ مجد الدين أبو المعالي محمد بن خالد بن حمدون الهذباني الحموي من العلماء الأفذاذ ، الذين ارتحل طلاب العلم إليهم لأخذ العلم والمعرفة عنهم ، وقد أقام بحماة ، واتصف بالزهد ، والعبادة ، وبرع في الحديث ، وكان هو نفسه قد سعى في طلب العلم ، فارتحل إلى بغداد ، ودمشق ، وأخيراً حلب إذ وافته منيته بها سنة ٦٨٧هـ /١٢٨٨م.(٣)

ومن علماء حماة البارعين في الفقه والأصول الشيخ جمال الدين يوسف بن محمد بن مظفر بن حماد – وقد ينسب إلى جده فيقال : يوسف بن حماد – مولده ووفاته بحماة (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨م – ٧٣٦هـ / ١٢٣٥م) وتصدى للإفتاء والخطابة في بلده ، وكان

= الكبرى ، ج ٨ ، ص ٤٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ١٨ ؛ ابن قاضي شهبة : طبقات اللغويين ، ص ١٠٢ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٤ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ .

(١) ابن قاضي شهبة : طبقات اللغويين ، ص ١٠٢ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١٣٧ ب ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

شافعي المذهب ، وكان ذا إلمام بالنحو ، وله نظم جيد(١).

أما شيخ " البيانية "(٢) بحماة (برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن سعد بن جماعة الكناني الحموي ، ٥٩٦ هـ / ١١٩٩م – ٦٧٥ هـ/١٢٦٩م) فكان من مشاهير علماء زمانه ، ومن الذين تجاوز تأثيرهم العلمي مملكة حماة إلى غيرها من البلاد . وكان متبحراً في الفقه والحديث(٣) ، زاهداً ،متصوفاً. وقد توفي بالقدس أثناء زيارته لها(٤).

ومن فقهاء الشافعية المشهورين بحماة الشيخ المجاهد أبو علي الحسين بن عبدالله بن رواحة الأنصاري(٥)، وإلى جانب الفقه كان ابن رواحة يتعاطى الشعر والأدب(٦) . ولد ابن رواحة في حماة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وأسره الصليبيون مدة ثم أطلق سراحه ، واشترك في معارك صلاح الدين مع الصليبيين حول عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ،

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٢) البيانية : من طرق الصوفية ، المعروفة ببلاد الشام ، وتنسب إلى الشيخ أبي البيان الحوراني الدمشقي ، وكان المذكور شيخاً جليلاً ، عالماً ، لغوياً ، زاهداً ، ملازماً للعبادة والعلم ، وله أصحاب ومريدون ، وتوفي بدمشق سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦م . ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٤٨ ، حاشية رقم ٤ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج٢ ، ص ١٧٠.

(٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٧٠ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك، ج٢ ، ص ١٧٠ .

(٥) انسان العيون ، لوحة ١١٩ ؛ ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ج ٢ ، ترجمة رقم ٦٤٧؛ ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي ، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم الأدباء ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ج ١٠ ، ص ٤٦ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج١ ، ص ٣٧٦ .

(٦) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٠ ، ص ٤٦ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

فرزقه الله الشهادة(١). وقد نقل كثير من العلماء عنه ، ومن بينهم ابن العديم في كتابه " بغية الطلب"(٢).

وقد تخرج على يدي ابن رواحة – السالف الذكر – عدد من العلماء الذين حملوا بدورهم العلم للأجيال التي جاءت بعدهم ، ومن هؤلاء الشيخ أبي محمد تقي الدين ابن ادريس بن محمد بن مزيد(٣) ، التنوخي الحموي وكان مقيماً بحماة ، وكان مثل شيخه بارعاً في علم الحديث ، وتوفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(٤).

ولم يكن الشيخ أبو سالم بن كمال الدين مظفر بن الثقفي بأقل شأناً ممن سبقه من علماء الفقه بحماة ، بل إنه كان أحد أعيان الفقهاء في ذلك البلد(٥).

ولم تكن العلوم الشرعية بحماة – كما في غيرها من البلدان الاسلامية – حكراً على جنس الرجال وحدهم ، بل شاركهم فيها النساء ، فكان منهن بحماة عالمات فاضلات ، يأتي في مقدمتهن صفية بنت عبد الوهاب بن علي القرشية (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وكانت تحمل اجازات من كبار العلماء الذين عاصرتهم ، وأخذت العلم عنهم ، وتتيح لهم تلك الاجازات تدريس طلاب العلم، وقد تفردت في زمانها(٦).

---

(١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ج ١ ، قسم شعراء الشام ، ص ٢٧٥ ابن المستوفي : تاريخ اربل ، ج ٢ ، ترجمة رقم ٦٤٧ ؛ المنذري : التكملة ، ج ١ ، ص ١٩٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٠ ، ص ٤٦ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٢) انظر ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٢ ، ص ٨٦٧ ؛ ج ٩ ، ص ٤٢٠٤ – ٤٢٠٥ .

(٣) وهو عند ابن حبيب في تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٧٠ " عزيز " .

(٤) ابن حبيب : المصدر السابق ، والجزء والصفحة ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٢٤ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ .

ومنهن أيضاً عائشة بنت سالم الحموية ، زوج الشيخ تقي الدين التنوخي السالف الذكر – كانت تروي الحديث عن ابن رواحة ، توفيت بحماة سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٦، ودفنت بظاهرها(١).

علوم العربية :

ترتبط اللغة العربية – والعلوم المتفرعة عنها – ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الشرعية ، إذ هي المفتاح لفهم مقاصد الشريعة وأحكامها ، لذلك كان من الطبيعي أن يلقى هذا النوع من العلوم اهتماماً كبيراً من لدن العلماء على مختلف ميولهم ، ولكن قلمّا وجد عالم في علوم الشريعة إلاّ ويكون ضليعاً في علوم العربية ، بيد أنّ هناك علماء طغت عندهم علوم العربية على ما عداها من العلوم ، حتى اشتهروا بها . ويدخل في نطاق علوم العربية : اللغة ، والنحو ، والأدب ، والشعر ، وقد ظهر في حماة – في الفترة موضع الدراسة – عدد من أئمة هذا العلم ، وسنلقي فيما يلي الضوء على أشهرهم ، ونتعرف على بعضٍ من انتاجهم في هذا المجال .

اللغة والنحو :

يأتي في مقدمة علماء اللغة الذين استوطنوا حماة أبو عبدالله جمال الدين بن محمد بن عبدالله بن مالك بن عبدالله الطائي الأندلسي ، الذي جاب الآفاق ، وأتقن علوم اللغة " وكان إماماً في العربية ، وأحرز فيها قصب السبق ، ... لم يكن يجارى في هذا المضمار"(٢) وقد تجاوز تأثيره العلمي حماة ، إنْ لم يكن بلاد الشام كلها . وإضافة إلى تبحره في العربية وعلومها ، كان حافظاً للشعر ، ومشاركاً في القراءات والحديث . وتصدى للتدريس في

---

(١) البرزالي : المقتفي لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، ورقة ١٢٥أ .

(٢) ابن طولون : القلائد الجوهرية ، ج ٢ ، ص ٥٣٢ .

مدارس الشام بما فيها مدارس حماة ، وقصده طلاب العلم من كل مكان، وتخرج على يديه ما يقرب من الخمسة عشر عالماً ، كلهم أصبح إماماً في علوم العربية(١) . وتوفي ابن مالك بحماة سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م(٢).

أما أشهر من سكن حماة من علماء العربية فهو بلا شك أبو اليمن الكندي : تاج الدين زيد بن الحسين بن زيد بن الحسن بن زيد بن عصمة بن حمير الكندي(٥٢٠هـ/١١٢٦م – ٦١٣هـ/١٢١٦م)(٣) ، ولد أبو اليمن ببغداد ، وتلقى العلم في مدارسها ، كما رحل إلى همذان ودمشق . وختم القرآن الكريم بقراءاته العشر وهو لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ، وهذا لم يتم لأحد قبله(٤). وأصبح من علماء القراءات ، كما حذق في اللغة والنحو حتى غدا أعلم أهل زمانه بهما(٥) . وإلى جانب ذلك كان عارفاً بالحديث ، ويروي كتب الأدب، ودواوين الشعر(٦) . وتفرد بكثير من مروياته ، كما كان عالي الاسناد

---

(١) ابن مالك (جمال الدين بن محمد بن عبدالله بن مالك الطائي ، ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، تحقيق : عدنان الدوري ، بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ وانظر أيضاً ابن طولون : القلائد الجوهرية ، ج ٢ ، ص ٥٣٢ ، وعنده تاريخ وفاته سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م .

(٣) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠٠٢ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥١ – ٥٧ ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١ ؛ الفيروز آبادي (مجدالدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧هـ/١٤١٥م.) البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، تحقيق : محمد المصري ، دمشق ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص ٨٢ ؛ الجزري (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد، ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م.) غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق : ج . برجسترسر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ م ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٧٠ .

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠٠٢ ؛ الجزري : غاية النهاية ، ص ٢٩٧.

(٥) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠١٢ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٤٠١١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٨٥ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٩٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١–١٧٢.

في رواية الحديث والقراءات(١) . وتمتع بذاكرة قوية حتى قيل انه يحفظ كتاب سيبويه في النحو(٢) .

وذاع صيت أبي اليمن ، وانتشر ذكره في الآفاق ، وشد إليه طلاب العلم رحالهم ، ينهلون من علمه الغزير ، فأخذوا عنه القراءات والحديث والأشعار والنحو ، والأدب(٣).

وكان من تلامذته المعظم عيسى – صاحب دمشق – حيث كان ينزل إليه من قلعة دمشق ماشياً(٤) . ومن تلامذته المشهورين علم الدين السخاوي(٥) الذي صار شيخ مشايخ القراء بدمشق(٦). ومن تلامذته أيضاً : شيخ الشيوخ بحماة الشيخ عبد العزيز الأنصاري(٧) . كما كان ابن العديم تلميذاً له ، وهو أحد أهم مصادر كتابه النفيس " بغية الطلب في تاريخ حلب"(٨).

وقد جاء أبو اليمن الكندي من بغداد إلى دمشق ، واتصل بنائبها في ذلك الوقت عز الدين فروخشاه ، وبعد وفاة الأخير انتقل أبو اليمن إلى حماة

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥١ ؛ الجزري : غاية النهاية ، ص ٩٨.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١٢ ؛ الفيروز آبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ٨٣.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، والصفحة ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥١ ؛ الجزري : غاية النهاية ، ص ٢٩٨ .

(٥) علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (٥٥٨هـ/١١٦٣م – ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أصله من مصر سكن دمشق وتوفي بها ، عالم بالقراءات والأصول ، وله عدة مصنفات ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٦) الجزري : غاية النهاية ، ص ٢٩٨ ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام، ص ٩٦ .

(٧) الجزري : غاية النهاية ، ص ٢٩٨ .

(٨) انظر ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠٠٢ – ٤٠١٠ .

حيث اتصل بملكها المظفر الأول تقي الدين عمر ، الذي رحب به ، ووفر له كل ما يحتاجه(١). ويبدو أن أبا اليمن قد غادر حماة بعد وفاة المظفر الأول وانتقل إلى دمشق حيث توفي بها(٢) " وانقطع بموته اسناد عظيم"(٣).

ولأبي اليمن أشعار كثيرة(٤) ، كما أن له حواشي على ديوان أبي الطيب المتنبي(٥) . ومؤلفات أخرى(٦) . وكانت له خزانة كتب بالجامع الأموي. احتوت على أكثر من سبعمائة مجلد ، في مختلف فنون المعرفة(٧)، كما أن له نثراً مليحاً ، زاخراً بالبلاغة ، وكان يكتب خطاً حسناً(٨).

ووصف ابن العديم شيخه أبا اليمن الكندي بأنه تام الخَلق والخُلق، جميل الصورة ، أشبه بالوزراء منه بالعلماء ، لجلالة قدره ، واهتمام الملوك والأعيان ، وسائر الناس به ، وإجلالهم إياه(٩).

---

(١) انظر ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩، ص ٤٠٠٥ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١١، ص ١٧١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥١ ؛ الفيروز آبادي : البلغة ، ص ٨٣.

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٨٥ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٥٩٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧٢ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥٢ .

(٤) انظر ابن العديم: بغية الطلب، ج ٩، ص ٤٠٠٦ وما بعدها ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٦، ق ١٥، ص ٥٤ – ٥٧. وقيل إن له ديوان شعر . انظر الزركلي : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٥٨.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥٢ ؛ الفيروز آبادي : البلغة ، ص ٨٣-٨٤، الزركلي : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

(٦) منها : حواشي على ديوان خطب ابن نباته ، والمسألة الواردة من مسائل الجامع الكبير لمحمد بن الحسن في الفرق بين طلقتك إن دخلت الدار وبين إن دخلت الدار طلقتك ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥٢ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

(٨) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٩) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٠١٢ .

ومن علماء حماة المشهورين في القراءات ، والنحو أيضاً ، الشيخ الضرير سعدالله(١) بن غنائم بن علي بن قانت(٢) الحموي، وكان عارفاً بالقراءات والنحو ، وله عدة مؤلفات(٣) ، وتصدى للتدريس بمدارس حماة ، وكان من تلامذته ابن العديم(٤). قيل أنه توفي ببعلبك(٥) ، واختلف في تاريخ وفاته(٦).

ومن العلماء الذين حملوا راية العلم في زمانهم ، وتصدوا للتدريس – خاصة تدريس النحو – بمدارس حماة الشيخ عفيف الدين اسحاق بن خليل بن غازي الحموي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وتخرجت عليه أجيال من طلاب العلم ، وإلى جانب النحو ، أتقن الشيخ عفيف الدين القراءات ، والفقه ، كما تولى الخطابة بجامع قلعة حماة ، وكان يقرض الشعر ، وله فيه محاولات جيدة((٧) .

وما دمنا في نطاق اللغة والنحو ، فيجب ألاّ نغفل دور الشيخ جمال الدين اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن سعدالله الحموي

---

(١) عند ابن حجر في الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ "سعد الدين".

(٢) وهو في المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة "ثابت". وانظر أيضاً : السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ ، ص ٥٨٠ .

(٣) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٢٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، والجزء والصفحة ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦، ق ١٥، ص ٢٥٣ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٨٠ .

(٥) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٢٣٧ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٨٠ .

(٦) قيل توفي سنة ٦١٤هـ ، وقيل ٦١٠ هـ ، وقيل ٧١٠هـ ، والأول أصح ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤٢٣٧ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٨٠ ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١٥ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٧) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ٤١٢ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ٢٥٨.

(٦٤٢هـ/١٢٤٤م – ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) الذي كان من أبرز علماء العربية في زمانه(١) . وكان يتولى تدريس هذا العلم في مدارس حماة(٢) . فانتفع الناس بعلمه ، ليس في النحو وحسب بل حتى علم القراءات الذي كان ملماً به وله فيه كتاب عنوانه " عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة لفظة التجويد"(٣).

الشعر والأدب والخطابة :

زخرت حماة – في الفترة موضع الدراسة – بعدد كبير من الشعراء ، والأدباء ، والخطباء . حاز بعضهم قصب السبق في هذا المجال . واتصف الشعر خلال هذه الحقبة بالرقة والسهولة ، وتناول الشعراء كافة أنواع الشعر، كما تطرقوا في قصائدهم إلى شتى مجالات الحياة(٤). فدعوا إلى الجهاد ، وحضوا عليه ، وخلدوا بقصائدهم معارك الجهاد ، والقادة الذين أداروا تلك المعارك(٥). وإلى جانب ذلك تغنى الشعراء بالحركة العلمية وتفاعلوا معها ، وأثنوا على منشيء المدارس ، والواقفين عليها(٦). كما نظموا في المديح ، والزهد ، والوصف ، والغزل ، وغيرها.

ومن أعلام الشعر في تلك الفترة ، والذين استوطنوا حماة

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

(٢) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٦٩١ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٥٤.

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١١٧٢ ، ١٧٠١ ، ١٩٨٤ ؛ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين العرب ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٢٨ .

(٥) محمد علي الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار الاعتصام ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص ٢١٧–٢١٨ .

(٦) حسن شميساني : مدارس دمشق ، ص ٢٨ .

الصاحب(١) شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الأوسي(٢) . المولود في دمشق سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. وكان والده المعروف بابن الرفاء ، متولياً لقضاء حماة زمن المنصور الأول محمد(٣) . وقد حرص والده على تربيته وتعليمه ، فحفظ القرآن الكريم في صغره ، وأكب على حلقات العلم(٤) . وارتحل به والده إلى بغداد حيث أخذ عن علمائها ، خاصة في المدرسة النظامية(٥) ، كما أخذ شرف الدين الأدب عن أبي اليمن الكندي ، وكان أحد تلاميذه كما أسلفنا(٦).

وبعد أن أتقن شرف الدين الأنصاري العلوم عن شيوخه ، تصدى للتدريس ، وعقدت له حلقات علمية ، في حماة ، وحلب ، ودمشق ، وبعلبك ، وغيرها ، وتوافد عليه طلاب العلم ، وكان معظم دروسه في الحديث ، وممن

---

(١) الصاحب لقب يطلق على من يلي الوزارة من المدنيين في عصري الأيوبيين والمماليك؛ حسن باشا : الألقاب الاسلامية في التاريخ والآثار . القاهرة ، ١٩٥٧، ص ٣٦٧ .

(٢) ابن تغري بردى ، المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٤ أ - ٦٦ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣٠٠ ؛ ابن تغري بردى؛ النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢١٤ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ، تحقيق : عمر موسى باشا ، دمشق ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ص ١٤؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ، الشام ، ص ٢٨٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ ديوان الصاحب شرف الدين ، ص ١٥ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٤ ب ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٢٨٠ .

(٥) شوقي ضيف : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٦) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٤ أ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ وانظر ما سبق ص ٣٩٢ من هذا الفصل .

سمع منه الحافظ الدمياطي(١) ، واليونيني(٢) ، وقد أصبح الأول محدث مصر، والثاني محدث دمشق(٣) .

وقد عاصر شرف الدين المنصور الأول ومدحه ، كما مدح زوجته مَلِكَةْ خاتون ، ويبدو أنه كان في حماة زمن الناصر قلج أرسلان(٤) . لكن شهرته لم تظهر إلاّ زمن المظفر الثاني وابنه المنصور . ففي عهد المظفر الثاني أصبح شرف الدين من المقربين إليه ، بل إنه اتخذه مستشاراً له ووزيراً وشاعراً(٥) ، حتى كان أحد الأوصياء الذين أداروا شؤون الدولة في فترة مرض المظفر الثاني ، وفي السنوات الأولى لحكم المنصور الثاني(٦).

وزادت مكانة شرف الدين عند المنصور الثاني حتى أصبح يعرف في

---

(١) عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (٦١٣هـ/١٢١٧م - ٧٠٥هـ/١٣٠٦م) حافظ للحديث، من أكابر الشافعية ، له عدة مؤلفات . توفي فجاة بالقاهرة . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٢ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله اليونيني (٥٧٢ هـ/١١٧٦ - ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م) من حفاظ الحديث ، ولد في يونين ، وتوفي في بعلبك ، وهو والد المؤرخ المعروف موسى اليونيني ، صاحب كتاب " نيل مرآة الزمان " . الزركلي : الأعلام . ج ٥ ، ص ٣٢٢.

(٣) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٤ ب - ٦٥ أ؛ شوقي ضيف: عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٢٨١ .

(٤) شوقي ضيف : المرجع السابق ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٥) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٥ أ ؛ اليونيني : نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٣٠٠ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٦٠ ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات الشام ، ص ٢٨٠ .

(٦) انظر ما سبق ص ٢٣١ من الفصل الرابع من هذا البحث .

حماة بلقب " شيخ الشيوخ"(١) . وفي مرضه الذي توفي فيه كان المنصور الثاني يعوده كل يوم ، وأحياناً يزوره ليلاً(٢). ولم يطل مرض شرف الدين الذي أودى بحياته في رمضان سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م . وتم دفنه بتربة كان قد أعدها لنفسه(٣). وعندما وصل خبر وفاته إلى دمشق أقيمت عليه صلاة الميت الغائب(٤).

ورغم تضلع شرف الدين الأنصاري في علم الحديث ، وتخرج بعض الأئمة على يديه ، إلاّ أنه معدود في شعراء العصر الأيوبي ، وهو مصنف من شعراء الزهد والمدائح النبوية(٥) ، وله ديوان شعر مطبوع(٦).

ويمتاز شعره بجمال الموسيقى ، وعذوبة اللفظ ، وحسن الجرس . وقد أجاد كثيراً في " شعر الدوري "(٧) وله فيه قصائد

---

(١) شيخ الشيوخ : لقب كان يطلق على متولي الاشراف على رجال الطرق الصوفية ، وهو يشير إلى وظيفة ، ولكن في عصري الأيوبيين والمماليك أصبح لقباً فخرياً . ومشيخة الشيوخ معدودة في الوظائف الدينية ، ومتوليها لا مجلس له بحضرة السلطان . القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٨-٣٩ ؛ حسن باشا : الألقاب الاسلامية ، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٢١٢ ب .

(٣) المصدر السابق ، والجزء والورقة ؛ ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٦٦أ ؛ تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧٩ أ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٣ .

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢٣١ .

(٥) شوقي ضيف : عصر الدول والامارات الشام ، ص ٢٨٠ .

(٦) حققه ونشره بدمشق سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م ؛ د. عمر موسى باشا .

(٧) الشعر الدوري يتكون من شطرين متقابلين وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، وابتدعه الشعراء منذ العصر العباسي الأول ، وأخذ يتطور ، وظهرت له أنماط مختلفة . ولكن يغلب عليه أن يكون كل دور من بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر. شوقي ضيف: عصر الدول والامارات الشام ، ص ١٢٨- ١٢٩ .

متميزة(١).

ومن شعره يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) :

يا خاتم الرسل الكرام وفارج الـ ... ـكرب العظام بفعله والمقْولِ
ها قد وردنا من ضريحك مورداً ... نُشفي به من كل داءٍ معضل
أدعوك للجلّي وتلك شفاعةٌ ... لم ترض لي أني أخاف وأنت لي
ولقد أتيتك مادحاً لتجيرني ... في الحشر كاسات الرحيق السلسل

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم في حماة ، أبو المكارم شهاب الدين محمد بن يوسف الشيباني التلعفري ، الذي ولد في الموصل سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م ، وكان المذكور شاعراً مشهوراً(٣) مدح ملوك زمانه ونال جوائزهم(٤) ، وقد تنقل التلعفري ، بين الجزيرة ، وحلب ، وحماة ، حيث اتصل بملكها المظفر الثاني(٥) . ويبدو أن سمعة المظفر الثاني الطيبة ، واحترامه للعلماء والأدباء ، وإكرامه لهم ، هي التي دفعت التلعفري إلى اختيار حماة لتكون موطناً له . وبقي التلعفري في حماة حتى غزا المغول بلاد الشام، فجفل مع من جفل إلى مصر ، لكنه عاد إليها ثانية صحبة ملكها

---

(١) شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ١٢٩.

(٢) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ، ص ٨٧ ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٢٨١ .

(٣) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢، ورقة ١٤٦ب ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، نسخة مصورة على ميكروفلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، برقم ٤٧٥، عن نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ١٢٨١٠ ح ، ج ٨ ، ورقة ٣٤٣ أ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ٥ ، ص ٢٥٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ .

(٤) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ١٤٦ ب .

(٥) المصدر السابق ، والجزء والورقة ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٨ ، ورقة ٣٤٣أ- ٣٤٤أ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

المنصور الثاني بعد دحر المغول في عين جالوت(١) ، واستقر بها حتى وفاته سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م(٢).

وعرف عن التلعفري جزالة الشعر وغزارته ، وله ديوان كبير ضخم(٣) . ضم بين دفتيه قصائد جزلة ، تضمنت معاني غاية في الرقة والروعة(٤) . وكان التلعفري أيضاً بارعاً في النثر ، مع قوة في الحضور ، وسرعة في البديهة(٥).

ومن شعره قوله(٦):

أيطرق في الدجى منكم خيال   وطرفي ساهر ؟ هذا محال
سقت أيامنا بأراك حزوى   وهاتيك الربى سحب ثقال

وقيل أن آخر ما نظم من الشعر قوله(٧):

إذا ما بات من ترب فراشي   وبت مجاور الرب الرحيم
فهنوني أُصيحابي وقولوا   لك البشرى قدِمت على كريم

ومن الشعراء الذين وفدوا إلى حماة محمد بن يعقوب بن علي الاسعردي ، سبط ابن تميم المعروف بمجير الدين بن تميم . وكان المذكور

---

(١) ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ١٤٧ .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٨ ، ورقة ٢٤٣ أ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٣) الديوان مطبوع .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٨ ، ورقة ٢٤٣ أ ؛ ابن شداد : تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ورقة ١٤٧ أ.

(٥) المصدر السابق ، والجزء ، والورقة .

(٦) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٦٢ – ٧١ .

(٧) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ٥ ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

جندياً محتشماً ، كريم الخلق ، حتى غلب عليه لقب الأمير(١) ، وكان من المقربين من المنصور الثاني صاحب حماة(٢) .

وبرع ابن تميم في نظم الشعر ، وله في ذلك ديوان(٣) . وقد أجاد في استخدام التضمين في شعره ، وفاق في ذلك معاصريه حتى قيل عنه " هو في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين آية ، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف غاية ، لأنه يأخذ المعنى ، ويحيل تركيبه ، وينقله بألفاظه إلى معنى ثاني ، حتى كأن النظم الأول ، أراد به المعنى الثاني ، وقد أكثر من ذلك "(٤). ومن شعره في هذا المعنى قوله :

أطـــالع كـــل ديـــوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيـري

اضمن كل بيت نصف بيت فشعري نصفه من شعر غيري

وكمـا بـرع ابن تميم في استخدام التضمين ، فقد انفرد شاعر حموي آخر باجادة نوع من أنواع الشعر ، إنّه الزجل(٥) . والذي برع فيه هو

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٨ ، ورقة ٣٣٩ ب .

(٢) المصدر السابق ، والجزء ، والورقة ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٠٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٨٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٥ .

(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٤ ، ص ٥٥ ؛ وانظر أيضاً : ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج ٨ ، ورقة ٣٣٩ ب ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ص ٣٦٧.

(٥) الزجل نوع من الفنون الشعرية العامية ، نشأ في الاندلس عند شاعر يدعى ابن قزمان وأصحابه في القرن الخامس الهجري ، ثم شاع في البلاد الأخرى . شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٢٩١ .

علي بن مقاتل بن عبدالخالق الحموي (ولد بحماة سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)(١). وكان أشهر من يتعاطى هذا الشعر في زمانه ، حتى نسب إليه وصار يعرف بابن مقاتل الزجال . وقد جمعت أزجاله في ديوان موزع على مجلدين(٢).

ومن أصحاب المؤلفات في مجال الشعر والأدب ، أبو الحسن علي بن محمد بن الرضي الموسوي الحسيني ، المعروف بابن دفتر خوان (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م) الحموي المولد والوفاة . ومن شعره قوله(٣):

إذا لمت قلبي قال عيناك أبصرت   وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب
فعيني وقلبي قد تشاركن في دمي   فيا رب كن عويني على العين والقلب

ومن أعلام الشعر الحموي ، وأصحاب الحظوة عند ملوك حماة ، أبوالمعالي أسعد بن يحيى السنجاري (٥٢٣هـ/ ١١٢٦م -٦٢٤هـ/١٢٢٧م)(٤)، وكان فقيهاً ، شافعي المذهب ، وتكلّم في الخلاف ، إلا أنه غلب عليه الشعر ، واشتهر به ، ومدح الملوك والأعيان ، ونال جوائزهم(٥).

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ؛ وانظر نماذج من شعره في شوقي ضيف: عصر الدول والامارات بالشام ، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه الجزئ والصفحة .

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ، ج٤ ، ص ١٥٨٤ ؛ المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ١٣٩؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٨ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٩ ، ص ٣٢ - ٣٤ . وانظر أيضاً مايلي ص ٤٣٣ من هذا الفصل .

(٥) الصفدي : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢ .

ومن شعره قوله(١) :

أصبحت سلطان القلـــوب ملاحة وجمال وجهك في البرية عسكر

ويعد ابن البارع (عبد الحق بن علي بن عمرو ، ٦٥١هـ/١٢٥٣م – ٧١١هـ/١٣١١م) من مشاهير الشعراء الذين استوطنوا حماة ، لكنه انتقل بعد ذلك إلى القاهرة ، حيث توفي بها . وقد برع في الشعر ، وأكثر منه ، وسارت بنظمه الركبان ، وتناقلته الألسن .

ومن شعره ، قوله(٢) :

ومالي لا أعطي الشباب نصيبه وغصناه يهتزان في عوده الرطب

رأيت الليالي ينتهبن شبيبـــــتي فسارعت باللذات في ذلك النهب

ولم يقتصر نظم الشعر في حماة على الرجال ، بل برع فيه أيضاً بعض النساء ، منهن : تقية بنت غيث بن علي الأرمانزي ، وكانت شاعرة محسنة ، ذاع شعرها في الآفاق وانتشر ، ومدحت مشاهير زمانها ، وعلى رأسهم ، المظفر الأول تقي الدين عمر صاحب حماة(٣).

ونختتم حديثنا في هذه الفقرة عن شاعر من شعراء المنصور الثاني صاحب حماة . إنه شهاب الدين أحمد الحلبي المعروف باللوعة (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) وكان نديماً للمنصور الثاني ؛ وقد قال حين غاب بعض أصحاب المنصور الثاني – وهي قصيدة كان الحمويون يرددونها ، ويتغنون بها –(٤).

---

(١) المختار من تاريخ ابن الجزري ، ص ١٢٩ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ، ص ١٣٠ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ – ٤٢٦.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٤) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٩٧ ب .

ياغائباً لا فرقَ بين مغيبه وجوى المنون

أبكي عليكم بأدمع ممزوجة بدم الجنون

الخطابـــة :

وتعد الخطابة ضمن النواحي الأدبية، رغم اتصالها الشديد بالناحية الدينية ، إذ المقصود بالخطابة هنا ، تلك التي كانت تلقى على منابر المساجد، في أيام الجمع والأعياد ، وبعض المناسبات الأخرى ، فمن المعروف أن الخطيب يريد إيصال موعظة دينية – في الغالب – إلى مستمعيه ، ولكنّ من الملزم عليه أن يصوغ تلك الموعظة في قالب أدبي يجتذب المستمع إليه ، لذلك كان معظم الخطباء يتمتعون بقدرة كبيرة على التعبير . وقد اعتلى منابر حماة – خلال الحقبة موضع الدراسة – عدد من الخطباء المشهورين ، والمشهود لهم بالكفاءة ، والذين تجاوزت شهرتهم بلدتهم حماة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانوا من أعلام الخطابة في زمانهم . ومن هؤلاء : أبو البركات عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن عبد القاهر بن موهوب الحموي (٥٨٠هـ/١١٨٤م – ٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، كان خطيب الجامع الأعلى(١) ، اشتهر بالفضل ، والعلم ، وحسن الخطابة ، وكان مقرباً من المظفر الثاني ، وابنه المنصور(٢).

ومن خطباء حماة المشار إليهم بالبنان ، الشيخ ابن حبيش ، الذي عرف بلقب " خطيب حماة " ، وهو : محمد بن محمد بن محمد بن عبدالمنعم بن حبيش ، (ت ٦٩٩هـ/١٢٩٩م) . وقد علا نجمه ، وذاعت شهرته ، في مجال إلقاء الخطب ، حتى أن المسؤولين في دمشق استدعوه إليها ، وقلّدوه خطابه

---

(١) يقع الجامع الأعلى في حي المدينة بوسط حماة . وبُني منذ الفتح الاسلامي ، فائز الحمصي : روائع من العمارة العربية الاسلامية في سورية ، ص ٢٨ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٢١٢ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٢٩؛ بيبرس الدودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٩١ .

وإمامة أشهر جامع بها (الجامع الأموي) وذلك سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م . وقضى في منصبه ذاك حوالي ست سنوات ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ، بطلب من صاحبها المظفر الثالث ، الذي أسند إليه قضاءها بعد وفاة قاضيها ابن واصل . لكن خطيب حماة لم يستقر في قضائها أكثر من سنتين ، إذ خرج منها جافلاً إلى دمشق بعد ما دخلت جحافل المغول الشام مجدداً سنة ٦٩٩هـ /١٢٩٩م ، وما لبث أن توفي – رحمه الله – في دمشق بعيد وصوله إليها بمدة قصيرة(١).

وقبل أن نختم حديثنا عن الناحية الأدبية ، نودّ أن نشير إلى واحد من أبرز المشتغلين بفن الخط ، هو موسى بن بصيص ، المولود بحماة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م . وكان المذكور بارعاً في الخط ، بل شيخاً للكتابة في زمانه ، وكان يكتب الخطوط كلها ، واخترع خطاً جديداً سماه المعجز(٢).

الفلسفة :

وهو العلم الذي يبحث فيما وراء الطبيعة . وقد وجد هذا النوع من العلوم عناية واهتماماً من حكام الدولة الفاطمية ، لكنه مُنِيَ بانتكاسة كبيرة زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، لمقته لهذا النوع من العلوم ، لكنه عاد ليزدهر من جديد ، في ظل خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين . وجاء على رأس الأيوبيين الذين تحمسوا له ، وأولوه الرعاية والاهتمام ، المنصور الأول صاحب حماة(٣) .

---

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، لوحة ١٢٨ ب ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٤٩ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٢) أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٩٢ .

(٣) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٣٣ .

وكان من الطبيعي أن تجد الفلسفة وعلماؤها بحماة أرضاً خصبة ، بفضل رعاية ملكها المنصور الأول لهم ،وهذا ما دفع الآمدي إلى اختيار حماة مكاناً لإقامته . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : من هو الآمدي ؟ ، وما أهميته ؟ وإجابة على ذلك نقول : الآمدي هو سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي ، ولد بآمد في منتصف القرن السادس الهجري تقريباً (يوافق منتصف القرن الثاني عشر الميلادي)(١). انتقل إلى مصر . ولمع نجمه بها ، وشد طلاب العلم رحالهم إليه ، ولذلك حسده بعض مدّعي العلم بمصر ، واتهموه بفساد العقيدة، وما زالوا به حتى أجبروه على الرحيل إلى الشام(٢). وأثناء اجتيازه منطقة حماة ،التقاه صاحبها المنصور الأول ، وأحسن إليه ، واستماله إلى بلده ، وبنى له بها مدرسة ، أقام بها مدة(٣). وكان المنصور يجزل عطاءه ، ويواظب على حضور دروسه بنفسه(٤).

وبسبب شهرة الآمدي ، وعلو مكانته العلمية ، استدرجه المعظم عيسى صاحب دمشق ، لينتقل من حماة إلى دمشق ، وتحايل عليه في ذلك وصادف ذلك أيضاً هوىً في نفس الآمدي لدمشق، ورغبةٌ في سكناها ، وأخذ يتطلّع إلى الانتقال إليها ، لكنه كان على يقين أن صاحب حماة لن يمكنه من

---

(١) انسان العيون ، لوحة ٢٧٨ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٢) ابن قنفذ: الوفيات ، ص ٣١٢ – ٣١٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ السبكي طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ ؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٣) انسان العيون، لوحة ٢٨٠ –٢٨٨؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٩١ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

ذلك ، خاصةً وأنه سبق أن استحلفه على ألاّ يترك حماة إلاّ بإذنه(١) . فلم يجد الآمدي مخرجاً له ، إلاّ أن يتسلل خفية من حماة ، فغادرها ليلاً ، ووصل دمشق ، واستقر بها حتى وفاته سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣م(٢).

والحقيقة أنّ طريقة خروج الآمدي من حماة ، واستحلاف صاحبها له بعدم الخروج بغير إذنه ، يبيّن مدى تعلق المنصور الأول بالآمدي، وبما كان يتقنه من علوم . وهذا ما دفعه إلى الإهتمام به ، وبناء مدرسة له .

وما من شك في أنّ الآمدي كان رأس الفلاسفة في عصره ، وأشهرهم على الإطلاق ، ليس في مصر والشام وحسب ، بل في كافة أنحاء العالم الاسلامي آنذاك . ومن هنا تأتي أهميته ، فكون عالم من هذا الطراز، يسكن حماة ، فإنّ هذا يجعلها مقصداً لطلاب العلم ، ومريديه ، ويبرزها كمركز من مراكز الثقافة والمعرفة .

وعلى شاكلة كثير من علماء المسلمين في عصره ، كان الآمدي إماماً في علوم كثيرة منها : الكلام ، والمنطق ، والعلوم الحكمية ، كما كان متضلعاً في أصول الفقه(٣) . وله تصانيف بديعة في

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٧٨ .

(٢) انسان العيون ، لوحة ٢٨٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ؛ وهناك من يقول أن الآمدي لم يخرج من حماة إلاّ بعد وفاة صاحبها المنصور الأول . انظر : ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة ت ٦٦٨هـ-١٢٧٠م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا، بيروت ١٩٦٥م، ص ٦٥٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي :مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢ ، ص ٦٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٥٠ ؛ ==

كافة هذه العلوم(١) . يأتي في مقدمتها كتاب : "الإحكام في أصول الأحكام" الذي ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية(٢).

وما دمنا في نطاق علم الفلسفة ، فيجب ألاّ نغفل دور عالم آخر في هذا العلم ، وكان أيضاً من سكان حماة ، وهو أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الموسوي الأندلسي ، وكان المذكور قد طاف البلاد ، ورحل من مكان إلى آخر ، إلى أن ألقى عصا الترحال في حماة(٣)، ولا بد أنّ تلاميذه كانوا يختلفون إليه بها ، وهنا لا بد أن نشير إلى سبب اختياره حماة ليقيم بها ، دوناً عن كل البلدان التي تنقل بينها . إذ لولا توفر الظروف المناسبة له في حماة لما أقام بها ، لكنّ الرعاية والاهتمام اللتان أحيط بهما فيها جعلتاه يطمئن إلى البقاء فيها .

= النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ٢٩٨ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(١) ومن كتبه : دقائق الحقائق ، رموز الحكمة ، لباب الألباب ، أبكار الأفكار في الأصول غاية المرام في علم الكلام ، كشف التمويهات في شرح التنبيهات ، ألفه للمنصور الأول صاحب حماة ، غاية الأمل في علم الجدل ، شرح كتاب شهاب الدين المراغي المعروف بالشريف المراغي ، في الجدل ، كتاب منتهى السالك في رتب المسالك ، المبين في معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، دليل متحد الائتلاف وجاد في جميع مسائل الخلاف ، الترجيحات في الخلاف ، التعليقة الصغيرة ، التعليقة الكبيرة ، منتهى السول في علم الأصول . وغيرها. انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٥١ . الزركلي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ٣٣٢ .

(٢) شوقي ضيف : عصر الدول والامارات بالشام ، ص ١١٠ . والكتاب مطبوع في أربعة أجزاء . الزركلي : الأعلام : ج ٤ ، ص ٣٣٢ .

(٣) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج١ ، ورقة ٢٤١ أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣، ص ٢٣٢ .

وكان التجيبي ضليعاً في علوم الكلام ، والمنطق ، والمناظرة(١) وله مصنفات في ذلك ، وتفاسير قيل عنها إنها عجيبة(٢) . ومما تناوله التجيبي بالدراسة علم الحروف والأعداد ، وزعم أنّه توصل إلى معرفة وقت خروج الدجال ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، ووقت خروج يأجوج ومأجوج ، وله مصنفات في أسماء الله الحسنى(٣) .

وبسبب تبحره في تلك العلوم ، وغرابة تصانيفه فيها ، وما يزعم أنه توصل إليه من الغيبيات ، فقد اختلف معاصروه من العلماء ، في الحكم عليه، فمنهم من يجله ويقدره ، ويعجبه انتاجه ، ومنهم من يتهمه في عقيدته ، ويقدح فيها ، لكنه كان يتقبل النقد الموجه إليه بصدر رحب ، يساعده في ذلك حلمه الذي يضرب به المثل ، وإلى جانب اتصافه بالحلم ، اتصف التجيبي بحلاوة العبارة ، والفصاحة ، والبيان(٣).

وما زلنا في بيان مظاهر الازدهار العلمي في حماة ، ننتقل بين تلك العلوم المختلفة ، نقتطف من ثمار بساتينها ما يدلل على مدى نمو الحركة الثقافية والعلمية وتطورها .

---

(١) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، ورقة ٢٤١ أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٥ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ١ ، ورقة ٢٤١ أ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن تغري بردى :المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣١٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣١٥ – ٣١٦ .

الرياضيات والفلك :

والرياضيات علم معروف في تلك الفترة ، ويضم الهندسة، والحساب، والجبر ، وارتبط بذلك علم الفلك ، الذي يبحث في النجوم وما يتعلق بها . وقلما وجد عالم بالرياضيات إلاّ وكان خبيراً بالفلك(١).

ومن مشاهير علماء الرياضيات والفلك بحماة – خلال تلك الفترة – الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني الأسفوني، الشهير بتعاسيف . ولد علم الدين بأسفون – إحدى قرى صعيد مصر – سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . تلقى علومه الأولى بمصر ، ورحل إلى الشام ، والجزيرة ، والعراق ، وخدم الأشرف بن العادل ، عندما كان ملكاً على بلاد الجزيرة ، وبنى له عمائر ضخمة ، جاءت في غاية الحسن(٢) . وبعد وفاة الأشرف سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، انتقل تعاسيف إلى حماة ، فاستقبله صاحبها المظفر الثاني ، وأحسن إليه ، وأسند إليه مهمة التدريس بالمدرسة النورية ، وأشرف تعاسيف على بناء وترميم بعض أجزاء مدينة حماة ، فأقام أبراجاً على سورها ، أضحت من معالمها المميزة ، وأنشأ طاحوناً في الجانب السفلي من المدينة ، على ضفة العاصي ، وجعل في أعلى الطاحون برجاً للمراقبة ، وصنع أيضاً آلات رياضية وفلكية . كما عمل كرة من الخشب المدهون ، رسم عليها جميع الكواكب المعروفة في ذلك الوقت ، وكان المؤرخ ابن واصل يساعده في عملها، وكان المظفر الثاني يحضر بنفسه ليراقب ما يقومان به من عمل ، ويتناقش معهما في تفاصيل دقيقة فيما يفعلانه ، ويبدو أن علم الدين ترك حماة بعد

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٤٤٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٤٥ – ١٤٦ ؛ علي الغامدي: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٤٥ .

وفاة ملكها المظفر الثاني ، وانتقل إلى دمشق حيث توفي بها سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م(١).

ويجب أن نشير هنا إلى أن ابن واصل كان إلى جانب علمه الغزير مهندساً بارعاً ، واشترك في تخطيط وبناء بعض المباني والأسوار بحماة(٢).

الناحية الصحية، وعلم الطب :

شهدت حماة خلال هذه الفترة تطوراً ضخماً في هذه الناحية ، متأثرة في ذلك ببقية المناطق المجاورة لها ، إذ كانت البيمارستانات(٣)، منتشرة في معظم المدن . ولم يقتصر البيمارستان – في تلك الفترة – على توفير العلاج للمرضى ، بل كان في الوقت نفسه مدرسةً لتعليم الطب ، يتخرج منه أطباء ، وجراحون وكحالون(٤) . وكان البيمارستان يتكون من قسمين منفصلين .

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ١٩٦أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ؛ الأدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي ، ت ٧٤٨هـ/١١٤٧م) الطالع السعيد الجامع اسماء نجباء الصعيد ، تحقيق : سعد محمد حسن ، القاهرة ، ص ٤٦٩ – ٤٧١ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٤٠٦ .

(٢) انظر ما سبق ص ٣٧٢ من هذا الفصل .

(٣) بيمارستان : كلمة فارسية من لفظين : " بيمار " معناها مريض، "ستان" معناه مكان . أو دار ، فمعناها إذاً : دار المرضى . أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام . بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٤ ؛ أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٥٩ ، حاشية رقم ١٩٣ ؛ علي القيم : البيمارستان فخر العمارة الاسلامية ، مقالة منشورة في جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٥١٥٥، في ١٤١٣/٧/١٥هـ الموافق ١٩٩٣/١/٨م.

(٤) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص ٤ ؛ أحمد فائز الحمصي: روائع من العمارة العربية الاسلامية في سورية ، ص ٨٣ .

أحدهما خاص بالمرضى الذكور ، والآخر للإناث . وكلا القسمين مجهز بما يحتاجه من آلات ، وعدة ، وخدم من الجنسين . ويضم كل قسم قاعات متعددة ، خصصت كل قاعة لنوع معين من الأمراض(١).

وكان بحماة بيمارستان واحد كبير ، بُني في عهد نور الدين زنكي . وعرف بالنوري ، واستمر هذا البيمارستان في القيام بوظيفته العلاجية ، والتعليمية ، في عهد الدولة الأيوبية ، وقد اهتم به ملوك الأسرة التقوية ، الحاكمة بحماة ، وأوقفوا عليه أوقافاً كبيرة ، ليواصل أداء وظيفته ، كما أعادوا تنظيمه ، وتعيين ناظر له ، يدير شؤونه ، وقد تناوب أشخاص من بني قرناص ، وبنى الماوردي على نظارته(٢).

وكانت حماة – في تلك الفترة – تزخر بالأطباء ، الذين ذاع صيتهم ، وترك بعضهم بصمات واضحة ، ليس في حماة وحدها ، بل تجاوز أثرهم الطبي والعلمي محيط بلدتهم ، وأصبح جزءاً من الحضارة الاسلامية الشاملة ، وسنتناول بالدراسة بعضاً من أشهر أولئك الأطباء ، مع الإشارة إلى انتاجهم ، وتأثيرهم في عصرهم ، وفي العصور التالية لهم .

ومن أولئك الأطباء : موفق الدين محمد بن أبي الخير ، وكان من المتقنين لمهنة الطب ، إضافة إلى تدينه وورعه ، وكان ضمن حاشية المظفر الثاني صاحب حماة ، ومن المقربين إليه . واشترك الطبيب موفق الدين في

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ، ص ١٨؛ معجم الأطباء (نيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء) بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٣١.

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٣ ؛ كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٦١ ، وانظر أيضاً : رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ ؛ أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

حملة المظفر الثاني الفاشلة ، التي حاول بها إنقاذ دمشق من الصالح اسماعيل ، والمجاهد صاحب حمص(١) . وقد وقع موفق الدين في أسر المجاهد، وتوفي بسجنه(٢) .

ومنهم أيضاً الحكيم زين الدين بن سعد الدين بن سعدالله بن واصل - ابن عم المؤرخ المعروف - وكان المذكور أيضاً من أطباء المظفر الثاني ، واشترك في حملته السابقة الذكر ، ووقع أيضاً في أسر المجاهد صاحب حمص ، وبقي سجيناً بحمص حتى شفع له مقدم الاسماعيلية ، صاحب مصياف ، فأطلقه المجاهد(٣) .

ومن أطباء حماة المشهورين الطبيب صلاح الدين يوسف الحموي وقد عاصر أواخر المملكة الأيوبية بحماة ، وكان يمارس الطب بحماة حوالي سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م ، وله مؤلفات طبية ، أشهرها كتاب : " نور العيون وجامع الفنون " والذي يعد من أهم مؤلفات طب العيون في القرن الثالث عشر الميلادي(٤) . ومنهم الطبيب موفق الدين عبد السلام : كان خبيراً بالطب والحكمة إضافة إلى دماثة الخلق وسداد الرأي أصله من حماة ومقامه بدمشق حيث تعلم الطب وبرع فيه ثم اتصل بالناصر يوسف صاحب دمشق وحلب وأقام معه في حلب ، وكان الناصر معتمداً عليه مقدراً له ، ولما اجتاح المغول بلاد الشام ، جفل موفق الدين إلى مصر، ويبدو أن المنصور الثاني استدعاه

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثالث ، ص ٢١٦-٢٢٠ من هذا البحث .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ ؛ وانظر أيضاً : أحمد عيسى : معجم الأطباء ، ص ٢٠٣ .

(٤) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ق ٤ ، ص ٢٨٣ .

إلى حماة ، فقدم إليها. وكان المنصور الثاني يجزل عطاءه ، ويحترمه ، وله عنده المنزلة الرفيعة(١) .

الطبيب المنفاخ : هو أبو الفضل موفق الدين أسعد بن حلوان الشهير بالمنفاخ ، كان عالماً طبيباً ، متفرداً في عصره ، عكف على دراسة الطب والاشتغال به حتى غدا علماً في تخصصه ، وخدم الأشرف بن العادل في منطقة الجزيرة ، ثم انفصل عنه ، وقدم إلى حماة ، ومكث بها حتى وفاته سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م(٢).

الطبيب ابن الحاجب : هو الطبيب مهذب الدين بن الحاجب . ولد ونشأ بدمشق ، وخدم في البيمارستان النوري ، واتصل بالمظفر الأول ، ولازم خدمته إلى أن توفي المظفر سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ، فعاد ابن الحاجب إلى دمشق ودخل في خدمة السلطان صلاح الدين حتى توفي السلطان ، فشد الرحال إلى حماة ،حيث أقام في كنف المنصور الأول مدة سنتين ، توفي بعدها بداء الاستسقاء ، وكان ابن الحاجب عالماً في الرياضيات والهندسة والنحو والأدب ، لكنه كان عالماً في الطب وبه اشتهر(٣) .

الطبيب ابن رقيقة : هو أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن ابراهيم الشيباني الحانوي . المعروف بابن رقيقة ، مولده بحيني(٤) سنة ٥٦٤ هـ /١١٦٨م . وقدم حماة وصحب ملكها المنصور الأول ، ثم ترك حماة

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٧٥٥-٧٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٥٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٤٤.

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٥٩ - ٦٦٠ ؛ أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ، ص ١١٩- ١٢٠ ؛ علي القيم : البيمارستان فخر العمارة الإسلامية " مقالة بجريدة الشرق الأوسط ".

(٤) حيني : وتسمى حاني أيضاً ، بلد في ديار بكر . ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

وعاد إلى خلاط حيث توفي بها سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧م . كان ابن رقيقة سريع البديهة ، كامل المروءة ، كما كان بليغاً جيد النظم والنثر ، واشتهر بسرعة الرجز إذ كان ينظم الكتب الطبية في شعر رجزٍ حسن االلفظ وفي وقت قصير ، وتعاطى علوم الكيمياء " وعمل منها أشياء مستطرفة "(١)، كما كان ملماً بالنحو واللغة والفلك ، أما الطب فقد برّ فيه أقرانه ، وجمع أقوال المتقدمين عليه في هذا المجال ، ليستفيد منها في ممارسته لعمله ، وكان ضليعاً في طب وجراحة العيون (الكحالة) ، وصنع آلات طبية من الحديد ، ونجح في قدح الماء النازل في العين ، وأبصر بسببه عدد ممن كانوا في عداد العميان(٢). وهذا يدل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه علم الطب الاسلامي في هذه الفترة المبكرة .

وأضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من ازدهار للحياة العلمية في حماة . خلال تلك الفترة ، فإنّ ثمة ظاهرة جديرة بالاهتمام - وإن لم تكن مقتصرة على حماة وحدها - وتمثلت تلك الظاهرة في وجود بيوتات حموية ، توارث أبناؤها العلوم جيلاً بعد جيل ، حتى أضحت تلك الأسر من معالم حماة، فما يكاد يذكر بيت منها أو عالم من علمائها إلاّ تبادر إلى الذهن ذكر حماة، لأنها وطنهم الذي نشأوا به ، وتربّوا في أحضانه ، وكان من الممكن أن أورد هؤلاء العلماء كل حسب تخصصه ، ضمن التقسيم الذي اتبعته في معالجتي للفقرات السابقة من هذا الفصل ، لكن ارتأيت أن استعرض هؤلاء العلماء ، وما أنتجوه ، داخل إطار البيت الذي تربوا فيه ، وانتسبوا إليه ، ومن تلك البيوتات .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٧٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠٣ - ٧٠٧ .

بيت بني قرناص :

وهم أهل بيت من قبيلة خزاعة العربية ، كانت لهم نعمة وافرة ، ومنزلة عند ملوك حماة ، وأهلها(١) ، وتوارث بنو قرناص العلم والفضل ، ومنهم:

أبو بكر شرف الدين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أحمد بن هبة الله الحموي الشافعي ، مولده بحماة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، كان من أعيان العلماء ، والنبلاء ، ذا رئاسة وحشمة(٢)، كما كان بارعاً في النظم والنثر(٣) ، متبحراً في الفقه والأدب ، مال إلى الزهد ، وعزف عن نظم الشعر - إلاَّ ما كان مقتصراً على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم - وصنف ديوان رسائل مبتكرة بديعة ، لكنه أعرض عنه بعدما تزَهَّد وكان يأمر بإتلافه(٤) . وتوفي بحماة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م(٥).

أبو العرب مخلص الدين اسماعيل بن عمر بن قرناص ، ولد بحماة سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٥ م ، وتوفي بها سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . كان فصيحاً، نحوياً ، شاعراً له نظم بديع(٦) ، كما كان عالماً

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ .

(٦) انظر مقتطفات من شعره في : ابن العديم : بغية الطلب ، ج٤ ، ص ١٧٢٢؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص٤٧٣ ؛الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٦ . ق ٩ ، ص ١٨٢ .

بالفقه(١) ، وأفتى بجامع حماة عدة سنوات(٢). وقام بالتدريس بمدرسة نسيبه مخلص الدين بن قرناص(٣) ، ومدرسة الشيخ تقي الدين بن البققي(٤) كما كان يقريء العربية بالجامع(٥).

أبو الفضل اسماعيل بن ابراهيم بن قرناص ، المعروف بالزين، من مقدمي حماة وكبرائها ، وكان من كبار الملاك ، وله مزارع وعقارات ، وهو صاحب القصة المشهورة مع الناصر قلج أرسلان. وكان الناصر قد طرح على أهل حماة وأعيانها حنطة ثمّنها عليهم بمبالغ طائلة ، وأجبرهم على شرائها ، فامتنع أبو الفضل بن قرناص عن شرائها ، وهرب من حماة ولجأ إلى مصر ، حيث كان يقيم المظفر الثاني عند خاله الكامل ، فانتقم منه الناصر قلج بأن أخرب داره ، وحمّامه ، وكانتا من أحسن الدور في حماة ، كما صادر الناصر كل أملاك أبي الفضل بحماة ، فاستغاث أبو الفضل بالسلطان الكامل ، وبقي بمصر حتى قدم السلطان الكامل بجيشه إلى الشام ، فجاء برفقته ، ولما تقدم المظفر الثاني إلى حماة ، لانتزاعها من أخيه الناصر قلج ، كان بصحبته أبو الفضل بن قرناص ، ولما نجح المظفر الثاني في استعادة حماة ، وأصبحت

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٧٢١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٧٣؛ ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ٤١٣ – ٤١٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ٩ ، ص ١٨٢ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج٢ ، ص ٤١٤.

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ، ج٤ ، ص ١٧٢١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ١٢٧ .

(٤) اليونيني : المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ق ٩ ، ص ١٨٢ .

مُلكاً له ، أحسن إلى أبي الفضل ، ورد عليه أملاكه ، فعمرها ، وأعادها إلى حالتها الأولى(١) ويبدو أن المظفر الثاني قد أحسن إلى أبي الفضل هذا احتراماً لخاله السلطان الكامل ، إذ بمجرد وفاة الأخير ، قبض المظفر الثاني على أبي الفضل ، وأودعه السجن حتى وفاته(٢) .

وكان أبو الفضل شيخاً ، وقوراً ، يرجع إلى دين ، وله اجازة من أبي طاهر السلفي ، وكان يحدّث بها في دمشق(٣) .

أحمد بن هبة الله بن أحمد بن علي بن الحسين بن قرناص ، رحل في طلب العلم إلى حلب ، وبغداد ، كان شاعراً(٤)، ورئيساً فاضلاً(٥).

مخلص الدين ابراهيم بن اسماعيل بن قرناص ، من أعيان حماة وقع في أسر المجاهد صاحب حمص ، مع النجدة الحموية التي كان المظفر الثاني قد بعثها لحماية دمشق ، من الصالح اسماعيل ، صاحب بعلبك ، والمجاهد صاحب حمص . وبعد وفاة المجاهد سنة ٦٣٩هـ /١٢٤١م ، اطلق ابنه وخليفته المنصور ابراهيم السجناء ، ومنهم ابن قرناص هذا ، الذي مكث في حمص ، واتصل بصاحبها الأشرف موسى ، الذي خلفه والده المنصور ابراهيم في الحكم ، وترقى عنده ، حتى أصبح

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٦٠٩ – ١٦١٠ ؛ وانظر أيضاً ما سبق الفصل الثالث ص ١٧٤–١٧٥ من هذا البحث .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦١٠ .

(٤) انظر نماذج من شعره في : ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٠٥ – ١٢٠٦.

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٠٤ – ١٢٠٦ .

وزيره(١) .

ناصر الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن قرناص ، (٦١٣هـ/١٢١٦م – ٦٦٢هـ/١٢٦٣م) اشتهر بالعلم والفضل ، والأدب ، وكان من الزهاد الورعين ، وله نظم فائق(٢) .

مخلص الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن قرناص . له اليد الطولى في النظم، ويُعد أشعر بني قرناص ، وله ديوان شعر مشهور ، كما كان جيد النثر والترسل ، توفي بحماة في شوال سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢(٣) . من شعره(٤):

ليلي وليلك يا سؤلي ويا أملي   ضدان هذا به طول وذا قصر

وذاك أن جفوني لا يتم بهـــا   نوم وجفنيك لا يحظى به سـهر

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) وانظرنماذج من شعره عند اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢، ص ٣٠٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣) البرزالي : المقتفى لتاريخ أبي شامة ، ج ١ ، حوادث سنة ٦٧١ ؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٣٣ ؛ ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٧٦٧ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ١ ، ص ٦٣ ؛ عمر كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١ ، ص ١٠٩ . وهناك تراجم أخرى لأفراد من بني قرناص بعضهم عاش في القرن الثامن الهجري وهو خارج عن الفترة الزمنية التي يتناولها هذا البحث ، انظر : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٢٢ ؛ حواشي رقم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٤) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

بيت المغيزل :

وهو من بيوت حماة المشهورة نظراً لما عرف عن أفراده من علم وفضل وأدب ، ومن أبنائه :

أبو العباس تاج الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله بن المغيزل العبدي الحموي الشافعي ولد بحماة سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م . وأخذ العلم عن شيوخ حماة ، ورحل إلى بغداد وناظر علماءها وكان محط إكرامهم، وعاد إلى حماة، ودرس بالمدرسة العصرونية ، وتولى مشيخة الشيوخ بحماة ، كان فاضلاً مفتياً، يرجع إلى ديانة، وعبادة ،وخير، ومهابة ،وورع ، وترك المناصب لأولاده في آخر حياته ، وتفرّغ لنفسه ، مات بحماة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ، وترك من الذكور ثلاثة أولاد ،هم: زين الدين ،وفخر الدين، وناصر الدين (١).

أبو السماح شرف الدين عبد الكريم بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن المغيزل . مولده بحماة سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ، تنقل في بلاد الشام، ورحل إلى مصر وبغداد طلباً للعلم(٢) ، وعاد إلى حماة ، وتولى بها وكالة بيت المال ، كان من الرؤساء الخيرين ، ذا مروءة وحسن خلق ، توفي بحماة في مطلع سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م(٣).

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ١٢٣ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج١ ، ص ١١٩ ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٤ .

(٢) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٩٧ أ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٤٨ .

(٣) ابن الجزري : جواهر السلوك ، ج ٢ ، ورقة ٩٧ ؛ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٨ ، لوحة ١٤٨ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٣٨ .

أبو محمد بدر الدين عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن نصر الله، ولد بحماة سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م ، وتوفي بها سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، تعلم في حلب ، ودمشق ، ومصر ، وبغداد . تولى التدريس بدار الحديث ، وبالمدرسة المؤيدية بحماة(١) . كما تولى خطابة الجامع الأعلى ، وكان إماماً فاضلاً جيد الفتوى ، فصيحاً يحسن أداء الخطب ، وله نظم جيد(٢) .

نجم الدين أبو محمد عبد الغفار بن محمد بن محمد بن نصرالله، مولده بحماة سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م ، كان من المقربين لدى المنصور الثاني – صاحب حماة – وتولى كتابة الدرج والانشاء(٣) بحماة ، وكان يجيد نظم الشعر ، وكانت وفاته بمسقط رأسه سنة ٦٨٩هـ/١٢٨٩(٤).

أبو عبدالله أحمد بن محمد بن محمد ، تتلمذ على شيخ الشيوخ

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٧٧. ومن شعره :

إذا سمع الحديث على شخص ... ليرويه إذا ما كان موتي
سررت به ليدعو لي وإني ... أودُّ حياته من بعد موتي
فإن يسمع ويدعو لي تجبه ... ملائكة السماء بخير صوتِ

ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ١٤٨ .

(٣) عن تعريف كتابة الدرج والانشاء انظر مايلي ص ٤٣٥ من هذا الفصل.

(٤) ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٢٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٠ . ومن شعره وهو آخر ما قاله :

يا رب قد أمسيت جارك راجياً ... حسن المآب وأنت أكرم جار
فامنن بعفوك عن ذنوبي إنها ... لكبيرة وقني عذاب النار

ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

الصاحب شرف الدين الأنصاري ، تولى الخطابة بالجامع الأسفل ، وتوفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م(١) .

فخر الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله ، سمع من أبيه وغيره وخلف أباه في منصب " مشيخة الشيوخ " لأكثر من أربعين سنة ، كان عابداً خيراً ، توفي في رمضان سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م(٢).

ناصر الدين عبد الرحمن بن تاج الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله ، اشتغل بالعلم كثيراً ، ودرّس بالمدرسة العصرونية ، اتصف بالتدين والتواضع والزهد . توفي في جمادى الآخرة سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م.(٣).

نور الدين علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن محمد بن نصرالله ، سبط شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين الأنصاري ، كان ضمن حاشية المنصور الثاني وابنه المظفر الثالث ، تولى وظيفة " كاتب الدرج " في أواخر حياته ، وصار مقدماً لديوان الإنشاء ، وله نظم فائق ، وكانت وفاته بحماة سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١م(٤).

مجير الدين محمد بن عبد الكريم بن محمد بن محمد بن نصر الله ، كان ناظر الديوان بحماة . توفي في ربيع الآخر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م .(٥)

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ١٢٤ .
(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٣٥١ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ ؛ صادق جودة : المدارس العصرونية ، ص ١٨٤ .
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .

شمس الدين عمر بن عبداللطيف بن محمد بن محمد بن نصر الله ، ولد بعد الخمسين وستمائة للهجرة ، اشتغل بالأدب ، واشتهر بالفصاحة والنظم الرائق . كانت وفاته سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م بحماة(١) .

بيت البارزي :

ينسب آل البارزي إلى قبيلة جهينة العربية ، وتوارث أبناء هذا البيت القضاء في حماة ، وكان منهم علماء في علوم الشريعة والعربية . وممن اشتهر من أفراد هذا البيت :

شمس الدين ابراهيم بن المسلم بن هبة الله البارزي ، الذي ولد في حماة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤ م . كان أحد الأئمة الأعلام في بلده(٢) تعلم الفقه على مذهب الشافعي. وعُين معيداً بالمدرسة الرواحية بدمشق(٣) ، ثم انتقل للتدريس بمعرة النعمان(٤) . استدعي إلى حماة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م . واسند إليه قضاؤها ، واستمر يمارس عمله بضع

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ .

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٤٦ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٠٧ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣١٩ – ٣٢٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٤٦ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١، ص ١٦٢ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٤٠٥ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٣١؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

عشرة سنة(١) . وكان موفقاً في قضائه . كما كان ديناً ورعاً يقرض الشعر ويتعاطى الأدب(٢) . وله عدة مصنفات(٣) . وافته منيته بحماة سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م ، وخلفه في منصب القضاء ابنه نجم الدين أبو محمد عبد الرحيم، الذي وُلد بحماة سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م ، واستمر قاضياً لحماة مدة طويلة حتى عُزل قبيل وفاته سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م(٤) . ولم يكن يتقاضى مرتباً على عمله في القضاء ، وكان سديداً في أحكامه(٥) . ويعتبر – كمعاصريه من العلماء – موسوعة علمية ، فهو فقيه وأصولي ، وعالم بالجبر ، وعلم الكلام،

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٤٦ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٤ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣١٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

(٣) الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٠ .

(٤) ابن قاضي شهبة : الاعلم بتاريخ الاسلام ، ج ٥ ، ورقة ٢٥٧ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٥٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢١٨ ؛ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٩٢ ؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٣ ؛ الأسنوي ، طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٣٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٢ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٩٨؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢١٨ ؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٢ .

والحكمة ، والعقليات ، والفنون كلها ، إضافة إلى نظمه للشعر(١) . قيل أن له مصنفات مفيدة(٢) . وكانت وفاته بالقرب من تبوك ، وهو في طريقه إلى الحجاز ، ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة ، ودفن بمقبرة البقيع (٣). وتولى القضاء خلفاً له ابنه أبو محمد هبة الله(٤) . وكان عالماً بالفقه ، وبالحديث ، والقراءات ، وغيرها(٥) . ألف ما يقرب من ثلاثين كتاباً(٦) . وكان كأبيه ممتنعاً عن تقاضي مرتب نظير عمله في القضاء(٧). وتوفي بحماة سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م ، عن ثلاث وتسعين سنة ، إذ كان مولده بحماة أيضاً سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٧م(٨).

فخرالدين عثمان بن محمد بن عبد الرحيم بن ابراهيم ، ولد بحماة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م . وتولى القضاء والخطابة بها ، ثم انتقل إلى حلب سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ، حيث تولى القضاء بها ، وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات(٩).

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ،ج ٥ ، ورقة ٥٣ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢١٩ - ٢٢٣ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ ؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٨ ، ص ١٣؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٢.

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ورقة ٥٣أ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٩ ، ورقة ٣ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٤) تاج الدين اليماني (عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المخزومي ، ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) لقطة العجلان الملخص من وفيات الأعيان ، نسخة مصورة على ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم ٨١٧ ، عن نسخة مكتبة الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٦٢٣ ، لوحة ٢٤٩ ؛ الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٥) تاج الدين اليماني : لقطة العجلان ، لوحة ٢٤٩ ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات، الشام ، ص ٩٦ .

(٦) تاج الدين اليماني : لقطة العجلان ، لوحة ٢٤٩ وانظر أيضاً : الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٣٥ . ومن كتبه : " تجويد الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم "جرد فيه جامع الأصول لابن الأثير؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١، ص ٣٤٥ .

(٧) تاج الدين اليماني : لقطة العجلان ، لوحة ٢٤٩ .

(٨) تاج الدين اليماني:المصدر السابق، لوحة ٢٤٩ ؛ الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٣٥

(٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

الوظائف الحكومية

كان للدولة الأيوبية في حماة وظائف يشغلها موظفون أكفاء . وسنتناول في هذه الفقرة أهم تلك الوظائف ، وأشهر الموظفين الذين شغلوها . ولعل وظيفة القضاء أجل تلك الوظائف، وأعلاها مكانة. وكان يشترط في القاضي أن يكون عالماً بأحكام الشريعة ، مشهوراً بالتقوي وتحري العدل(١) . فكانت حماة – في الفترة موضع الدراسة – تعجّ بالعلماء المؤهلين لتولي تلك الوظيفة . وإضافة إلى قضاة حماة من بيت البارزي – والذين سبق التعريف بهم – كان هناك قضاة آخرون، أُسند إليهم في يوم من الأيام منصب القضاء، ومنهم :

ابن حبيش : أبو القاسم أمين الدين بن حبيش ، من أوائل الذين تولوا منصب القضاء في الدولة الأيوبية في حماة . كان رئيساً جواداً كريماً ، معروفاً عند الملوك . توفي هو والمظفر الأول – صاحب حماة – في يوم واحد، حادي عشر رمضان سنة ٥٨٧هـ/سبتمبر ١١٩١.(٢).

---

(١) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ٩٨ .

(٢) البنداري : سنا البرق ، ص ٢٣١ ؛ أبو شامة ك الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٣ ، ص ١١٢٧ .

ضياء الدين الشهرزوري : هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ، خلف عمه قاضي قضاة الشام في العهدين النوري والصلاحي (كمال الدين محمد بن عبدالله) سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م ، بوصية منه(١) . لكن ضياء الدين طلب اعفاءه من هذا المنصب بعد وقت قصير من توليه ، فأعفاه السلطان صلاح الدين منه ، فانتقل إلى بغداد(٢). وكان ينقل الرسائل المتبادلة بين الخليفة العباسي والسلطان الأيوبي ، وعقب وفاة السلطان صلاح الدين ، جاء ضياء الدين ليقيم في دمشق ، لكن السلطان العادل أجبره على الخروج منها بسبب موقفه المؤيد للأفضل بن صلاح الدين في الحرب الأهلية التي دارت بين الأيوبيين في تلك الفترة ، فعاد ضياء الدين إلى بغداد، فولاّه الخليفة الناصر لدين الله قضاء قضاة بغداد ، وفوض إليه أمور المدارس والأوقاف(٣) . وكانت مطالعات الخليفة تمرّ عليه ،وصار حظياً عنده(٤) . فحسده على مكانته هذه كبار رجال الدولة ، وحاشية الخليفة ، فخشي عاقبة ذلك ، واشتاقت نفسه إلى الشام مسقط رأسه . ولم يحصل على إذن بالرحيل من الخليفة إلا بعد تدخل زوجته لدى أم الخليفة الناصر فشفعت فيه عند ولدها(٥) .

وخرج القاضي ضياء الدين من بغداد بإذن الخليفة ، ومعه وثيقة تجيز

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٥ .

(٢) تاريخ الجزري ، ورقة ٢١٤ أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٥ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦.

(٤) تاريخ الجزري ، ورقة ٢١٤ أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

(٥) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ .

له ممارسة القضاء في كل بلد من بلاد الاسلام يحل به(١). فقدم إلى حماة وأكرمه صاحبها المنصور الأول . وأسند إليه قضاءها ، فتوفي بها بعد مضي خمسة أشهر على وصوله إليها ، وذلك في منتصف رجب سنة ٥٩٩ هـ / مايو ١٢٠٣م(٢) . وعاتبه بعض معاصريه على قبوله منصب القضاء في حماة بعد أن كان قاضي قضاة بغداد عاصمة الدولة الاسلامية ، فردّ عليهم بأنه لم يعزل من قضاء بغداد أو غيرها ، ولا ضير أن يتولى القضاء في بلد يُعدّ من الولايات التي فوضه الخليفة في تولي القضاء بها إذا شاء(٣).

ابن أبي عصرون : القاضي نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، توفي بحماة سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥ م ، تولى قضاء حماة في بعض الفترات ، وكان كبير القدر محترماً عند الملوك.(٤)

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٤ .

(٢) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٤ ؛ تاريخ الجزري ، ورقة ٢١٤ أ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٩ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٨ - ٣٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٤ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٦ ؛ الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٧٩ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الثالثة والستون ، ص ٥٥ ، صادق جودة : المدارس العصرونية في بلاد الشام ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

ابن أبي الدم : ابراهيم بن عبدالله بن عبد المنعم بن علي الهمداني ، لقبه شهاب الدين ، وكنيته : أبو اسحاق . مولده بحماة سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م(١). سافر في صباه إلى بغداد وأخذ عن علمائها ، وخلع عليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله خلعة كان يرتديها عندما عاد إلى حماة(٢).

حدّث ابن أبي الدم ودرّس في حماة وحلب والقاهرة(٣). ثم تولى قضاء حماة . وكان عالماً متقناً لعدة علوم منها : الفقه على مذهب الشافعي ، والأدب والتاريخ(٤) . وله مصنفات عديدة تدل على فضله منها : التاريخ المظفري ، وهو تاريخ كبير ألفه على السنين وأهداه إلى المظفر الثاني صاحب حماة(٥) . وكتاب أدب القضاء(٦) ، وشرح مشكل الوسيط ، وكتاب في التاريخ والفرق الإسلامية(٧) . وشرح الوسائل

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٦ ، ص ٣٣ ؛ الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٣٣.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٤؛ الأسنوي : طبقات الشافعية، ج١ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

(٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٥ ب ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٥ ، ص ١٢ .

(٦) الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج١ ، ص٢٦٦ ؛ ابن العماد :شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢١٣ ؛ البغدادي : هدية العارفين ، ج ٥ ، ص ١١، واسم الكتاب : " الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات " والكتاب منشور ، وحققه مصطفى الرحيلي في دمشق سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م . وهناك نسخة أخرى صدرت في جزأين حققها ونشرها في بغداد محي الدين هلال سرحان سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

(٧) الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢١٣ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٧٢٢ .

للغزالي في الفروع(١) . وفي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م توجه ابن أبي الدم إلى بغداد لينقل رسالة للخليفة من صاحب حماة ، لكنه مرض في معرة النعمان ، فعاد إلى حماة فلم يلبث أن توفي(٢).

التنوخي : أبو اسحاق ابراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبدالله المعري، تفقّه منذ صغره ، واشتهر بحسن الخط والبلاغة . تولى قضاء معرة النعمان وهو دون الخامسة والعشرين من عمره ، وأقام قاضياً خمسن سنين إلى أن توفي في مطلع سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.(٣)

ابن هندي : أبو الفضل زين الدين بن القاضي مجد الدين بن هندي. كان قاضياً لبلد حمص ، ففارقها وتوجه إلى حماة حيث استقبله صاحبها المنصور الأول بالحفاوة والترحاب(٤) . وفي هذا دليل على مدى احترام ملوك حماة للقضاة ، وكان القضاة أنفسهم يقدرون في ملوك حماة ذلك ، مما جعل ابن هندي يختار حماة دون غيرها من بلدان الشام .

البهراني : أبو يعلى محي الدين حمزة بن محمد بن حمزة بن الحسين البهراني الحموي ، كان من الفضلاء المحدثين ، برع في الفقه الشافعي ، تولى القضاء في حماة بين عامي (٦٤٢هـ/١٢٤٤م -٦٥٢هـ/١٢٥٤م). وكانت وفاته في حماة سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م(٥).

---

(١) البغدادي : هدية العارفين ، ج ٥ ، ص ١١.

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٩٥ ب ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٢٣ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٣) الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ الأسنوي : طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧ ، حاشية رقم ١ .

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ؛ العيني : عقد الجمان ، عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

زين الدين الأنصاري : محمد بن عبد المحسن بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي – والد شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين – كان ينوب عن القاضي الشهرزوري في قضاء حماة ، وبعد وفاة الهشرزوري ، أقره المنصور الأول في قضاء حماة خلفاً له ، لكنه لم يمكث بها طويلاً ، بل نقل إلى بارين ، وتولى قضاءها حتى وفاته سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م.(١)

ابن المقنشع(٢): أبو القاسم محمد بن ابراهيم بن هبة الله الحموي الشافعي ، المنعوت بالعماد(٣) ، فقيه ، فاضل ، متورع . تولى قضاء حماة سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، وسافر إلى حلب ، وأقام بها مدة ، ثم انتقل إلى حمص ، واتصل بملوكها : المجاهد ، والمنصور ابراهيم ، وصاهر مخلص الدين ابن قرناص وزير الأشرف موسى صاحب حمص . ثم انتقل إلى مصر ، حيث ولاّه السلطان الصالح أيوب قضاءها . واستمر يمارس عمله بها حتى عزل سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م(٤) ، فعاد ثانية إلى الشام ، وتوفي بها بعد سنة من وصوله(٥) .

كان ابن المقنشع موفقاً في أحكامه ، عادلاً في أقضيته ، حافظاً لناموس القضاء ، فقيهاً معتبراً ، ذا معرفة بالمذهب، تعلوه هيبة ووقار(٦) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٢) وهناك من يذكر أنه ابن المنقشع . انظر : العيني : عقد الجمان، عصر سلاطين المماليك ، ج ١، ص ٩٥ .

(٣) " العباد " عند العيني : المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨١ .

(٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ٤٥٨١ – ٤٥٨٢ ؛ العيني : عقد الجمان : عصر سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٦) ابن العميد : بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨١ .

وحينما عاد من مصر إلى دمشق بعد عزله عن قضاء الأولى ، استُدعي إلى حماة ، ليتولى قضاءها ، فاشترط عدة شروط منها : ألاّ يعارض في أحكامه ، ولا يتدخل أصحاب السلطة في عمله ، فأجيب إلى شروطه ، فتجهز للخروج قاصداً حماة ، لكن المرض أدركه خارج دمشق ، فتوفي رحمه الله يوم الخميس الثالث عشر من محرم سنة ٦٥٢هـ /١٢٥٣م.(١)

ابن حاذور : أبو العلاء قوام الدين المفضل بن السلطان المعروف بابن حانور ، عمل بالتدريس في حماة ، ثم تولى قضاء معرة النعمان سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، ثم رحل عنها إلى حلب ، ثم إلى حمص ، حيث تولى قضاءها سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م ، لكنه عزل ، وعاد إلى حماة ، ومكث بها حتى وفاته سنة ٦٦٠هـ /١٢٦٢م.(٢) .

وجدير بالذكر هنا أن جمال الدين بن واصل هو أشهر من اعتلى منصب القضاء في حماة ، وبعد وفاته سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م ، خلفه في منصبه القاضي موفق الدين المعروف بخطيب حماة(٣)وهو آخر قضاة حماة في ظل حكامها من بني أيوب .

وهناك وظائف حكومية أخرى سنستعرضها من خلال دراسة أشهر من وليها من رجال الدولة في حماة .

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨٢ .

(٢) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠٤ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٥ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ . وانظر ما سبق ص ٤٠٤ – ٤٠٥ من هذا الفصل.

الــــوزارة :

كـان للملـوك الأسـرة التقـوية وزراء يسـاعدونهم في تسـيير أمـور الدولة – وإن كان الملك هو المرجع الأساسي – ومن أشهر هؤلاء الوزراء والذين لم يرد لهم ذكر في ثنايا الفـصـول السـابقـة عند الحـديث عن التطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها حماة .

أبو المعالي السنجاري : أسعد بن يحيى ، معدود في شعراء حماة(١). وتولى الوزارة بها فترة من الزمن(٢) ، في عهدي المظفر الأول وابنه المنصور ، وتوفي السنجاري سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥(٣).

زكي الدين القوصي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن علي بن الحسن الزهري . تولى الكتابة للمظفر الثاني وترقى عنده في المناصب حتى أصبح وزيره . كان كاتباً بارعاً وشاعراً مجيداً ، قتل مخنوقاً في حماة بعد الأربعين وستمائة(٤).

ضـيـاء الدين أبو المعـالي مـحـمـد بن رزين الدين بن عبدالقاهر الحلبي ، ولـد بحلب سنة ٦٠٨هـ /١٢١١م كـان من الرؤسـاء بحماة ، اشتهر بجودة الخط ، عين وكيلاً لبيت المال وناظراً للأوقاف واختير

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٠٢ من هذا الفصل .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٣ ب؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٣١ .

(٣) الصفـــدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق : يوسف فان إس ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، ج ٩ ، ص ٣٣ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٤ ، ص ١٥٨٤ – ١٥٨٧.

(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ؛ ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

للوزارة وباشرها، ثم انتقل إلى حلب ، وعمل بالتدريس حتى توفي في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م(١).

وزارة المال :

وهي الجهاز الموكل به ادارة الشؤون المالية المتعلقة ببيت المال في حماة . ومن أشهر من تولوا وزارة المال في حماة :

الرشيد المنصوري : هو الرشيد المنصوري المعروف بالصفوي ، كان مقرباً للأشرف بن العادل ، لكنه انصرف عنه وتوجه إلى حماة ، واتصل ببعض حاشية المنصور الأول الذين تدخلوا له عند سيدهم المنصور حتى أسند إليه وزارة المال . لكنه لم يلبث أن غضب عليه ، وعزله ، واعتقله بجامع قلعة حماة ، وحاسبه بشدّة ، واتهمه باختلاس الأموال ، وطالبه بإعادة ما أخذه ، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد أن سدد ما كان عليه من دين لخزينة الدولة(٢).

نظارة الأوقاف :

وكانت الأوقاف من موارد المال المهمة ، ويتم الانفاق منها على بعض المشاريع كالمدارس والمساجد والأربطة وغيرها . ويُعدُّ زين الدين محمد بن عبدالمحسن الأنصاري(٣) – والد شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري – من أشهر من تولوا هذه الوظيفة ، وقد أسندها إليه المنصور الأول بعد إلحاح شديد ، إذ أن زين الدين كان قبل ذلك ناظراً لأوقاف الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وهذا ما دفع المنصور الأول إلى الإلحاح عليه ليقبل بتلك الوظيفة

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٩٧ ؛ وانظر أيضاً : الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٣٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٣٧ .

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٣) انظر ترجمته فيما سبق ص ٤٣١ من هذا الفصل .

وأعطاه صلاحيات غير محدودة في عمله(١).

كتابة الدرج :

وهي من وظائف " أرباب الأقلام الديوانية "(٢) . ومن يتولاها يقوم بكتابة الرسائل والمناشير التي يصدرها الملك . ويشترط فيمن يتصدى لها أن يكون عالماً باللغة والأدب ، والعلوم الشرعية ، إضافة إلى البلاغة وحسن التعبير. وممن شغل هذه الوظيفة : شرف الدين أحمد بن سعدالله بن مروان بن عبدالله الفارقي (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٢م) وكان حسن الخلق ، لطيف الكلمة(٣).

كتابة الإنشاء :

وهي من وظائف أرباب الأقلام الديوانية ، ومن يتولاها يكون أجلّ كتاب الديوان ، وهو لسان الملك المتكلم عنه(٤) . وأشهر من تصدى لها في حماة اسحق بن علي بن أبي الغنائم بن مراجل ، تولى كتابة الإنشاء في عهد المظفر الأول . وكان حسن النظم والنثر(٥).

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٥) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٣ ، ص ١٤٨٩ .

الحالة الاقتصادية

ليس من السهل التعرف على الحالة الاقتصادية في حماة – وغيرها من بلاد الشام – في هذه الحقبة بسبب الاضطرابات الشديدة والمتلاحقة التي شهدتها بلاد الشام ، إضافة إلى أن المؤرخين أعطوا جلّ اهتمامهم للحوادث السياسية والعسكرية(١). وأغفلوا الناحية الاقتصادية إلاّ بعض إشارات وردت في ثنايا الحديث عن التطورات السياسية والعسكرية .

ومهما يكن من أمر فإن هناك إشارات يمكن من خلالها تحسس الحالة الاقتصادية في حماة ، وقد تراوح الإقتصاد الحموي بين القوة والضعف وذلك نتيجة للظروف السياسية والحربية وحالة الطقس وخروج بعض الآفات التي تفتك بالمنتجات الزراعية فمثلاً في سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ونتيجة لانتصار المنصور إبراهيم – صاحب حمص – ومن معه على الخوارزمية بيعت الأغنام التي أخذت من المنهزمين في حماة وغيرها بأرخص الأسعار(٢). وقس على ذلك معظم المعارك التي انتصر فيها المسلمون على الصليبيين أو المغول أو الأرمن . لكن عندما تعرضت حماة لهجمات المعظم صاحب دمشق ، ثم المجاهد صاحب حمص والحلبيين في الحرب الأهلية التي دارت بين الأيوبيين تردّت بلا شك حالتها الاقتصادية . بل إن الحركة التجارية فيها أوشكت على التوقف . ومن أمثلة تردي الحالة الاقتصادية في حماة ما حدث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م إذ خرجت فئران كثيرة بأرض حوران والجولان قضى على ما بها من

---

(١) علي الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٤٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .

الغلال. فندر وجود القمح حتى بيع المكوك(١) الواحد منه في حماة بما يعادل ٤٠٠ درهم . واستغل الصليبيون هذا الظرف ، فأخذوا يصدرون منتجاتهم إلى مناطق الشام المتضررة - بما فيها حماة - وحصلوا مقابل ذلك على أموالٍ طائلة(٢) . وازداد الوضع سوءاً في العام التلي ، واشتد الغلاء ، ومات خلق كثير من الجوع في حماة وحلب وغيرها(٣) .

ومع ذلك فإن موسم جني الثمار عادة ما يشهد انتاجاً وفيراً ورخصاً في الأسعار(٤) .

الزراعـــــة :

ارتبط الاقتصاد في حماة بالزراعة ارتباطاً وثيقاً ، وقد علق الصابوني على ذلك بقوله : " .... إذ معظم معيشة الحمويين منها (الزراعة) فإن حماة بعيدة عن البحر وتجارته ... لذلك فالناس مضطرون لمعاملة الزرا ع ... فإذا غنم غنموا وإذا خسر خسروا"(٥) وقد استفاد الحمويون كثيراً من مرور نهر العاصي في أراضيهم . فاستغلوا مياهه في استصلاح الأراضي حتى غدت الزراعة حرفة السواد الأعظم من أهل حماة(٦)، وكانت البساتين

---

(١) المكوك من وحدات الوزن المستخدمة في حماة . ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٦ ، ورقة ١٧٧ أ ؛ اليونيني : نيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٩٨ ؛ ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٨٥ .

(٣) اليونيني : نيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٩٩ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ص ٢٦٧ .

(٤) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٧ .

(٥) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

متصلة على ضفتي النهر(١) . وكان من الطبيعي أن ترتبط نسبة الإنتاج الزراعي بحالة النهر ، وبنسبة هطول الأمطار ، لذلك تراوح الانتاج بين الوفرة والقلة(٢). وبسبب إرتفاع سطح الأرض في حماة عن مستوى مجرى النهر ، اضطر المزارعون إلى إقامة ما عرف بالنواعير (السواقي) لإيصال الماء إلى حقولهم ، وكثر وجود هذه النواعير في حماة حتى اشتهرت بها ، ولم يكن لها منافس في ذلك إلاّ منطقة شيزر(٣).

ولعب ملوك الأسرة التقوية دوراً مهماً في تشجيع الزراعة ، فكان بعضهم - كالمنصور الثاني - يملك بساتين ويهتم بها(٤) ، كما أقطعوا الأراضي لموظفي الدولة وعساكرها ، وشجعوهم على استصلاحها ، إضافة إلى إقامة المشاريع الزراعية لدعم القطاع الزراعي ، من ذلك القناة التي كانت تربط بين سلمية وحماة وهي التي حاول المجاهد - صاحب حمص - قطعها عندما هاجم حماة في الحرب الأهلية الثانية بين الأيوبيين ، وقد نتج عن ذلك موت كثير من المزروعات في البساتين الواقعة خارج حماة(٥) . ومن ذلك أيضاً إعفاء المنتجات الزراعية من المكوس . وقد أصدر المنصور الأول مرسوماً بذلك وتم نقش المرسوم على بوابة سوق المنصورية(٦) .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ ؛ وانظر أيضاً ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٨ .

(٣) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩ ؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٦ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٩٢ .

(٤) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٣٠٠ من هذا البحث .

(٥) انظر ما سبق الفصل الثالث ، ص ٢٠٩ من هذا البحث .

(٦) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٨٦ .

وتنتج مزارع حماة أصنافاً شتى من المنتجات الزراعية ، منها : المشمش الكافوري اللوزي ، الفريد من نوعه (١) . والثمار الأخرى كالعنب ، والحنطة ، والشعير ، والذرة بنوعيها الأصفر، والأبيض ، والحمص ، والعدس، والبطيخ بنوعيه الأصفر ، والأخضر(٢) .

ورغم أن حماة بلدة خصبة ، كثيرة الخير والأرزاق(٣)، إلاّ أنّ انتاجها لا يغطي أحياناً احتياجات السكان ، فيضطر التجار إلى استيراد ما يحتاجونه من غلال – خاصة القمح – من المناطق المجاورة(٤).

الصناعــــة :

رغم أنّ حـــمـــاة بلد زراعي في المقــام الأول ، إلاّ أنه لا يخلو من الصناعة، خاصة تلك التي تعتمد على المنتجات الزراعية ، وكذلك الصناعات الخفيفة ، التي تسد حاجة السكان ، والتي لا يخلو منها بلد، كالحدادة، والنجارة، والحياكة ، وما شاكلها(٥) ، وأدى توفر المعادن – خاصة الرصاص في معرة النعمان – إلى ازدهار الصناعة(٦).

أما الصناعة ، التي تميزت بها حماة ، دون غيرها من البلدان، فهي

---

(١) شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، المعروف بشيخ الربوة ، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) نخبة الدهــر في عجائب البر والبحر ، (Cosmographie Publ Par A.Mehren Ottoharra Ssowitz Leipiz 1923, p.206.)

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٨ .

(٣) شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٠٦ .

(٤) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٨ .

(٥) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٦) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

صناعة ما عرف بـ " البياض " ويقصد بها الشراشف ، والمناشف ، وما شابهها . وكذلك بعض المنسوجات الحريرية(١) . ولا يفوتنا أن نشير إلى التشجيع القوي الذي ناله قطاع الصناعة ، من ملوك حماة ، فقد "... جلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق فنه "(٢).

التجـــارة :

ازدهرت التجارة في حماة – خلال الفترة موضع الدراسة – ازدهاراً كبيراً ، مستفيدة في ذلك من موقعها المتوسط بين شمال الشام(حلب)، وجنوبه (دمشق) ، وقربها من الأراضي التي يحتلها الصليبيون من ناحية، ومن بلاد الاسماعيلية من ناحية أخرى . إضافة إلى اشرافها على بادية الشام، التي تقطنها قبائل العرب البدوية(٣). كما أن الشام تقع عند نهاية الطريق البري لتجارة الشرق الأقصى منذ أقدم العصور(٤).

وكانت تجارة مرفأ طرابلس تمر عبر حماة ، وكان المرفأ المذكور أكثر حركة ، ونشاطاً تجارياً من مرفأ بيروت لارتفاع رسوم الأخير.(٥)

أما داخل حماة نفسها ، فكان هناك أكثر من سوق ، وكانت تلك الأسواق " لا تعدم نوعاً من الأنواع ، ولا صنفاً من الأصناف ، جليلها وحقيرها."(٦)

---

(١) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٨ ؛ أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٠٧ ، ١٢٢ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٧.

(٣) أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧١ .

(٤) أحمد رمضان : المجتمع الإسلامي ، ص ١١٩.

(٥) أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧١ .

(٦) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، ص ١٩٦ .

وحماة – كما سبق أن ذكرنا – تتكون من قسمين علوي وسفلي . ولكل قسم أسواقه . وأسواق القسم الأعلى أحفل وأجمل من نظيراتها في القسم السفلي. وأكثر تنظيماً ، وترتيباً ، وبها جامع تُؤدّى فيه الصلاة ، كما أن حوانيتها تعج بأنواع البضائع ، والصناعات المختلفة(١) . وتتصل أسواق القسمين بممر يقع خلف القلعة(٢).

وفي ربض القسم السفلي من المدينة ، خانات ، وحوانيت ، يستعجل المسافر حاجته منها ، إلى أن يدخل المدينة نفسها(٣).

ولعل أشهر أسواق حماة ، سوق المنصورية ، الذي بُني في عهد المنصور الأول محمد ، وإليه يُنسب ، ويطلق عليه الآن اسم " سوق الطويل " ، وقد يختصر اسمه فيقال : " السوق " . وهو سوق منظم ، فحوانيته رُتبت ، ونظمت حسب الحرف ، بحيث شغلت كل طائفة من التجار ، جزءاً خاصاً بها(٤). وزود السوق – من جهة الموقف – بقوس نقش عليها مرسوم ، أصدره المنصور الأول محمد ، يتضمن إعفاء بعض البضائع ، من الرسوم التي كانت تؤخذ عليها ، منها : السمن ، والعسل ، والقطن ، والعصفرد ، وأنواع غيرها(٥).

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٢) وفي موقع هذا الممر الآن بستان يسمى " الحضير " ، الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٨٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٤) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧٢ .

(٥) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١٢٠– ١٢١ ؛ أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧٢ .

وهناك أسواق أخرى في حماة ، لكنها أقل شأناً من المنصورية منها: سوق البندورة(١). ويبدو أنه مختص ببيع المنتجات الزراعية ، ومنها : سوق الحطب في محلة الجعابرة ، وسوق الدق ، وسوق ابن قريع - قرب جامع السحور - وسوق العدل ، وسوق المتولي - بجوار جامع السلطان - وسوق حميد - بالقرب من الجامع الأعلى - وسوق الحدادين ، وسوق الأقواسية ، وسوق الأساكفة ، وسوق القطن ، وسوق الطحين ، وسوق الخيل ، وهو مختص ببيع منتجات الريف(٢).

---

(١) أحمد غسان : مملكة حماة ، ص ١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الناحية العمرانية

من البدهي أن تنمو الدولة ، وتنهض بجميع مرافقها – بما فيها الناحية العمرانية – إذا شهدت استقراراً داخلياً ، مع توفر الموارد اللازمة لذلك النمو ، وهذا ما حصل في حماة . ومما شجع على النمو العمراني في حماة ، شغف ملوكها بتعميرها ، حتى تميزت " ... بالأبنية العظيمة ، والمساكن الفاخرة ... وزادوا فيها القصور ، ... إلى أن أصبحت الآن تامة الحسن ، والمحاسن ، معدودة في أمهات البلاد ، وأحاسن الممالك "(١) . ولم لا تكون كذلك ؟ ! وبها " القصور الملكية ، والدور السرية ، والمساجد ، والمدارس ، والربط، والزوايا ، والأسواق "(٢).

وهذا الوصف البديع لحماة ، جاء بُعيد سقوط الدولة الأيوبية التي كانت تتولى الحكم بها . وعند مقارنته بوصف لها ، أورده عنها ابن جبير ، في رحلته إليها ، في بداية تولي الأسرة الأيوبية لحكمها وذلك سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م ، يتضح لنا التطور المذهل ، الذي شهدته في ظل حكم الأسرة التقوية(٣). وقد أشاد صاحب مسالك الأبصار، بدور الأسرة التقوية ، في ازدهار حماة ، إذ يقول : " غالب مبانيها العلية ، وآثار الخير الباقية فيها ، من فواضل الدولة الأيوبية فيها ."(٤)

ويمكن تقسيم الناحية العمرانية إلى قسمين . عمائر عسكرية ، وعمائر مدنية .

---

(١) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك ، ص ١٩٧ .
(٢) ابن الشحنة الصغير : الدر المنتخب ، ص ٢٦٨ .
(٣) انظر ما سبق الفصل الأول ص ٤ من هذا البحث .
(٤) ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، دولة المماليك ، ص ١٩٧ .

من المعروف أن الدولة الأيوبية ، قامت في ظل ظروف صعبة كانت تسيطر على الأوضاع في بلاد الشام خاصة . فالصليبيون يحتلون أجزاء واسعة من بلاد الشام ، وهذا فرض على الدولة الأيوبية حمل لواء الجهاد ضد هؤلاء الأعداد ، وكان المجتمع الاسلامي في بلاد الشام مجتمعاً عسكرياً بالدرجة الأولى ، وكل همه الاستعداد الدائم لخوض المعارك ، وبناء الاستحكامات العسكرية لحماية المدن(١). وبحكم أن حماة ثغرٌ من الثغور الاسلامية في وجه الصليبيين ، فقد أخذت نصيبها من الاستحكامات العسكرية ، من بناء للقلاع ، والحصون ، وأسوار المدن ، وكان للأيوبيين في ذلك الشأن خبرة واسعة(٢).

وقد بنى المظفر الأول تقي الدين عمر ، قلعة حماة وأسوارها باللبن . وجاء ابنه وخليفته المنصور الأول ، فاستبدل اللبن بالحجر والكلس ، فظهرت القلعة في غاية الحسن ، كما عمق خندقها ، وقام بتوسعتها ، حتى صارت مضاهية لقلعة حلب ، التي يضرب بحصانتها المثل . بل إن هناك من فضلها عليها(٣).

---

(١) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٦٢ ؛ توفيق أحمد عبدالجواد: تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، المطبعة الفنية بالزيتون ، ج ٣ ، ص ٤٠ ؛ أحمد فائز الحمصي ، روائع من العمارة العربية الإسلامية ، ص ١٣٢.

(٢) أحمد فائز الحمصي : روائع من العمارة العربية الاسلامية ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ وانظر أيضاً : الذهبي : تاريخ الاسلام ، الطبقة الثانية والستون ، ص ٣٤٣ ؛ ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق : بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م ، ص ٤٨ . والجدير بالذكر أن تلك القلعة ، وأسوار البلد أيضاً ، دمرها المغول في غزوهم للشام سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م . انظر ابن شاهين : المصدر السابق ، والصفحة نفسها .

ونتيجة للحرب الأهلية الثانية بين الأيوبيين ، زمن المظفر الثاني ، فقد اهتم المظفر بأسوار بلده ، فاستقدم المهندس الفذ علم الدين قيصر (تعاسيف) ، وكلفه ببناء أبراج للسور المحيط بالبلد ، فجاءت تلك الأبراج في غاية الجودة . كما بنى تعاسيف طاحوناً على نهر العاصي ، في الجانب السفلي من البلد ، وجعل في أعلاه برجاً للمراقبة ، حفظ به تلك الناحية(١). ونحت على الطاحون السالف الذكر أسداً من حجر نافر ، وحجز ماء النهر بحجر لتنظيم عملية ري المزروعات ، فإذا طغى ماء النهر ، وغمر الحجر، توقفت النواعير عن العمل ، وإذا غيض الماء عن الحجر ، علم المزارعون أن نواعيرهم ستدور، واستعدوا لذلك ، ولا تزال آثار ذلك العمل باقية إلى الآن ، وتسمى الغزالة(٢).

أما العمائر المدنية فتشمل المساجد ، والربط ، والخوانق ، والدور السكنية ، والحمامات ، والزوايا .

وقد طرأ في العصر الأيوبي ازدهار كبير في عمارة المساجد، حيث زاد ارتفاع القباب ، وتنوعت أشكالها ، وتميز المسجد الأيوبي بالاقتباس من المسجد الأموي ، وخاصة من خلال المئذنة المربعة الشكل(٣). كما تميزت العمارة الأيوبية بزخرفة المحراب ، وأعمال الفسيفساء ، والشبابيك الجبس، المحلاة بالزجاج الملوّن البديع الصنع ، والمقرنصات(٤).

---

(١) اليافعي : جامع التواريخ ، ورقة ٩٦ أ – ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٥ ، ص ٣٤٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٦ ، لوحة ٢٦٥ – ٢٦٦ ؛ الأدفوي : الطالع السعيد ، ص ٤٦٩ – ٤٧٠ .

(٢) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٥ – ١٢٢.

(٣) أحمد فائز الحمصي : روائع العمارة العربية الإسلامية ، ص ١٥ .

(٤) توفيق عبد الجواد : تاريخ العمارة ، ص ٤٠ .

والربط ، وهو مكان لإيواء الفقراء الصوفية ، وكذلك الخانقاه ، إلاّ أن الأخيرة تميزت بأن لها نظم ، وقوانين لا بد من توفرها، فيمن يريد الالتحاق بها ، كما أنها تمنح اجازة لمن يلتحق بها ، ويشترط في شيوخها أن يكونوا من العلماء ، والفقهاء(١). وكانت الربط والخانقاه منتشرة في حماة .

وليس بعيد عنها ما كان يعرف بالزوايا . والزاوية هي المكان الذي ينزوي فيه شخص معين ، طلباً للعبادة ، ويستقبل فيه مريديه . ومن أشهر الزوايا بحماة ، زاوية الشيخ خضر ، التي أمر بإنشائها السلطان الظاهر بيبرس(٢).

أما الدور السكنية في ذلك الوقت فكانت تتكون من جزأين ، رئيسيين ، المقعد (أو الإيوان) الخاص بالرجال ، ويقابله إيوان النساء ، ويفصل بينهما عادة فناء الدار ، أما إذا كانت مساحة الدار ضيقة ، فإن إيوان النساء يعلو إيوان الرجال ، فتصبح الدار من دورين(٣).

وكان للنواحي الزراعية دورها في زيادة النهضة العمرانية بحماة ، فالمزارعون يريدون إيصال ماء نهر العاصي إلى بساتينهم ، فدفعهم هذا إلى إنشاء ما عرف باسم النواعير(٤) ، وقد اشتهرت بها حماة بين جميع مدن الشام ، ولم يكن يضاهيها في ذلك إلا شيزر . ومن أشهر نواعير حماة ، تلك

---

(١) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٥٥ ؛ وانظر أيضاً : أحمد فايز : روائع من العمارة العربية الإسلامية ، ص ٧٦ .

(٢) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٥٥ ؛ وانظر ما سبق الفصل الرابع ص ٢٦٧.

(٣) أحمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٤) ويطلق عليها أيضاً اسم الحنانات . ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩.

التي كانت تعرف بـ" أم الحسن"(١) ويقال أن فلكها أربعون ذراعاً(٢). وكان بداخل حماة قناة عظيمة ، تدور عليها النوعير لإيصال المياه إلى الجوامع والدور السكنية(٣).

وكان للخدمات العامة ، دورها في ازدهار العمران بحماة ، فالمنصور الأول محمد الذي " كان معتنياً بعمارة بلده "(٤) بنى جسراً ظاهر حماة ، يعرف بجسر الحديد ، وهو بالقرب من باب حمص ، في شرق الجزء السفلي من البلد(٥). كما أنشأ جسراً آخر ، عرف باسم " المراكب " ويسمى أيضاً جسر السرايا(٦) . وهناك جسر قديم ذكره ابن جبير عند زيارته لحماة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، وكان يربط القسم السفلي من المدينة وربضها(٧). وكانت حاجة حماة ماسة لإقامة الجسور ، لأن نهر العاصي يفصلها إلى قسمين(٨).

---

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩.

(١) ما يزال موقع بستان أم الحسن معروفاً في حماة ، ويحمل الاسم نفسه ، وقد حوّل البستان مؤخراً إلى حديقة عامة ، ولم يتبدل موقع ناعورة أم الحسن ، إنما هي الآن مشهورة باسم ناعورة الحرية . ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، حاشية رقم ٢ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، والجزء ، والصفحة .

(٣) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٩٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ وانظر : أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٥-١٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٣٨ .

(٥) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص ٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٨٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٥-١٢٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٣٣٨ .

(٦) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٩٧ .

(٧) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٨) شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ٢٠٦ ؛ الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٩٧.

وكان لحماة – كما أسلفنا – سور خارجي لحمايتها ، به بعض الأبواب منها : باب تدمر ، وباب الثقفي ، وباب حمص(١).

ومن المرافق العامة في حماة الحمامات ، وكانت على طراز واحد ، سواءً في حماة أو غيرها من بلدان الشام ، ولا تتغير عن بعضها إلا في بعض التفاصيل والزخارف ، إذ كانت تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية ، غرفة لخلع الملابس ، يليها غرفتان متصلتان ببعضهما ، الأولى منهما دافئة والأخرى حارة ، تتخللها صنابير تجري فيها المياه الحارة . وكان سقف الحمام مغطى بأقبية متقاطعة ، أو قباب ضحلة . أما الغرفة الساخنة فتغطيها عادةً قبة مرتفعة(٢) .

وانتشرت الحمامات بحماة بشكل كبير مما يدل على تقدم حضاري ، يتجلى في النظافة ، واتباع التعاليم الصحية .(٣)

ومن أشهر الحمامات بحماة : حمام الذهب ، وهو في محلة المدينة وهو قديم ، ولم أقف على من بناه ، وحمام القاضي في محلة جورة حوا، بناه القاضي سراج الدين بن مغلي ، وحمام الشيخ أو (السلطان) بالقرب من جامع نور الدين زنكي ، بُني بأمر المنصور الثاني ، وكان حمامه الخاص . وحمام العرايس ، ويقع بمحلة العيليات السفلى . وحمام الزهور ، في محلة الجسر ، في طريق يعرف باسم " رحى العونية " وقد اندرس ، وتحولت أرضه الآن إلى بستان صغير ، على كتف العاصي . وحمام الحسام ، بمنطقة باب النهر(٤) .

---

(١) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ٨٦ .

(٢) أحمد رمضان : المجتمع الاسلامي ، ص ١٥٧ .

(٣) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤) الصابوني : تاريخ حماة ، ص ١١٥ –١٢٢ .

ونختتم حديثنا عن هذه الفقرة ، بشهادة مؤرخ معاصر للفترة التي نحن بصدد دراستها ، وتدل شهادته على التقدم الكبير الذي شهدته حماة في هذه الفترة إذ يقول عند حديثه عن نهر العاصي : " كان ينسب إلى انطاكية ، فيقال : الأرنط نهر أنطاكية ، وأما في زماننا هذا فنسبته إلى حماة أكثر "(١).

(١) ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .



الخاتمة

الخاتمـــة

بعون الله وتوفيقه ، تمّ الانتهاء من هذا البحث ، الذي تناول بالدراسة المفصلة مملكة حماة الأيوبية . وقد توصل البحث إلى عدة نتائج ، منها:

أولاً – بيان الموقع الاستراتيجي الذي احتلته حماة في العصرين الأيوبي والمملوكي ، والذي أكسبها أهمية قصوى ، إبّان تلك الحقبة . وقد حرص السلطان صلاح الدين الأيوبي على ضمها إلى دولته التي شرع في تكوينها إثر وفاة نور الدين زنكي ، واعتبرها ثغراً من ثغور الاسلام ، في مواجهة الصليبيين ، وبخاصة فرسان الاسبتارية المتمركزين في حصني الأكراد والمرقب . كما اعتبرها خطاً من خطوطه الدفاعية ، في مواجهة طائفة الاسماعيلية ، التي تقع حصونها على مقربة منها.

وبسبب أهمية موقعها ، أخذ السلطان صلاح الدين يبحث لها عن رجل تتوافر فيه مميزات خاصة في مقدمتها حب الجهاد ، والشجاعة ، والحنكة وغزارة التجربة ، فوقع اختياره على ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر ، فأسند إليه حكمها .

ثانياً – بيّن البحث الدور الجهادي الضخم ، الذي قامت به مملكة حماة الأيوبية ضد أعداء الإسلام ، على اختلاف مشاربهم ، فقد شارك عساكرها وملوكها، في المعارك ضد الصليبيين ، والمغول ، والأرمن ، وأبلوا فيها بلاءً حسناً ، حفظه لهم التاريخ .

فالملك المظفر تقي الدين عمر ، لم يكد يغب عن معركة واحدة ، من المعارك الكثيرة . التي خاضها عمه السلطان صلاح الدين ، ضد الصليبيين، إلاّ إذا كان منشغلاً بمعركةٍ على جبهة أخرى .

ثالثاً – كان المظفر الأول من دعائم البيت الأيوبي ، ورجل المهمات

الصعبة ، ولمّا تُوفيّ ، حزن عليه عمه السلطان صلاح الدين كثيراً ، رغم أنه حمّله جزءاً من مسئولية سقوط عكا بأيدي الصليبيين في حملتهم الثالثة ، لأنه منع عساكر الجزيرة – وهي كثيرة – من المساهمة في الدفاع عن عكا .

وعندما بلغ السلطان صلاح الدين نعي المظفر الأول ، حرص على إخفاء الخبر عن العساكر الاسلامية والصليبية على حدٍ سواء ، لما لذلك من تأثير في نفوس الجميع .

رابعاً–ولما آل عرش حماة إلى المنصورالأول محمد،أكمل الدورالجهادي الذي قام به والده ،رغم أن الصليبيين حاولوا الاستفادة من الخلاف الذي نشب بينه وبين السلطان صلاح الدين ،إلاّ أن المنصور عاد ليقف مع المسلمين ضد الصليبيين ، وقام في هذا الاطار بضم بارين إلى مملكته ، وجعلها خطاً للدفاع عن حماة ، وصد عدة هجمات قام بها الصليبيون عليها ، كان إحداها حملة صليبية بمعنى الكلمة ، ضمت عدداً من العساكر الصربية ، مما يظهر أنّ هذا الجنس من الناس كان يحقد على الاسلام وأهله منذ زمنٍ طويل .

خامساً: أدرك الصليبيون أهمية حماة في هذه الحقبة ،إذ أنّ نجاحهم في الاستيلاء عليها يمكنهم من فصل شمال الشام عن جنوبه ، مما يتيح لهم ضرب كل جزء على حده ، وهذا ما يبرر محاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليها.

سادساً – وقد عاصر المنصور الأول محمد الحرب الأهلية الأولى التي اندلعت بين الأيوبيين ، واضطر إلى خوض غمارها ، ليحافظ على مملكته من السقوط .

سابعاً –أظهرت الدراسة أيضاً ، خطورة المؤامرة التي دبّرها زعماء حماة ، إثر وفاة ملكها المنصور الأول ، والتي انتهت باستيلاء الناصر قلج أرسلان على عرش حماة ، واستبعاد أخيه الأكبر ، والمعهود له بولاية العهد المظفر الثاني محمود . وكان هدف المتآمرين من ذلك ، السيطرة على الأمور في حماة .

ثامناً – بيّنت الدراسة أيضاً ، النتائج البالغة الخطورة ، التي أسفرت عنها أطماع المعظم عيسى – صاحب دمشق – في حماة ، فقد حاول استغلال ضعف الناصر قلج أرسلان ، والاستيلاء على مملكته ، وتظهر خطورة تلك النتائج عند ربط الحوادث ببعضها . فأطماع المعظم عيسى الشخصية ، كلّفت المسلمين الكثير والكثير . فقد اصطدمت أطماعه في حماة برفض أخويه السلطان الكامل ، والملك الأشرف فما كان منه إلاّ أنْ جَلَبَ طرفاً جديداً للصراع الذي بدأ بينه وبين إخوته ، إذ استنجد بجلال الدين الخوارزمي، سلطان الدولة الخوارزمية ، وعقد معه تحالفاً ، وأطمعه في مناطق شرق الفرات ، التي كانت جزءاً من مملكة أخيه الأشرف ، وفي المقابل خَشِيَ السلطان الكامل غائلة أخيه المعظم عيسى والخوارزمية ، فأخذ يبحث عن حليف يتقوّى به ، فهداه تفكيره إلى التحالف مع الامبراطور فردريك الثاني ، امبراطور الدولة الرومانية ، ونتيجة لذلك سلّم له الكامل بيت المقدس ، صفواً عفواً ، بدون قتال ، وفرّط في الأماكن المقدسة التي جاهد السلطان صلاح الدين والمسلمون طويلاً حتى تمكنوا من تحريرها ، والحفاظ عليها .

أما على الجبهة الأخرى ، فإنّ جلال الدين الخوارزمي – الذي كان مشغولاً فيما سبق بجهاد المغول ، وقد استطاع إيقاف زحفهم لسنوات طويلة– أدار ظهره للمغول ، وتعلقت أطماعه في مناطق شرق الفرات . وساق إليها بجيوشه ، ونجح في الاستيلاء على معظمها . واضطرُ صاحبها الأشرف بن العادل إلى التحالف مع سلاجقة الروم ، لاستخلاص أراضيه من الخوارزمي ، فأوقع الأشرف وحلفاؤه هزيمة نكراء بجلال الدين الخوارزمي ، لم تقم له بعدها قائمة . وكان هو كالسدّ المنيع بين المغول وبلاد الاسلام ، في العراق والجزيرة والشام ، وبسقوطه انفتح الطريق أمام المغول ، فجاءت حملاتهم تترا ، مهلكة للحرث والنسل .

ونتج عن هزيمة الخوارزمي أيضاً – على يد الأشرف وحلفائه – تفكك جيشه ، فغدا جنوده مرتزقة ، يمتهنون الحرب حرفةً لهم ، وينساقون خلف من يدفع لهم المال ، فعاثوا في بلاد الشام وغيرها ، واستغلهم الأيوبيون في الحرب الأهلية الثانية التي دارت بين ممالكهم .

تاسعاً – أوضحت الدراسة أنّ المصالح الشخصية كانت هي المحرك لكثير من الحوادث في العصر الأيوبي ، فإضافة إلى مؤامرة زعماء حماة في تنصيب الناصر قلج أرسلان ملكاً بها ، وإلى أطماع المعظم عيسى في حماة ونتائجها المدمرة ، نجد أنّ الأشرف بن العادل لم يتورع عن التضحية بحليفه السابق الناصر قلج أرسلان صاحب حماة ، عندما فرضت عليه مصلحته ذلك .

عاشراً – ألقى البحث مزيداً من الضوء على جهاد المظفر الثاني صاحب حماة ضد الصليبيين ، وقد وقف أمامهم بحزم ، إلاّ أن الحرب الأهلية التي اندلعت في عهده بين الأيوبيين أضعفت مركزه ، فلم يكن أمامه إلا مهادنة الصليبيين ، ودفع الأتاوة السنوية لهم .

حادي عشر – بيّن البحث كيف أنّ المظفر الثاني استطاع أنْ يحافظ على مملكته من السقوط أثناء الحرب الأهلية بين الأيوبيين ، وكيف أنه اتخذ مواقف متباينة في خضم تلك الحرب ، فتظاهر بمؤازرة الأشرف حيناً ، ثم انضم إلى الكامل وابنه الصالح أيوب فيما بعد.

ثاني عشر – أوضحت الدراسة أيضاً أنّ حماة لم تفقد أهميتها عند زوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، بل إن أهميتها اكتسبت أبعاداً جديدة ، فالأعداء التقليديون (الصليبيون وطائفة الإسماعيلية) لا زالوا في مواقعهم القديمة التي تقع على مرمى البصر من حماة ، إضافةً إلى دخول عدوٍ جديد في الصراع الدائر في المنطقة ، عدو أكثر عُنفاً وشراسةً من سابقيه ،

وهم المغول ، بعساكرهم الجرارة ، التي دمّرت البلاد ، وفتكت بالعباد ، فاتخذ المماليك حماة قاعدة لمواجهة أولئك الأعداء.

ثالث عشر - أبرزت الدراسة الأسباب التي جعلت مملكة حماة الأيوبية تعيش ما يقرب من نصف قرن في ظل حكم الدولة المملوكية ، ولعل في مقدمة تلك الأسباب الخضوع التام ، الذي ما فتيء ملوك حماة ، يظهرونه للسلطان المملوكي في كل مناسبة ، حتى غدا شعارهم - كما كان يردد المنصور الثاني - " أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان " . وقد تعرض المنصور الثاني لامتحانات قاسية بشأن ولائه للسلطان المملوكي . لكنه تشبث بتبعيته لمن يملك مصر ، لأنه تعلّم من دروس التاريخ ، ومن خبرته في مجال السياسة ، أن من يملك مصر بقدراتها البشرية والمادية الضخمة ، يستطيع التغلب على خصومه في بلاد الشام .

وكان من أسباب بقاء مملكة حماة الأيوبية قائمة فترة من الزمن ، السياسة الحكيمة التي اتبعها المنصور الثاني مع المغول ، وساعده على تنفيذها أمراؤه وحاشيته ، فرغم معارضته منذ البداية لسياسة التودد مع المغول إلاّ أنه لم يحاول مقاومتهم ، أو استفزازهم ، فكان يترك حماة كلما اقترب الخطر المغولي منها ، ويعود إليها بعد زوال ذلك الخطر .

كما أنّ محبة الحمويين لملوكهم من الأسرة التقوية الأيوبية ، وتمسكهم ببقاء حكمهم كان من أسباب بقاء المملكة الأيوبية في حماة على قيد الحياة فترةً طويلة من الزمن ، ولكن عندما اختفى ذلك الشعور ، زمن المظفر الثالث كان عاملاً من عوامل السقوط .

رابع عشر - بيّن البحث أيضاً أثر مملكة حماة في مقتل كل من : فارس الدين أقطاي ، زعيم المماليك البحرية ، والمعز أيبك ، أول سلاطين الدولة المملوكية، وزوجته شجر الدر ، وما أسفرت عنه من نتائج .

خامس عشر - أبرز البحث أيضاً ، الدور الجهادي الضخم ، الذي قامت به مملكة حماة الأيوبية ، زمن المنصور الثاني ، وهو استمرار لما قام به أسلافه من قبل . فقد جاهد المنصور الصليبيين ، والمغول ، والأرمن ، وخاض معهم معارك كبرى ، كانت لها نتائج بعيدة الأثر ، وكان بعضها من المعارك الفاصلة في التاريخ الاسلامي .

سادس عشر - أوضح البحث أيضاً العلاقة المباشرة التي ربطت بين طائفة الاسماعيلية في بلاد الشام ، وبين مملكة حماة الأيوبية ، منذ أن نجح صلاح الدين في ضمها إلى درلته ، وقد استمرت تلك العلاقة حتى تلاشت قوة الطائفة الاسماعيلية وانتهى دورها في عصر الحروب الصليبية .

سابع عشر - كما أوضح البحث أن حماة لم تشتهر ، وتصبح من أمهات المدن في بلاد الشام ، إلاّ بعد أنْ تعاقب على حكمها أفراد الأسرة التقوية الأيوبية ، إذ لم يكن لها قبلهم دورٌ يذكر .

ثامن عشر - وأخيراً حاول البحث تقصي أسباب سقوط مملكة حماة الأيوبية، واستطاع تسجيل أبرز تلك الأسباب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

الملاحـــق

الملحق الأول : اشتراك المنصور الثاني مع الناصر يوسف في محاربة البحرية سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م.

الملحق الثاني : اشتراك العسكر الحموي مع الناصر يوسف في محاولته القضاء على دولــة المماليك الناشئة .

الملحق الثالث : استسلام حماة للمغول سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م .

الملحق الرابع : غزوة المنصور الثاني لبلاد الأرمن .

الملحق الأول

اشتراك المنصور الثاني مع الناصر يوسف

في محاربة البحرية سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م(*)

... سار الملك الناصر يوسف من دمشق بنفسه وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره ، إلى جهة الكرك ، ونزل على بركة زيزا ، محاصراً للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية .

الملحق الثاني

اشتراك العسكر الحموي مع الناصر يوسف

في محاولته القضاء على دولة المماليك الناشئة(**)

... وسافر في خدمته(١)، الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصاري ، وهو رسول الملك المنصور صاحب حماة ، وكان قد أمره بملازمة السلطان الملك الناصر ، إلى أن يصل في خدمته إلى الديار المصرية ، ومعه جماعة من عسكر حماة نجدة .

(*) تاريخ ابن أسباط الغربي ، ورقة ٧١ أ.

(**) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦، ورقة ١٥٩ .

(١) أي في خدمة الملك الناصر يوسف .

الملحق الثالث

استسلام حماة للمغول سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م(*)

ولما بلغ أهل حماة فتح حلب ، توجه الطواشي مرشد من حماة إلى الملك المنصور صاحب حماة بدمشق ، وجاء كبراء(١) حماة إلى حلب ، ومعهم مفاتيح حماة ، وسلموها(٢) [إلى](٣) هولاكو(٤)، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة ، وشحنة(٥) يكون(٦) عندهم ، فأمّنهم هولاكو(٧)، وأرسل إلى حماة شحنةً ، رجلاً أعجمياً، كان يَدّعِي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له : خسروشاه ، فقدم إلى حماة ، وتولاها، وأمّن الرعية ، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قايماز أمير جاندار ، فسلم القلعة إليه ، ودخل في طاعة التتار .

(*) اليافعي : جامع التواريخ المصرية . ورقة ١٥٢ ب .

(١) في الأصل : كبرا .

(٢) في الأصل : حملوها .

(٣) زيادة اقتضاها السياق .

(٤) في الأصل : هلاوون ، وهكذا ورد في مصادر اسلامية أخرى.

(٥) عن تعريف الشحنة انظر ما سبق الجزء الرابع ، ص ٢٨٢ حاشية " ١ " . (٦) في الأصل : تكون .

(٧) في الأصل : هلاوون.

الملحق الرابع

غزوة المنصور الثاني لبلاد الأرمن(*)

في هذه السنة(١)، أرسل السلطان(٢) الملك(٣) المنصور، وصحبته العساكر المنصورة، المصرية والشامية ، وعز الدين إيغان(٤) – المعروف بسم الموت – فدخلوا إلى بلاد سيس ، من جهة دربند(٥) مري، وكان صاحب سيس هيتوم(٦)، قد حصر الدربند، ونصب عليه المناجيق، وجعل عسكره وولده(٧) ليكون على الجبل المطل على الدربند، والرجالة قد ملأت تلك الجبال والأودية، فصعدت العساكر الإسلامية من كل جانب، [وحكمت عليهم](٨)، فانهزم الأرمن، فتبعهم المسلمون ، وأسر ابن صاحب سيس(٩)، ومعه جماعة من أهله، ونزل الملك المنصور وعز الدين إيغان(١٠) على نهر جهان ، وإلى جانب هذا النهر، من جهة الشمال ، قلعة صغيرة ، يقال لها : العامودين(١١)،

(*) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٢١٤ب .

(١) سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

(٢) السلطان الظاهر بيبرس .

(٣) في الأصل : " للملك " .

(٤) في الأصل : " اوغان " وهو خطأ وانظر ما سبق ص ٢٩٤ من هذا البحث .

(٥) الدربند : ممر بين الجبال .

(٦) الملك هيثو الأول (٦١٩هـ/١٢٢٢م – ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) وفي الأصل: "هيتوم " .

(٧) وهما اثنان وليس إبناً واحداً ، وهما الأميران : ثوروس وليو .

(٨) هكذا .

(٩) الأمير " ليو " وكان ولياً للعهد . انظر ما سبق ص ٣٠٩–٣١٠ من هذا البحث .

(١٠) في الأصل " اوغان " .

(١١) العامودين : قلعة من قلاع الداوية في بلاد الأرمن . انظر ما سبق ص ٣١٠ حاشية " ١ " .

وهي منيعة ، فبات العسكر تحتها، وأهل القلعة يظنون أن البلاد قد ملكت، وعسكرهم قد انكسر، و(ملكهم ولي العهد)(١) قد أسر ، فراسلوا في طلب الأمان ، على أنْ ينزلوا من القلعة ، فأمّنهم إيغان(٢). فلما نزلوا ضرب رقابهم(٣) واستباح أموالهم وأولادهم ، وخرّب الحصن(٤)، ولو لم ينزلوا لما قدر أحد عليهم، وإنما لكل أجل كتاب ، وحاز العسكر من الغنائم(٥) والأموال مَا لاَ يُحصيه إلاّ الله تعالى .

---

(١) مكذا .

(٢) في الأصل : أوغان .

(٣) في الأصل : ارقابهم .

(٤) يقصد قلعة العامودين .

(٥) في الأصل : الغنايم .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

– ابن أبي الدم (القاضي أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الحموي، ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م)، التاريخ المظفري ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ ، عن نسخة مكتبة خدابخش بالهند برقم ٣٨٦٩ .

– ابن أبي الهيجاء (ابن أبي الهيجاء ، ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) تاريخ ابن أبي الهيجاء ج١ صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٠٥٨، عن نسخة المكتبة الأحمدية بتونس برقم ٤٩١٥ .

– ابن أسباط الغربي (حمزة بن أحمد بن عمر بن صالح المعروف بابن أسباط الغربي ، ت ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م) تاريخ ابن أسباط الغربي ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٧١٧ ، عن نسخة مكتبة الفاتيكان بايطالية برقم ٢٧٠ .

– ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٠١٥ ، عن نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية برقم ٣٨٢٨ .

– ابن تغري بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردى الأتابكي ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، الجزء الخامس برقم ٧٤٢ ، والجزء السابع برقم ٤٧٤ ، والجزء الثامن برقم ٤٧٥ ، عن نسخة دار الكتب المصرية برقم ١٣٨١٠ ح .

– ابن الجزري (محمد بن ابراهيم بن أبي بكر ، المعروف بابن الجزري، ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) جواهر السلوك ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٠٥٩ ، عن نسخة مكتبة تيمور برقم ٢١٥٩.

- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحنبلي ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) جهينة أخبار ملوك الأمصار ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٨١٨ ، عن نسخة مكتبة كوبرلي بتركيا برقم ١٦٩ .

- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) عيون التواريخ ، الجزء التاسع عشر ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٣٦٦ ، عن نسخة مكتبة شستربتي ، ايرلنده ، دبلن ، رقم ٤٢٥٧.

- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن شداد ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م) تاريخ الظاهر بيبرس ، الجزء الثاني ، صورة بمكتبة الدكتور : علي محمد الغامدي ، الخاصة .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات ، الجزء السادس ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٦١٢ ، عن نسخة الخزانة العامة بالرباط برقم ٥٤١ ق .

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن أبي بكر ، ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م) الإعلام بتاريخ الإسلام ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٧٣٦ ، عن نسخة مكتبة فيض الله بتركيا برقم ١٤٠٣.

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م) :

١-التاريخ الصالحي ، صورة بمكتبة الدكتور علي محمد الغامدي ، الخاصة .

٢- تاريخ الواصلين(الجزء السادس من كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) صورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، عن نسخة باريس .

– أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٨٧٥ ، عن نسخة مكتبة الطاهر بن عاشور الخاصة رقم ١١٢.

– أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ابن الملك الأفضل علي ، ت ٧٣٢ هـ /١٣٣٢م) التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٣٠٢، عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ م .

– الأصفهاني (القاضي عماد الدين أبو عبدالله بن صفي الدين الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣هـ إلى سنة ٦٣٥ هـ ، على المخطوطة نفسها ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٢٠٨ ، عن نسخة مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، برقم ٢٩٥٩ .

– البرزالي (علم الدين القاسم بن محمد البرزالي ، ت ٧٣٩ هـ / ١٣٤٠م) المقتفي لتاريخ أبي شامة ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٧٠٤ ، عن نسخة مكتبة أحمد الثالث باستنبول برقم ٢٩٥١.

– تاج الدين اليماني (عبد الباقي بن عبدالمجيد بن عبدالله اليماني المخزومي المكي ، ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) لقطة العجلان الملخص من وفيات الأعيان ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، عن نسخة مكتبة الخزانة العامة بالرباط برقم ٦٢٣.

– الجزري (محمد بن محمدبن محمد الجزري ، ت ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩م) تاريخ الجزري ، صورة بمكتبة الحرم المكي برقم ٣١٣٧، عن نسخة مكتبة عارف حكمت .

- الدبيساوي (محمد بن محمد ، ت ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م) الزهر الزاهر في الدلالة على قدرة العزيز القاهر ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٩٦ ، عن نسخة مكتبة شستربتي ، ايرلنده ، دبلن برقم ٥٣٦٨.

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٦٥٩ ، عن نسخة المكتبة التيمورية برقم ٢١٠٢ .

- العليمي (مجير الدين بن عبد الرحمن العليمي المقدسي ، ت ٩٢٨هـ /١٥٢١م):

١ - التاريخ المعتبر في أنباء من عبر، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٣٧٥، عن نسخة جامعة برنستون " مجموعة يهوذا" رقم ٢٢٦٣ .

٢ - كتاب تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٢٠٦ ، عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤ .

- العيني (بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد العيني ، ت ٨٥٥هـ /١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٨١ ، عن نسخة مكتبة أحمد الثالث باسطنبول برقم ٢٣٩٢ ، "الجزء الثامن والعشرون " .

- مؤلف مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٣١٠، عن نسخة مكتبة جامعة بغداد للدراسات العليا رقم ٢٤٨ .

- اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد اليافعي ، كان حياً سنة ٦٧٩هـ) جامع التواريخ المصرية في ذكرالملوك والخلفاء والسلاطين الاسلامية ، صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١١٤٢، عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٤٣.

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة :

- القرآن الكريم .

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي ، المعروف بابن أبي أصيبعة ، ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).

١ - الكامل في التاريخ ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، بيروت ، دار صادر، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

٢ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .

- ابن أحمد حكمي (الشيخ حافظ بن أحمد حكمي ، ت ١٣٣٧هـ / ١٩٥٧م) معارج القبول بشرح سلّم الأصول إلى معالم الوصول ، تحقيق : عمر محمود أبو عمر ، الدمام ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

- ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ /١٩٧٢م ، الجزء الثامن وعنوانه : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق : أولرخ هارمان ، القاهرة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١ م.

- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردى الأتابكي ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م):

١ - الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تحقيق : فهيم شلتوت ، مكتبة

الخانجي ،القاهرة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٢ – المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الجزء الأول ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م . والجزء الثاني ، تحقيق : محمد محمد أمين ، القاهرة ، ١٩٨٤م.

٣ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة ، عن طبعة دار الكتب المصرية .

– ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك ، المعروف برحلة ابن جبير ، لجنة تحقيق التراث ، بيروت ، ١٩٨٦م .

– ابن الجزري (محمد بن ابراهيم بن أبي بكر ، ت ٧٣٩ هـ/ ١٢٣٣٨م) المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى "حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه " اختيار : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : خضير عباس المنشداوي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

– ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحنبلي ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦م.

– ابن حجر (شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .

– ابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي ، ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ثمرات الأوراق ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)

صورة الأرض ، ط بيروت ١٩٧٩م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م)

تاريخ ابن خلدون المسمى " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " بيروت .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، دار صادر .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) :

١ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بيروت .

٢ - الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق : سعيد عبدالفتاح عاشور ، مكة المكرمة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢.

- ابن الساعي (علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ، ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م) الجامع المختصر في عناوين التواريخ وعيون السير ، الجزء التاسع ، تحقيق : مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):

١ - عيون التواريخ ، الجزء العشرون ، تحقيق : فيصل السامر ، ونبيلة عبدالمنعم ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠م .

٢ - فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٣م.

- ابن شاهنشاه (الملك المنصور الأول محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، صاحب حماة وابن صاحبها ، ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

- ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح : بولس راويس ، باريس ، ١٨٩٤م.

- ابن الشحنة الصغير (محمد بن محمد بن محمد الحلبي ، المعروف بابن الشحنة الصغير ، ت ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم : عبدالله محمد الدرويش ، سورية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- ابن الشحنة الكبير (أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد ، ت ٨١٥هـ/١٤١٢م) روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، مطبوع بهامش الجزء السادس من كتاب " الكامل في التاريخ لابن الأثير " المطبعة الكبرى ، ١٢٩٠هـ .

- ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة، ١٩٦٤م .

- ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي ، ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الثاني تحقيق سامي الدهان ، قسم مدينة دمشق ، ط. دمشق ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، وقسم لبنان والأردن وفلسطين ط. دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ، الجزء الثالث ، تحقيق : يحيى عبارة ، دمشق ١٩٧٨م .

- ابن طباطبا (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت .

– ابن طولون (محمد بن طولون الصالحي ، ت ٩٥٣ هـ/١٥٤٦م) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م .

– ابن عبد الظاهر (محي الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر ابن نشوان السعدي المصري ، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):

١ – الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق : عبدالعزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٢ – تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق : مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١م .

– ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطي المعروف بابن العبري ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٩٥٨م.

– ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م):

١ – بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .

٢ – زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، دمشق ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

– ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد بن العماد ، ت ١٠٨٩هـ/١٧٧٥م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت .

– ابن العميد(المكين جرجيس بن العميد ، ت ٦٧٢هـ/١٢٧٤م) أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .

– ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي ، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات، الجزء الرابع و الجزء الخامس ، تحقيق : محمد الشماع ، البصرة ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. الجزء السابع ، تحقيق : قسطنطين رزيق ، بيروت ، ١٩٤٢م . الجزء الثامن ، تحقيق : قسطنطين رزيق ، ونجلاء عز الدين، بيروت ، ١٩٣٩م .

– ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار :

١ – " قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين "، ط أولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٢ – " دولة المماليك الأولى " تحقيق : دورو تياكرا فولسكي ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

– ابن الفوطي (كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني ، ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة ، تصحيح وتعليق : مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .

– ابن قاضي شهبة (أبو بكر أحمد بن محمد بن قاضي شهبة ، ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨م):

١ – طبقات الشافعية ، تحقيق : الحافظ عبد العليم خان ، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢ – طبقات النحويين واللغاة ، تحقيق : محسن غياض ، مطبعة النعمان، النجف ، العراق .

– ابن قنفذالقسنطيني(أحمد بن حسين بن الخطيب المعروف بابن قنفذ ، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) الوفيات ، تحقيق :عادل نويهض ، بيروت، ١٩٧٨م.

– ابن كثير (أبو الفداء الحافظ اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية ، تحقيق : أحمد أبو ملحم وآخرين ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

– ابن مالك (جمال الدين بن محمد بن عبدالله بن مالك ، ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ ، تحقيق : عدنان الدوري ، بغداد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

– ابن المستوفي (شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد النجمي الأربلي، ت ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠م) تاريخ اربل المسمى " نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل ، الجزء الثاني ، تحقيق : سامي خماس الصقار ، بغداد ، ١٩٨٠م .

– ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن منصور ، ت ٧١١ هـ / ١٣١١م) لسان العرب ، بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

– ابن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، ت ٥٨٤ هـ / ١١٩٢م) الاعتبار . تحقيق : فيليب حتى ، ط. القاهرة .

– ابن نصر الله الحنبلي(أحمد بن ابراهيم بن نصر الله ، ت ٨٧٦هـ /١٤٧١م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، بغداد ، ١٩٧٨م .

– ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف ، عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري) التاريخ المنصوري " تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان " تحقيق : أبي العيد دودو ، دمشق ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الأجزاء الأول والثاني والثالث ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ١٩٥٣م ، ١٩٥٧م ، ١٩٦٠م . الأجزاء الرابع والخامس ، تحقيق : حسنين محمد ربيع ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ١٩٧٧م .

- ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) تحقيق : أحمد رفعت البدراوي ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) :

١ - الروضتين في أخبار الدولتين ، بيروت .

٢ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بـ " ذيل الروضتين" ، تعريب وتصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، نشر عزت العطار ، ط. الثانية ، ١٩٧٤م.

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ابن الملك الأفضل علي ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) :

١ - المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة .

٢ - تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

- الأدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق : سعد محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

- الأسنوي (جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي ، ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م) طبقات الشافعية ، تحقيق : كمال يوسف الحوت، بيروت ، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م .

– الأصفهاني (القاضي عماد الدين أبو عبدالله بن صفي الدين الملقب بالعماد الكاتب الأصفهاني ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م):

١ – خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق : شكري فيصل ، دمشق ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م .

٢ – الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبح، القاهرة، ١٩٦٥م.

– البنداري (الفتح بن علي بن محمد ، ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) سنا البرق الشامي (اختصار الفتح بن علي من كتاب البرق الشامي للأصفهاني العماد الكاتب) تحقيق : فتحية النبراوي ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

– بيبرس المنصوري الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الدوادار ، مملوك السلطان قلاوون الألفي ، ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م):

١ – زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع ، تحقيق : زبيدة محمد عطا ، دار المدينة للطباعة والنشر .

٢ – التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشره عبد الحميد صالح حمدان ، ط. الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

– الجزري (محمد بن محمد بن محمد الجزري ، ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق : ج. برجسترسر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– حاجي خليفة (المولى مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الشهير بالملا كاتب الحلبي ، ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

– الحريري (أحمد بن علي بن أحمد كان حياً سنة ٩٢٦هـ) الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، تحقيق : مهدي رزق الله، الاسكندرية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

– الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين ، ت ٩٦٦هـ/١٥٥٩م) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، بيروت ، بدون تاريخ .

– الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م):

١ – تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرين ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .

٢ – دول الاسلام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

٣ – سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، بيروت ، الطبعة السابعة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.

٤ – العبر في خبر من غبر ، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد، بيروت .

– الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٨٩م) ترويح القلوب بذكر الملوك بني أيوب ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٨٣م.

– سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن ، حيدرآباد، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

– السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي ، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية .

– السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م):

١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

٢ - تاريخ الخلفاء ، بيروت .

- السيوطي (محمد بن شهاب الدين المنهاجي ، ت ٨٨٠هـ/١٤٧٥م) اتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق : أحمد رمضان ، القاهرة، ١٩٨٢م.

- شافع بن علي (شافع بن علي بن عباس ، ت ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠م) حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) الملل والنحل ، تحقيق : عبد العزيز الوكيل ، بيروت ، بدون تاريخ .

- شيخ الربوة (شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة ، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .

Cosmoggraphie Publ Par A. Mehren Ottoharra Ssowitz Leipiz 1923.

- شيخ شيوخ حماة (الصاحب شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصاري ، ت ٦٦٢هـ/١٢٦٣م)ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري . تحقيق : عمر موسى باشا ، دمشق ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسن ، ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م) تاريخ بيروت المسمى " أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت " تحقيق : فرنسيس هورمس وآخرين ، بيروت ١٩٦٧م.

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) الوافي بالوفيات ، نشر وتحقيق جمعية المستشرقين الألمانية فسبادن ١٩٦٢-١٩٨٢م.

- الطرسوسي(مرضي بن علي بن مرضي ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م) تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، تحقيق كلودكاهين ، مجلة الدراسات الشرقية بدمشق ، ج ١٢ (١٩٤٧ – ١٩٤٧م).

- عبد الواحد المراكشي(عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي ، ت ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

- العليمي (مجير الدين بن عبد الرحمن العليمي المقدسي ، ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، ١٩٧٣م .

- العيني (بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد العيني ، ت ٨٥٥هـ /١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ، الجزأين الأول والثاني ، تحقيق : محمد أمين ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ، ت ٨١٧هـ /١٤١٥م) البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، تحقيق : محمد المصري ، دمشق ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧.

- المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

١ – السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦ – ١٩٧٠م .

٢ – خطط المقريزي المعروفة باسم " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط. القاهرة ، ١٢٧٠م .

- المنذري (أبو محمد عبد العظيم بن عبدالله المنذري ، ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق : بشار عواد معروف ، بيروت ، الطبعة الثانية .

- النسوي (نور الدين محمد بن أحمد بن علي ، كان حياً قبل سنة ٦٣٩هـ) سيرة جلال الدين منكبرتي ، تحقيق : حافظ حمدي ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

- النعيمي (عبد القادر بن محمد بن عمر الدمشقي ، ت ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م) الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، ت ٧٣٣هـ /١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب ، الأجزاء : الثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، والثلاثون ، والواحد والثلاثون ، تحقيق : محمد عبد الهادي شعيرة ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- الهمذاني(رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير بن علي الهمذاني ، ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦م) جامع التواريخ " تاريخ خلفاء جنكيز خان " ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، بيروت ، ١٩٨٣ .

- اليافعي (عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان ، بيروت ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

- ياقوت الحموي(شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي ، ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م):

١ - معجم الأدباء ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٢ - معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد اليونيني ، ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان ، ٤ أجزاء ، حيدر آباد ، ١٣٧٤-١٣٨٠هـ / ١٩٥٤-١٩٦١م.

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة :

- ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ، ١٣٨٨هـ .

- احسان إلهي ظهير : الاسماعيلية تاريخ وعقائد ، لاهور ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٧٢م.

- أحمد رمضان : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧ م.

- اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين من أسماء المؤلفين والمصنفين من كشف الظنون ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- أحمد الصابوني : تاريخ حماة ، شرحه وعلق عليه الحاج قدري الكيلاني ، الطبعة الثانية .

- أحمد عيسى :

١ - معجم الأطباء " ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء " بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٢ - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية ، دمشق ١٩٨٤م .

- أحمد فائز الحمصي : روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية ، دمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ١٤٠٦هـ .

- أحمد مختار العبادي وسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٨١م .

- اسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين من أسماء المؤلفين والمصنفين من كشف الظنون ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- أنتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد غسان ونبيل الجيرودي ، دمشق ١٩٨٥م .

- بسام العسلي : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- توفيق أحمد عبد الجواد : تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، المطبعة الفنية الحديثة بالزيتون .

– جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م .

– حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، دار الفكر العربي .

– حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

– حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، بيروت ١٩٦٧م.

– حسن باشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والآثار ، القاهرة ، ١٩٥٧م.

– حسن شميساني : مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

– حسن عبد الوهاب حسين : التيوتون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩م .

– خاشع المعاضيدي وآخرون : تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط. ١٩٨٦م .

– خير الدين الزركلي : الأعلام ، بيروت ، ١٩٨٦م .

– ر. سي . سميل : الحروب الصليبية ، ترجمة سامي هاشم ، بيروت، ١٩٨٢م .

– ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ، ١٩٦٨م .

– سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

– سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ – الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

٢ – الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م.

٣ – بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٧م.

٤ – الظاهر بيبرس ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

– السيد الباز العريني :

١ – الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون ، بيروت ، ١٩٦٧م ،
(٢) المماليك ، بيروت بدون تاريخ .

(٣) المغول ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

– شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، الشام ، دار المعارف ، ط، ٢ .

– صادق جودة : المدارس العصرونية في بلاد الشام ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– طلال العصيمي:الاقطاع الحربي في العصر الأيوبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

– عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

– عبدالله سعيد محمد الغامدي :

١ – جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، مكة المكرمة ، ١٤١٠هـ .

٢ – صلاح الدين والصليبيون " استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين " مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

– علي القيم : البيمارستان فخر العمارة الاسلامية ، مقالة نشرت في جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٥١٥٥ ، في ١٤١٣/٧/١٥هـ –

٨/١/١٩٩٣م .

– علي محمد الغامدي :

١ – بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٢ – سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قليقية ، مستلة من كتاب بحوث تاريخية (١-٢) الجمعية التاريخية السعودية ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

– علي محمود : الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ، دار عكاظ ، ١٤٠٢هـ .

– عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

– عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين العرب ، بيروت ، بدون تاريخ .

– فايد عاشور :

١ – الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ، القاهرة . دار الاعتصام ، الطبعة الأولى .

٢ – العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف .

– فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٠م .

– فولفغانغ مولر : القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة : وليد محمد الجلاد، دار الفكر .

– فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي، بيروت ، ١٩٧٢ م .

– قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ، دار الكتاب العربي .

– محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ،

القاهرة ، ١٩٦٠م .

– محمد علي الهرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار الاعتصام ، ١٤٠٠ هـ /١٩٨٠م .

– محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، تاريخها وعقائدها ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

– محمد كرد علي : خطط الشام ، بيروت ، الجزء ٥ ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، الجزء ٦ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م .

– محمد ماهر حمادة :

١ – الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٢ – الوثائق السياسية ، العصر المملوكي ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– محمد محمد حسين : الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة « حملة جان دي بيرين على مصر » الاسكندرية ١٩٧٨م .

– محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ، الجزء السابع " العهدالمملوكي" المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

– وفاء محمد علي : قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

– يوسف ابراهيم الشيخ عيد الزاملي : أثر الحركات الباطنية

فــي عرقلــة الجــهاد ضد الصليبيين ، رسـالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٧هـ -١٤٠٨هـ .

رابعاً : الدوريات

- أمـينة البـيطار : التـعليم في الشـام في العـصـر الأيوبـي ، مـقـالة نشـرت في مـجلة " تاريخ العرب والعالم " بيروت ، العـدد ٧٠ ،آب/ أغسطس ١٩٨٤م .

- حسن نصر الله : بعلبك في العهد الأيوبي ، مقالة نشرت في مـجلة " تاريخ العرب والعالم " بيروت ، العدد ٧٣ ، كانون أول/ ديسمبر ١٩٨٤م.

- دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، ١٤ جزء .

- علي القيم : البيمارستان فـخر العمارة الاسلامية ، مقالة منشورة في جريدة الشرق الأوسط العدد ٥١٥٥ في ١٤١٣/٧/١٥هـ - ١٩٩٣/١١/٨م

- الموسوعة العالمية ، النسخة العربية ، جنيف ، ١٩٨٩م.

خامساً : المراجع الأوربية :

- Ayyubids, Mamlukes and Crusaders. Selections From The Tarikh Al-Duwal-Muluk, of Ibn Al-Furat in two volumes. Text and Translation by U. and M.C.Lyons. Cambridge,l971.

- الخرائط :

١ - خريطة شمال بلاد الشام .

٢ - خريطة جنوب بلاد الشام .

٣ - مسرح الحروب الصليبية .

٤ - موقع مملكة حماة في العصر الأيوبي .

٥ - غزوات المغول في الشرق الأدنى .

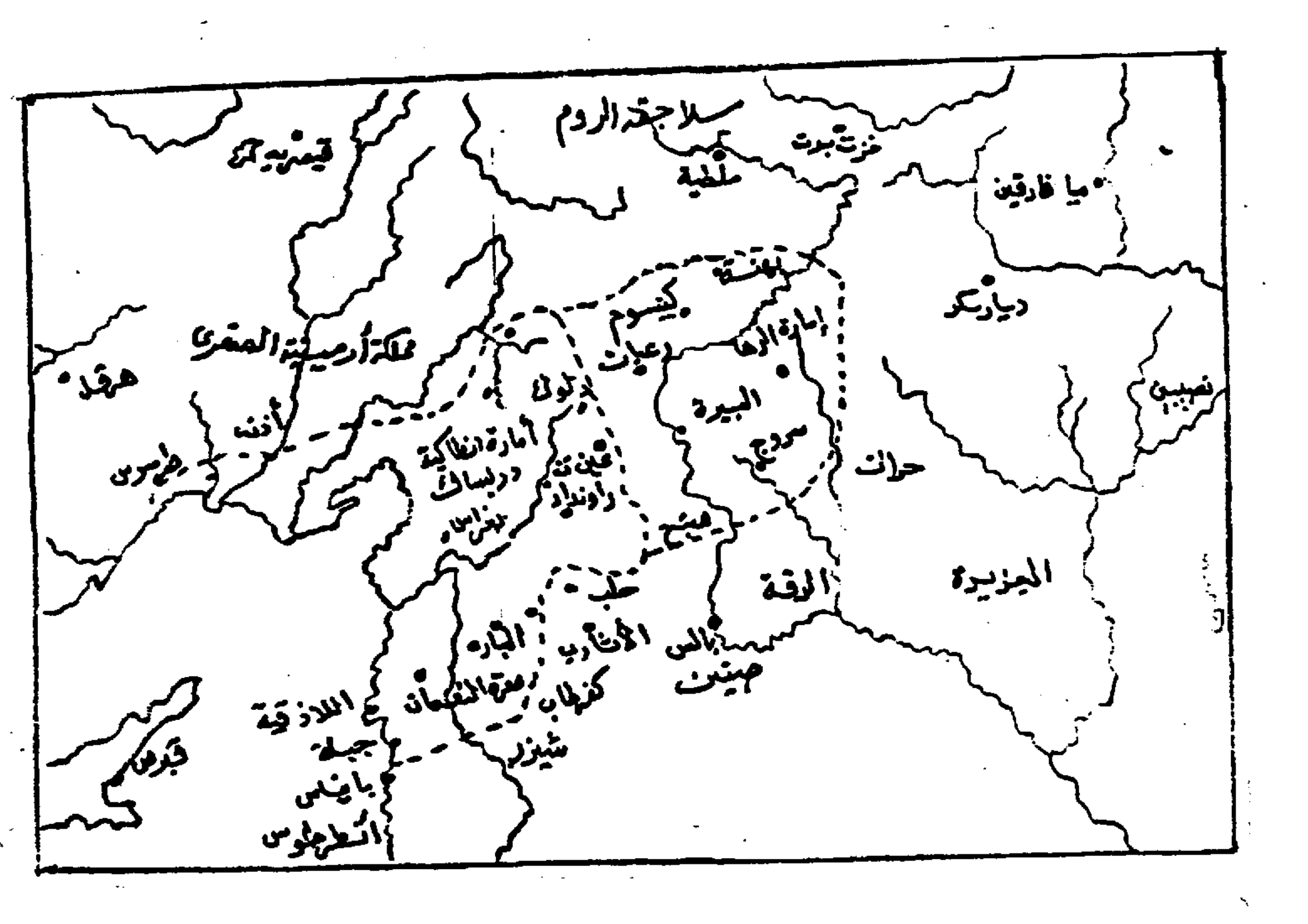
٦ - معركة عين جالوت .

٧ - قلاع الاسماعيلية في بلاد الشام في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي .

٨ - معركة عكا ٦٩٠هـ/١٢٩١م .

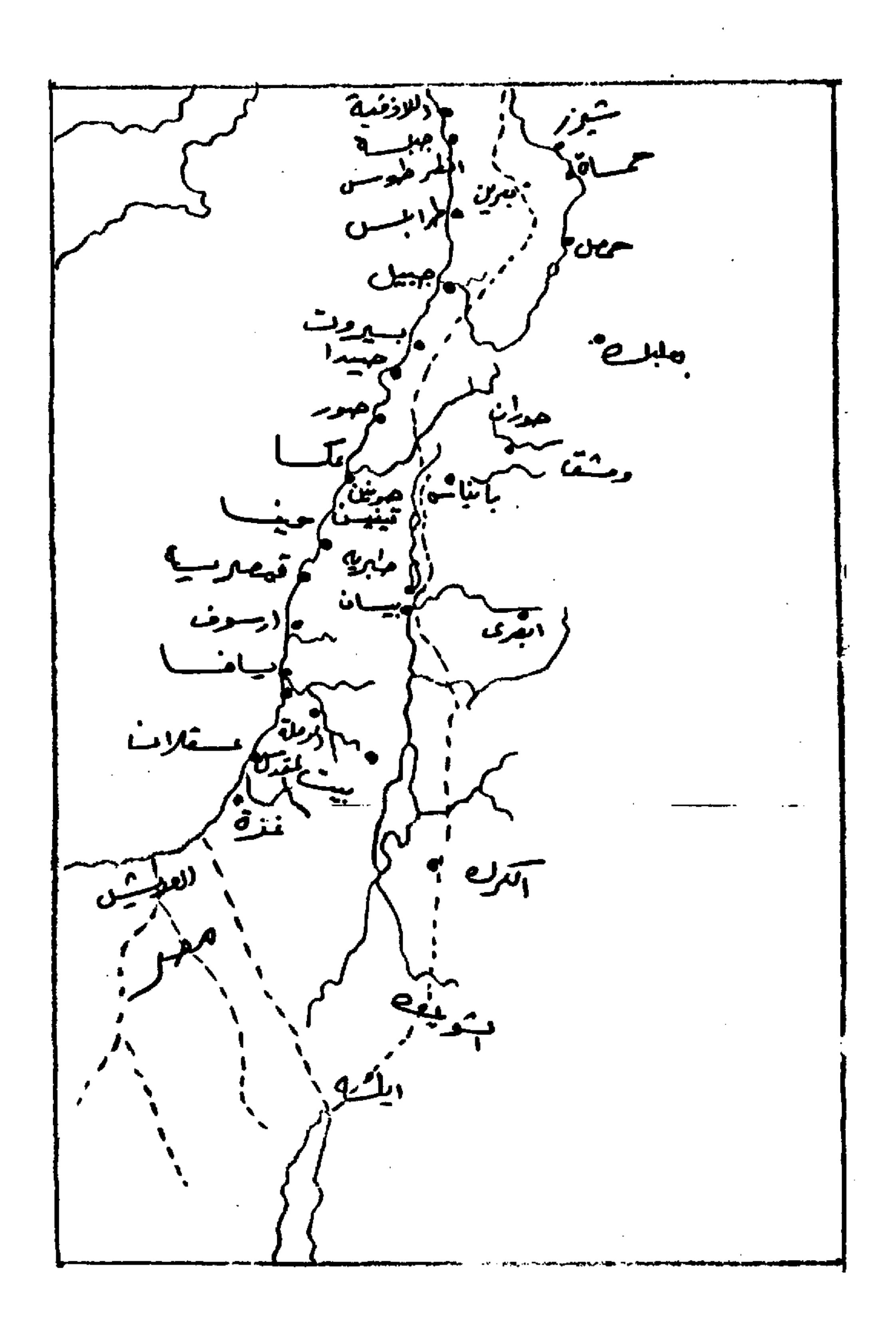
٩ - صورة المعسكر الإسلامي .

- شجرة نسب الأسرة التقوية .



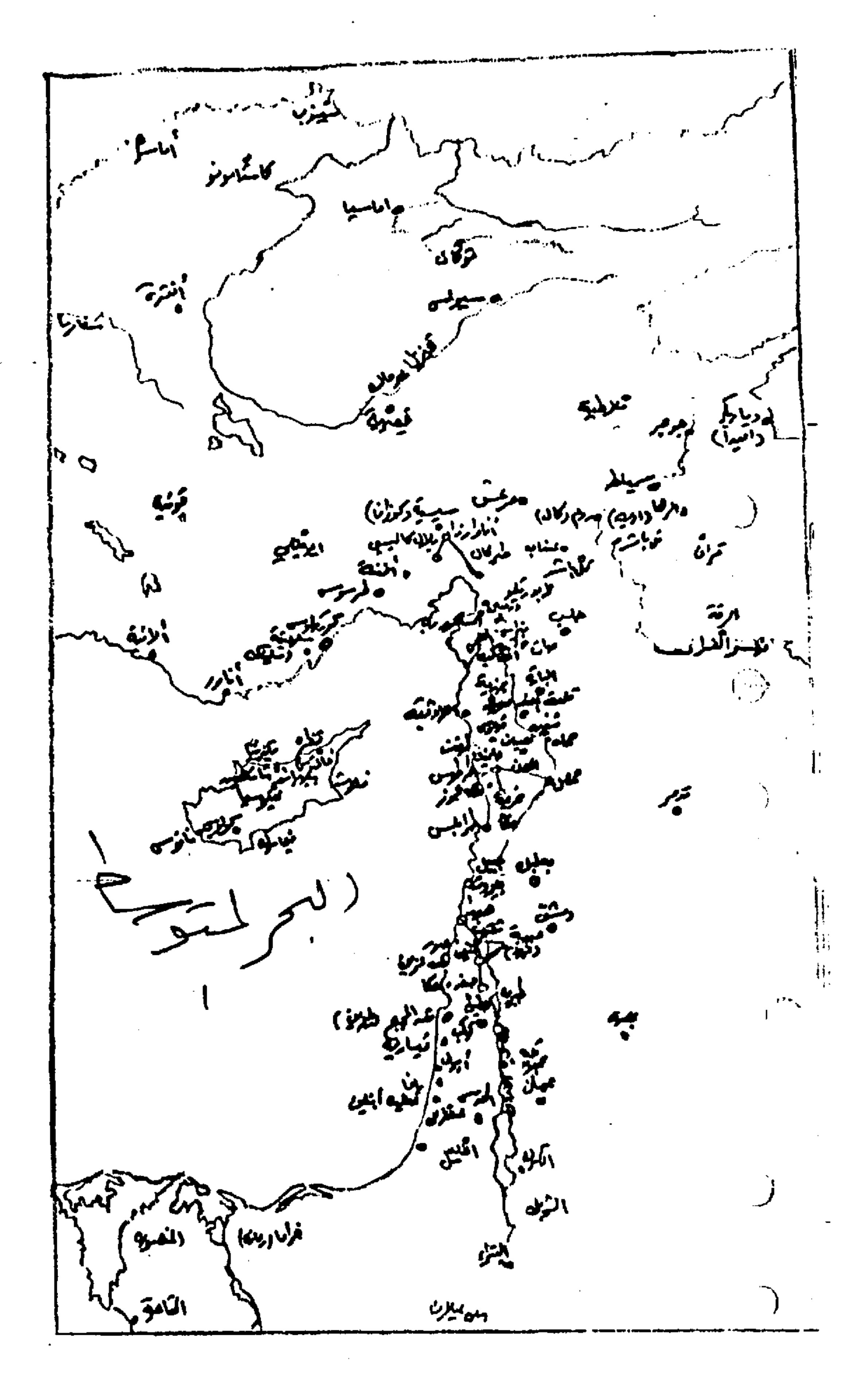
خريطة شمال بلاد الشام

نقلاً عن كتاب : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي لمؤلفة الدكتور علي الغامدي .



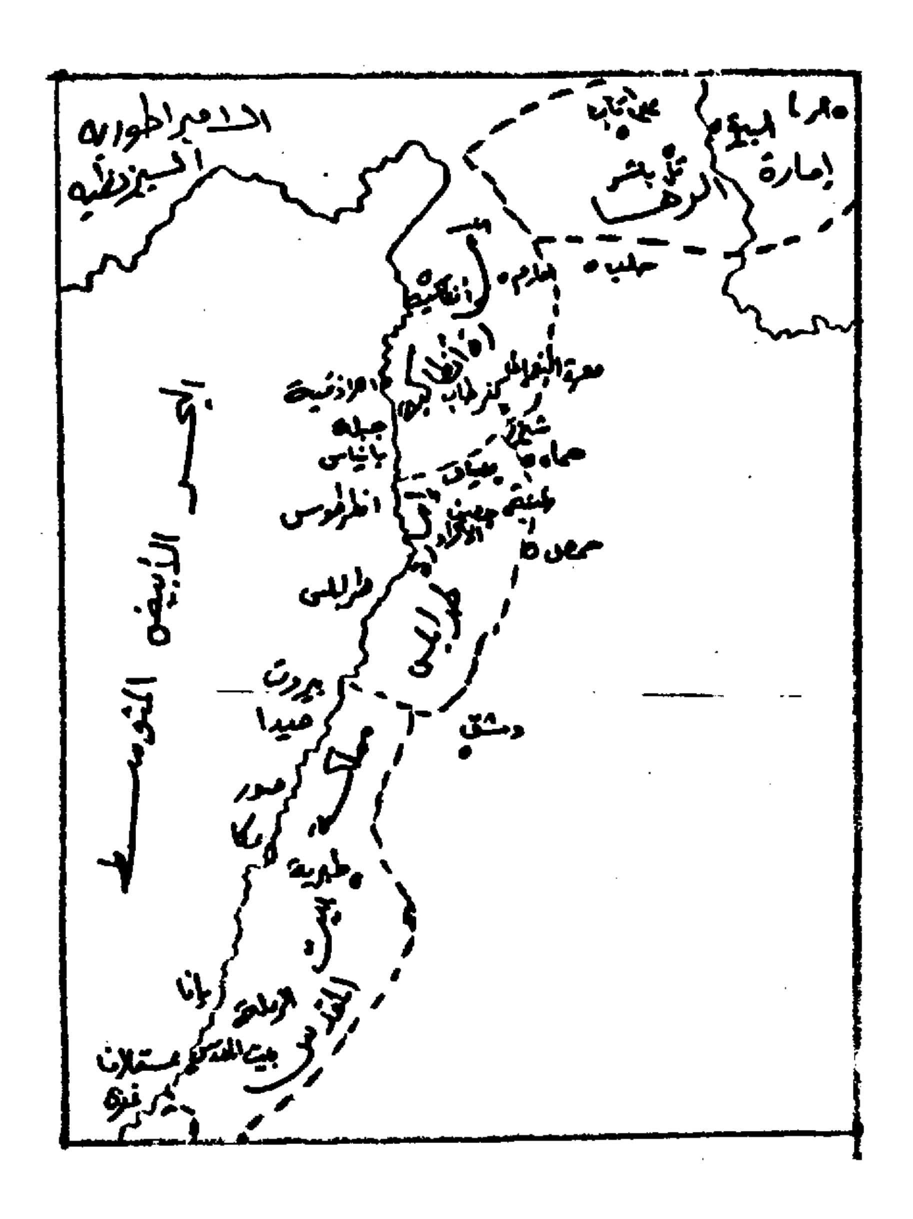
خريطة جنوب بلاد الشام

نقلاً عن كتاب : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي لمؤلفه الدكتور / علي الغامدي .



مسرح الحروب الصليبية

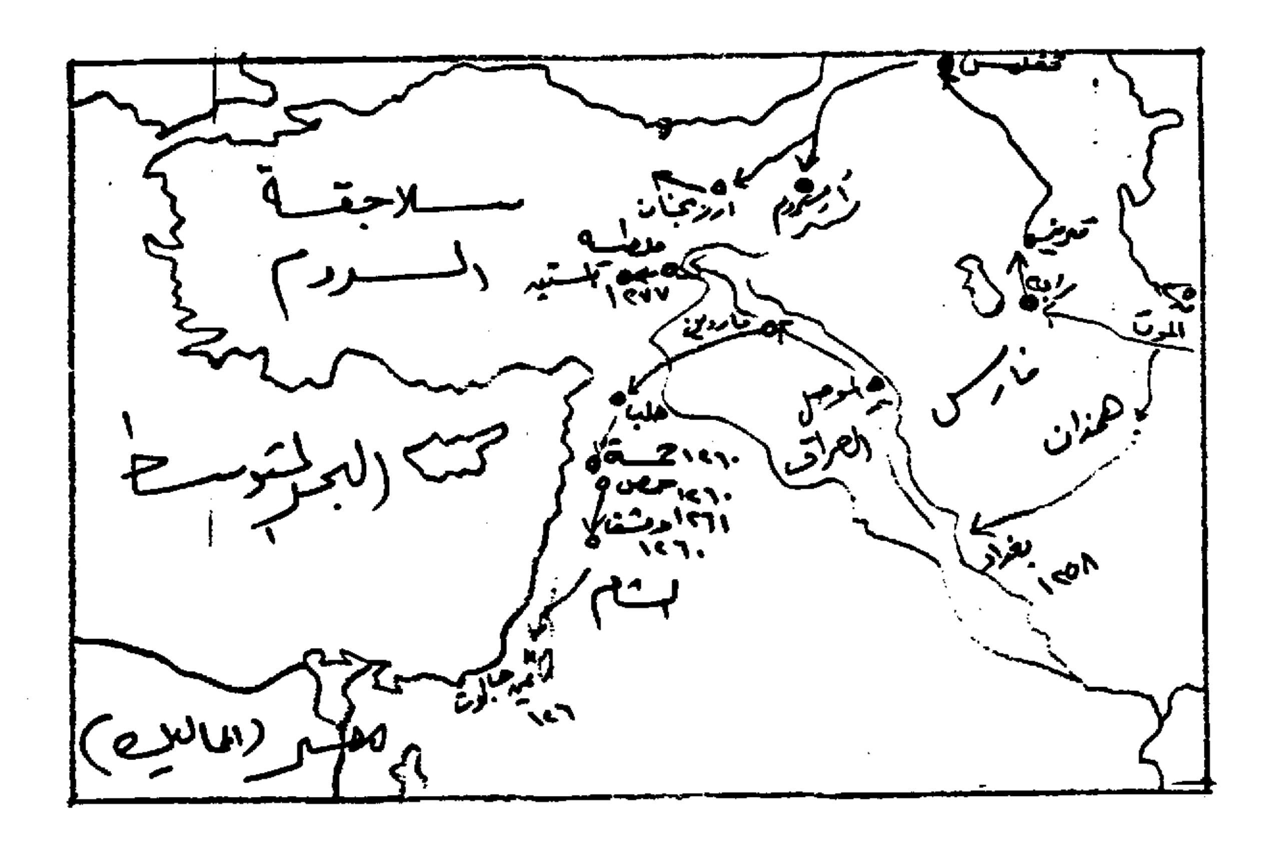
نقلاً عن كتاب : القلاع أيام الحروب الصليبية لمؤلفة : فولفغانغ مولّر



موقع مملكة حماة في العصر الأيوبي

نقلاً عن كتاب : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية

لمؤلفه : الدكتور حامد غنيم أبو سعيد



غزوات المغول في الشرق الأدنى

نقلاً عن كتاب : الحركة الصليبية .

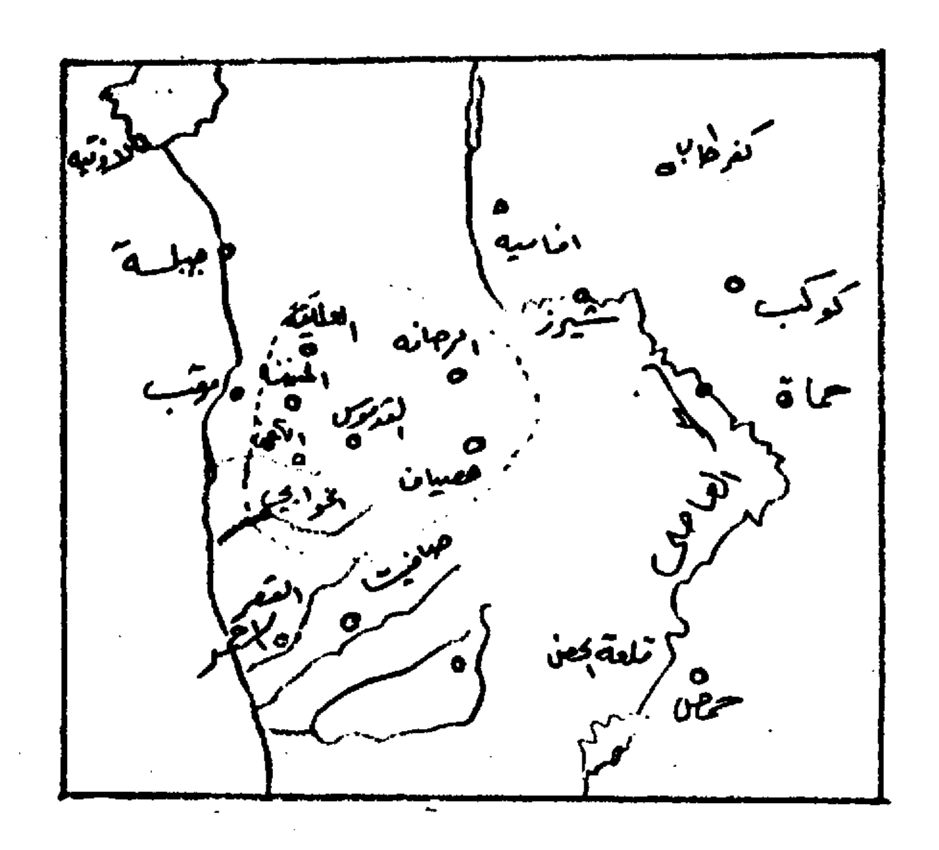
لمؤلفه : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور



معركة عين جالوت

نقلاً عن كتاب : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين

تأليف الدكتور : عبدالله سعيد الغامدي

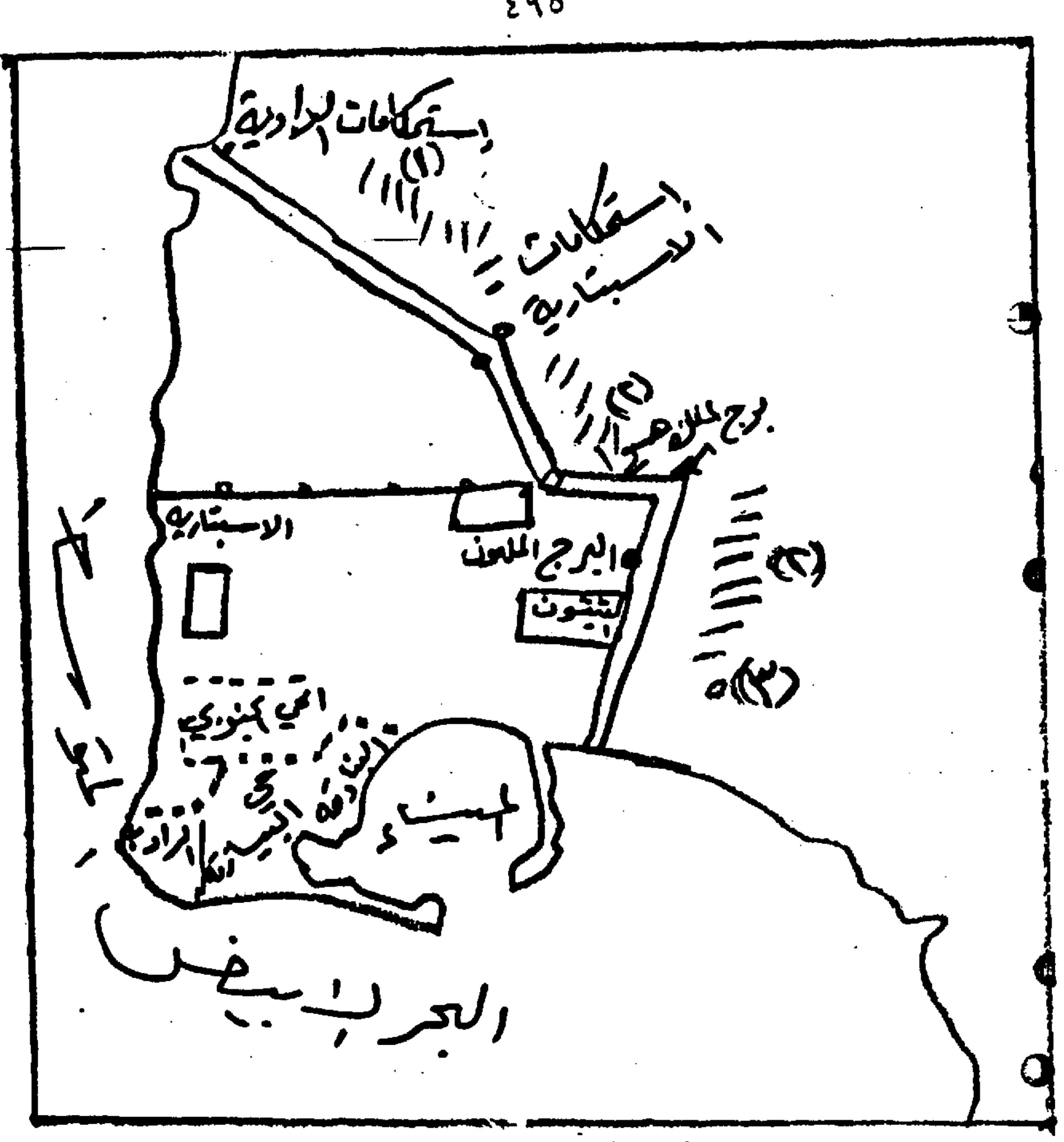


قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام

في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي

نقلاً عن كتاب : العدوان الصليبي على بلاد الشام

لمؤلفه : الدكتور جوزيف نسيم يوسف



معركة عكا ٦٩٠هـ / ١٢٩١م

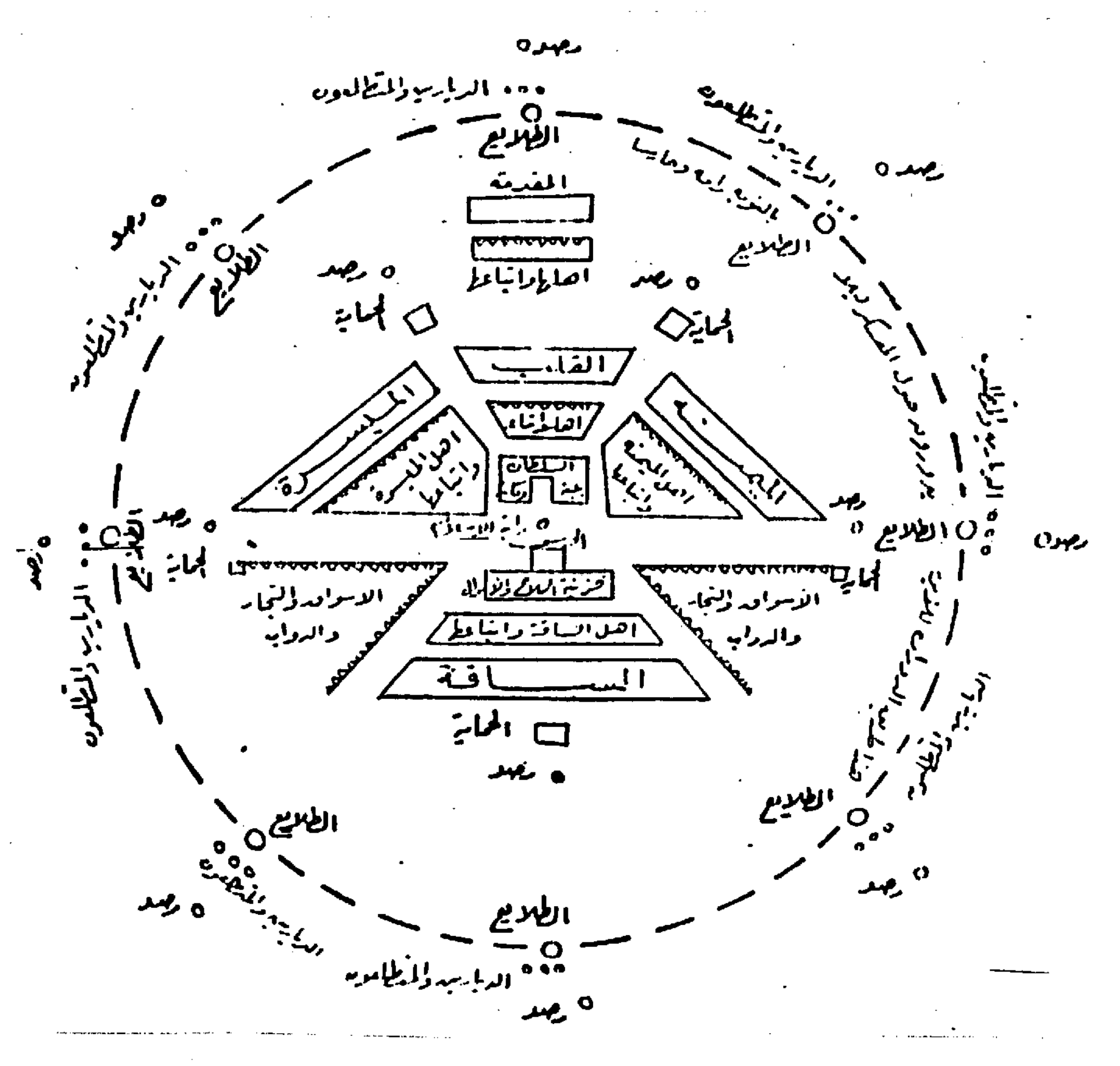
(١) - جيش حماة .

(٢) - القوات المصرية .

(٣) - خيمة السلطان الأشرف

نقلاً عن كتاب : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية

لمؤلفه : د . محمود غنيم



صورة المعسكر الاسلامي

عن كتاب فهرسة الكتب

شجرة الأسرة التقوية الأيوبية
التي حكمت في حماة

المظفر الأول تقي الدين عمر

(٥٧٤هـ/١١٧٨م - ٥٨٧هـ/١١٩١م)

المنصور الأول محمد

(٥٨٧هـ/١١٩١م - ٦١٧هـ/١٢٢١م)

الناصر قلج أرسلان

(٦١٧هـ/١٢٢١م - ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

المظفر الثاني محمد

(٦٢٦هـ/١٢٢٩م - ٦٤٢هـ/١٢٤٤م)

المنصور الثاني محمد

(٦٤٢هـ/١٢٤٤م - ٦٨٣هـ/١٢٨٥م)

المظفر الثالث محمود

(٦٨٣هـ/١٢٨٥م - ٦٩٨هـ/١٢٩٩م)

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع | الصفحة